بيزنطة

بين الفكر والدين والسياسة

دكتور رأفت عبد الحميد

الطبعة الأولى

١٩٩٧



عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

٦ شارع يوسف فهمي – اسباتس – الهرم – ج.م.ع – تليفون : ٣٨٥١٢٧٦

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

6, Yousef Fahmy St., Spates - Elharam - A.R.E. Tel : 3851276

المحتـــوى

صفحة



بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة الكتاب

منذ سنوات طوال .. عرفتها ، فتسمرت عند بابها قدماى، وتعلق بديارها بصرى ، ووجدت نفسى بكل الوعى أسير دربها ، فلزمت مجلسها ، ودرت فى فلكها ، وأعددت عدتى لأكون واحدا من مريديها .

كان ذلك عندما وقعت عليها عيناى أول مرة ، هناك على شاطئ البحر .. تحنو عليه بكل الدلال .. فيطوقها بأذرع ثلاث وكأنه يدفع عنها غائلات الزمان ، ويصدَّ عنها كل باغ !

رأيتها محتشمة فى وقار .. متبرجة فى سفور ، تقية فى ورع .. لاهية فى فسوق ، جادة حريصة .. عابثة متلافة، هادئة رزينة .. ثائرة غاضبة ، واسعة الثراء تبسط يديها كل البسط فتأتلف بأموالها قلوب كل من حواليها ، ثم هى تقبضها ممسكة لا عن تقتير .. بل من إقلال ، متعالية متعجرفة .. متبسطة متأنقة ، قوية قادرة .. هادئة مستكينة ، لا عن تواضع .. بل من انكسار !!

تلكم هى بيزنطة ...

فليس من الصعب على الباحث المدقق فى التاريخ البيزنطى عندما يلج أى باب من أبواب العالم ذاك ، أن يجد بيزنطة وقد تمثلت فيها كل هذه الجوانب مجتمعة ، منذ رفع قسطنطين القواعد من العاصمة الجديدة للامبراطورية .. القسطنطينية .. فوق أطلال المدينة الإغريقية القديمة، بيزنطة ، فى ذلك الموقع الحصين الذى تحوطه المياه من جهات ثلاث ، بحر مرمرة والبسفور والقرن الذهبى، والذى كان سببا رئيسيا فى صمود الامبراطورية أمام الهجمات التى تعرضت لها من الشرق والغرب والشمال على امتداد تاريخها الطويل .

وكان هذا الموقع الجديد للعاصمة الامبراطورية فى قلب عالم اليونان، كفيلا بأن يجعل منها بوتقة تنصهر فيها إفرازات مجموعة من الحضارات التى شهدها حوض البحر المتوسط ، اليونان والرومان والشرق القديم ، مختلطة مع الديانة الجديدة القادمة من فلسطين ، المسيحية، لتخرج فى النهاية عالما رومانيا بلسان يونانى ومسيحية مفلسفة ، اصطلح على تسميته بـ «العالم البيزنطى» ، ومن ثم كان طبيعيا أن نرى فى «بيزنطة» ، المدينة والامبراطورية، كل هذه الجوانب الحضارية المتنافرة متناغمة فى نسق غريب عجيب يميز حضاره متميزة .

والدين فى بيزنطة يصبغها بصبغته ويشع فى كل جنب من جنباتها ، لا عن تدين يتمثل فى الحفاظ على الطقوس وأدائها ، وإقامة القداسات التى يمكن أن تصلى كل يوم فى كنيسة جديدة غير كنيسة الأمس على مدار السنة فى القسطنطينية وحدها ، بل عن اعتقاد حرصت الكنيسة على غرسه وسقياه ، يقوم على القول بأن السماء هى التى تدير حركة التاريخ الإنسانى ، وأن عجلته معلقة بإرادة الرب ومشيئته ، وأن الإرادة الإنسانية عند بنى البشر تابعة وليست نابعة . وإلى جانب هذا فى الشارع العام للحياة البيزنطية تقوم دور البغاء حيث يمارس الفجور تحت إشراف الحكومة ورعايتها ! ويخب الاكليروس فى أردية فضفاضة تنم عن قداسة ! وتدور المناقشات اللاهوتية فى جدل عميق عقيم حتى تغدو علما عليها، بينما تصدر القوانين تباعا تعالج الانهيار الأخلاقى وتحد من الفساد ، ويقوم استمرار صدورها دليلا على دوام بقائه .

وتحظى بيزنطة بحكومة مركزية صارمة ، وامبراطور هو «نائب المسيح» على الأرض ، وسيد الدنيا والدين فى دولته ، يعد أنموذجا يحتذى من جانب حكام الدول المجاورة خاصة فى منطقة البلقان وحوالى البحر الأسود ، وتزهو العاصمة بنفسها حتى تمسى لأعين مبعوثى هذه الدول «باريس» عصرها، فيتحولون بتأثير ما تقع عليه عيونهم إلى سفراء لـ «بيزنطة» فى بلادهم، وهى تغدق على هؤلاء تارة ، وتحرم أولئك تارات ، وتثير هذا القبيل وتقلبه على ذاك، ما دامت قواتها العسكرية ودبلوماسيتها الماهرة وخزانتها الملآنة قادرة على كل ذلك ، يكمل بعضها البعض فى نسق ينم عن استقرار سياسى على العرش ، وتفوق عسكرى عند الحدود ، وجهاز إدارى كفء فى الداخل ، ورخاء اقتصادى فى دولاب العمل تعبر عنه تجارة نشطة وعملة لها السيادة .

وبيزنطة المدينة تجسيد حى للإمبراطورية كلها، يؤمها القاصى والدانى وتختلط فيها الألسنة ، وتتعدد اللهجات ، وتضم أضداد الخلائق وتموج بشتى الفكر، وتتقارب المصالح وتتضارب الأهواء ، فتبدو المدينة فى كثير من الأحيان وكأنها فوق فوهة بركان ، وإن كان أهلوها جميعا سعداء بسمو مقام مدينتهم ورقى حضارتهم ، فالكل من حولهم يخطب ودهم ويشد إلى بلدهم الرحال، سعيا إلى علم ومعرفة ، أو بحثا عن رزق أو دنيا يصيبها .

ومع كل ذلك لم تكن بيزنطة عبر تاريخها الطويل نغما موسيقيا تنشد مع دقات طبوله ترانيم الانتصار ، فكم تعرضت لأزمات داخلية طاحنة ، وكوارث اقتصادية ، ومتاهات عقيدية، واضطرابات اجتماعية ، وكم عانت الكثير من العنت والضيق من جانب الفرس ،

والجرمان على اختلاف قبائلهم ، والزحوف التركية بكل مسمياتها ومشتقاتها ، والصقالبة والنورمان والصليبيين ، والمسلمين بتتابع دولهم ، وهى فى هذه الرحلة الطويلة تترك بصماتها الواضحة على كل هذه الشعوب ، تؤثر فيهم وتتأثر بهم ، وتعطيهم قبل أن تأخذ من عندهم ، فقد كانت سابقة عليهم معاصرة لهم .

وهذا الكتاب الذى بين أيدينا يضم ستة فصول ، أو إن شئت الدقة قل موضوعات ستة ، أمضيت فى كتابتها نيفا وعشرين عاما، وتمتزج فيها جوانب هذه الحياة فى بيزنطة فى الفكر والدين والسياسة، وحرصت قدر الطاقة أن استقى مادتى العلمية من أقلام كتاب «بيزنطة» ومؤرخيها مباشرة حتى تأتى صورة صادقة لذلك «العالم اليزنطى» الذى شغلت به مذ رأيت حاضرته قائمة هناك عند البسفور أول مرة .

رأفت عبد الحميد

١٩٩٧



الفصل الأول

الاضطهاد الرومانى للمسيحيين
بين الاعتقاد الكنسى والفكر السياسى



الاضطهاد الرومانى للمسيحيين
بين الاعتقاد الكنسى والفكر السياسى

أطلت شمس القرن الرابع الميلادى ، بوجه شاحب دامٍ ، إذ الإمبراطورية الرومانية تعانى تجدد أوجاع ذلك الصداع المستمر الذى يلازمها ، من جراء نزيف متقطع سببته جراحات العلاقات المتوترة بين الدولة والكنيسة لزمن مضى .

فقد أقدم الإمبراطور دقلديانوس Diocletianus فى عامى ٣٠٣ - ٣٠٤ على إصدار أربعة مراسيم ، كانت فى جملتها تعد ضربة موجعة فى حينها إلى الكنيسة المسيحية ، وتقضى بهدم الكنائس وإحراق الكتب المقدسة، وإيداع رجال الاكليروس السجون ، وعدم إطلاق سراحهم إلا بعد أن يقربوا للأرباب القرابين . وجاء المرسوم الرابع عاما ، يلزم كل رعايا الإمبراطورية بتقديم الأضحيات لالهة الرومان [١]. وكانت كنيسة نيقوميديا[٢] Nicomedia المطلة على القصر الإمبراطورى، أول ما امتدت إليه معاول الهرم[٣].

ولم تخف حدة الاضطهاد باعتزال دقلديانوس وزميله ماكسيميانوس Maximianus العرش طواعية فى عام ٣٠٥ ، بل ازداد وقعها على يد قيصره جاليريوس Galerius الذى ارتقى الآن إلى مرتبة الأوغسطسية Augustus، وماكسيمين دايا Maximinus Daia الذى اختير قيصرا لجاليريوس [٤]. حتى إذا كان عام ٣١٣ بدأت غمة الاضطهاد تنقشع تدريجيا

١- LACT . mort. pers . XIII ; EUSEB . hist. eccl . VIII 2 .

٢- مدينة فى آسيا الصغرى ، اتخذها دقلديانوس عاصمة للإمبراطورية .

٣- LACT . mort . pers . XII .

٤- كان الإمبراطور دقلديانوس قد أقدم فى عام ٢٨٦ بعد اعتلائه العرش بعامين، على اختيار شريك له فى حكم الإمبراطورية هو ماكسيميان، وجعله حاكما على النصف الغربى، وحمل كل منهما لقب «أوغسطس». وفى عام ٢٩٣ قرر تعيين مساعد لكل منهما، فاختار جاليريوس إلى جواره ، وقسطنطيوس ليلحق بأوغسطس الغرب، وخلع على كل منهما لقب قيصر. وعرف هذا النظام باسم الحكومة الرباعية: Tetrarchia=

بفعل السياسة الجديدة التى اتبعها العاهلان الرومانيان ، قسطنطين Constantinus وليكينيوس Licinius . ولم يشعر المسيحيون بالأمان - ولو إلى حين- إلا بعد أن أصبح أول الرجلين الأخيرين إمبراطورا فردا بلا منازع فى سنة ٣٢٣ .

وكانت هذه السنوات العشر العجاف (٣٠٣-٣١٣) كفيلة بأن تلهب لدى أدباء المسيحية ومؤرخيها ، مشاعر الكراهية الدفينة تجاه الحكومة الرومانية ، وترفع عندهم فى الوقت نفسه من قدر هؤلاء الذين قدموا أرواحهم فداء لعقيدتهم وعصيانا للأوامر الإمبراطورية ، فأدخلوا فى عداد الشهداء ، ووصمت هذه السنوات بـ «عصر الاضطهاد الأعظم» و «عصر الشهداء» واتخذت الكنيسة المصرية - بصفة خاصة- من سنة اعتلاء دقلديانوس العرش (٢٨٤) بداية لتقويم مستقل جعلته تاريخا يخصها .

وقد صيغت حول هذه الأحداث ، وما كان قد سبقها على عهود نفر من أباطرة الرومان، عديد من الروايات ، وكثرت الأقاويل ، حتى اختلطت الحقيقة بالخيال ، والتاريخ بالأسطورة ، وضاعت الحقيقة أو كادت وسط تيار الحماسة الدينية الجارفة عند هؤلاء الكتاب ، رغم ما فى بعضها من جوانب الصدق !

ها هو البلاغى الأفريقى الشهير لاكتانتيوس Lactantius الذى عايش هذه الأحداث ، يضع رسالته الذائعة «عن موت المضطهدين» De mortibus persecutorum تناول فيها «الكيفية» التى مات بها أولئك الأباطرة الرومان الذين مارسوا سياسة الاضطهاد ضد المسيحيين ، متخذا سبيله من عهد الإمبراطور نيرون Nero (٥٤-٦٨) فى القرن الأول الميلادى، وصولا إلى سنيه ، فتركت رسالته على هذا النحو انطباعا لدى الجميع ، أن الاضطهاد قد امتد إلى قرنين ونصف من الزمان ! وأن أباطرة روما قد جعلوا إيقاع الأذى بالكنيسة وشعبها مبلغ همهم وغاية سعيهم !!

وفى صورة تراجيدية ، مفعمة بالنهايات المأساوية دائما، يحدثنا لاكتانتيوس عن كل الأباطرة الرومان الذين لقوا حتفهم رغم أنوفهم ، أعنى أولئك الذين ودعوا عروشهم ودنياهم

= وكان الهدف منه ضمان انتقال السلطة بصورة تلقائية من الأوغسطس إلى القيصر دون تدخل من الجيش الذى أفسد الحياة السياسية فى روما على امتداد نصف قرن (٢٣٥-٢٨٤) . للوقوف على تفاصيل هذا النظام ومدى نجاحه ، راجع كتابنا : الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى، الفصلين الأول والثانى .

كارهين بميتة غير طبيعية ، معللا ذلك بانتقام السماء ، لما أنزله هؤلاء بالمسيحيين من ضرار . والحقيقة أن كاتبنا كان متسقا مع نفسه من البداية ، كما يقرر بقلمه فى افتتاحية رسالته، «لقد قدر الله هلاك المضطهدين ليكونوا لمن خلفهم آية، ويعلم الجميع إنما هو إله واحد ؛ من ثم فإن هدفى أن أثبت كتابة كيف كانت نهايتهم، ليقف البعيدون عن مسرح الأحداث ، والذين هم من بعدنا فى الغيب آتون، على أى جنب كانت مصارعهم» [٥]. ولذا فهو لم يحد عن هذا الخط فى رسالته ، فاحتلت الأحداث التاريخية الجسام التى تعرضت لها الإمبراطورية، حتى على عهود هؤلاء الذين عدّهم «مضطهدين» ، مساحات هامشية ؛ وفى إطار أنها الأداة الطبيعية لعدالة السماء، بينما أفاض وأطنب فيما حل بـ «المضطهدين» وأجسادهم من تشويه وتمثيل .

وإذا كنا نصدق لاكتانتيوس فيما يرويه عن «ميتة» معاصريه، جاليريوس وماكسنتيوس Maxentius وماكسيمين دايا ، لقربه من هذه الأحداث ومعايشته إياها ، إذ كان معلما للبيان فى نيقوميديا ، العاصمة الإمبراطورية فى الشرق آنذاك ، فكيف تأتى له أن يروى هذه التفاصيل الدقيقة عن «الأشلاء المبعثرة والأطراف المقطوعة والرءوس المتطايرة ، والأنوف المجدوعة والآذان المبتورة والأمعاء المتهتكة» لأباطرة روما الذين «صنعوا الشر فى عينى الرب» ، والذين سبقوه بقرنين من الزمان ؟! رغم أنه لايذكر لنا مصدرا واحدا اعتمد عليه فى كتابة رسالته هذه . لاشك إذن أن صنعته البلاغية وتضلعه من البيان ، أوحيا إليه بالقياس ، لينسج من خيوط واقع يعيشه ، وإيمان بصدق دعواه ، قصصه عن السابقين. وهذه الحقيقة أدركها أحد الباحثين المحدثين[٦] الذين توفروا على دراسة رسالة لاكتانتيوس «عن موت المضطهدين» وكتب على ذلك تعليقا دقيقا يقول فيه : «إن الصورة التى يرسمها لاكتانتيوس لـ «موت» أولئك الأباطرة ، تشير إلى ما كان يؤمن به المسيحيون ويتمنونه ، من أن هؤلاء لابد أن يموتوا على هذا النحو بالذات دون غيره» .

ولم يكن ما كتبه يوسيبيوس Eusebius أسقف قيسارية Caesarea فلسطين ، وشيخ مؤرخى الكنيسة فى القرن الرابع، بأقل مما ذكره معاصره لاكتانتيوس، وإن كان قد جاء منثورا

٥- LACT . mort. pers . I .

٦- Christenson , Lactantius the historian , pp. 68-71 .

على صفحات مؤلفه «تاريخ الكنيسة » Historia Ecclesiastica . لكن ذلك لم يمنعه من أن يخص «شهداء فلسطين» ، باعتباره أحد بنيها ، بفصل خاص فى كتابه ذلك. غير أن يوساب لم يسلك نفس السبيل الذى سلكه صاحبه ، من الحديث فقط عن «كيفية» موت المضطهدين ، لكنه تحدث عن العلاقة بين الدولة والكنيسة ، تمشيا مع نهجه الذى اختطه لنفسه فى كتابه هذا ، وعزا سياسة الأباطرة التعسفية تجاه الكنيسة ، إلى العداء الكامن لديهم وكراهيتهم للمسيحية. ولاشك أنه مما يحسب ليوسيبيوس اعتماده فى مؤلفه على كثير من الكتابات السابقة عليه، وذكره لهذه المصادر ، وهى التى توفرت لديه من مكتبة أستاذه بامفيليوس Pamphilius حتى أنه لينسب إليه أحيانا فيدعى يوسيبيوس البامفيلى .

وقد حظيت فترة «الاضطهاد الأعظم» هذه لدى يوسيبيوس بنصيب وافر من التفصيل ، باعتباره شاهد عيان لما جرى ، خاصة وأنه كان يقيم وسط منطقة كانت تعد أكثر ولايات الإمبراطورية الرومانية ، بالإضافة إلى مصر، تعرضا للعذاب . لهذا لم يكن غريبا أن يوقف الكتابين الثامن والتاسع من مؤلفه هذا ، على وصف أشكال الاضطهاد ، وإيراد أسماء أولئك الذين «نالوا الشهادة من أجل الرب» من رجال الدين، أو لحقتهم يد العذاب .

ويبدو طبيعيا لمن يقرأ للبلاغى الأفريقى لاكتانتيوس ، وشيخ مؤرخى الكنيسة يوسيبيوس القيسارى، وأب الكنيسة اللاتينية فى القرن الرابع جيروم Hieronimus ومن قبلهم فى القرنين الثانى والثالث ، كلمنت Clement وأوريجن Origens السكندريين وترتوليان Ter-tullianus الأفريقى ، أن يخرج بانطباع واحد مفاده أن العلاقة بين الحكومة الرومانية والكنيسة المسيحية ، كانت تسير على وتيرة واحدة ، سداها الكراهية ولحمتها العداء الكامل والمقت من جانب الأباطرة لهذه الديانة الجديدة وأتباعها ، وأن مائتين وخمسين عاما ، عدا فترات متقطعات، قد انقضت ويد البطش والتنكيل تلاحق دون هوادة جماعة المسيحيين داخل الإمبراطورية ، لا لشئ إلا أنهم تحولوا عن ديانة أجدادهم الوثنية ودخلوا فى دعوة المسيح : فيوسيبيوس يستخدم عبارة واحدة على امتداد صفحات مؤلفه، يطلقها على أولئك الأباطرة المضطهدين ، وهى أنهم «أعداء الدين»[٧]. وليس هذا بمستغرب، فالذين سجلوا هذه الأحداث كلها ، كانوا فى جملتهم من رجال الكنيسة ، ولاشك يضيرهم ويثير حنقهم، ما يرونه يحل بجماعتهم من اضطهاد على يد أباطرة الوثن ! وعلى غرار كتاب الكنيسة الأول نهج من التابعين واللاحقين كثير .

٧- EUSEB . hist. eccl . II 25 ; III 27 ; VI 39 ; VIII 14 ; IX 11 .

فهذا هو المؤرخ الكنسى سوزومنوس فى القرن الخامس الميلادى، يحدثنا عن ليكينيوس ، الذى كان امبراطورا شريكا مع قسطنطين حتى عام ٣٢٣م، وأحد قطبى ميلانو عام ٣١٣ مع الإمبراطور هذا نفسه، ثم تخلى لأسباب سياسية عن سياسته التسامحية مع المسيحيين، ويلقى عليه باللائمة ويفرح بما حل به، فيقول : «من بين حقائق عديدة فإنه يظهر لى دائما أن التعاليم المسيحية تدعمها السماء ، وأن تقدمها وازدهارها تضمنه عناية الله؛ ذلك أنه ما أن اعتزم ليكينيوس العودة إلى ممارسة الاضطهاد ضد المسيحيين ، حتى اندلعت الحرب (يعنى بينه وبين قسطنطين) ، ولقى الهزيمة فى البر والبحر، وكان عاقبة أمره خسرا» !! هذا على الرغم مما هو ثابت تاريخيا من أن قسطنطين ، صهر ليكينيوس ، وصديقه اللدود ، كان هو البادئ بالعدوان، لطمعه فى ضم ممتلكات شريكه ، أى النصف الشرقى من الإمبراطورية ، إلى سلطانه !!

لكن .. هل كانت الحكومة الرومانية صادرة حقا فى سياستها هذه تجاه المسيحيين ، عن شعور دينى جارف دفاعا عن عقيدة روما الوثنية ؟ وخوفا على هيبة الأرباب فى أعين عبادها ؟ رغم ما نعلمه من أن عدد المسيحيين كان حتى بدايات القرن الرابع الميلادى ، لايتجاوز عُشر سكان الإمبراطورية الرومانية ، ورغم أن الأرستقراطية الاجتماعية والعسكرية والسناتو كانت كلها من الوثنيين؟! وليس أدل على ذلك من الرسائل المتبادلة بين كل من أمبروز Ambrosius أسقف مدينة ميلانو فى أخريات القرن الرابع ، وسيماخوس Symmachus الخطيب الرومانى الأشهر آنذاك ، محافظ مدينة روما ، وزعيم الوثنيين أعضاء مجلس السناتو فى العاصمة الإمبراطورية القديمة من ناحية والإمبراطور فالنتينيان الثانى Valentinianus II من الناحية الأخرى [٨]. وما حدث فى الأسكندرية بين الفيلسوف الوثنى السكندرى أوليمبيوس Olympius وأسقف المدينة ثيوفيلوس Theophilus وما يرويه المؤرخون الكنسيون عن أحداث سوريا فى تلك الفترة . حيث يخبرنا سوزومنوس ، بعد حديثه عن هدم معبد السيرابيوم فى الأسكندرية ، عن تلك الأحداث ، فيقول بالحرف الواحد ، وهو واحد من أهل هذه المنطقة «لايزال هناك وثنيون عديدون فى مدن كثيرة ، يدافعون بكل حماسة وعناد عن معابدهم ، فى بعض مدن «العربية» ، وغزة، ورفح ، وفينيقيا ، وأفاميا بالقرب من أنطاكية»[٩].

٨- AMB . epp . XVII, XXI ; SYMM . mem . (in Nicene and post Nicene Fathers , X pp. 411-429 .

٩- SOZOM. hist . eccl. VII , 15; SOCRAT . hist . eccl . V , 16 ; THEOD. hist . eccl . V, 21 .

وللإجابة على مثل هذه التساؤلات ، يجدر بنا أن نرتد على آثار هؤلاء القوم قصصا، لنقف على حقيقة وطبيعة العلاقة بين الدولة والكنيسة ، وكيف تطورت الأمور بينهما إلى هذا الحد الذى رأيناه فى أولى سنى القرن الرابع الميلادى.

ها هى وثيقة تاريخية هامة ، تخلفت لدينا من عام ١١٢ للميلاد، تكشف بجلاء موقف الدولة الرومانية من جماعة المسيحيين حتى هذا التاريخ، أى بدايات القرن الثانى، ونعنى بها تلك الرسالة التى كتبها الأديب الشهير .. بلينيوس Plinius الأصغر حاكم بيثينيا Bithunia فى آسيا الصغرى (تركيا حاليا) ، وبعث بها إلى الإمبراطور تراجان Traianus (٩٨-١١٧) يسأله الرأى فى كيفية معاملة المسيحيين . لأنه على حد قوله . لم يشهد من قبل على الإطلاق أى محاكمة تجرى لهم، ولايعرف التقاليد المتبعة فى إجراءات التحقيق أو حد العقوبات ، ولامدى التفرقة فى العقوبة بين الشيخ والصبى، والضعيف والقوى. ولاكيف يمكن التعامل مع أولئك الذين يبدون توبتهم والندامة، وأولاء الذين هم على عقيدتهم قائمون [١٠].

وعبارات بلينيوس هذه تميط اللثام عن أن عدد المسيحيين فى الإمبراطورية، بعد مضى قرن من الزمان على ظهور المسيحية ، لم يكن بالأمر الذى يشغل بال الإدارة الرومانية بشأن معاملة هذه الجماعة من رعايا الإمبراطورية . بل إن عبارات بلينيوس ، وهو من هو ، شهرة وذيوع صيت تؤكد أن القول بوجود اضطهاد مبكر لجماعة المسيحيين فى الامبراطورية آنذاك يعد ضربا من التعسف فى تناول الوقائع التاريخية .

ويعرض بلينيوس بعد ذلك على الإمبراطور فى رسالته ، الأسلوب الذى اتبعه ، اجتهاداً ، فى معاملة المسيحيين ، فيقول : «... لقد كنت أسألهم هل هم مسيحيون ؟ فإن اعترفوا ، أعدت السؤال عليهم ثانية وثالثة مع تهديبهم فى الوقت نفسه بأنهم سوف يلقون حتفهم إذا أصروا على قولهم ، فإن فعلوا أمرت بإعدامهم »[١١]. ثم لايلبث بلينيوس أن يطلب إلى الإمبراطور النصح فى هذا الأمر. وقد بعث تراجان برده إلى بلينيوس ، يمتدح تصرفه ويخلع عليه صفات الحكمة والرزانة، ويأمره بعدم الجد فى أثر المسيحيين بغية إيقاع الأذى بهم ، وعدم الإصغاء لاتهامات مجهولة ضدهم دون تحقيق ، «فإن وجدوا واتهموا وأدينوا ..

١٠- PLIN . epp . X, epistola ad Traianum , XCVI .

١١- Id .

عوقبوا ، ومن أظهر منهم الاحترام لأربابنا .. بُرِّئوا » [١٢]. وعلى هذا النحو يبدو أن تعليمات الإمبراطور إلى نائبه - وتلك كانت السياسة العامة للدولة- كانت واضحة ومحددة بعدم شغل نفسه وأجهزة الأمن فى ولايته بملاحقة من يدينون بهذه العقيدة الجديدة ، إذ لاتمثل خطورة معينة للأمن العام أو السياسة الداخلية . بل وتفصح أيضا عن أنه ربما قد يكون حلا للبعض أن يتقدم بشكاوى كيدية لا أساس لها من الصحة، ولأمور لا علاقة لها بمسألة العقيدة، ومن هنا كان إصرار الإمبراطور على ضرورة التأكد من صحة الاتهام وجديته .

على أن أهم ما جاء فى رسالة الإمبراطور، تعقيبه على سياسة بلينيوس، بقوله ، «... إذ ليس هناك نظام ثابت ولا قاعدة عامة يمكن اتباعها فى مثل هذه الأمور» [١٣]. وهذه العبارة التى جرى بها قلم الامبراطور، تدل صراحة ودون مواربة على سياسة روما تجاه رعاياها المسيحيين، فلم يكن هناك حتى هذا التاريخ ، بل وإلى منتصف القرن الثالث من بعد، إتجاه عام لدى الدولة باضطهاد المسيحيين بسبب عقيدتهم ، كما يحلو لمؤرخى الكنيسة ومن ينقلون عنهم دون تمحيص ، أن يؤكدوا دائما. ويدعم هذا الرأى الأخير لدينا، رسالة بعث بها الإمبراطور هادريان Hadrianus (١١٧-١٣٨) إلى مينوكيوس الفوندى Minicius Fundanus أحد عماله فى آسيا الصغرى ، يأمره فيها بعدم معاقبة المسيحيين لأجل مسيحيتهم ، بل إذا ما أقدموا فقط على ارتكاب جرائم تعد خروجا على القانون [١٤]. ولعل هذا يزيل تماما ما قد يكون علق بالذهن من رسالة بلينيوس عن معاقبة المسيحيين بالإعدام إذا ما أقروا بعقيدتهم : وكان هذا بينا فى رد الإمبراطور تراجان بقوله ، فإن «اظهروا احترامهم للأرباب برئوا» ، ولم تكن مسألة الاحترام هنا تعنى العبادة ، بقدر ما كانت تعنى عدم التسفيه واظهار الإزدراء والاحتقار لتلك الأرباب . ومن ثم فإن ما أقدم عليه بلينى لم يكن إلا استجابة للشعور العام لدى جموع الرومان ، التى كانت ترى فى المسيحيين جماعة متعالية عن المجتمع، كما سيجئ بيانه بعد قليل .

انقضت إذن فترة ليست بالقصيرة قبل أن تلفت هذه الجماعة الجديدة نظر الأباطرة الرومان ، باعتبارها تسلك سلوكا مغايرا لتقاليد المجتمع الرومانى، هذا باستثناء ما يرويه المؤرخون عما

١٢- Ibid . ep . ad Plin . XCVII .

١٣- Id .

١٤- EUSEB . hist. eccl . IV , 9 .

وقع فى عهدى نيرون Nero (٥٤-٦٨) . ودوميتيانوس Domitianus (٨١-٩٦) .والذى لم يجر لأسباب أمنية تتعلق بالصالح العام للبلاد ، بل إرضاءً لهوى شخصى وقسوة فرد واحد، كما يروى تاكيتوس وسويتونيوس[١٥]. وكانت الحكومة الرومانية خلال هذه الفترة تصنف المسيحيين على أنهم من بين الطوائف اليهودية المنشقة [١٦]، مما عاد بالنفع على المسيحيين فى إطار الاعتراف الرسمى الذى كان اليهود قد حصلوا عليه منذ زمن مبكر ، بحقهم فى ممارسة طقوسهم ، إلى أن أصبح من الصعب التعايش بين الطائفتين ، وخاصة بعد انتصار تيار التجديد الذى كان بولس قد وضع منذ القرن الأول قواعده ، وانحسار ثم اختفاء التيار السلفى الذى كان يرى التمسك بالمسيحية اليهودية . من هنا أمسى المسيحيون فى نظر الرومان منشقين مبتدعين .

هكذا نعم المسيحيون فى أول الأمر ، قرابة قرنين من الزمان ، بالحرية العقيدية ، ويؤكد ذلك بولس جونسون Paul Johnson بقوله ، «إن الانطباع الذى ساد بأن المسيحيين كانوا يعيشون ويمارسون طقوسهم فى أقبية تحت الأرض ، ليس إلا مجرد زيف محض . لقد كانت لهم كنائسهم كما كان لليهود معابدهم ، ولم يمارسوا طقوسهم بصورة سرية »[١٧]. وقد أفصح

١٥- TACIT . annales XV, 44 ; SUET. vita Neronia , XVI, cited in (Documents of the Christian church , selected by H. Bettenson , pp. 1-3 .

ويذكر McGiffert فى تعليقه على ما كتبه يوسيبيوس حول هذا الاضطهاد بأنه يعود إلى عداء شخصى وعوامل نفسيه بحتة لدى الإمبراطورين . راجع EUSEB . hist. eccl . p. 147 n.1 col B ومن المعروف أن كلا من بطرس وبولس قد نالا الشهادة على عهد نيرون عام ٦٤ للميلاد. وإن كان من الأهمية بمكان أن لا ننساق وراء المبالغة فى الأعداد التى ذهبت ضحية اضطهاد نيرون ، كما جرت العادة عند تناول هذه الفترة بالدراسة ، فحتى القرن الرابع الميلادى، لم يكن عدد المسيحيين يتجاوز عُشر سكان الإمبراطورية ، بالإضافة إلى أن بطرس وبولس قدما إلى روما فى عهد نيرون نفسه ، بل إن بولس لم يأتها قبل عام ٥٩ . فكيف يمكن قبول روايات هذه الأعداد على علاتها ؟! . وراجع أيضا :

LACT . mort . pers . II 5-9 ; Bokenkotter , A concise history of the Catholic Church, p. 31.

١٦- Painter , A history of the Middle Ages , p. 13 .

١٧- Johnson , A history of christianity , p. 70 .

وقارن Bokenkotter, Catholic church, p. 47

ترتوليان نفسه عن ذلك بقوله : «مع كل خطوة نخطوها ، مع كل حركة، في غدونا ورواحنا، عندما نرتدي ملابسنا أو ننتعل أحذيتنا ، عندما نستحم ، عندما نجلس إلى المنضدة ، عندما نضئ الشموع، في أي أمر من أمور حياتنا اليومية، نرسم على جبهتنا علامة الصليب»[١٨].

وكان حصول المسيحيين على هذا القدر من الحرية فى ممارسة طقوس عبادتهم وبناء كنائسهم، شأن غيرهم من رعايا الإمبراطورية ، متمشيا مع مبدأ التسامح الذى قامت عليه الوثنية الرومانية ، التى احترمت ديانات شعوبها ، شريطة ألا تتعارض هذه العبادات مع التوقير اللازم لآلهة الرومان ، فقد كان ذلك جزءا أساسيا من السياسة العامة التى رسمها شيوخ روما وحكماء إمبراطوريتها ، حتى منذ عصرها الجمهورى ، وذلك بعدم التدخل فيما يخص حياة الناس وخصوصياتهم فى الولايات التابعة لروما، والاكتفاء من هذه الإمبراطورية العريضة التى تضم أضداد الخلائق وشتى الفكر وعديد اللهجات ومختلف العبادات ، بالولاء والخراج ، نقدا أو عينا.

كانت الوثنية الرومانية إذن ديانة تسامحية ، ولذا فلاعجب أن نجد بعض أرباب الولايات الشرقية قائمة فى روما، بل ويعلو قدرها فى بعض الأحيان تبعا لهوى هذا الإمبراطور أو ذاك، أو حتى القناصل من قبل ، مثل إيزيس المصرية ، وكيبيلى Cybele الأم الفريجية العظيمة Magna Mater ومثرا Mithras الفارسى[١٩]. بل إن المسيح قد وجد لنفسه مكانا بين هذه الآلهة جميعها ، باعتباره واحدا من أرباب عدد من أهالى الولايات الشرقية ونفر من أهالى النصف الغربى .

لم يكن وجود مثل هذه الأرباب الشرقية ، الواردة إلى البانثيون الرومانى ، حتى تلك التى تعبد عند أعداء الرومان ، أعنى مثرا الفارسى ، يقلق فى قليل أو كثير بال أصحاب السلطة فى الإمبراطورية ، من أرستقراطية السناتو والنبلاء ؛ ذلك أن احترامهم لآلهتهم الرومانية ، خاصة فى القرنين الثالث والرابع ، ما كان يصدر عن اعتقاد دينى وإيمان يقينى ، بقدر ما كان ارتباطا عاطفيا تاريخيا بهذه الآلهة ، لدى فئة أرضعت منذ الصغر لبان التراث الكلاسيكى، وربطت بين هذه الأرباب ومجد الآباء وما تحقق لروما من فخار فى ظل هاتيك الآلهة . ولنقرأ معا ما كتبه سيماخوس ، خطيب روما المفوه فى أخريات القرن الرابع ، إلى الإمبراطور

١٨- نقلا عن Johnson , Christianity , p. 70 .

١٩- Bokenkotter , Catholic church, pp . 34-47 .

فالنتينيان الثانى ، وهو يحاوره من أجل إعادة مذبح النصر إلى مبنى السناتو فى روما ، يقول: « ... أى شئ أفضل من أن نحمى تراث الأسلاف وحقوق وقدر بلدنا ، الذى يعد فوق الجميع ... هب أن روما جاءتك تسعى وراحت تقول لك .. أيها الأمير العظيم .. إن آباءك قد حفظوا على دهرى ، وقدموا إلى طقوس التقوى، فلتدعنى إذن أحيا بشعائر الآباء حتى لا أشعر بالندم عليهم والأسى. دعنى أحيا حسب سننى ، فهذه إرادتى. هذه المقدسات هى التى ردت هانيبال عن أسوارى، والسينونيين عن الكابيتول محرابى .. أترانى كنت أدخر هذا لآلام من أجله فى خريف عمرى ؟! »[٢٠].

وإذا كان هذا هو حال الأرستقراطية الاجتماعية من أصحاب السلطة والنفوذ فى روما ، فإن مثقفى هذه الطبقة قد ولوا الأرباب دبرهم، متحرفين إلى شئ آخر يخرجهم من حالة القلق التى انتابت المجتمع الرومانى منذ أخريات القرن الثانى الميلادى، وعجزت الآلهة عن أن تجد لهم منها مخرجا ، فوجدوا فى الفلسفة سلواهم والعزاء، خاصة الرواقية بما تنطوى عليه من دعوة للفضيلة ، بسمو الروح وقهر الجسد ، حتى أن أشهر رجالاتها إبيكتاتوس Epictetus تمكن من أن يقنع الإمبراطور تراجان بالانضمام إلى حلقة سامعيه ، بينما كان الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١-- ١٨٠) . Marcus Aurelius من أعلام الرواقية .

وخلال القرنين الأولين للميلاد وحتى منتصف القرن الثالث ، ميز المسيحيون أنفسهم فى ظل هذه السياسة التسامحية للوثنية الرومانية ، بمجموعة من أنماط السلوك الاجتماعى ، جلبت عليهم فى الوقت نفسه كراهية الكثيرين من أفراد المجتمع الرومانى، وعزوفهم عن اتباع عقيدتهم؛ فقد أعرضوا عن مشاركة الرومان الوثنيين احتفالاتهم العامة وأعيادهم ، وأبدوا امتعاضهم إزاء هذه الألعاب التى تجرى فى الهيبدروم ، الذى كان يعد المتنفس الرياضى والسياسى فى آن واحد للرومان آنذاك ، وأنفوا من تناول الطعام فى المطاعم العامة بحجة أن اللحوم التى تقدم فيها مقربة أصلا للأوثان [٢١]، ورفضوا أن يزوجوا بناتهم لغير المسيحيين أو يقترنوا هم بالوثنيات ، مما عد فى نظر الجموع تعاليا على المجتمع الذى يعيشون فيه .

٢٠- SYMM. mem . 4 , 10 .

٢١- Jones, Constantine and the Conversion of Europe, p. 41 .

وقد جاء هذا كله نتيجة لما كان يؤمن به المسيحيون ، بفعل تعاليم آباء الكنيسة ، من أن الحياة الأرضية أمست غير ذات بال، وأنهم فيها غرباء ، موطنهم الأصلي هو السماء ، إنهم مواطنون في مملكة الله الآتية [٢٢]. وكانت الكنيسة تعتقد بصدق فى قرب مجئ ملكوت السماوات ، وأن الفترة ما بين مجئ المسيح ويوم الدينونة لن تدوم طويلا ، ومن ثم فلا يجب الاهتمام بهذا «العصر الوسيط» الواقع بين «عهد قديم» سبق منذ آدم إلى قدوم المسيح ، وعهد آت باق يبدأ قريبا بقيام الساعة ، ومن ثم يجب التركيز بكل الجهد على الاستعداد للحياة الآخرة . من هنا كان سلوك جماعة المسيحيين متناغما مع التعاليم التى أذاعها آباء الكنيسة الأول عن فساد الحياة الدنيا وغوايتها ووجوب الزهد فيها اقتداء بالمسيح ، وأن من اتبع هواه وأطلق لنفسه وشهواته العنان فى هذه الدنيا ، فقد ضل وغوى ، وأما من آمن واتقى، وسار فى طريق المسيح وتحمل الآلام واحتقر الحياة الدنيا ، فسوف يلقى جزاء الحسنى ، بأن يكون رفيق المسيح فى السماوات العلا . وهكذا .. فإن هذه المحاولة التى يقوم بها رجال الكنيسة ، لإقامة مجتمع من الأخيار، والدفاع العنيف عن حياة التبتل ، كانت تجرى- كما يقول المؤرخ Boak فى تيار مخالف لما كانت عليه حال المجتمع الرومانى فى تلك الأيام[٢٣].

ولم يقف الأمر بالمسيحيين عند هذا الحد، بل تعداه إلى رفض أثريائهم قبول تولى المناصب العامة فى الدولة[٢٤] وهى التى كانت تعد شرفا والتزاما فى وقت واحد، وامتناعهم فى بادئ الأمر عن الانخراط فى سلك الخدمة العسكرية دفاعا عن الإمبراطورية [٢٥]، فهم بقبولهم للتجنيد والحرب تحت شعار النسر الرومانى ، يشتركون تلقائيا حسب اعتقادهم فى العبادات الوثنية . ولما كانوا يعتبرون أنفسهم جنود الرب ، فلم يكونوا على استعداد لإعطاء ولائهم لقوة أخرى ، كانوا فى كثير من الأحيان يساوون بينها وبين الشيطان [٢٦]. بل إنهم كثيرا ما راحوا يظهرون الشماتة إزاء ما يحل بالإمبراطورية من ضرار على أيدى أعدائها من

٢٢- Latourette , Expansion of Christianity, I , p. 128 .

٢٣- Boak , A history of Rome , p. 395 .

٢٤- Schaff , History of the Christian church , II , p. 43 .

٢٥- Painter, Middle Ages, p. 13 .

٢٦- Jones, Constantine , p. 41 .

الفرس أو الجرمان، ويذيعون تنبؤات صريحة عن الكوارث والمحن التى تنتظر الإمبراطورية ، مستقين إياها مما جاء فى الكتاب المقدس عن تدمير بابل وعودة المسيح . وإن كان المسيحيون قد أقدموا بعد ذلك فى القرن الثالث على التخلى عن موقفهم هذا، وقبل أثرياؤهم تولى الوظائف العامة فى الدولة ، بل وأصبح منهم من وصل إلى مناصب حكام الولايات [٢٧]، وحتى فى البلاط الإمبراطورى[٢٨]. وامتد ذلك إلى قبولهم الخدمة العسكرية فى الجيش الرومانى[٢٩].

ويمكن القول على هذا النحو ، ورغم هذه الأنماط السلوكية ومدى انعكاساتها على المجتمع الرومانى، إن الأمور سارت سيرا طبيعيا بين المسيحيين والحكومة الرومانية ، لايعكر صفوها إلا بعض حادثات متفردات منفصلات عن بعضها البعض فى ولايات الإمبراطورية ، خاصة الشرقية منها، والتى تخضع لاعتبارات محلية بحتة ، كما علمنا من الرسائل المتبادلة بين بلينى وتراجان ، وبين هادريان ومينوكيوس الفوندى. لم يكن هناك إذن اضطهاد للمسيحيين بالمعنى الشائع بسبب عقيدتهم خلال القرنين الأولين للميلاد، وحتى منتصف القرن الثالث، كما ضخمتها الأساطير المتأخرة على حد تعبير المؤرخ نورمان كانتور [٣٠]. بل ترك لحكام الولايات أن يعالجوا هذه المسألة حسب مقتضى الحال داخل ولاياتهم ، إلى أن كان منتصف القرن الثالث الميلادى عندما أقدم الإمبراطور دكيوس Decius (٢٤٩-٢٥١) على إصدار مرسوم عام يقضى بأن يقوم كل رعايا الإمبراطورية بإظهار الاحترام لأرباب الرومان ، بتقديم القرابين استرضاء لها ، حتى تنقشع الغمة التى تتعرض لها الدولة من جراء هجمات العناصر الجرمانية ، ممثلة فى الفرنجة والألمانى على الراين ، والقوط على الدانوب وشبه جزيرة البلقان وآسيا الصغرى. وقد تفاوتت مواقف المسيحيين إزاء هذا المرسوم ، فبينما آثر الأثرياء وأصحاب المناصب منهم السلامة، خوفا على ثرواتهم التى كونوها، ومناصبهم التى احتلوها إبان عهود التسامح السابقة، فقبلوا تنفيذ الأوامر الإمبراطورية [٣١]، آثر آخرون الاختفاء أو

٢٧- EUSEB . hist. eccl . VIII , I .

٢٨- Ibid . VI , 28 .

٢٩- Ibid, VIII, I ; LACT. mort . pers . X .

٣٠- كانتور ، التاريخ الوسيط ، جـ١ ص٦٠ ، وراجع حاشية ٥١ من البحث .

٣١- Lebretson & Zeiller, History of the primitive Church, II, p. 753 ; Jones, Constantine p. 44 .

الفرار إلى الصحراء مشكلين بذلك النواة الأولى للحركة الرهبانية خاصة فى مصر [٣٢]. هذا على حين تحدى بعض ثالث من رجال الدين والجموع المرسوم الإمبراطوري ، فنالتهم يد العذاب.

هكذا .. وفى عام ٢٥٠ للميلاد ، صدر أول قرار رسمى من الحكومة الرومانية، يجعل المسيحيين تحت طائلة الاضطهاد ، إذا امتنعوا عن تنفيذه، وكان دكيوس هو أول الأباطرة الذين جعلوا الاضطهاد عاما فى الإمبراطورية. ولم تنته الأزمة بموته فى العام التالى، بل سار بها فاليريان Valerianus خطوات بعيدة سنة ٢٥٧ . لكن الاضطهاد سرعان ما توقف بسبب مرسوم التسامح العام الذى أصدره الإمبراطور جاللينوس Gallienus فى سنة ٢٦١ ، واعترف فيه بحق المسيحيين فى ممارسة طقوسهم وبناء كنائسهم ورد ما صودر من أملاكهم [٣٣]. ونعم المسيحيون من جراء هذا المرسوم ، وعلى امتداد نيف وأربعين سنة ، بحالة من الهدوء والحرية اعترف بها شيخ مؤرخى الكنيسة ، يوساب القيسارى فى مقدمة كتابه الثامن من مؤلفه، إلى أن كانت السنة التاسعة عشرة من حكم دقلديانوس (عام ٣٠٣) عندما عادت من جديد

٣٢- تعد مصر رائدة المسيحية فى عالم الرهبانية ، ساعدها على ذلك طبيعتها الجغرافية ، بالصحراء الواسعة المترامية على ضفتى نهر النيل ، حيث وجد الفارون بدينهم إبان فترات الاضطهاد ، سواء فى العصر الوثنى ، أو فى العصر المسيحى، فى هذه البيد ملجأ وملاذا . وكان بولس أو سان بولا- كما يعرف- هو أول الرهبان المصريين ، والذى افتتح عالم الرهبانية وذلك على عهد دكيوس ، كما يخبرنا جيروم فى كتاب مختع عن حياته . على أن رائد الرهبانية الحق هو أنطونيوس ، الذى اعتزل دنيا الناس فى عام ٢٨٦ للميلاد ، وقد حدثنا عنه باستفاضة الأسقف السكندرى أثناسيوس ، فى كتاب وضعه عن حياة أنطونيوس ، وكان لذيوعه فى زمانه فضل انتشار الرهبانية خارج مصر . بينما كان الراهب المصرى باخوم هو أول من وضع نظم الرهبانية فى شكلها الجماعى أو الديرانى. لمزيد من التفاصيل عن ذلك ، راجع :-

HIER. Vita S . Pauli ; ATHANAS . Vita S. Antoni ; PALLAD. Historia Lausiaca , 32-34 et sqq; RUFIN . historia monachorum (Patrologia Latina XXI , 391-426) ; Waddell , the desert Fathers , p. 2 et sqq. ; Budge , stories of the Holy fathers, pp. 51-57 ; O'Leary , the Coptic church and Egyptian monasticism , pp. 319-326 .

وراجع أيضا ، الأب متى المسكين ، الرهبنة القبطية فى عصر القديس أنبا مقار ، ص٤٣ - ٤٤ وللباحث: ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى ، ص٣٣-٦٣ .

٣٣- EUSEB . hist. eccl. VII, 13-15 .

مراسيم الاضطهاد التى أصدرها الامبراطور ، على النحو الذى عرضنا له فى صدر حديثنا عن السنوات العشر العجاف .

وقد يبدو غريبا أن تقدم الحكومة الرومانية بعد مرور قرنين ويزيد من الزمان ، منذ ظهر أمر المسيحية ، على اتباع سياسة اضطهادية تجاه أتباعها وبمقتضى مرسوم عام يصدر مباشرة من الإمبراطور . على أن هذه الغرابة سرعان ما تزول إذا أحطنا بالظروف التى صاحبت هذه الأحداث خُبرا .

فالإمبراطورية الرومانية دخلت منذ ثلاثينيات القرن الثالث الميلادى، وعلى امتداد خمسين عاما (٢٣٥-٢٨٤) فى أزمة طاحنة كادت أن تعصف بها، عرفت بأزمة القرن الثالث، شملت جميع نواحى الحياة : فالنظام السياسى انحط إلى الدرك الأسفل من الفوضى ، بعد أن ترك الجيش مهمته الأساسية على الحدود ، وراح يمارس بعنف ولهو لعبة السياسة ، ويتدخل مباشرة فى اختيار الأباطرة . وحرص كل فيلق من الفيالق الرومانية فى مختلف الولايات على أن يدفع قائده إلى العرش الإمبراطورى، علّه يحقق به نفعا ! وليس أدل على هذه الفوضى من أنه خلال نصف القرن ذاك اصطرع على عرش روما ستة وعشرون إمبراطورا، والأدهى من ذلك والأمر ، أنهم ماتوا جميعا قتلا عدا أحدهم !! وقد عبر الإمبراطور سبتميوس سفروس Septimius Severus (١٩٣-٢١١) عن مدى تدخل الجيش فى السياسة بعبارة بليغة قدمها لولده نصيحة وهو يعظه قبل موته ، بقوله : «أجزل العطاء للجند ولاتلق بالا للآخرين [٣٤]».

ولاشك أن هذه الفوضى السياسية ، تعود فى المقام الأول إلى عدم وجود نظام أو قاعدة ثابتة لاعتلاء العرش الرومانى ، منذ أن غلت يد السناتو فى القرن الأول الميلادى عن مباشرة سلطاته فى اختيار الجالس على العرش . وكانت السنة الشهيرة للأباطرة الأربعة (عام٦٩م) ، والتى أعقبت وفاة نيرون فى العام السابق ، قد علمت الجيش الرومانى أن الإمبراطور يمكن أن يوجد فى أى مكان خارج روما، خاصة وأن الذى فاز بالعرش ساعتها ، هو فسباسيانوس Vespasianus قائد الفيلق الرومانى فى سوريا ، والذى غدا فوزه مؤكدا بعد إعلان والى مصر وقوفه إلى جانبه- وإن كان الجيش لم يستغل هذه الحادثة طيلة قرن وربع تال، ساده السلام الرومانى ، حتى اندلعت الحرب الأهلية التى أعقبت اغتيال كومودوس Commodus

---

٣٤- Jones , Constantine, p. 2 .

عام ١٩٢ ، فكانت إشارة البدء لما حدث بعد ذلك إبان أزمة القرن الثالث ، والتى أمسى من أهم مظاهرها فقدان روما لولاء الجند لها ، وتحول هذا الولاء إلى القادة ، ليصبح ولاءً مباشرا بين الجندى وسيده . فعصف ذلك بما بقى لروما من احترام فى نفوس بنيها .

وساهمت السياسة التى اتبعها الأباطرة آنذاك فى تقوية هذا الشعور : فقد أحجموا عن تجنيد أبناء الطبقة النبيلة فى الجيش خوفا منهم على مناصبهم ، ولجأوا إلى الاعتماد على أهالى الولايات الثائرة أصلا ضد سياستهم الاقتصادية ، وإن كان ذلك أيضا فى حدود ضيقة، حتى لاتفقد الأراضى الزراعية مزيدا من الفلاحين ، وجعلوا جل اعتمادهم على العناصر الجرمانية المتسللة عبر الدانوب والراين ، كجند مرتزقة كان ولاؤهم بلا جدال لسيدهم المباشر ، حتى أننا نجد مثلا أنه من بين تسعين ألف جندى، كانوا يشكلون جيش قسطنطين Constantinus عام ٣١٢ فى معركة الصخور الحمراء Saxa Rubra قرب القنطرة الملثية Mulvius pons ضد خصمه ماكسنتيوس Maxentius ، كان هناك أربعون ألف جرمانى ، أى ما يقرب من نصف الجيش ، ولم يكن هذا إلا جيشا واحدا فقط من خمسة جيوش كان قادتها يصطرعون آنئذ من أجل القفز على عرش الرومان ، فى حرب أهلية طاحنة دامت ثمانية عشر عاما (٣٠٦-٣٢٣) عقب اعتزال دقلديانوس .

وقد امتدت الفوضى السياسية إلى دولاب العمل الاقتصادى ، الذى توقف من جراء هجران كثير من الفلاحين لأراضيهم ، بسبب ثقل وطأة الضرائب الباهظة التى كان يفرضها هؤلاء القادة العسكريون بمجرد اعتلائهم العرش ، للإنفاق على جنودهم الذين رفعوهم مكانا عليا ، فتحولت مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية إلى البوار بعد أن تحول فلاحوها إلى قطاع طرق ولصوص، راحوا يهاجمون الطرق التجارية فى غفلة من الحكومة ، التى شغلت بنفسها عن توفير الأمن لشبكة المواصلات الضخمة التى كانت تتمتع بها الإمبراطورية الرومانية، فكسدت الحركة التجارية وانحطت بالتالى قيمة العملة الرومانية ، وزاد الأمر سوءا ثورات أهالى الولايات على هذه السياسة الضرائبية التعسفية، وازدياد ضغط الجرمان والفرس على جبهات الراين والدانوب حتى أن الإمبراطور ڤاليريان نفسه وقع أسيرا فى عام ٢٦٠ فى يد الفرس .

ولعل أفضل ما يمكن أن نسوقه وصفا لهذه الحال ، ما ذكره المؤرخ جونز[٣٥] Jones فى قوله ، «اختفت التقاليد القديمة وعاطفة الولاء . حقا لقد كان الأباطرة فخورين بأنهم مواطنون

٣٥- Constantine, p. 11 .

رومان وليسوا برابرة ، لكن عاطفة الولاء لم تحرك أحدا منهم ليضحى من أجل روما بحياته أو ماله . لقد كانت الإمبراطورية شديدة الاتساع ، وكان الأباطرة بعيدين جدا عن القدرة على إحياء أية عاطفة سوى شعور الخوف . كانت العواطف التى تعتمد عليها الإمبراطورية عواطف ولاء محلية : فالجندي يحارب من أجل شرف فرقته أو قائده ، وحاكم المدينة يعمل وينفق المال من أجل مدينته ، والقواد والإداريون وطبقة السناتو والفرسان يتحركون بدافع المصالح الطبقية أكثر منها خدمة الإمبراطورية . لقد اختفى شعور النبالة الملزمة بين الطبقة الأرستقراطية ، وانتهى الإحساس بحب الوطن من قلوب الطبقة المتوسطة ، وانحل النظام بين جحافل الجند .. لقد ضاع كل شئ !! » .

على هذا النحو لم يكن نظر الإمبراطور يذهب أبعد من قوائم كرسى العرش الذى يعتليه ، فانحصر همه وكل تفكيره فى كيفية الحفاظ على هذه القوائم، والسواعد التى تحمله ، وحتى تظل هذه السواعد قوية قادرة على حمله ، كان لابد من ملء جيوب أصحابها بالمال وبطونهم بالطعام !! ولتحقيق ذلك أمسى حتما مقضيا فرض المزيد من الضرائب التى ثقلت وطأتها بصورة متزايدة بمرور سنى القرن الثالث الميلادى، فهجر الفلاحون أراضيهم ، وأغلق أصحاب الصناعات دورهم ، وتعطلت طرق التجارة ، فتوقف بذلك دولاب العمل الاقتصادى ، وتحول الجنود ببصرهم من الحدود الإمبراطورية إلى كرسى العرش الذى يحملونه طمعا وطموحا ، فانحل الانضباط العسكرى وعمت الفوضى ، وازدادت الهجمات من جانب أعداء الإمبراطورية على جميع الجهات ، وبتدخل الجيش على هذه الصورة الفاضحة فسد النظام السياسى وتهرأت أركانه، وامتد هذا الخلل بالتالى من الرأس فى العاصمة إلى كل الأطراف فى الدولة .

وعلى النقيض من ذلك تماما .. كان حال المسيحيين خلال النصف الثانى من القرن الثالث الميلادى: فقد غدت الكنيسة آنذاك قوة لايستهان بها ، بفضل حسن تنظيمها الذى أنشأته أصلا على غرار النظام الإدارى الرومانى؛ ذلك أن الكنيسة أقامت قواعد سلمها الكهنوتى على صورة مشابهة للتقسيمات الإدارية داخل الإمبراطورية الرومانية ، فضمنت لنفسها بذلك نظاما ثابتا امتدت جذوره حتى إلى قرى الإمبراطورية، فأضحت الكنيسة فى جوانب عديدة– على حد تعبير جونسون صورة مشابهة للإمبراطورية نفسها ، كاثوليكية، بمعنى العالمية أو المسكونية ، نظمت بأيدى جماعة محترفة لاتقل خبرة عن رجال الحكومة ، هم الأساقفة لقد كانت الكنيسة تمثل «طيف» doppelganger الإمبراطورية [٣٦].

٣٦- A history of christianity, p. 76 ; Bokenkotter, Catholic church, p. 39 .

ولاشك ساعد على ازدياد قوتها على هذا النحو ، قدرتها على التغلب ، أو بتعبير أكثر دقة ، إحتواء كثير من الصعاب التى واجهتها من الداخل ، أعنى حركات الانشقاق التى تولدت فيها ، بمذاهب عقيدية متصارعة تجادل من حول المسيح ، بفعل التأثير المتدفق للفلسفة اليونانية . وعلى هذا النحو تمكنت من أن تبنى لنفسها نظاما دنيويا حفظت به وحدتها وسيرت به أمورها الكهنوتية . وكان لابد أن توجد إزاء ذلك خسارة روحية، لكنها عوضت هذه بكسب مادى تمثل فى ثبات تنظيمها وقدرتها على مواجهة ، بل وتحدى أكبر قوة سياسية فى العالم القديم ، ألا وهى الإمبراطورية الرومانية (٣٧).

وازدادت هيبة التنظيم الكنسى بما حظيت به بعض الكنائس فى عواصم الأقاليم الرومانية ، أو روما نفسها من صفة «الرسولية» أى قيامها على يد واحد من رسل المسيح ، كما حدث فى أنطاكية وروما ، حيث وضع بطرس أمير الرسل أو زعيم الحواريين أسسها ، أو عن طريق غير مباشر ، كما كان شأن الاسكندرية ، عندما قدم مرقس نائب بطرس وابنه بالتنبى(٣٨)، ليؤسس فى القرن الأول أيضا الكنيسة السكندرية . كما أن هناك كنائس أخرى كان لها وضعها المتميز فى تلك الفترة أيضا ، بالقدر الذى يسمح لها بالاقتراب نسبيا من مكانة هذه الكنائس الرسولية الثلاث ، مثل قرطاجة والقدس . وشهدت الكراسى الرسولية ازدهارا فكريا ، وغوا فى سلطانها على عهود عدد من أشهر أساقفتها إبان النصف الثانى من القرن الثالث ، مثل ديونيسيوس Dionysius أسقف روما(٢٥٩-٢٦٨) وسميه أسقف الاسكندرية(٢٤٦-٢٦٥) وكبريانوس Cyprianus الأسقف القرطاجى ، بل إننا نعلم من رسالة حفظها لنا يوسيبيوس القيسارى(٣٩) كان قد بعث بها الأسقف السكندرى ديونيسيوس إلى أحد أصدقائه فى كنيسة روما يدعى فيلمونوس Philemonus . نعلم أن هرقل Heraclius أسقف الاسكندرية السابق على ديونيسيوس ، كان قد اتخذ لنفسه اللقب المسكونى «بابا» بعد أن وسع دائرة سيادة الكنيسة السكندرية ، ورفع عدد الأسقفيات المحلية التابعة لها إلى عشرين أسقفية (٤٠). ولم

٣٧- Jonson , Christianity, p. 63 .

٣٨- رسالة بطرس الأولى ، اصحاح ٥ / ١٣ .

٣٩- EUSEB . hist. eccl . VII, 7 .

٤٠- يذكر القلقشندى أن بطريرك الاسكندرية كان أول من حمل لقب «بابا» بين سائر أساقفة الكراسى =

يلبث خلفه أن أضاف إليها المدن الخمس الغربية Pentapolis (برقة حاليا)، تحت سلطان كنيسة الاسكندرية [٤١]. وقد نص القانون السادس للمجمع المسكونى الأول المنعقد فى نيقية (حاليا إزنيق Isnik فى تركيا) سنة ٣٢٥، على مكانة وسلطان هذه الكنائس الرسولية الثلاث، روما والاسكندرية وأنطاكية[٤٢]، وفى وقت لم تكن القسطنطينية قد رأت فيه النور بعد.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن المسيحية كسبت من الوثنية بعض قلاعها الفكرية، بحيث لم يبق للوثنية إلا أثينا، بينما تحولت الاسكندرية وأنطاكية إلى أكبر قلاع المسيحية فكرا وثقافة؛ فقد شهدت كل منهما قيام مدرسة لتفسير الكتاب المقدس، وكانت الاسكندرية أطولها باعا، فقد عرفت فى أول أمرها بـ « مدرسة الموعوظين» Catechesis وذاع صيتها باسم «مدرسة المدافعين» Schola apologetica وهى تعد دون شك أول معهد علمى ذا أهمية كبرى للدراسات اللاهوتية فى عالم المسيحية، حتى أضحى آباء هذه المدرسة مسئولين عن صياغة اللاهوت المسيحى[٤٣]. وامتدت اهتماماتها إلى العديد من الدراسات الإنسانية والعلوم

= الرسولية، قبل أن يشتهر به أسقف روما. راجع: صبح الأعشى، جـ٥ ص٤٧٢، جـ٨ ص٤٢. وأنظر أيضا:

Atiya, history of Eastern Christianity, p. 38.

٤١- ATHANAS. de S. Doin. 5.

وهذه المدن الخمس هى «شحات Cyrene وطلميثة Ptolemais وبرنيق Berenice وسوسة Abollonia وتوكره أوتوخيرا Arsinoe.

٤٢- Percival, Seven ecumenical councils, pp. 15, 32; Hefele, History of the councils of the church, I, p. 388 et sqq.

ومن المعروف أن الإمبراطور قسطنطين بعد انتصاره على صهره وخصمه ليكينيوس عام ٣٢٣، راح يبحث عن مكان يقيم فيه عاصمة للإمبراطورية الرومانية، لتحل محل روما القديمة ونيقوميديا الجديدة، وهداه تفكيره إلى موقع مدينة بيزنطة القديمة التى تحتل مركزا استراتيجيا ممتازا بين مياه البسفور وبحر مرمره والقرن الذهبى. وقد وضع قسطنطين حجر الأساس لمدينته الجديدة عام ٣٢٤ وتم تدشينها فى الحادى عشر من مايو عام ٣٣٠، وسماها «روما الجديدة» لكنها حملت اسم مؤسسها فعرفت باسم القسطنطينية.

٤٣- Roncaglia, histoire de l`eglise Copte, I pp. 139-149; Zananiri, histoire de l`eglise Byzantine, p. 23.

والرياضيات. وقد نشأت إلى جوار مدرسة الاسكندرية الفلسفية الوثنية القديمة، وكان أوريجن السكندرى أشهر أساتذتها فى القرن الثالث، يضمن دروسه محاضرات فى المنطق والجدل والعلم الطبيعى والهندسة والفلك ، دعامة لطلاب الأخلاق واللاهوت. وقد اعتمدت المدرسة التفسير المجازى الرمزى لنصوص الكتاب المقدس ، وغدا المنهاج الأفلاطونى أسلوب فكر شيوخها(٤٤). هذا على حين اتخذت مدرسة أنطاكية النهج العقلى فى تفسير الكتاب المقدس ، واعتمدت المنطق الأرسطى فى شروحها ، وكان أشهر أساتذتها فى أخريات القرن الثالث لوقيانوس Lu-cianus الأنطاكى(٤٥)، كما كان أشهر تلاميذها القس السكندرى آريوس Arius الذى شغل فكر رجال اللاهوت والسياسة فى الامبراطورية، بآرائه التى أذاعها حول «خلق» المسيح، قرابة ثلاثة أرباع القرن الرابع الميلادى.

ولاريب أن هاتين المدرستين قد أديتا للكنيسة المسيحية والمسيحية خدمات جليلة فى مجال جذب عدد كبير من الرومان ، خاصة المثقفين ، إلى دائرة العقيدة المسيحية ، بعد أن عملتا على الإفادة من دراسة الفلسفات اليونانية السائدة فى المجتمع الرومانى، وتطويعها لصالح المسيحية لتقويها فى صورة عقلانية تمكنها من التصدى لمواجهة أعدائها من أتباع هذه الفلسفات الوثنية ذاتها .

هكذا غدت الكنيسة المسيحية ، رغم قلة عدد أتباعها بالقياس إلى الوثنيين فى الإمبراطورية، قوة متماسكة يحسب حسابها ، بتنظيمها الإدارى الكهنوتى ، ومدارسها الفكرية ، وشخصياتها الكنسية ، فى مواجهة الإمبراطورية الرومانية التى أمست منهارة فى ظل حكومة عاجزة ، واقتصاد منهار ، وجيش مهلهل مشغول بلعبة السياسة تطلعا إلى العرش، وعدو متحفز متمثل فى الفرس والجرمان ، يعبث بحدودها .

٤٤- للمزيد من التفاصيل عن مدرسة الاسكندرية، راجع للباحث الدولة والكنيسة ، الجزء الثالث ، الفصل الأول .

٤٥- HIER. vir. ill . 77 .

وراجع أيضا Downey , A history of Antioch in Syria, p. 338 .

وكذلك Lietzmann, From Constantine to Julian , p. 107 .

وفى مثل هذه الظروف راح أباطرة النصف الثانى من القرن الثالث ابتداء بالإمبراطور دكيوس ، يبحثون عن حل للخروج من هذه الأزمة الطاحنة التى توشك أن تودى بالإمبراطورية. وكان الأمل المرجو على الأقل فى مثل هذه الحالة، تجميع مشاعرالرومان للالتفاف حول حكومتهم لمواجهة هذه الأخطار، وبصورة خاصة ما كان من احتلال قبائل القوط الجرمانية للدانوب الأدنى، واكتساحهم لشبه جزيرة البلقان ، واستيلائهم على مدينة بيزنطة ، وعبورهم البسفور إلى آسيا الصغرى، ووقوع معظم مدن بيثينيا فى أيديهم. وكان هذا أمرا طبيعيا يتفق ومنطق الأوضاع السائدة فى الإمبراطورية ، والأباطرة عاجزون عجزا كاملا عن مواجهة هذه التحديات العسكرية إلا بفرض مزيد من الضرائب لتأمين متطلبات الدفاع ، مما يثير ثائرة الأهلين الذين أثقلت كواهلهم كثيرا بعبء هذه الضرائب الباهظة التى كانت الإدارة الحكومية قد جعلت من جبايتها همها الوحيد ، لإرضاء الجند للإبقاء على الإمبراطور حيا !! . وكان الشئ الوحيد المتاح أمام أولئك الأباطرة الضعاف ، هو أن يطلبوا إلى رعيتهم أن ترفع أكف الضراعة إلى الأرباب ، علها ترضى عن روما ، وترفع عنها مقتها وغضبها ، فتصرف أعداءها !! من هنا كان مرسوم دكيوس العام الذى أوجب فيه على الجميع السعى إلى المعابد تضرعا لتقديم القرابين للآلهة . ولم يكن هذا بالطبع حلا عمليا لإنقاذ روما من هاوية تسعى إليها بظلفها ، ولكنه كان فى حقيقته صرفا لأنظار الرومان عن الأخطار المحدقة بهم من الخارج على الحدود ، والتردى السياسى والانهيار الاقتصادى فى الداخل ، إلى شئ غيبى لاجدوى من ورائه ، بعد أن أثبتت الأرباب الرومانية عجزها وضعفها منذ زمن ليس بالقصير !

وكان هذا الأمر يتضمن تلقائيا ، بعث ذلك التقليد القديم الذى كان أوكتافيانوس أوغسطس Octavianus Augustus قد قبله من ولايات الشرق الرومانى وبعض ولايات النصف الغربى ، أعنى العبادة الإمبراطورية [٤٦]، التى كانت تمثل السلطة الكاملة لروما

٤٦- منذ طوت روما تحت سلطانها الممالك الهلنستية ، اعتاد الناس فى تلك الممالك أن يقيموا مذابح ومعابد للربة روما، هنا وهناك ، معبرين بذلك عن احترامهم أو خوفهم من روما . وفى سنة ٢٩ ق . م شيدت مدن برجامة Pergamum فى آسيا الصغرى ، ونيقوميديا ، معابد كرستها لعبادة روما وأوغسطس، وقد قبل أوغسطس الهدية ووافق على وجود هذه العبادة فى مناطق أخرى من الولايات الشرقية . ولم تلبث هذه العبادة أن انتقلت إلى الغرب ، حيث قام دروزس Drusus ربيب أوغسطس بتدشين مذبح لروما وأوغسطس فى ليون=

والإمبراطور على رعايا الإمبراطورية، وإن لم تكن توحي في الوقت نفسه بأي مغزى ديني، ذلك أن أحدا لم يصلّ للأباطرة المؤلهين- أحياء وأمواتا- في سقمه أو فاقته . لقد أمست عبادة تقليدية تعد تعبيرا حيا على الاحترام لرأس الدولة ، ودليلا على الولاء للإمبراطورية، وفي الوقت نفسه الخيط الرفيع الذي يربط ولايات الإمبراطورية الرومانية كلها- رغم شتاتها العقيدي، واختلاف ألسنتها واتجاهاتها برباط رقيق يأخذ بوجهتها تجاه قبلة واحدة هي روما . ومن ثم كان الأباطرة يحرصون على هذه «العبادة الإمبراطورية» حرصهم على بقاء روما في نظر رعاياها .. مدينة المجد والخلود، وعلى استمرار سلطانهم وسيادتهم ، حتى أن الرومان كانوا ينظرون إلى عبادة آلهة الدولة، بما فيها العبادة الإمبراطورية، من وجهة نظر سياسية ، معتبرين رفض الاشتراك في هذه العبادة ، خيانة عظمى للدولة تقابلها عقوبة الإعدام[٤٧].

من هنا .. كان لابد أن يقع الصدام بين الدولة والكنيسة ، فالاضطهادات القليلة والمتفرقة التي جرت إبان القرنين الأولين من عمر المسيحية ، كانت استجابة لعوامل محلية ، وللشعور العدائي لدى الناس تجاه المسيحيين ، كما أشرنا من قبل ، أما ابتداء من عام ٢٥٠ فقد مارست الدولة الاضطهاد بشكل رسمي ومن تلقاء نفسها ، نتيجة اتجاهات معينة لدى الأباطرة، تمليها عليهم مفاهيم سياسية كامنة تمثل الفكر السياسي الروماني ، تقابلها في الوقت نفسه ، وتزيد الاضطهاد حدة ، تعاليم كنسية وضعها آباء الكنيسة الأول، وأصبح لها قوة المعتقد ، حتى غدت جزءا من النظام الكنسي .

لقد كان في وسع المسيحيين أن يصلوا من أجل الإمبراطور ، لكن ليس للإمبراطور ، وأن يدعوا للإمبراطورية وإن أبوا أن يحاربوا من أجلها !! ذلك أنهم كانوا يرون أن هناك شيئا من التوافق بين ازدهار المسيحية وأهدافها العالمية من ناحية ، بالمكانة الإلهية للإمبراطور،

= Lungdunum سنة ١٢ ق . م. وأقيم آخر في كولوني Cologne . وقبل موت أوغسطس كان لدى كل ولاية في الشرق على الأقل مذبح أو معبد كرسي لروما وأوغسطس .

أنظر ، ry, A history of Rome down to the reign of Constantine , p. 510 ; Boak , Rome p. 273 .

٤٧- Jones , Constantine , p. 30 ; Thompson & Johnson , An introduction to Medieval Europe , p. 30 .

وأنظر أيضا ، دي بورج، تراث العالم القديم ، ترجمة زكي سوس، جـ١ ص. ٣٠ .

والإمبراطورية نفسها من ناحية أخرى ، شريطة أن يقوم ذلك على عدم تسليم المسيحيين وإن بقوا على ولائهم لروما[٤٨]. ولاشك أنه آلم الأباطرة كثيرا أن يجدوا المسيحيين لايشتركون فى تقديس ذواتهم ، بينما كانت المسألة بالنسبة للمسيحيين تبدو غاية فى الأهمية لأنها تتصل بجوهر العقيدة ، حيث رأت الكنيسة فى عبادة الإمبراطور ضربا من الوثنية ، ومن ثم أمرت شعبها أن يرفض هذه الطقوس مهما تعرض له من الأذى. لقد كان ولاء المسيحيين - على حد تعبير ديفز Davis - لدينهم فوق ولائهم للدولة[٤٩]. ولقد عبر أبو الكنيسة الأفريقية ترتوليان عن ذلك بعبارات محددة في قوله : «نحن دوما للأباطرة نشفع ، ومن أجلهم نصلى ، سائلين الرب لهم عمرا مديدا ، وحكما آمنا سديدا ، وعيشا هنيئا وجيشا قويا ، ومجلس سناتو مخلصا ، وشعبا وفيا ، وعالما مستقرا.. ونحن حين نصلى من أجل بقاء الإمبراطورية الرومانية نؤكد بذلك استمرار روما . وإنه ليحق لى القول إن القيصر لنا أكثر مما هو لكم ، إختير فى مكانه هذه بإرادة ربنا»[٥٠].

لم تكن المسألة إذن- كما يعتقد من المؤرخين كثير- مجرد البحث عن كبش فداء يمكن أن يقدم قربانا للخروج من حالة الضياع التى كانت الإمبراطورية تتخبط فى متاهاتها إبان أزمة القرن الثالث .. إذ كيف يمكن سوق المتهمين إلى ساحة الإعدام ، قبل معرفة نوعية الاتهام ذاته؟! فمرسوم دكيوس[٥١] لم يأمر المسيحيين وحدهم دون الوثنيين واليهود بتقديم الأضحيات

٤٨- Johnson , Christianity , p. 70 .

٤٩- A history of medieval Europe, pp. 11-12 ,

وراجع كذلك ، سباين، تطور الفكر السياسى ، جـ٢ ص٢٦٧ .

٥٠- Cited in, Johnson , A history of Christianity , p. 70 .

٥١- يعتقد كثير من المؤرخين وفى مقدمتهم مؤرخو الكنيسة ، أن دكيوس وفاليريان ، وجدا فى المسيحيين كبش فداء يمكن أن ينبحوه قربانا ، للهروب من واقع الأزمة التى كانت تعيشها روما، ومن ثم جاء الاضطهاد العنيف للمسيحيين على عهديهما. وهذا بالطبع قد يصبغ القضية كلها بصبغة دينية بحتة تخرج بها عن حقيقتها الجوهرية . راجع كانتور : التاريخ الوسيط ، ترجمة دكتور قاسم عبده قاسم ، جـ١ ص٦٠ ، حيث يقول بالحرف الواحد، ولقد بالغت الأساطير المتأخرة كثيرا فى أعداد الشهداء المسيحيين ، إذ كان اضطهاد المسيحيين محليا وقليل الحدوث ، وكانت الدولة الرومانية متسامحة مع المسيحيين رغم أنهم لم يحوزوا موافقتها ، ورغم أنها لم تعترف بالمسيحية بعد ديانة مشروعة».

للأرباب قربانا ، لأن المرسوم كان عاما ، حتى أن ليبرتسون Lebretson وزيلر Zeller فهما من المرسوم أن دكيوس لم يطلب من المسيحيين أن يتنكروا لدينهم [٥٢]. وبينما قطع اليهود نصف الطريق لإرضاء الإمبراطور ، إذ قبلوا أن يقربوا للأرباب وإن كان باسم إلههم يهوه ، كان المسيحيون وحدهم هم الذين رفضوا الامتثال لذلك . وهكذا ظهر الأمر للحكومة الرومانية على أنه عصيان للأوامر الإمبراطورية، زاد من خطورته أنه تزامن مع الكوارث التى كانت تضغط على عنق روما تكاد تخنقها ، وإلا فكيف يستقيم الأمر إذن ، إذا كانت المسألة مجرد كبش فداء، فى تفسير الاضطهاد الذى وقع بعد ذلك بنصف قرن على عهد دقلديانوس ، بل وعلى عهود الأباطرة المسيحيين ، ضد المسيحيين ؟!

لقد حكم دقلديانوس الإمبراطورية إحدى وعشرين سنة كاملة ومتصلة (٢٨٤-٣٠٥) ، ولم يقدم على الاضطهاد إلا فى السنة التاسعة عشرة من حكمه، وقد دانت له الأمور فى الامبراطورية واستقرت ؛ إذ أعاد للمنصب الإمبراطورى هيبته ، وأقام قواعد الحكومة الرباعية Tetrarchia التى لعبت دورها كاملا فى فرض سلطان الدولة على ولايات الإمبراطورية ، وامتدت يد إصلاحه إلى النظم المالية والعسكرية، وتم إخماد الثورات التى أشعلها الثائرون فى كثير من الولايات ، وأمنت حدود الإمبراطورية فى مواجهة الفرس على الفرات ، والقوط على الدانوب ، والفرنجة على الراين ، وأضحى دقلديانوس سيد الإمبراطورية بلا منازع . لقد كان خير أنموذج للحاكم الأوتوقراطى الذى أراد أن يجمع السلطة كلها فى قبضة يده ، ويشرف بنفسه وجهازه البيروقراطى على كل صغيرة وكبيرة فى دولته ، ولقد سعى جاهدا ليحقق ذلك، ونجح فيه إلى حد كبير، ومن هنا لم يكن دقلديانوس يتصور مطلقا أن تخرج الكنيسة عن دائرة نفوذه ، وأن تغدو بذلك دولة داخل الدولة ، بتعاليمها ونظامها الكهنوتى ، وكان على حد قول كانتور[٥٣] يعتقد والقلق يملأ عليه كل سبيل ، أن النظام المسيحى على هذه الصورة سوف يودى بجهوده الضخمة التى بذلها طيلة هذه السنوات فى سبيل وحدة الإمبراطورية وتقويتها ، فلاعجب إذن أن كان دقلديانوس يرى أن الكنيسة المسيحية هى آخر العقبات القائمة فى وجه تدعيم سلطان الإمبراطور .

٥٢- The history of the primitive church, II, pp. 793-797 .

٥٣- كانتور ، التاريخ الوسيط ، ص٦٠ - ٦١ .

لقد كان الرجل يعلم جيدا مدى الفوضى التى عانت منها الإمبراطورية خلال نصف قرن مضى قبل اعتلائه العرش ، من جراء تراخى قبضة الحكومة وضعفها وعجزها عن فرض سلطانها على رعاياها ، وضياع هيبة الإمبراطور واهتزاز المنصب . ويعرف يقينا أيضا مدى الجهود التى بذلها عبر هذه السنوات الطوال التى انقضت من عهده فى سبيل إقرار سلطان الدولة على كل جزء من أجزائها ، ومن ثم كان من الصعب على واحد مثله أن يتغاضى عن وجود سلطة أخرى يأتمر جزء من رعيته بأمرها، خاصة وأن الكنيسة - كما أسلفنا - كانت قد أضحت قوة يحسب حسابها فى القرن الثالث الميلادى. وعلى الرغم من أن رسالة بولس إلى أهل روما ، تضمنت الحث على احترام السلطة السياسية ، بما جاء فيها : «لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة ، لأنه ليس سلطان إلا من الله ... حتى أن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله» (١٣ / ١-٢) ، إلا أن ذلك كان يتضمن أيضا أن هذه الطاعة لا تتحقق إلا إذا كان الإمبراطور يعمل فى انسجام مع إرادة الله . ولما كان الإمبراطور وثنيا ، فإن المسيحى على حد تعبير ديل Dill كان ينظر إلى عقيدته باعتبارها شيئا منفصلا عن المجتمع السياسى، وأنه أسمى من هذا المجتمع مقاما ، ولا يدين بولاء لقيصر ولكن بأعظمه للمسيح [٥٤]. لذا لم يقدم دقلديانوس على اضطهاد المسيحيين إلا فى السنتين السابقتين فقط على اعتزاله ، وبعد تسعة عشر عاما من بداية حكمه . وليس أدل على مغزى هذا الاضطهاد مما ينبئنا به يوسيبيوس القيسارى ولاكتانتيوس من أن هذا الاضطهاد بدأ بـ «الأخوة الذين فى الجيش» [٥٥]. وامتد إلى المسيحيين العاملين فى الدوائر الحكومية والوظائف العامة والخدم فى القصر الإمبراطورى ويعلق McGiffert على ذلك بقوله : «إن هذه الاجراءات ليست اجراءات امبراطور يضطهد لأسباب دينية» [٥٦].

لم يكن الفكر السياسى الرومانى يقبل إذن بقيام كيان آخر مستقل عن سلطة القيصر ، أو بتعبير أكثر وضوحا ، دولة داخل الدولة ؛ فالامبراطورية بحكم منصبه ex officio هو الكاهن

٥٤- Dill , Rome and Society in the last century of the western Empire , p. 3 .

٥٥- EUSEB. hist . eccl . VIII, 1 ; LACT. mort . pers.

٥٦- McGiffert , notes on (EUSEB. hist. eccl.) , Nicene and post Nicene Fathers , I, pp. 398-399 .

الأعظم Pontifex Maximus منذ اختص أوكتافيانوس أوغسطس نفسه بهذا اللقب فى السنة الثانية عشرة قبل الميلاد، ولم تكن الوثنية الرومانية تمثل استقلالا أو انفصالا عن النظام السياسى، فأرباب الرومان هم أرباب الدولة ، والإمبراطور الرومانى هو «السيد المطلق» من الناحية العملية خاصة مع مرور سنى القرن الأول الميلادى، وإن كانت جذور هذه السيادة تعود إلى أخريات القرن الأول قبل الميلاد ، وعلى وجه التحديد منذ انتصار أوكتافيانوس على ماركوس أنطونيوس وكليوباترا فى موقعة أكتيوم عام ٣١ ق . م ، وسقوط الاسكندرية ومصر فى أيدى الرومان فى العام التالى .

فقد خلع السناتو على أوكتافيانوس مكافأة له لانتصاره على أعداء الشعب الرومانى ، مجموعة من الألقاب الشرفية التى أضفت عليه قدرا من المهابة والسمو، من أهمها لقب «امبراطور» Imperator وهو يعنى «القائد الأعلى» وبخاصة «القائد الأعلى المظفر» ويمنح صاحبه حق تلقى «التحية الامبراطورية» من جنوده عند تحقيق انتصار كبير على أعداء الرومان. ويبدو أن هذا اللقب مشتق من كلمة «امبريوم» Imperium وهى السلطة التى تخول صاحبها حق قيادة الجيوش. ومع أن أوكتافيانوس كان قد نودى بهذا اللقب عام ٤٣ ق . م بعد انتصاره فى معركة «موتينا» فى غالة ضد أنطونيوس ، إلا أنه أصبح حقيقة واقعة بعد أكتيوم وفى عام ٢٧ ق. م على وجه التحديد .

وفى بواكير هذا العام نفسه ، منح السناتو أوكتافيانوس لقب «أوغسطس» Augustus ، وهو لقب يحمل معنى «التوقير» و «الاجلال» بل و «التقديس» . ويدل على سمو مركزه وتفوقه على الآخرين، وزيادة فى رفعة مكانته وتكريمه ، قرر السناتو فى هذا العام أن يطلق هذا اللقب «أوغسطس» على شهر من شهور السنة الرومانية .

وفى عام ٢٣ ق . م تم منح أوكتافيانوس «السلطة التريبونية» tribunicia Potestas مدى الحياة وبصورة كاملة ، أى أنه أصبح نقيبا للعامة رغم انتمائه إلى عشيرة من الأشراف ، وهذه السلطة تخوله مجموعة من الحقوق مثل «حق الاعتراض» و «حق دعوة الجمعية الشعبية واقتراح القوانين عليها» و «حق استصدار قرارات من السناتو». وقد جعل أوكتافيانوس من «السلطة التريبونية» قمة سلطاته وذروة مركزه ، واتخذ منها أساسًا لحساب سنوات حكمه . ولعله تعمد أن يوهم الرأى العام أنه يستمد مركزه من هذه السلطة ، وذلك لاخفاء السند الحقيقى لمركزه وهو السند العسكرى المتمثل فى قوة «الامبريوم» ، خاصة وأن «التريبونية» كانت منصبا له شعبيته بين الجماهير الرومانية ، وترتبط بها ارتباطا عاطفيا .

ولم يمض العام نفسه إلا وكان السناتو قد أسبغ على أوكتافيانوس لقبا جديدا هو «المواطن الأول» Princeps ، وهو لقب يظهره أمام الجميع أنه بعيد كل البعد عن أى طموح فى «الملكية» regnum أو الطغيان dominatio أو «الدكتاتورية» dictatura، وهذا يتفق مع ما سبق أن ذكرناه توا بحرصه على التمسك بكل مظاهر «السلطة التربونية» .

وقبل أن تودع أعوام قبل الميلاد دنيا التاريخ ، أى فى عام ٢ ق . م قرر السناتو وطبقة الفرسان وعامة الشعب الرومانى، منح أوكتافيانوس لقب «أبو الوطن» Pater Partriae، وهو من أسمى ألقاب الشرف الرومانية، وأصبح بمقتضاه داعيا لجميع أبناء الوطن دون تفرقة[٥٧].

ورغم أن هذه الألقاب كلها كانت ألقابا تشريفية ، ولاتمنح صاحبها أو حاملها سلطات معينة متميزة، باستثناء «السلطة التربيونية» ، إلا أنها جعلت من أوكتافيانوس الرجل «الأسمى» مكانة و «الأعلى» منزلة. ورغم حرصه فى عام ٢٧ ق . م على اعلان تنازله عن كل سلطاته الاستثنائية واحياء الجمهورية، إلا أن هذا كان دون شك تصرفا ذكيا من جانبه ، إذ يعلم علم اليقين مدى كراهية الرومان للملكية والدكتاتورية ، ومن ثم قدم للرومان النظام الذى كانوا يفضلونه ، نعنى بتعبير أدق الاحتفاظ بالشكل والتقاليد الجمهورية التى يعشقها الرومان ، على أن يمارس هو سلطة مطلقة فى ظل «شرعية دستورية» - إذا صح هذا التعبير- وفرها له السناتو ، وساعده على ذلك أن السناتو نفسه كان قد راح يفقد سلطانه تدريجيا حتى فى القرن الأخير للعصر الجمهورى ، بعد أن تقلصت أو زالت سيطرته على الجيش ، من جراء انتهاك القادة العسكريين الرومان لـ «حرم» روما على يد كل من ماريوس وصلا وبومبى وقيصر ثم أوكتافيانوس نفسه . ومن ثم لم يكن غريبا أن يطلق أهالى الولايات الشرقية على العاهل الرومانى لقب «الأوتوقراطور» Autocrator التى تعنى الحاكم المطلق فى اللغة اليونانية ، والتى قد تقابل لقب «امبراطور» فى اللاتينية .

ومن الأهمية بمكان أن نذكر أن السناتو الرومانى قد أسبغ كل هذه الألقاب على شخص أوكتافيانوس ، باعتباره منقذا للجمهورية الرومانية من أعدائها ، ولم يدر بخلد أعضائه مطلقا خلع هذه الألقاب كلها على منصب الحاكم الرومانى أوكتافيانوس، أى أنها لاتتعدى شخصه

٥٧- لمزيد من التفصيل عن هذه الألقاب كلها التى منحها السناتو لأوكتافيانوس وأصولها ودلالتها ، راجع، عبد اللطيف أحمد على، الامبراطورية الرومانية، عصر أوغسطس، القاهرة ١٩٧١ ، ص٧٧، ٨٨ -٩٤ .

إلى خلفائه ، حتى لاتصبح سيفا مصلتا على رقبة السناتو نفسه من بعد. ومع هذا إلا أن أحدا من خلفاء أوكتافيانوس لم يتخل أبدا أو يتنازل عن هذه الألقاب التى تحولت مع الزمن إلى سلطة مطلقة ، وحدث بذلك ما كان يخشاه مجلس الشيوخ ، وبتوالى القرون واختفاء النبالة الأصيلة والأرستقراطية العريقة ، وظهور نبالة جديدة متسلقة من محدثى النعمة ، تواكبت مع ازدياد النفوذ العسكرى لقادة الفيالق الرومانية والجند بصفة عامة ، تولى السناتو إلى الظل ليمسى فى القرن السادس الميلادى ، على حد تعبير المؤرخ المعاصر بروكوبيوس Procopius مجرد صورة معلقة على جدران الزمن، مجردا من كل سلطان و لايملك إصدار قرار، أو يمتلك أية بادرة طيبة ، يجتمع فقط من أجل استكمال الشكل العام ، لايسمح لأى من أعضائه أن ينبس ببنت شفة ... يصدق فى النهاية على كل ما يراه الامبراطور »[٥٨].

من هنا يمكن تفسير الاضطهاد الذى حل بالمسيحيين على أيدى الأباطرة الرومان ، لقد كان فى حقيقته اضطهادا سياسيا ، فى ضوء رفض الفكر السياسى الرومانى للقاعدة الرئيسية التى يقوم عليها الاعتقاد الكنسى، المستند إلى أن هناك ما يخص القيصر وما يخص الله ، استلهاما لقول المسيح لبنى يهود وهو يحاورهم «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»[٥٩] رغم ما حاوله مؤرخو الكنيسة قديما ومن سار على نهجهم عبر هذه القرون الطويلة من صبغ الاضطهاد بصبغة دينية بحتة . وقد نلتمس العذر فى هذا الاعتقاد لمؤرخى الكنيسة فقط ، بحكم تربيتهم الدينية وثقافتهم الإكليروسية وفى بعض الأحيان مراتبهم الكهنوتية .

والاضطهاد الذى شهده عهد دقلديانوس ، وذهب فى التاريخ بسمعة عريضة فى العنف والقسوة ، حتى وصم بـ«الاضطهاد الأعظم» واستمر على عهد خليفته جاليريوس، كان يمثل فى جوهره الاضطهاد السياسى بعينه ، فقد أقدم دقلديانوس على اعتبار نفسه ، جريا على عادة بعض أسلافه من أباطرة الرومان، امبراطورا مؤلها ، وأمر رعيته أن تحنى الهام إجلالا وتقديسا إذا سار الإمبراطور فى موكبه ، وكان السماح بتقبيل ذيل الرداء الإمبراطورى تشريفا لايناله إلا المقربون ! والغريب أنه نجح على هذا النحو فى أن يعيد للمنصب الإمبراطورى هيبته التى كان قد افتقدها نتيجة عبث الجيش بالسياسة إبان أزمة القرن الثالث الميلادى الطاحنة .

٥٨- PROCOP . hist. arc. XIV, 10 .

٥٩- متى ٢٢ / ١٥ -٢١ .

وكان دقلديانوس يدرك تماما أن الإمبراطورية ، بفضل نظامه الرباعى الذى وضعه ، قد أصبحت طوع أمر الإمبراطور ، ولاشك أن ما كان يؤرقه ، وهو «الأوتوقراطور» أن يرى نفرا جلهم من المستضعفين ، لاينزلون عند أوامره ، وبخاصة فيما يتعلق بالعبادة الإمبراطورية ، التى أسلفنا أنها أمست تمثل فى جوهرها رمز الولاء للدولة ، أى أنها بتعبير أكثر وضوحا ، عبادة سياسية . ولم يكن دقلديانوس يتصور مطلقا أن تخرج الكنيسة عن دائرة نفوذه ، وأن تغدو بذلك دولة داخل الدولة ، وكان يعتقد والقلق يملك عليه كل سبيل أن النظام المسيحى على هذه الصورة التى تباشرها الكنيسة بكل دقة وانضباط ، سوف يودى بجهوده الضخمة التى بذلها طوال هذه السنوات فى سبيل وحدة الإمبراطورية وإعادة القوة إليها[٦٠].

والوثائق الرسمية المعاصرة والتى أوردها المؤرخون الكنسيون أنفسهم ، تدلنا على أن الاضطهاد كان سياسيا فى جوهره دون منازع ، ففى المرسوم الذى أصدره الإمبراطور جاليريوس فى الثلاثين من أبريل عام ٣١١ ، قبيل وفاته بأيام قلائل ، والذى يقضى بالعفو عن المسيحيين ورفع الاضطهاد عنهم ، جاء فى ديباجته قول الإمبراطور : «كان من بين الأمور التى رتبناها حفاظا على الصالح العام، ما سبق أن أبدينا من الرغبة فى رد الأوضاع إلى الحالة اللائقة بالقوانين القديمة ونظام الرومان العام» ثم يمضى المرسوم فيقول « ... إن محبتنا وما ألفناه من الصفح عن الجميع قد دفعنا إلى أن يشمل عفونا هذه الأمور أيضا (تحدى المسيحيين للأوامر الإمبراطورية) حتى يبقوا على مسيحيتهم ، ويعيدوا بناء تلك الأماكن التى اعتادوا الاجتماع فيها ، شريطة أن لايقوموا بأى عمل ضد النظام العام»[٦١].

والعبارة الأخيرة هذه وما جاء فى ديباجة المرسوم من رغبة الإمبراطور فى الحفاظ على «الصالح العام» طبقا لتقاليد روما ونظمها ، تغنى الباحث عن أى تعليق ، إلا بما يمكن أن يزيد المسألة وضوحا ، وذلك من خلال العبارات التى تضمنتها الرسالة التى بعث بها ليكينيوس عاهل النصف الشرقى من الإمبراطورية ، إلى نائبه فى نيقوميديا بآسيا

٦٠- للوقوف على سياسة دقلديانوس تجاه المسيحية تفصيلا، راجع كتابنا ، الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى، القاهرة ١٩٨٢ ، ص٤٣-٥٣ .

٦١- EUSEB . hist. eccl . VIII, 17 ; LACT. mort . pers . 34 .

الصغرى[٦٢] ، عقيب انتصاره على خصمه ماكسيمين دايا سنة ٣١٣ ، والتى تعد تقريرا عما دار وتقرر فى الاجتماع الثنائى الذى تم عقده فى مدينة ميلانو فى نفس العام ، بين ليكينيوس وصهره قسطنطين عاهل النصف الغربى، وهى الرسالة التى شاعت تسميتها خطأ بين الدارسين باسم «مرسوم ميلانو» وكلها تدور حول هذا المعنى الذى بسطناه ، وجاء فيها : «وعندما أتينا ميلانو ، وتأملنا كل ما يجلب الصالح العام ورفاهية الجميع ، اعتزمنا أن نصدر من الأوامر ما يعود بالخير على كل نفس ... ».

وكان من أهم ما تضمنه اتفاق ميلانو «إن السلام الشامل فى أيامنا هذه يستوجب أن يمتلك كل فرد حرية عبادة أى إله يريد» و«لكى يعم الهدوء ويسود السلام ابذلوا كل جهدكم (الخطاب موجه لحاكم نيقوميديا) لاتمام أوامرنا بسرعة ، لأننا بهذا السبيل نضمن دوام رحمة الرب». ومن ثم فإن «سلام» الإمبراطورية و«وحدتها» و «صالحها العام» ، وكلها أمور سياسية كانت دافع قطبى ميلانو لاتخاذ هذه السياسة التسامحية .

ومن الجدير بالذكر أن اجتماع ميلانو بين عاهلى الإمبراطورية، تمخض عما يمكن اعتباره قرارا مصيريا فيما يتعلق بالكنيسة المسيحية والمسيحيين ، فقد غدت المسيحية بمقتضاه «ديانة شرعية» Riligio Licita شأنهافى ذلك شأن العبادات الوثنية القائمة واليهودية ، وذلك فى إطار إطلاق حرية العقيدة لكل رعايا الإمبراطورية « ... يمنح المسيحيون وسائر الناس الحرية فى اتباع ما ترضاه من الديانة نفوسهم ، وأن لايحرم أى إنسان من حرية الاختيار فى اتباع عقيدة المسيحيين أو فى اعتناق الديانة التى يراها متناغمة وقلبه ، حتى يتفضل علينا الرب بجميل نعمائه ».

ويخطئ كثير من الدارسين حين يقررون أن المسيحية غدت بمقتضى اتفاق ميلانو ، وبفعل السياسة التى اتبعها الإمبراطور قسطنطين من بعد ، طيلة عهده ، بالإغداق على المسيحيين وكشف الضر عنهم ، ديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية ، فذلك شئ لم يدر بخلد قسطنطين، ولم يسع إليه، فالرجل أعطى المسيحيين الحرية الممنوحة لغيرهم من الرومان فى ممارسة طقوس عقيدتهم ، ورد إليهم أموالهم المصادرة وممتلكاتهم ، فرفعوه مكانا عليا. لكنه فى

٦٢- LACT . mort . pers 48 ; EUSEB . hist. eccl. X , 5 .

وراجع للمؤلف ، الدولة والكنيسة ، جـ٢ ص١٠٥-١٠٩ .

الوقت نفسه لم يصدر قرارا باضطهاد الوثنيين أو تدمير معابدهم أو حرمانهم من اجتماعاتهم وحقوقهم ، ولم يحدث مثل هذا إلا على عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I فى نهاية القرن الرابع الميلادى[٦٣] ، لتغدو المسيحية آنذاك فقط ، على عهده ، وليس على عهد قسطنطين، الدين الرسمى للإمبراطورية الرومانية ، عندها انقلبت الآية ، وراح معذَّبو الأمس يكيلون اليوم لمضطهديهم الأول ، العذاب ألوانا !

لكن الذى لاشك فيه أن سياسة قسطنطين هذه، أعنى اعترافه بالمسيحية «ديانة شرعية» فقط ، كانت علامة بارزة من علامات التحول من عالم رومانى إلى عالم بيزنطى ، ومن عصر قديم إلى عصر جديد ، هو العصر الوسيط ، نتيجة ما ترتب على ذلك فى المدى البعيد عبر القرون التالية ، من «انقلاب» حضارى شمل كل جوانب الحياة فى العالم الرومانى القديم، هذا طبعا بالإضافة إلى عوامل أخرى عديدة ، كان أبرزها هطول الشعوب الجرمانية على النصف الغربى من الإمبراطورية خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين.

وقد يقفز إلى الذهن الآن ، أن الاضطهاد الرومانى للمسيحيين قد توقف بفعل تحول الدولة تدريجيا إلى المسيحية ، بدءا بـ «الشرعية» وانتهاء بـ «الرسمية» . لكن هذا لم يحدث ، بل ازداد الاضطهاد الرومانى – فى عهد الأباطرة المسيحيين – للمسيحيين ضراوة عما كان عليه زمن الأباطرة الوثنيين ، وكان ما عانته الكنيسة والمسيحيون فى ظل أباطرة من بنى عقيدتهم، أشد وأبقى !!

ويعود هذا فى المقام الأول إلى ازدياد هوة التباعد فى وجهتى النظر بين الاعتقاد الكنسى والفكر السياسى الرومانى ، فرجال الدين المسيحيون رأوا فى قيام امبراطورية مسيحية الفرصة التى يبحثون عنها طيلة أربعة قرون من الزمان خلت ، ليحققوا من خلالها قيام مملكة الرب على الأرض ممثلة فى الكنيسة الجامعة، وحتى مع إيمانهم بأن هناك ما يخص القيصر وما يخص الله ، إلا أن هذا الإيمان لم يكن مطلقا ، إذ حرصوا على أن يكون هذا الذى يخص القيصر أيضا، خاضعا لرشد وهداية ، إن لم يكن إرادة رجل الدين !

٦٣– ناقش المؤلف هذه القضية تفصيلا فى كتابه ، الدولة والكنيسة ، وتناول ذلك فى ثلاثة أجزاء ، الجزء الثانى ويختص بالإمبراطور قسطنطين ، والثالث يضم أبناء قسطنطين وعددا من الأباطرة الآخرين مثل جوليان وجوفيان وفالنز وفالنتينيان الأول، أما الجزء الرابع فقد خصص للإمبراطور ثيودوسيوس الأول الذى جعل المسيحية الدين الرسمى للإمبراطورية . راجع للمؤلف ، الدولة والكنيسة ، الأجزاء ٢ ، ٣ ، ٤ . القاهرة ١٩٨٢ – ١٩٨٤ .

ولم يغب عن آمال الكنيسة وطموحاتها أن دولة يجلس على عرشها إمبراطور مسيحى ، لابد أن يكون رجالها هم واجهة هذه الدولة ، بل وعقل الحاكم وقلبه ولسانه ، وكانت النظرية التفاؤلية التى بشر بها شيخ مؤرخى الكنيسة يوسيبيوس القيسارى فى كتابه «التاريخ الكنسى» Historia Ecclesiastica عن التزاوج بين الدولة والكنيسة ، بابًا ولج منه هذا الاعتقاد الكنسي حول حق الكنيسة فى أن تكون لها اليد العليا فى الدولة . وإذا كانت الكنيسة قد أسلمت لقسطنطين الكبير قيادها طائعة باعتباره الرجل الذى رفع عنها إصرها والأغلال التى كانت عليها، وسمحت للأباطرة - فى ظل حماة الجدال اللاهوتى - أن يسيروا دفة أمورها، ولو إلى حين ، إلا أن ذلك لم يكن يعنى أنها كانت قد رضيت هذا السلوك منهاجًا لها طيلة عمرها ، أو اقتناعا منها بشرعيته ، بل فقط لأنه كان يمثل آنذاك ضرورة حياة لوجودها . وبدا هذا واضحا على الفور بعد موت قسطنطين .

فهذا هو الأسقف القرطبى العجوز «هوسيوس» Hosius الذى عمل مستشارا لقسطنطين ، لم يجد فى ولده قسطنطيوس السياسة الحيكمة أو الوسطية التى كانت ديدن أبيه ، ومن ثم ترك هذا الابن وذهب مغاضبا ، ولم يكتف بذلك بل كتب إليه رسالة تحمل كل هذه الأمانى ، أو الاعتقاد الكنسى الذى عرضنا له، وتعبر تعبيرا صريحا عن معتقد رجال الدين حول مكانة الكنيسة المسيحية الجامعة ، يقول الرجل فى رسالته إلى الإمبراطور :«تذكر أنك رجل فانٍ ، خف يوم الدينونة ، واحفظ نفسك لليوم ذاك نقية طاهرة، لاتقحم نفسك فى المسائل الكنسية ، لاتصدر إلينا أوامر هى من صميم شئوننا، بل لتتعلمها أنت منا نحن ، الله وضع فى يدك هذه المملكة، وإلينا سلم أمور الكنيسة ، وكما أن الذى يسلبك هذه الإمبراطورية يصنع الشر فى عين الرب، فلتخش أنت أيضا التدخل فى شئون الكنيسة حتى لاتأتى بذلك أمراً إداً . مكتوب «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، ومن ثم فليس من واجبنا أن نمارس حكم الدنيا ، وليس من حقك أيها السيد أن تحرق البخور » .

وتبلغ الحدة مبلغها بالأسقف القرطبى فيقول : « ... ألا فلتقلع عن القهر والطغيان . لاتكتب رسالة . لاترسل قائدا . أطلق أولئك الذين هم الآن فى المنفى، خشية إن داومت على العنف أنت ، أتوا هم من القوة والعنف أعظمه»[٦٤].

٦٤- HOSIUS , ep . ad Constantium, in (ATHANAS. historia Arianorum, 44) .

وهذه العبارات الأخيرة تأخذ شكل الأوامر المباشرة الموجهة من الأسقف إلى الإمبراطور ، كما تحمل آخر عبارة نغمة التهديد الصريح بالرد على عنف الإمبراطور وقسوته بما هو أشد وأنكى، وهذا يؤكد ما نذهب إليه من الصدمة العنيفة التى شعر بها رجال الدين ، بعد أن وجدوا اعتقادهم عن سلطان الكنيسة يتحطم على صخرة الفكر السياسى للأباطرة الرومان.

ولدينا أنموذج آخر معاصر أيضا من القرن الرابع الميلادى، يتجسد فى شخصية «هيلارى» Hilarius أسقف بواتييه Poitiers فى غالة، الذى كتب إلى الإمبراطور نفسه ، قسطنطيوس، رسالة لاتختلف كثيرا عما كتبه هو سيوس ، وتركز على ضرورة كف أيدى السلطات المدينة عن التدخل فى الشئون الدينية ، وكفالة الحرية التامة لشعب الكنيسة الكاثوليكية[٦٥]. ويشير الأسقف السكندرى أثناسيوس إلى الأمر نفسه فى خضم صراعه مع الإمبراطور قسطنطيوس ، الذى يبدو واضحا أن سياسته التى جاءت مناقضة تماما لسياسة أبيه القائمة على القبض على العصا من الوسط ، وتحريك كل هذا الاتجاهات العقيدية المختلفة بطرفيها ، فجّرت كوامن النفس هذه لدى آباء الكنيسة فى الإمبراطورية ، فى الشرق والغرب على السواء. وقد جاءت عبارات أثناسيوس تجرى قصيرة على هذا النحو «منذ كان قضاة الكنيسة يتلقون صلاحياتهم من الإمبراطور ؟! منذ متى كان مرسومه معترفا به لدى الكنيسة ؟! هناك مجامع عديدة عقدت ، وأحكام كثيرة وقوانين عن الكنيسة صدرت ، ولم يحاول الآباء السعى للحصول على موافقة الإمبراطور ، ولا حتى حاول الإمبراطور أن يشغل نفسه بشئون الكنيسة»[٦٦]. وما يورده أثناسيوس هنا فى آخر العبارة عن الآباء والإمبراطور ، لايتفق ومجريات الأحداث التاريخية ، إلا إذا صرفنا ذلك القول إلى القرون الثلاثة الأولى التى سبقت قسطنطين .

وقبل أن تكتمل حلقات القرن الرابع ، كان الأسقف الميلانى أمبروز يخاطب الإمبراطور ڤالنتينيان الثانى Valentinianus II بقوله «الجزية لقيصر ، ذلك شئ لاننكره ، والكنيسة لله .. ومن ثم فلا تخضع لقيصر، الإمبراطور داخل الكنيسة وليس فوقها». ثم يعلو صوته صارخا وهو يواجه ثيودوسيوس الأول Theodosius I الإمبراطور الذى جعل من المسيحية دينا

٦٥- HILARIUS , ad Const. Aug. I, 1-8 (P.L X, 557-564) .

٦٦- ATHANAS. Hist. Arian. 52 .

رسميا للإمبراطورية «أيها الإمبراطور .. عليك أن تصغى إلىّ فى قصرك طائعا ، حتى لاتسمع لقولى فى الكنيسة كارها .. لست إلا بشرا استولت عليك الضلالة ، فامحها ، فالخطيئة لاتمحوها إلا الدموع والتوبة »(٦٧).

ويطالعنا القرن الخامس فى بداياته بكتاب «مدينة الله» Civitas Dei الذى وضع فيه القديس أوغسطين St. Augustinus فكره السياسى عن المدينة السماوية والمدينة الأرضية ، وهما ليستا بالضرورة الكنيسة والدولة ، وأوضح أن الدولة ليست لها وظيفة دينية تؤديها ، وإن كان عليها أن توفر القانون والنظام لتحقيق السلام الأرضى ، الخلفية التى تقوم بها المدينة السماوية ، ومن ثم فهى ، أى الدولة ، مجرد مؤسسة تابعة وظيفتها تهيئة الظروف الاجتماعية والسياسية التى تلائم الحياة الدينية القويمة . وهكذا يتضح أن أوغسطين يخص الكنيسة بالفضل على الدولة (٦٨). حتى إذا كانت نهايات هذا القرن طلع علينا البابا جلازيوس الأول Gelasius I (٤٩٢-٤٩٦) بما يمكن اعتباره أسس نظرية السمو البابوى فى العصور الوسطى ، ويبين هذا من قوله «هناك حقيقتان هامتان يسير عالمنا هذا بمقتضاهما ، السلطة المقدسة للإكليروس ، والسلطة الملكية، أكثرهما عبئا وثقلا فى الميزان ، الإكليروس، فرجاله سوف يُسألون يوم الدينونة حتى عن الملوك أنفسهم . ولتعلم أيها الابن الرحيم (الإمبراطور أنسطاسيوس الأول Anastasius I) أنك رغم علو سلطانك على الناس ، فإنك يجب أن تحنى الهام إجلالا لرجل الدين»(٦٩).

ومن خلال هذه النصوص التى عرضنا لبعض منها ، يتضح جليا أن الكنيسة كانت قد رتبت أمورها على أن تصبح صاحبة السلطة الأعلى التشريعية Auctoritas فى ظل دولة مسيحية يضطلع القيصر فيها فقط بالسلطة التنفيذية Potestas. غير أن هذا بدا لأعين الأباطرة الرومان أمرا شديد الغرابة ، فالإمبراطور الرومانى فى ظل الأرباب، هو الإمبراطور الرومانى

٦٧- AMB. sermo contra Auxentium , 36 ; ep ad Theodosium, 33 .

٦٨- لمزيد من التفاصيل عن آراء أوغسطين السياسية ، راجع The Political writings of St. Augustine edited by , H. Paolucii , Indiana 1962

وقارن ، كانتور ، التاريخ الوسيط ، قصة حضارة : البداية والنهاية ، جـ١ ص١٣٣ .

٦٩- GELAS. ep ad Anastasium .

في ظل رب المسيحية لم تتغير منه إلا عقيدته ، لكن سلطته بقيت كما هى لم يتخل عن شئ منها ، حتى أن الأباطرة المسيحيين ظلوا أربعين سنة بعد قسطنطين ، أى إلى سبعينيات القرن الرابع، لايجدون غضاضة في حمل اللقب الوثنى الدينى «الكاهن الأعظم» Pontifex Maximus حتى تخلى عنه امبراطور الشطر الغربى جراتيان Gratianus. بل إن سلطة الإمبراطور زادت بصورة واضحة ، بعد التحول التدريجى إلى المسيحية ، عما كانت عليه خلال العصر الوثنى، ووجد الأباطرة فى المسيحية ما يعينهم على تدعيم سلطانهم بشكل أكثر استبداد وأشد تسلطا.

فالإمبراطور الذى كان فى الوثنية «الكاهن الأعظم» أصبح فى المسيحية «الأسقف الأعلى». لقد راح قسطنطين ذات يوم يخاطب جمعا من رجال الاكليروس بقوله : «حقا إنكم أساقفة ، لكن سلطانكم داخل الكنيسة . أما أنا فقد رسمنى الله أسقفا لأرعى أولئك الموجودين خارج الكنيسة» ! ويقول. «بفضل جهدى، ولأنى لله نعم الخادم ، آمن البرابرة بعبادة الرب ، وما ذلك إلا لأنهم أيقنوا أنه حافظنى وحامينى فى كل خطو ودرب »[٧٠]. وفى رسالة بعث بها إلى أساقفة فلسطين ، يؤكد بوضوح ذلك المعنى بقوله : «لقد كنت عدة الرب التى اختارها ، وقدر صلاحها لإنفاذ مشيئته . وعليه فإنه ابتداء من المحيط البريطانى البعيد، والأقاليم التى وفقا لقانون الطبيعة تستتر الشمس فيها بالأفق ، وبعد إلهى، أقصيت تماما وأزلت كل صنوف للشر سادت »[٧١]. ومن ثم فبينما كان لقب «الكاهن الأعظم» مجرد لقب شرفى تقليدى، لاتمتد صلاحيات حامله إلى الممارسة العملية للأمور الطقسية للأرباب ، كان الإمبراطور الرومانى المسيحى ، باعتباره «الأسقف الأعلى»، يمارس سلطات تفوق بكل المعايير، عمليا ، سلطة رئيس الأساقفة فى القسطنطينية، بل والبابا نفسه فى روما حتى القرن الثامن الميلادى .

لقد ظل عدد من الأباطرة الرومان الوثنيين ، ينفرون من مسألة «التأليه» التى اعتاد الأهالى فى الولايات الشرقية أن يخلعوها على حكامهم ، سواء فى الإمبراطوريات القديمة ، أو فارس ، أو الممالك الهلنستية، ثم أباطرة روما من بعد ، وينظرون إلى هذا الأمر باعتباره

٧٠- SOCRAT. hist. eccl . I, 34 .

٧١- EUSEB . vita Const. II 28 .

يبعدهم عن التقاليد الجمهورية الرومانية ، التى تعتبر القنصل زعيما رومانيا يستمد سلطته من الشعب الرومانى عن طريق السناتو ، وحتى بعد أن أمست سلطة مجلس الشيوخ إلى ضياع خلال العصر الإمبراطورى، إلا أن مسحة التقاليد الجمهورية ظلت باقية ، وإن كان الأباطرة دون استثناء ، قد طبعوا حكوماتهم بطابع الموناركية الأوتوقراطية . فلما تحولت الدولة إلى المسيحية ، غدا الإمبراطور بحكم منصبه ex Officio «نائب المسيح » Vicarius Christi على الأرض .

وقد تمثل هذا المظهر فى تصميم قاعة العرش الرومانى، فقد أهدى الجانب الأيسر من العرش الإمبراطورى إلى المسيح ، بحيث كان يترك شاغرا فى المناسبات العامة مثل الأعياد أو الاحتفالات الكنسية ، ويجلس الإمبراطور عن يمينه ، وإن كان الإمبراطور يشغله باعتباره نائب المسيح على الأرض عند استقباله للسفراء [٧٢]. بل إن الترحيب بالإمبراطور فى كل الاحتفالات التى تقام إما فى الهبدروم أو فى كنيسة أياصوفيا، كان يؤكد باستمرار على مركز الإمبراطور باعتباره الممثل المباشر لله، كما أن التسابيح التى كان يترنم بها عند الاحتفال بأحد العنصرة، وتتكلم عن الروح القدس بحديث متقد ، كانت تنصب فى حقيقتها على الإمبراطور، وهكذا التهليل الذى يجرى ليلة عيد الميلاد ، كان يرتبط تماما بالتسابيح والعظات التى خصصت لهذا الوقت من العام، ويجئ فيها ، «ألا فليحفظ المسيح ، واهب كل الحياة ، عهدك وعظمتك ، وليدفع الأمم عبر كل العالم لتسعى إليك تقدم الجزية لسلطانك ، كما قدم المجوس الهدايا إليه (إلى المسيح) »[٧٣].

ولقد ساهم المؤرخون الكنسيون وفى مقدمتهم شيخهم يوسيبيوس القيسارى ، فى تشييد أركان هذه السلطة الإمبراطورية ، ولاشك أن هذا جاء رد فعل لما عاينه يوسيبيوس زمن «الاضطهاد الأعظم» ، ولما رآه من أن يد الدولة التى أمسكت مطرقة الاضطهاد على عهود الأباطرة الوثنيين ، هى التى تمسح الآن بكل الرفق جراحات المسيحيين بيد قسطنطين ، فجعله فى عليين، وأضاف به إلى قائمة الحواريين واحدا ، فأصبح قسطنطين الحوارى الثالث عشر للمسيح . ولم تكن القصة التى أذاعها يوسيبيوس عن «اهتداء» قسطنطين إلى المسيحية ،

٧٢- هسى : العالم البيزنطى ، ترجمة رأفت عبد الحميد ، ص٢٣٠ .

٧٣- المرجع السابق ، ص٢٣١ .

إلا تسجيلا لما يعتمل فى فكر الإمبراطور نفسه عن السلطة المستمدة من السماء[٧٤] ، فلم يكن لرجل هذا شأنه أن يهتدى إلى المسيحية على لسان قس مسيحى أو مبشر ، وإلا لما تفرد الإمبراطور بشئ عن غيره من ولد آدم . ولقد كان يوسيبيوس يضع لقادم الأجيال، قصة رجل أنقذ من الضياع المسيحية ، يضفى على أفعاله إرادة السماء لا رغبات البشر ، وعناية الرب لاعون الإنسان. وفرق كبير بين تعى الأجيال المسيحية أن معتقدها على الأرض قد رسخ بيد امبراطور هدته السماء ، وبين إدراكها أنها حيت نتيجة إرادة حاكم جذبته إلى صفها ألسن بنى البشر !!

ولم يكن خلفاء قسطنطين ، الذى اتخذوا المسيحية دينا، أقل من سلفهم حرصا على تدعيم هذه السلطة ؛ فهذا هو قسطنطيوس Constantius (٣٣٧-٣٦١) ابن قسطنطين، يوجه خطابه إلى ليبريوس Liberius أسقف روما وهو يحاوره حول الأسقف السكندرى «أثناسيوس» Athanasius الذى كان يعد خصما شخصيا لقسطنطيوس، «ليس هناك نصر واحد من الذى تحقق لى، ولاحتى ذلك الذى لم يكن متوقعا على ماجننتيوس Magnentius وسيلفانوس Silvanus يعدل عندى طرد هذا الوغد من هيئة الكنيسة » ولما حاجه البابا من بعد قائلا إن أثناسيوس قد برئت ساحته على يد مجمع دينى يضم كبار الأساقفة ، وأن قرار عزله الآن بمرسوم امبراطورى يخالف القانون ، ما كان جواب الإمبراطور ردا عليه إلا قوله «إرادتى هى القانون»[٧٥].

٧٤- يروى يوسيبيوس فى كتابه «حياة قسطنطين» رواية يقول فيها إن الإمبراطور نفسه هو الذى قصها عليه وأقسم على صدقها ، خلاصتها أن قسطنطين أثناء زحفه بقواته إلى روما فى خريف عام ٣١٢ للاقاء خصمه ماكسنتيوس، كانت شمس الظهيرة فى يوم من أيام الزحف ذاك ، قد مالت إلى الغرب مؤذنة بنهار بدأ يمسى ، وإذا بهالة تضئ كبد السماء ، تعانق صليبا خط تحته بأحرف من نور «بهذا ستنتصر » Toutw Nica. وساورت الشكوك قسطنطين لهذا الذى يرى ! وذهبت به الظنون كل مذهب ، وتأخذه سنة من النوم ، فيتبدى له مسيح الرب ، والعلامة التى رآها بيمناه ، يأمره أن يتخذ إياها له شعارا ، وأن يجعل منها حارسا أمينا فى كل معاركه الآتية».

أنظر . EUSEB. vita Const. I , 28-32 وللمزيد من التفاصيل عن هذه القصة ومغزاها ومدى صحة الرواية أصلا ، والآراء التى دارت حولها ، ورأينا فى هذا الموضوع برمته، راجع للباحث، الدولة والكنيسة، الجزء الثانى،ص٩٥-٩٩ .

٧٥- THEOD . hist. eccl . II , 13 .

وهذا هو الإمبراطور جوستنيان Iustinanus فى القرن السادس الميلادى (٥٢٧-٥٦٥) يرى أن واجبه لايقتصر فقط على إقرار الإيمان الحق لرعاياه ، بل يمتد إلى التشريع والتنظيم الخاص بأمور الكنيسة . وقد جاء ذلك صراحة فى إحدى تشريعاته التى تقول، «حيث أن السلطة الإمبراطورية Imperium والكهانة Sacerdotium تنبعان من مصدر واحد، فليس هناك ما يهتم به الإمبراطور فى المقام الأول، إلا خيرية الكنيسة وسمعتها »[٧٦]. وأفصح جوستنيان عن جوهر الفكر السياسى الرومانى المسيحى فى عبارات بليغة ، جاءت فى ديباجة رسالته التى بعث بها إلى الفقيه تريبونيان Tribonianus وتصدرت العمل الفقهى والقانونى العظيم المعروف بـ «الدايجستا» Digesta (المختصر .. أو الجامع لأحكام الفقهاء والمشرعين)؛ يقول الامبراطور «إننا نحكم امبراطوريتنا بتفويض من الله ، وهو فى عليائه تفضل بها علينا »[٧٧]، وظلت تشريعاته تضرب على هذا الوتر بقوله : «إن الله قد أناب السلطة الإمبراطورية لرعاية شئون العالم ... هو الذى وضع على رأسنا التاج ، وهو الذى خلع علينا العباءة الأرجوانية ، وهو الذى فضلنا على كثير من السابقين»[٧٨]. ومن ثم كان شعار جوستنيان الذى يرفعه دائما ، دولة واحدة ، قانون واحد، كنيسة واحدة، وهو السيد الأعلى فى هذه الدولة ، والمشرع الأول ، ونائب المسيح على الأرض .

وفى القرن الثامن الميلادى، صدرت المجموعة القانونية المعروفة باسم «المختارات» Ecloga عن الإمبراطور ليو الثالث الايزورى وابنه قسطنطين الخامس ، وحملت مقدمتها قولهما: «حيث أن الله قد عهد إلينا بحكم الإمبراطورية، كما قضت بذلك مشيئته ، فقد أمرنا أيضا- كما أمر بطرس- أن نطعم شعبه المؤمن». ولم يلبث ليو أن أكد هذا كله فى رسالة بعث بها إلى البابا جريجورى الثانى فى روما ، إبان انفجار الصراع بين روما والقسطنطينية حول مشكلة عبادة الأيقونات ، جاء فيها أنه، أى ليو الثالث، «إمبراطور وأسقف». وهكذا وصلت «القيصرية البابوية»، Caesaro papism التى وضع قواعدها منذ القرن الرابع ، قسطنطين ، إلى قمة اكتمالها باعتبار الإمبراطور الرومانى هو القيصر والبابا فى الوقت نفسه .

٧٦- IUS. Novella VI, praef .

٧٧- IUS. Digesta , I, praef .

٧٨- IUS . Novella, I, praef .

من هنا .. وانطلاقا من هذه المفاهيم ، راح الأباطرة الرومان المسيحيون ، يتدخلون فى كل أمر من أمور الكنيسة ، دق أو كبر، فهم الذين يعينون الأساقفة ويعزلونهم ، وهم الذين يدعون إلى عقد المجامع الكنسية المسكونية Ecumenical Councils ويفضونها ، ويترأسون جلساتها إذا شاءوا ، ويديرون دفة النقاش فيها ، ويتدخلون فى أمر العقيدة بالحذف والإضافة ، ويقررون المعتقد الذى يرونه صالحا لرعيتهم، سواء علموا من أمر اللاهوت شيئا أم لم يعلموا.. وفى معظم الأحيان ، كان جلهم لايعلم !! وهكذا غدت الكنيسة فى الإمبراطورية الرومانية المسيحية ، أو ما صارت تعرف بالإمبراطورية البيزنطية ، دائرة من دوائر الدولة، وأسقفها موظفا كبيرا عند الإمبراطور ، يعينه ويعزله كيف يشاء . وإذا كان الفكر السياسى الرومانى الوثنى يرفض رفضا تاما قيام كيان مستقل عن سلطة الأباطرة ، أو بتعبير أدق - كما أسلفنا- دولة داخل الدولة، فإن الفكر السياسى الرومانى المسيحى ، كان أشد إصرارا على التمسك بهذا الجوهر ، متخذا من المسيحية نفسها لنفسه، ملهما ونصيرا .

وبمقتضى هذا الحق ، أقدم الأباطرة الرومان المسيحيون على إيقاع الأذى وإنزال الاضطهاد العنيف بالمسيحيين الذين يخالفونهم المذهب ، وشهدت الإمبراطورية من فنون التعذيب وقساواته فى عصرها المسيحى مع المسيحيين ، ما لم تعرفه فى عصرها الوثنى، ليس فقط من جانب النظام السياسى تجاه الناس ، بل من جانب رجال الدين الذين يساندهم هذا النظام لمصلحته السياسية، ويساندونه هم لمصالحهم الدنيوية ، واعلاء شأن مذهبهم ، ضد إخوانهم الذين يعارضونهم الرأى ، وتشهد مضابط جلسات عدد من المجامع المسكونية والمحلية على كثير من هذه الوقائع . ولقد كان الإمبراطور يؤمن يقينا أنه وحده له الحق فى اختيار المذهب الذى يجب أن يذهب إليه رعاياه دون مناقشة، فالناس عنده لابد أن يكونوا على دين ملوكهم.

ها هو قسطنطين نفسه . الذى لم يتخذ المسيحية له دينا ، وإن رأى فيها وسيلته لتحقيق أهدافه السياسية ، يخاطب جماعات مسيحية تعارض الكنيسة الكاثوليكية الرأى ، بقوله ، «يا كارهى الحق .. يا أعداء الحياة، يا أحلاف الخراب... أما وقد ضاق الصدر عن تحمل ويل ضلالكم ، فقد قررنا أن نحرّم اجتماعاتكم ، وأن نخرجكم من دياركم ، وأن تصادر ممتلكاتكم لصالح الدولة، ولن يشهد المستقبل لكم أى تسهيلات للقاء، ومن الآن فصاعدا لن يسمح لاجتماعاتكم غير الشرعية أن تعقد فى السر أو العلن .. وليكن ذلك للجميع معلوما »[٧٩].

٧٩- EUSEB , vita Const. III , 65 .

وهو يحسم الأمر بقوله للأساقفة في أول مجمع مسكوني عرفته الكنيسة ، أعني مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ، « ... إن الصراع الداخلي في الكنيسة ، يعد في رأيي ، أشد خطرا وأبعد فتكا من أي حرب أو قتال ، إن هذه الخلافات بينكم تبدو لي أكثر فاجعة إذا ما قورنت بأي شئ آخر »(٨٠). وقد وقف قسطنطين أولا يؤيد جماعة «النيقيين» الذين قالوا بأن الإبن مساو للآب في الجوهر Homoousius وبأنه ، أي المسيح ، مولود غير مخلوق ، ويضطهد خصومهم الآريوسيين ، أتباع القس السكندري آريوس، الذي قال بخلق المسيح، وساق الأساقفة في مجمع نيقية للتوقيع على هذه الصيغة التي زين له مستشاره الديني هوسيوس أسقف قرطبة، أنها أنسب الصيغ التوفيقية التي يمكن أن يُقاد الأساقفة للإقرار بها واعلانها قاعدة للإيمان الأرثوذكسي للكنيسة الكاثوليكية (الجامعة)، تحت دعوى قبولها في القرن الثالث من جانب كل من ديونيسيوس أسقف روما وسميه الأسقف السكندري. ثم لم يلبث الإمبراطور أن مال عن الأولين لصالح الآخرين. بينما ناصر إبنه قسطنطيوس الآريوسيين ، وأنزل أشد العذاب بالنيقيين، ودعا إلى عقد المجامع الكنسية في الشرق والغرب ، بعد أن أصبح السيد الفرد للإمبراطورية لإكراه المسيحيين جميعا في دولته على اعتناق المذهب الآريوسي. وسلك الإمبراطور فالنز Valens (٣٦٤-٣٧٨) السبيل نفسه ، حتى إذا جاء ثيودوسيوس الأول، انقلبت الآية ، ولقى الآريوسيون الاضطهاد العنيف، لصالح النيقيين. وفي القرن الخامس حل الاضطهاد بالنساطرة ، القائلين ببشرية العذراء لصالح المنادين بقداستها ، وذاق المنافزة أو اليعاقبة في الشام ومصر مرارة الاضطهاد من جانب الأباطرة الذين قالوا بالطبيعتين في المسيح، ثم هذه الحرب الطاحنة التي دامت ثمانين عاما كاملة في القرنين الثامن والتاسع بين الأباطرة اللاأيقونيين محطمي الأصنام - كما يصفهم المؤرخ أومان ، وخصومهم من عباد الأيقونات .

لم يكن الأمر قاصرا إذن فقط على عنف الاضطهاد وقسوته ، بل تعداه إلى الفترة الزمنية التي شغلها ، فبينما لم تتجاوز سنو الاضطهاد على عهود أباطرة الوثن عددا قليلا ، وربما يصل في مجموعه إلى ربع قرن خلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد (٨١)، نجد الاضطهاد في

٨٠- EUSEB . vita Const . III , 12 .

٨١- وقعت هذه الاضطهادات على عهود الأباطرة ، نيرون ودوميتيانوس في القرن الأول الميلادي، =

ظل الأباطرة المسيحيين يقع على امتداد خمسة قرون كاملة وينيف ، بلا هوادة . يزيده ضراما ظهور هذه الفرق المسيحية العديدة، التي تجادل من حول المسيح ، وذلك نتيجة لمحاولة آباء الكنيسة آنذاك تقديم المسيحية إلى الأميين في صورة عقلانية ، تتقلبها ثقافتهم ويرضاها فكرهم الفلسفي اليوناني ، فمزجوها بالفلسفة اليونانية عبر مدرستي الاسكندرية وأنطاكية ، مخلفين وراءهم بذلك بلا رجعة ، المسيحية اليهودية . لهذا كان طبيعيا أن تستمر عملية الاضطهاد الروماني من جانب الأباطرة المسيحيين للمسيحيين زمنا أطول عمرا.

وإذا كان الاضطهاد الروماني الوثني موجها للمسيحيين في ذواتهم باعتبارهم خارجين على سلطان القانون وأوامر الإمبراطور ، دون التعرض بالأذى للعقيدة المسيحية ذاتها، فلم يكن الأباطرة الوثنيون يعنيهم في شئ عودة المسيحيين إلى ديانة آبائهم وأجدادهم الوثنيين ، ولم يكن يشغل بالهم تهديدا معينا من جانب هذه الديانة الجديدة ، أو يرون فيها خطرا محدقا بأربابهم ، بل وسعت الوثنية الرومانية الديانة المسيحية في البانثيون الروماني ، مجمع الآلهة الرومانية، بل وسمح للمسيحيين أن يقيموا كنائسهم ودور عبادتهم في مختلف أنحاء الإمبراطورية، حتى في العاصمة نيقوميديا نفسها ، بل وفي مواجهة القصر الإمبراطوري نفسه. لقد كان كل ما يبتغيه الإمبراطور الروماني الوثني أن يظهر الرعايا المسيحيون ، شأنه شأن الوثنيين واليهود ، الاحترام للجالس على العرش .

نقول .. إذا كان هذا هو حال الأباطرة الرومان الوثنيين مع المسيحيين ، فإن الأمر يختلف جذريا في عصر الأباطرة المسيحين، إذ أمسى الاضطهاد الذي مارسوه يشمل المسيحيين في ذواتهم والمسيحية في جوهرها، ومن هنا كان اضطهادهم لبني دينهم أشد وأنكى! وكان الإمبراطور يمارس ذلك باعتباره إمبراطورا مسيحيا، اختارته العناية الإلهية لهداية بني البشر، ومن

= وسبتميوس سفروس في أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث وماكسيمين قيصر في القرن الثالث ، وكلها اضطهادات محلية متفرقة ، ولم تكن تمتد طوال عهود هؤلاء الأباطرة ، بل خلال سنوات قليلة من حكمهم . ثم وقع الاضطهاد العام على عهد دكيوس وهو لم يحكم أكثر من عامين فقط ، وفاليريان أربع سنوات ، إلى أن كانت السنوات العشر العجاف (٣٠٣-٣١٣) على عهود دقلديانوس وجاليريوس وماكسيمين دايا. وقد استقيت ذلك من التاريخ الكنسي ليوسيبيوس القيساري ، شيخ مؤرخي الكنيسة . وحتى لو أضفنا إلى ذلك ما وقع على عهود تراجان وهادريان ، لما زادت هذه السنوات كثيرا !!

ثم فإنه باعتباره نائب المسيح على الأرض ، فهو الذى يقع عليه عبء اختيار المذهب الصحيح الذى يراه مناسبا لإيمان شعبه ، وعلى هذه الجموع أن تدين له بالولاء والطاعة العمياء دون أن تنبس ببنت شفة !!

كان الاختلاف بين أباطرة الرومان الوثنيين ، وقرنائهم من المسيحيين ، أحيانا ، حول الوسيلة فقط ، لكن الهدف لدى هؤلاء وأولئك كان واحداً ؛ ذلك أن الفكر السياسى الرومانى، وثنيا كان أم مسيحيا لم يكن يقبل مطلقا بوجود دولة داخل الدولة ، حتى لو كانت هذه هى الكنيسة المسيحية فى ظل إمبراطور يعتبر نفسه نائب المسيح على الأرض .



الفصل الثانى

كنيســـة القـــدس
فى دائرة النزاع الأسقفى



كنيســة القـــدس
فى دائرة النزاع الأسقفى

منذ قدر للمسيحية أن تخرج عن نطاق اليهودية وتمضى إلى طريق أمم، كان عليها أن تتخلى كارهة عن أسلوب التبشير بين الأميين بمعجزات المسيح ، وحياته على الأرض ، إلى مخاطبة عقول أولاء البشر لا عواطفهم ، حيث كانت بعض مدائنهم قد ضربت بسهم وافر فى ميدان الفلسفة، وأصبحت الفلسفة ذاتها ، تمثل فى المجتمع الرومانى حوالى القرن الثانى طرائق حياة ، بل توقفت عن أن تصبح موضوعا دراسيا ، وأضحت أساسا على وفاق مع الدين. وكانت الرواقية بصفة خاصة ، بما تنطوي عليه من أخلاق سياسية وإيمان بكل الآلهة ، وجعل المعانى الفلسفية فى متناول الخلق جميعا ، وفتح باب الفلسفة على مصراعيه، تقدم للإنسان الحائر داخل مجتمع شاعت فيه الفوضى ودب فيه الانحلال ، أساسا أخلاقيا للسلوك ومبدأ راسخا لحياة فاضلة . ومن ثم كانت الرواقية تمثل من هذه الزاوية عقيدة أخلاقية حتى غدا الإمبراطور تراجان (٩٨-١١٧) ضمن حلقة سامعى الفيلسوف إبيكتاتوس Epictetus أشهر رجالاتها فى القرن الثانى ، بل إن الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١-١٨٠) كان من أعلام الفلاسفة الرواقيين[1] ولم تكن الأفلاطونية الحديثة أو الفيثاغورية الجديدة تقلان شأنا عن قرينتهما .

١- عن الرواقية انظر : دكتور عثمان أمين : الفلسفة الرواقية . وراجع أيضا :

Cary , A history of Rome down to the reign of Constantine, p. 588 . ويقول ول ديورنت : إن فكرة المسيح الإله قد هضمتها وامتصتها تقاليد العقل الهلنستى الدينية والفلسفية ، ومن ثم كان فى وسع العلم الوثنى أن يحتضنها ويرضى بها. إن المسيحية لم تقض على الوثنية، بل تبنتها. ذلك أن العقل اليونانى المحتضر عاد إلى الحياة فى صورة جديدة ممثلا فى لاهوت الكنيسة وطقوسها ، وأصبحت اللغة اليونانية التى ظلت قرونا عدة صاحبة السلطان على السياسة ، أداة الآداب والطقوس المسيحية . (قصة الحضارة، المجلد الثالث، الجزء الثالث . ص٢٧٥) .

من أجل هذا كان على المسيحية أن تلبس رداء الفلسفة ، أو بتعبير آخر كان لابد أن تتفلسف المسيحية . ولايعني هذا قيام فلسفة مسيحية بالمعنى الحقيقي لكلمة الفلسفة في ذلك الوقت المبكر من تاريخ المسيحية ، ولكنه يعني فقط مسيحية مفلسفة ، حيث أن الفلسفة المسيحية لم تتبلور بصفة أساسية إلا في القرن الثالث عشر على يد القديس توماس الأكويني[٢] St. Thomas Aquinas .

وكان طبيعيا والحالة هذه أن تتولى إلى الظل طواعية مدينة القدس ، تاركة الساحة لغيرها من مدائن نصف الإمبراطورية الرومانية اليوناني ، بما حوته من مدارس فكرية ومذاهب فلسفية شتى ، بحيث لم يكن في مقدور القدس أن تباري تلك المدائن صيتها الذائع وشهرتها الواسعة في مجالات الجدل الفكري، بعد أن أدت دورها ، الذي أتاحته لها إمكانياتها وقدراتها في إطار المسيحية اليهودية ، والمسيحية بعد تحبو في سني عمرها الأولى .

واقتسمت الساحة الآن مدينتا الأسكندرية وأنطاكية ، وإن اختلف أسلوبهما في صياغة المسيحية وطرائق التفكير عند كل منهما ، فاحتضنت الأسكندرية بمدرستها اللاهوتية الشهيرة الفكر الأفلاطوني، أو بتعبير أدق، اللاهوت العلمي الأفلاطوني ، مع استخدام التفسير المجازي أو الصوفي ، إن جاز هذا التعبير، لتفسير الكتاب المقدس، وبلغت المدرسة السكندرية أوج عظمتها على عهد المفكر والفيلسوف اللاهوتي السكندري أوريجن[٣] Origenes

---

١- للمزيد من التفاصيل عن فلسفة القديس توماس الأكويني انظر :

Knowles : The evolution of Medieval Thought, pp. 255-268 ; De wulf : Philosophy and civilization in the Middle Ages , p. 81 sqq; Dawson : Religion and the rise of western Culture, p. 171 sqq. Hughes , A history of the Church, vol. 2 pp. 423-434 .

وراجع أيضا دكتور حسن حنفي حسين : نماذج من الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى ، أوغسطين انسلم، توماس الأكويني ؛ وكذلك يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط؛ وأيضا عبده فراج، معالم الفكر الفلسفي في العصور الوسطى .

٢- عن أوريجن السكندري والأوريجينة أنظر : EVSEB, hist. eccl. VI, 2-4 , 8 , 16 , 19 , 23 , 24 , 27, 30 , 32 , 34 , 39 . Shiel , Greek thought and the rise of Christianity; Copleston, A history of Philosophy , vol. 2 - Mediaeval Philosophy, part I ; Ware, The Orthodox Church, 72-73 ; Chadwick, the Early Church, 100-114, 184-9, 209-210 , 215 .

(١٨٥-٢٥٤) . أما أنطاكية فقد ارتضت النهج الأرسطى واختطت أسلوب تفسير الكتاب المقدس تفسيرا عقليا ، وعلا قدر مدرستها اللاهوتية على يد فيلسوفها لوقيانوس Lucianus أواخر القرن الثالث الميلادى [٤].

هكذا راحت الأسكندرية وأنطاكية تخطوان سريعا خطوات واسعة باتجاه الرفعة فى عالم المسيحية ، وتستبقان فى ميدان الزعامة الكنسية ، فى وقت كانت روما ما تزال تمثل معقل الوثنية ومستقر أباطرة الرومان، ولم تكن كنيستها التى رفع القواعد منها القديس بطرس فى أوائل النصف الثانى من القرن الأول الميلادى تشغل مركزاً ذا بال آنذاك ، بينما لم تكن قد رأت النور بعد كنيسة القسطنطينية ولا المدينة. أما القدس ، الكنيسة والمدينة فقد أخذت تتوارى بالحجاب متخلية عن دورها القيادى فى التبشير بالمسيحية بعد أن أصبحت المسيحية اليهودية لاتتواءم وفكر الأمميين . وقد ساعدت الأحداث السياسية التى وقعت إبان القرنين الأول والثانى للميلاد على ذلك ؛ فقد تلقت مدينة القدس لكمة قوية سددتها إليها الحكومة الرومانية سنة ٧٠ على يد القائد تيطس Titus امتدت لتدمر الهيكل وتذبح عدداً كبيراً من اليهود ، كما أن الإمبراطور فسباسيان Vespasianus (٦٩-٧٩) فرض على كل يهودى أن يحول الضريبة التى كان يدفعها للهيكل فى القدس إلى البانثيون الرومانى ، ثم ما لبث

٤- كان من البدهى أن تنتشر دعوة آريوس السكندرى القائلة بخلق المسيح ، وتلاقى رواجا كبيرا فى الأوساط السورية ومنطقة آسيا الصغرى التى برز فيها تأثير المدرسة الأنطاكية العقلانية ، دون أن تحظى دعوته بمثل هذا الرواج فى الأسكندرية التى ينتمى إليها. ومن الجدير بالذكر أن آريوس تلقى تعليمه اللاهوتى فى مدرسة أنطاكية ، وكان زميلا ليوسيبيوس Eusebius أسقف نيقوميديا الذى تولى زعامة الفريق الآريوسى بعد وفاة آريوس سنة ٣٣٦، حتى لقد أصبح من المألوف القول بأن المدرسة الأنطاكية هى موطن المعتقد الآريوسى ، وأن لوقيانوس رأس هذه المدرسة ، هو الآريوسى قبل آريوس نفسه . ويصفه شيخ مؤرخى الكنيسة يوسيبيوس القيسارى بأنه عاش حياة نقية طاهرة ومات ميتة نبيلة أبية» . أنظر :

EVSEB. hist . eccl . VIII. 13 ; IX . 6 ; Hier, Vir. ill . 77 ; Knowles, op. cit. pp. 3-15 ; Lietzmann: From Constantine to Julian , a history of the early Church, p. 107; Downey, A history of the Byzantine Empire, I. p. 55 ; A Dictionary of Christian Biography , vol . I . art Arianism .

وراجع للباحث : الدولة والكنيسة ، الجزء الأول، الفصل الخامس .

الإمبراطور هادريان Hadrianus (١١٧-١٣٧) أن عاجل المدينة بالضربة القاضية على أثر الثورة التى أشعلها اليهود فى عامى ١١٥-١١٦ وامتدت إلى مناطق عدة من الإمبراطورية، فدمرت المدينة تماما وأقيم على أطلالها مدينة جديدة سميت إيلياء Aelia Capitolina . ورغم أن هذه الضربات كانت موجهة أصلا ضد اليهود ، إلا أن آثارها المباشرة انسحبت أيضا على المسيحيين[٥]. فقد كان من جراء التدمير الذى حل بالمدينة ، أن هجرها المسيحيون إلى مدينة Pella اليونانية، حقيقة أنهم سرعان ما عادوا إليها ثانية، إلا أن هذا الشتات المؤقت للجماعة المسيحية ترك أثره دون شك على كنيسة القدس ، هذا بالإضافة إلى أن المدينة قد غدت - بعد بناء إيلياء ، مدينة يونانية بمعابدها الوثنية ومسارحها . على أن أهم ما يلفت النظر هنا أن هذه الأحداث فى حد ذاتها كانت تعنى مزيدا من تحرر المسيحيين الأمميين من ربقة المسيحية اليهودية[٦] وبالتالى المزيد من علو كعب اللاهوت السكندرى والأنطاكى وارتفاع هامتى كنيستى المدينتين .

وقد جرى على الكنيسة وشعبها فى القدس ما جرى على الكنائس الأخرى والمسيحيين فى مختلف ولايات الإمبراطورية الرومانية ، خاصة الشطر الشرقى فيها، خلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد ومطلع القرن الرابع ، ونعنى بذلك نوبات الاضطهاد المتقطع الذى أنزله بعض الأباطرة الرومان بالمسيحيين ، من جراء حياة العزوف التى عاشها المسيحيون داخل المجتمع الرومانى ، والامتناع عن الاشتراك فى الوظائف العامة أو الجيش الرومانى- إلا قليلا منهم ، وفوق هذا وذاك رفضهم العبادة الإمبراطورية التى كانت تمثل رمز الولاء لروما والجالس على العرش . وقد أفاض كتاب المسيحية الأوائل فى وصف هذه الأحداث ، ويأتى فى مقدمة هؤلاء الكتاب شيخ مؤرخى الكنيسة يوسيبيوس[٧] Eusebius أسقف قيسارية Caesarea فلسطين . ولاكتانتيوس[٨] Lactantius البلاغى الأفريقى الشهير، وقد أفرد يوسيبيوس فى كتابه تاريخ

٥- انقضى وقت طويل قبل أن يجذب المسيحيون - كطائفة جديدة- نظر السلطة الإمبراطورية، ذلك أن الحكومة الرومانية ظلت لفترة ليست بالقصيرة تنظر إلى المسيحين باعتبارهم طائفة من اليهود انظر :

Painter, A history of the Middle Ages , 284-1500 , p. 13 .

٦- Boak, A history of Rome to 565 A. D. p. 395 ; Chadwick, op . cit. pp. 21-22 .

٨،٧- يتضمن كتاب التاريخ الكنسى Historia Ecclesiastica الذى وضعه يوسيبيوس القيسارى ثبتا=

الكنيسة فصلا كاملا عن شهداء فلسطين خلال عصر الاضطهاد الأعظم (٣٠٣-٣١٤) زمن الأباطرة دقلديانوس Diocletianus وجاليريوس Galerius وماكسيمين دايا Maxininus Daia وقد عالجنا هذا الموضوع بالتفصيل فى الفصل الأول .

وفى ظل هذه الظروف الفكرية والعقيدية والسياسية ، كانت مساهمة كنيسة القدس على امتداد هذه الفترة فى المسائل اللاهوتية أو حتى مسائل التنظيم الكنسى محدودة بدرجة واضحة ، هذا إذا استثنينا أول مجمع عرفته الكنيسة فى تاريخها ، وهو المجمع الذى عقده حواريو المسيح بعد موته، عندما كانت السيطرة ما تزال للمسيحية اليهودية، حيث اصطدموا بموقف الأمميين إزاء مسألة الختان حسبما تقضى به الشريعة الموسوية. وكان مجمع القدس هذا(٩) تجمعا لحواريى المسيح الذين تفرقوا فى الأمم بعد وفاته ، ويمثل التقاء استثنائيا لم تشهد الكنيسة مثله ثانية حتى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ . وليس من المبالغة فى شئ القول بأن المجمع يعد مسكونيا تجاوزا ، حيث كان هؤلاء الرسل يمثلون عالم المسيحية المحدود آنذاك ، بعد أن خرجوا من القدس وفلسطين يحملون دعوتهم إلى الأمميين .

وشهدت القدس أيضا سنة ١٩٨ مجمعا محليا(١٠) ترأسه ناركسوس Narcessus اسقف المدينة، وحضره ، ثيوفيلوس Theophilus أسقف قيسارية فلسطين ، وذلك للاتفاق على

= كاملا باسماء رجال الاكليروس وأساقفة الكنيسة الذين لقوا مصرعهم على امتداد القرون الثلاثة الأولى ومطلع القرن الرابع للميلاد، هذا بالإضافة إلى ما ذكرناه بالمتن عن الفصل الخاص بشهداء فلسطين . انظر :

Hist. eccl . II . 23 , 25 . III . 27 , 32 , IV , 16 ; VI . 1 , 28, 39 ; VII. 1 , 10 , 12 , 15 , 32 ; VIII. 1 -13 ; IX. 6-8 .

أما لاكتانيوس فقد ترك رسالة «عن موت المضطهدين » De Mortibus persecutorum تحدث فيها تفصيلا عن الأساليب العنيفة التى اتبعها الأباطرة الرومان فى اضطهاد المسيحيين وأوضح بأسلوب تراجيدى ساخر فى الوقت ذاته النهايات المحتومة التى تعرض لها هؤلاء الأباطرة .

٩- عن الأساليب التى دعت إلى عقد هذا المجمع والظروف التى أحاطت به، وقراراته والرسالة التى بعث بها الرسل منه إلى مختلف الكنائس ، راجع أعمال الرسل ١٥ وأيضا Bullough, Roman Catholicism, p. 163 ; Ware : The orthodox Church, p. 24 .

١٠- عرفت الكنيسة منذ تاريخها المبكر المجامع المحلية أو المكانية وهى التى تعقد فى عاصمة الإقليم تحت زعامة الكنائس التى حظى أساقفتها برتبة المطرانية ، وكانت روما والأسكندرية وأنطاكية فى مقدمة =

تحديد يوم عيد الفصح ، بعد أن ثار الخلاف بين كنائس آسيا الصغرى من ناحية وبقية الكنائس في عالم المسيحية من الناحية الأخرى حول هذه المسألة[١١] .

وعلى الرغم من أن القدس كانت تعلوها هالة كبرى من التقديس تفوق ما كانت عليه أي من المدن الثلاث ، روما والأسكندرية وأنطاكية ، التي نشأت كلها من قبل على الوثنية، إلا أن أساقفتها لم يكن لهم دور معين في السياسة الكنسية، ولم يشكلوا قوة ذات بال حتى القرن الخامس الميلادي عندما غرقت الكنيسة حتى آذانها في ذلك الجدل اللاهوتي العنيف حول طبيعة المسيح، ولم يكن بمقدورهم أن يؤدوا دورا فكريا أساسيا آنذاك، وحتى الدور الذي لعبته كنيسة القدس إبان ذلك الاصطراع بين الكنائس ، لم يكن يرتكز على قوة إكليروسية أو رهبانية شأن الأسكندرية مثلا، بل كان نابعا عن طموح أسقفي إحساسا بواقع مرير وتطلعا إلى مرتبة أسمى ، وسوف نتناول ذلك بالتفصيل في حينه.

غير أنه بمقدم القرن الرابع الميلادي ، واعتلاء قسطنطين Constantinus عرش الإمبراطورية (٣٠٦-٣٣٧) ، وإعلان المسيحية ديانة شرعية Riligio Licita وليست رسمية[١٢] ، دعيت القدس لتمارس حياة جديدة ، فقد حظيت فلسطين بصفة عامة بالنصيب الأكبر من الجهود التي بذلها الإمبراطور قسطنطين لإصلاح ما تهدم من كنائس أو بناء

= هذه الكراسي . وقد ساعدت السياسة العدائية التي اتبعتها الدولة الرومانية الوثنية تجاه المسيحية على تعميق هذا الاتجاه ، فقد كانت الإمبراطورية تنظر إلى المسيحية نظرة كلية ، ولم يكن يعنيها أمر الخلاف العقيدي الذي انتشر بين المسيحيين وأنفسهم منذ القرن الأول ، والذي كانت تعالجه هذه المجامع المحلية ، فلما مالت الدولة إلى المسيحية بعد ذلك زمن قسطنطين ، ثم أصبحت هي عقيدتها الرسمية زمن ثيودوسيوس الأول في أخريات القرن الرابع، وارتبطت الكنيسة بالدولة ارتباطا وثيقا- كما يذكر مؤرخ الكنيسة في القرن الخامس، سقراط، استن قسطنطين لخلفائه سنة عقد المجامع المسكونية التي بلغت سبعة مجامع في الكنيسة الشرقية ما بين عامي ٣٢٥ ، ٧٨٧ .

١١- انظر . EVSEB. hist. eccl . V , 23

١٢- للوقوف على آراء المؤرخين ، القدامى والمحدثين والمناقشات الطويلة التي دارت حول مسيحية قسطنطين، راجع للمؤلف، الدولة والكنيسة ، الجزء الثاني ، الفصل الثالث .

كنائس جديدة ، ولعل كنيسة القيامة تعد شاهدا حيا على ما قدمه قسطنطين لبيت المقدس(١٣) وسرعان ما فاقت المدينة سيرتها الأولى عندما قدمت إليها أم الإمبراطور قسطنطين ، التى ذاع صيتها باسم القديسة هيلانة، سعيا وراء خشبة الصليب ، ومشاركة لجهود ولدها فى إقامة عدد آخر من الكنائس فى المدينة المقدسة .

وقد بذل مكاريوس أسقف بيت المقدس جهودا كبيرة حفظها له مؤرخو الكنيسة ، فى محاولة لتقديم كل عون لهيلانة فى سبيل تحقيق مسعاها(١٤) وكان أهم ما تمخضت عنه هذه الرحلة أن وضعت هيلانة بذلك أسس الحج المسيحى إلى الأماكن المقدسة ، واعتبرت هى ذاتها أول حاجة فى المسيحية ، وليسير على نهجها القديس جيروم وشعب الكنيسة المسيحية كله من بعد(١٥) وليقترن اسم القدس دائما بالأماكن المقدسة ، حتى حق لأحد المؤرخين القول بأن أهمية كنيسة القدس تعود فقط إلى كونها تعد حامية الأماكن المقدسة المسيحية، ولاشئ سوى هذا(١٦).

ولقد كان من البدهى أن تدخل كنيسة القدس ، وإن كان على استحياء، حلبة الصراع العقيدى الذى ثار فى مطلع القرن الرابع مبتدئا بالاسكندرية ممتدا إلى فلسطين وسوريا فآسيا الصغرى ، وهو الذى عرف بالمشكلة الآريوسية(١٧) انتسابا إلى آريوس قس الكنيسة

١٣- يتحدث يوسيبيوس القيسارى باسهاب كامل عن تشييد كنيسة القيامة ، ويصفها وصفا دقيقا ، ومدى تفوقها على سائر الكنائس الأخرى فى العالم المسيحى ، والرسائل التى بعث بها قسطنطين إلى عماله فى الولايات والأسقف مكاريوس يحدثهم فيها عن بناء هذه الكنيسة واعتزازه بها . أنظر :

EVEB . Vita Const. III , 42-46 .

١٤- انظر للمزيد من التفاصيل عن هذه الرحلة . EVSEB. Vita. Const. III . 42 - 46

SOZOM . hist .eccl . II , 2 ; SOCR. hist . eccl . I , 17 .

١٥- يذكر يوسيبيوس القيسارى hist. eccl. vi, 11 أن أول حاج إلى بيت المقدس الأسقف الكبادوكى اسكندر فى عام ٢١٢ .

١٦- انظر . Ware, The Orthodox Church, p. 145

١٧- عقب صدور قرار مجمع نيقية سنة ٣٢٥ بإدانة الآريوسية ، وإعدام العمل الذى وضعه آريوس والمسمى Thalia ، والذى يتضمن فكر آريوس والمبادئ الآريوسية الأصلية ، أصبح المصدر الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه فى معرفة حقائق المعتقد الآريوسى، هى كتابات أساقفة النيقية وهى بطبيعتها تدين آريوس وآراءه، ومن ثم كان لابد من تناولها بشئ من الحذر، إلا أننا نستطيع أن نقف على بعض ما جاء فى الثاليا=

السكندرية ، الذى نادى بخلق المسيح من العدم واعتباره فى مرحلة ومرتبة تالية للآب . وقد لاقت هذه الآراء الآريوسية رواجا واسعا فى دوائر الكنيسة الشرقية بفعل المدارس والفكر الفلسفية اليونانية السائدة ، وبتأثير المدرسة اللاهوتية الأنطاكية القائمة على النهج الأرسطى العقلانى- كما أسلفنا .

ومن رسالة بعث بها آريوس إلى صديقه يوسيبيوس أسقف نيقوميديا نعلم مدى انتشار العقيدة الآريوسية فى الولايات الشرقية من الإمبراطورية، ويذكر القس السكندرى أسماء من شايعوه من أساقفة الكنيسة فى الشرق ثم يقول « ... وكل أساقفة الشرق عدا ثلاثة هم فيلوجونيوس Philogonius أسقف أنطاكية ، وهيلانيكوس Hellanicus أسقف طرابلس ، ومكاريوس Macarius أسقف القدس[١٨] ولاشك أن عداء مكاريوس للآريوسة كان أمرا متوقعا، بل لقد ظلت كنيسة القدس، طيلة القرن الرابع الذى سعر خلاله لهيب الجدل الآريوسى على ولائها الكامل للنيقية لاتبغى عنها حولا، هذا إذا استثنينا فترة يسيرة، اعلن فيها ماكسيموسMaximus الذى خلف مكاريوس، إدانته للأسقف السكندرى أثناسيوس الذى كان يعتبر المدافع الحق عن العقيدة النيقية . وما لبث ماكسيموس أن عاد بكنيسته سيرتها الأولى فى عدائها للآريوسية ، وأعلن توبته والندامة على ما اقترفت يداه نتيجة خداع الآريوسيين له، ورفض حضور مجمع أنطاكية الآريوسى سنة ٣٤١ ، والذى عرف باسم مجمع التدشين[١٩]. ولعل هذا الثبات على المعتقد النيقى يعود بطبيعة الحال، إلى ما ذكرناه آنفا، من أن القدس لم

= هذه من كتابات أثناسيوس أسقف الأسكندرية (٣٢٨-٣٧٣) وألد أعداء الآريوسية ، وكذلك من الشذرات المتفرقة التى خلفها مؤرخو الكنيسة المعاصرون انظر :

ATHANAS . Orat. C. Arian. I - IV; depos. Ar ; de deer III ; 6 . Sozom . hist. Eccl I, 15 ; THEDO . Hist. eccl. 1 , 3 , 4 , 5 ; Dictionary of Christian Biography , Art. Arianism ; Encyclopaedia of Religion and Ethics. vol. I. Art. Arianism .

١٨- انظر : THEOD. hist. eccl. 1 , 4 .

١٩- وذلك احتفالا بتدشين كنيسة أنطاكية الجديدة التى كانت تعرف أيضا بالكنيسة المثمنة . أنظر :

SOCR. hist. eccl . II. 8 ; SOZOM . hist. eccl. III . 5 .

وأيضا Hefele, History of the Councils, II. pp. 56-82 .

تحظ ، كالأسكندرية وأنطاكية ، بوجود مدارس الفكر والفلسفة اليونانية ، هذا بالإضافة إلى أنها تمثل أصول المسيحية اليهودية فى عالم المسيحية.

وفى عام ٣٣٥ كانت الكنيسة التى أقامها قسطنطين فى القدس ، قد اكتمل بناؤها ، ووافق هذا العام أيضا العيد الثلاثينى Tricennalia لاعتلاء الإمبراطور قسطنطين العرش ، وكان مجمع صور الذى عقد فى نفس العام قد أنهى جلساته، وأصدر قراراته بإدانة الأسقف السكندرية أثناسيوس وعزله من منصبه ، وقدم توصياته التى تدور حول إعادة قبول آريوس وصحبه فى شركة الكنيسة ثانية، بعد إدانته فى المجمع المسكونى الأول الذى عقد فى مدينة نيقية سنة ٣٢٥ وحضره الأسقف مكاريوس ، وأعطى صوته إلى جانب مخاصمى آريوس . وتلقى الحضور فى مجمع صور رسالة من الإمبراطور تدعوهم للتوجه إلى القدس للاحتفال بتدشين هذه الكنيسة الجديدة ، وغدت المدينة- على حد تعبير شيخ مؤرخى الكنيسة يوسيبيوس القيسارى- مسرحا يضم خليطا عجيبا من الأساقفة الذين وفدوا من كل الولايات الشرقية فى الإمبراطورية ، وأضحت تموج بالعديد من خدام الرب، بالإضافة إلى عدد كبير من موظفى القصر الإمبراطورى الذين أرسلوا للإشراف على هذا الحفل، والارتفاع به إلى ما يناسب مكانة الإمبراطور وذكرى اعتلائه العرش(٢٠).

ولاشك أن الإمبراطور قسطنطين عندما واتته أنباء هذا الاجتماع ، بالصورة التى جرى بها ، داعبه من جديد أمل إحلال السلام والوحدة داخل الكنيسة ، ومن ثم ما لبث أن بعث بآريوس السكندرى وصحبه يوزيوس Euzious إلى مجمع الأساقفة فى القدس ، مخبرا إياهم أنه قد اطلع على وثيقة إيمانهما التى قدماها إليه (٢١)، وأنه مقتنع بما جاء فيها، ومطابقتها لقانون

٢٠- أنظر: EVSEB. Vita Const. IV. 43 ; SOCR. hist. eccl. 1 , 33 ; SOZOM . hist. eccl. II,: 27 ; THEOD. hist. eccl. I , 28-29 ; Hefele, op . cit , II . p. 26 .

٢١- تم نفى آريوس وصحبه إلى الليريا بعد أن أدينت الآريوسية فى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ غير أنه لم تمض على ذلك ثلاث سنوات ، حتى كان الإمبراطور قد أصدر أوامره بالعفو عن يوسيبيوس النيقو ميدى وثيوجنس أسقف نيقية، المؤيدين لآريوس ، وعودتهما إلى كنيستيهما ، كما دارت المراسلات بين قسطنطين وآريوس، وعاد آريوس ويوزيوس إلى القسطنطينية بعد تدشينها فى عام ٣٣٠ وقدما للإمبراطور وثيقة إيمان عدها قسطنطين «قويمة» رغم أنها جاءت غامضة بل وخالية تماما مما تضمنه قانون الإيمان النيقى، خاصة =

الإيمان النيقى ، وحثهم على قبول هذه الوثيقة وإعادة آريوس وصحبه إلى الكنيسة . ولم يكن الأساقفة فى حاجة إلى توصية من الإمبراطور، فقد كانوا جميعا من مؤيدى الآريوسية، فأصدروا على الفور قرارهم بقبول صيغة الإيمان التى قدمها الرجلان إلى الإمبراطور ، وإعادة قبولهما فى شركة الكنيسة ، وعودتهما إلى بيعة الأسكندرية ، ورفعوا إلى الإمبراطور تقريرا بكل ما تم اتخاذه ، كما كتبوا رسائل بهذا المعنى إلى عموم الكنائس فى الأسكندرية وطيبة وليبيا ومختلف رجال الاكليروس فى مصر ، حاثين إياهم على قبول آريوس وشيعته، وشفعوا ذلك بأقوال تضع حديثهم فى صيغة أمر واجب التنفيذ ، فذكروا أنهم أقدموا على هذا بعد أن تأكد لديهم صدق إيمان آريوس وصحبه ، وأن الإمبراطور محبوب الرب التقى الورع ، قد شهد فى خطاب لهم بصحة إيمان الرجلين وأوصى بقبولهما فى الكنيسة .

وقد صمتت المصادر تماما عن الدور الذى لعبه مكاريوس خلال هذا كله، ولم تفصح بشئ عن موقفه من قرار الإمبراطور الخاص بقبول آريوس ثانية فى الكنيسة . غير أنه يمكن القول، تمشيا مع التقليد الكنسى، ان مكاريوس لابد أن يكون قد ترأس مجمع الأساقفة ذاك، باعتباره أسقف المدينة التى التأم فيها عقده ، وأنه شأن غيره من الأساقفة قد أعطى موافقته على قرارات المجمع، ذلك أن مؤرخى الكنيسة لم يذكروا لنا أسقفنا واحداً أبدى اعتراضه على ما ارتآه جمع الأساقفة فى القدس. ولاشك أن هذا يعود بطبيعة الحال ، بالإضافة إلى ما سبق أن ذكرناه عن الإمكانيات الفكرية والخلفية اليهودية لكنيسة القدس، إلى العلاقة الوثيقة التى كانت تربط بين الإمبراطور ومكاريوس ، والتى تبدت فى الرسائل[٢٢] التى بعث بها قسطنطين إلى أسقف القدس وتوطدت إبان الزيارة التى قامت بها هيلانة إلى المدينة المقدسة ومعاونة مكاريوس لها فى مهمتها التى ارتحلت من أجلها ، ونتيجة للعناية الخاصة التى أولاها الإمبراطور لهذه المدينة. يضاف إلى هذا أن الكنيسة عامة كانت قد رفعت قسطنطين إلى

= عبارتى «مساو للآب فى الجوهر Homoousius ومولود غير مخلوق .إلا أن الإمبراطور رغبة منه فى إحلال السلام ، وفى الوقت ذاته لعدم وعيه بحقيقة المسائل اللاهوتية ،صدق على هذه الوثيقة دون الرجوع إلى رأى الأكليروس، بعد أن سلمت له الكنيسة فى حيتها بالتدخل فى أدق ما يتعلق بشئونها الداخلية . انظر نص وثيقة الإيمان الخاصة بأريوس ويوزيوس فى . SOCR. hist. eccl . 1 , 26 .

٢٢- أنظر : EVSEB , Vita. Const. III , 3 ; SOCR. hist. eccl . 1,9 .

عليين، إذ جعلته الحوارى الثالث عشر للمسيح، ومن ثم لم يكن لها أن ترفع الرأس معارضة- إذا استثنينا الأسكندرية - لإمبراطور وهبها الحياة بعد أن أشرفت على الهلاك إبان عصر الاضطهاد الأعظم، وما كان لمكاريوس إذن ، أن يقف دون أساقفة المجمع ، ليعلن عن شكوكه فى صدق نيات الإمبراطور أو حسن تفهمه لوثيقة إيمان آريوس ويوزيوس !!.

وقد أدى مجمع القدس هذا فى سنة ٣٣٥، إلى عواقب وخيمة أرقت جفن الإمبراطور ما تبقى له من عمر ، وامتد ذلك أيضا ليشمل الكنيسة . فقد رفضت الأسكندرية الرضوخ لقرارات هذا المجمع وأعلنت عدم قبولها آريوس وصحبه فى كنيسة الأسكندرية ثانية، ونشط الفريق الآريوسى الذى تولى زعامته الآن يوسيبيوس النيقوميدى، بعد عودته من منفاه فى غاله سنة ٣٢٨ ، ليوغر صدر الإمبراطور على أسقف الأسكندرية ، حتى أصدر قسطنطين أوامره بنفى أثناسيوس إلى مدينة ترير Trier فى نفس العام (٣٣٥) ، ورفض الموافقة على تعيين أسقف جديد للأسكندرية خلفا له، وظل الكرسى السكندرى شاغراً طيلة عامين حتى مات قسطنطين وعاد أثناسيوس ثانية . أما الإكليروس السكندرى وشعب الكنيسة فيها فقد تابع أسقفه فيما ذهب إليه، وأدى دخول آريوس الأسكندرية بعد نفى أثناسيوس، إلى وقوع الاضطرابات العنيفة بين النيقيين والآريوسيين ، مما اضطر الإمبراطور- الحريص على إقرار الهدوء فى مصر من أجل القمح والنقود على حد تعبير المؤرخ جونز- إلى استدعاء آريوس إلى القسطنطينية، ولم يلبث آريوس أن حل المشكلة بنفسه عندما مات سنة ٣٣٦ ، وإن كانت الآريوسية قد ظلت تمثل للإمبراطورية صداعا مستمرا حتى قرب نهاية القرن الرابع.

فخلال مدة تقترب من نصف القرن (٣٣٧-٣٧٩) كان على المثل القائل بأن الناس على دين ملوكهم أن يتوارى بالحجاب ، لتحل محله ظاهرة فرضت نفسها تقول «الملوك على دين ناسهم!»؛ ذلك أن أبناء قسطنطين الثلاثة الذين اقتسموا فيما بينهم ، بعد وفاة أبيهم ، إدارة الحكم فى الإمبراطورية ، راحوا يؤيدون دون وعى المعتقد الذى يجدونه كل فى إقليمه، ولما كان الغرب الرومانى قد آوى إلى النيقية واستمسك بها، فقد أصبح قسطنطين الثانى وقنسطانز Constans إمبراطورا الغرب على النيقية . بينما أيد قسطنطيوس Constantius الآريوسية التى وجدها سائدة فى إقليمه ، أعنى الشطر الشرقى من الإمبراطورية. إلا أن هذه الحال لم تستمر طويلا. فبعد مقتل الأخوين قسطنطين الثانى وقنسطانز (٣٤٠ ، ٣٥٠ على التوالى) ، انفرد قسطنطيوس بحكم الإمبراطورية، ولما كان يعتنق المسيحية الآريوسية فقد حاول جاهدا

فرضها على الغرب الإمبراطورى والأسكندرية التى كانت تعد قلعة الأرثوذكسية النيقية، غير أن هذه الجهود لم تحقق الآمال التى كان قسطنطيوس يعلقها عليها ، وإن كانت السيادة على أية حال قد أصبحت الآن فى الإمبراطورية للمعتقد الآريوسى [٢٣]، وارتفع شأنها كذلك على عهد الإمبراطور فالنز Valens (٣٦٤- ٣٧٨) الذى كان يحكم النصف الشرقى من الإمبراطورية . فلما خر هذا صريعا أمام جحافل الفيزيقوط عند أدريا نوبل، واعتلى العرش ثيودوسيوس الأول Theodosius أذنت شمس الآريوسية بالمغيب ، وعلا نجم النيقية وأضحت المسيحية دين الدولة الرسمى .

وقد شهدت هذه الفترة وحتى عشرينيات القرن الخامس، عددا كبيرا من المجامع الكنسية المحلية والمسكونية التى عقدت فى معظم الكنائس على امتداد الإمبراطورية من أقصى الشرق إلى الغرب القصى ، سواء بين جماعات الآريوسيين وأنفسهم ، أو النيقيين وحدهم ، أو المجامع المشتركة التى ضمت هؤلاء وأولئك [٢٤]. وحظيت القدس ببعض منها وشارك أساقفتها فى معظمها وإن لم يتخل هؤلاء الأساقفة جميعهم عن النيقية كما أسلفنا .

ففى عام ٣٤٦ ، وكان قسطنطيوس قد فشل فى وقف هجمات الفرس على الحدود الشرقية، خضع لتهديدات أخيه قنسطانز إمبراطور الغرب، واستسلم لقرارات مجمع سرديكا Sardica الذى عقد سنة (٣٤٣)[٢٥] وقرر وجوب إعادة الأساقفة الذين عزلهم ونفاهم قسطنطيوس إلى كراسيهم ثانية . وكان من بين هؤلاء الأسقف السكندرى أثناسيوس ، الذى أمضى فترة نفيه الثانى فى الغرب فى ضيافة قسطنطين الثانى ثم قنسطانز ، ورجال الاكليروس فى الغرب بخاصة أسقف روما. ومن ثم سمح قسطنطيوس لأسقف الأسكندرية بالعودة إلى دياره، فارتحل أثناسيوس قاصدا مصر، وعرج فى طريقه على كنيسة القدس ، حيث أوحى إلى أسقفها ماكسيموس أن يدعو لعقد مجمع تحت رئاسته ، يضم أساقفة فلسطين، لتأكيد تبرئة أثناسيوس ، والتوكيد على حقه فى العودة إلى كرسى أسقفيته.

٢٣- تناول الباحث بالتفصيل كل هذه الأحداث فى كتابه : الدولة والكنيسة . الجزء الثالث، اثناسيوس .

٢٤- راجع كل هذه المجامع بالتفصيل فى الجزء الثالث من الدولة والكنيسة للباحث .

٢٥- انظر : SOCR. hist. eccl . II , 20 , 23 ; SOZOM . hist. eccl . III , 11, THEOD. hist. eccl . II, 6 ; Hefele, op. cit. pp. 86-176 .

ولم يتوان ماكسيموس عن ذلك ، فدعا على الفور عددا من أساقفة فلسطين وسوريا والتأم عقد المجمع قرب نهاية عام ٣٤٦، ورد على أثناسيوس كرامته وشركته فى الكنيسة ، وبعث المجمع برسالة إلى السكندريين وكل أساقفة مصر وليبيا يمتدح فيها الأسقف السكندرى وخلقه[٢٦] ويعلق المؤرخ الكنسي سقراط على ذلك بصورة ساخرة حيث يقول إن خصوم أثناسيوس راحو يسخرون من ماكسيموس ، نظرا لموقفه السابق من أثناسيوس ، حيث كان قد أدانه من قبل، كما أسلفنا ، ثم عاد الآن ليغير رأيه فجأة إلى الاتجاه المضاد تماما[٢٧] !!

وفى سنة ٣٩٩ شهدت كنيسة القدس مجمعا آخر دعت إليه الآراء التى دارت من حول فكر أوريجن اللاهوتى السكندرى الأشهر؛ والحقيقة أن أوريجن قد تعرض لكثير من النقد سواء فى حياته أو بعد موته ، وكان أول المضطهدين له الأسقف السكندرى ديمتريوس ، الذى اضطر أوريجن للارتحال من مصر متجها إلى فلسطين ، حيث اتخذ من قيسارية مستقراً له ومقاما ، وأقام فيها صورة مصغرة من مدرسة اللاهوت السكندرى ، التى يرتبط علو شأنها بأوريجن نفسه . وعلى الرغم مما قدمه أوريجن لعالم الفكر المسيحى فى مجال اللاهوت ، فقد اتهم من جانب خصومه بالهرطقة على اعتبار أنه يمزج المسيحية بالفلسفة الوثنية . ولم يكن الجدل حول الفكر الأوريجنى قاصرا على القدس فقط ، بل شهدت الأسكندرية وقبرص مجامع لنفس الغرض ، انتهت كلها إلى لعن اللاهوت الأوريجنى . وكان الذى فجر هذا الجدل آنذاك ما دار من جدال بين كل من القديس جيروم الذى كان يقيم آنذاك بصفة دائمة فى فلسطين ، وإبيفانيوس Epiphanius أسقف قبرص وروفينوس Rufinus (٣٤٥-٤١٠) أحد شيوخ الكنيسة فى أكويليا Aquileia ، وأحد مؤرخي الكنيسة ، وكان قد قدم إلى القدس فى عام ٣٩٠[٢٨] . واستمر الجدل قائما بين آباء الكنيسة حوالي عشر سنوات (٣٩٣-٤٠٢) ، وقد حذا

٢٦- انظر . SOCR. hist. eccl. II, 24 ; SOZOM. hist. eccl . III , 22; ATHANAS, hist. Arian . 25 ; apol. C. Arianos. 57 , Hefele, op . cit. II. 184 .

٢٧- انظر . SOCR. Hist. Eccl. II, 24 , 8

٢٨- GENN. de vir. ill. c. 17 ;

=Hefele. op . cit. II, pp. 418-419 .

مجمع القدس حلو قرينه الذى عقد فى الأسكندرية تحت رئاسة ثيوفيلوس Theophilus ، وتبعهما على نفس النهج مجمع قبرص الذى عقد عام ٤٠٢ (٢٩).

غير أن كنيسة القدس وجدت نفسها فى بواكير القرن الخامس طرفا فى نزاع لاهوتى من نوع جديد قدم إليها من الغرب الإمبراطورى، وهو شئ لم يكن مألوفا فى ذاك الشطر من الإمبراطورية الرومانية ، أعنى اشتغال كنائس النصف الغربى بالمسائل اللاهوتية المعقدة ، فمنذ أقر مجمع نيقية الهوموسية Homoousius » آوى إليها الغرب، واعتبرها الإيمان القويم للكنيسة ، وزاده ارتباطا بها، الفترة التى أمضاها الأسقف السكندرى أثناسيوس منفيا هناك ما بين (٣٣٥-٣٣٧) و (٣٣٩-٣٤٦) وبينما استعرت فى الشرق جمى الجدل اللاهوتى من حول المسيح ، انصرف الغرب لقرون متأخرة إلى الوصول بمسائل التنظيم الكنسى إلى النحو الأفضل ، وكان ذلك ناجما بلاريب عن خلو الغرب- إذا ما قورن بالشرق - من المدارس الفكرية والفلسفية اليونانية ، هذا بالإضافة إلى جمود اللغة اللاتينية ، التى لم يكن لها من الحيوية ما يساعد أصحابها على البراعة فى الجدال ، كما كانت عليه الحال بالنسبة لليونانية ، ومن ثم لجأ الغرب بجمود لغته وافتقاره إلى الفكر الفلسفى اليونانى من الغرق فى متاهات الكريستولوجية التى اصطلك الشرق بموجها.

= وكان روفينوس من أشد الناس تحمسا لأوريجن والأوريجينة وقام بترجمة عدد من أعماله إلى اللاتينية ، وكان هذا كافيا لاتهامه بالهرطقة من جانب أصدقاء جيروم الذين كانوا يقيمون فى روما، هذا بالإضافة إلى أن ثيوفيلوس أسقف الأسكندرية كتب إلى انسطاسيوس الأول أسقف روما (٣٩٩-٤١٠) يوضح له هرطقة أوريجن ، ويبين له ضرورة إدانة روفينوس ، لأن ذلك يتضمن بالتالى الإدانة لاوريجن نفسه . وقد كتب روفينوس دفاعا عن نفسه قدمه إلى البابا انسطاسيوس سنة ٤٠٠ ذكر فيه أن إيمانه يتفق مع ما بشرت به الكتب المقدسة. انظر دفاعه عن نفسه ورسالة أسقف روما إلى يوحنا أسقف بيت المقدس ودفاعه عن أوريجين وجداله مع جيروم ورد هذا عليه فى . Nicene and post Nicene Fathers . vol. III pp. 420-541

وللمزيد من التفاصيل عن الجدل حول الأوريجينية . انظر Chadwick , op . cit. pp. 209-210

٢٩- لم يعدم أوريجن المدافعين عنه، ويأتى فى مقدمة هؤلاء شيخ مؤرخى الكنيسة يوسيبيوس القيسارى، وديديموس Didymus الضرير ، الذى كان من أشهر مثقفى عصره، وكان آخر من تولى رئاسة مدرسة اللاهوت السكندرى . ثم يأتى بعد ذلك آباء اللاهوت الكبادوكيون الثلاثة، جريجورى النازيانزى وجريجورى النيساوى وباسيليوس أسقف قيسارية الكبادوك ، وروفينوس المؤرخ الكنسى . أما الأسقف السكندرى أثناسيوس ، فقد كان يقف إلى جانب أوريجن وإن كان بشئ من التحفظ .

على هذا النحو نعمت الكنيسة فى الغرب بهدوء ، لم يعكر صفو سلامه إلا جدل عقيدى صاحبه بلاجيوس Pelagius العلمانى اللاهوتى الذى جذبت محاضراته عن أهمية الإرادة الإنسانية فى الخلاص أسماع الحضور فى روما، ولقيت مبادئه رواجا واسعا لا فى إيطاليا وحدها بل فى غالة وبريطانيا. ولكنها قوبلت فى أفريقيا بعدم الارتياح عندما انتقل كايلستوس Caelestius تلميذ بلاجيوس، إلى قرطاجه، حيث تمت إدانته هناك على يد أوريليوس رئيس أساقفة قرطاجة . وقام القديس أوغسطين St. Augustinus بدور بارز فى التصدى للبلاجية(٣٠) أما ما كان من أمر بلاجيوس فإنه هجر روما بعد أن اجتاحتها قبائل القوط الغربيين تحت زعامة الاريك سنة ٤١٠ ، وولى وجهه شطر القدس ليبشر بدعوته هناك ، ولاشك أن الآمال كانت تداعب بلاجيوس حول إمكانية النجاح الذى يرتجى تحقيقه هنا يدفعه إلى اليقين بذلك ما يعلمه عن طبيعة اللاهوتيين الشرقيين وعن خصوبة التربة الفكرية فى هذه المنطقة ، وقد حقق بلاجيوس بالفعل بعضا مما كان يؤمله.

تولى القديس جيروم (٣٤٧-٤٢٠) مهمة الرد على بلاجيوس وتفنيد آرائه ، وما لبث أوروزيوس Orosius القس الأسبانى وأحد تلامذة القديس أوغسطين ، أن وفد إلى بيت لحم مبعوثا من قبل أستاذه ، ليشارك فى دحض الآراء البلاجية، وفى سنة ٤١٥ دعا يوحنا (٣٨٨-٤١٦) أسقف القدس مجمعا ضم أساقفة فلسطين وممثل أوغسطين لبحث الفكر البلاجية . وقد أحاط أوروزيوس المجتمعين علما بما تم اتخاذه من إجراءات ضد كايلستوس فى قرطاجة ، والرسالة التى وضعها أوغسطين فى الرد على دور الإرادة الإنسانية فى الخلاص كما أوضحه بلاجيوس .

وبناء على توجيهات يوحنا ، اضطر بلاجيوس إلى المثول بنفسه أمام المجمع ، فابتدره الحضور يسألون عما إذا كان قد أعلن حقيقة ذلك المعتقد الذى أدانه أوغسطين فأجاب لفوره:

٣- للمزيد من التفاصيل عن البلاجية وردود الكنيسة عليها انظر :

Encyclopaedia of Religion and Ethics, art . Pelagianism .

The Catholic Encyclopedia , art. Pelag.

The new Schaff- Herzog Encylopedia of Religious knowledge, art . Pelag.

Leff, Medival thought from st. Augustine to Ockham, pp. 52-54 .

«لست أدرى ما أنا فاعل بأوغسطين». وقد عد المؤتمرون ذلك نوعا من القحة تجاه رجل يسمو فى نظرهم إلى عليين، ومن ثم استبد بهم الغضب إلى الحد الذى تصايحوا فيه ليس فقط بطرد بلا جيوس من قاعة المجمع ، بل بلفظه تماما خارج البيعة ، غير أن يوحنا لم يلق بالا لكل هذه الاحتجاجات ، وسمح لبلا جيوس بالبقاء .

وتدلنا شخصية يوحنا على أنه كان يسعى إلى أن يجعل من نفسه حكما فى المسائل اللاهوتية حتى يكسب لكنيسته بذلك مرتبة بارزة ومكانة، فى وقت كانت قد بدأت تظهر فيه بوضوح بوادر التنافس بين الكنائس على مراكز الزعامة فى العالم المسيحى ، هذا على الرغم من أن المصادر لاتحدثنا فى كثير أو قليل عن معرفة لاهوتية حاز قصب السبق فيها يوحنا ، أو دراسات عقائدية وضعها . وهذه سمة واضحة سوف نجدها فى جل أساقفة كنيسة القدس إبان هذه الفترة ، وإن كانوا قد ساروا على نفس النهج الذى اختطه يوحنا ، بل وتفوقوا عليه فى ذلك أيضا .

وقد وجد يوحنا فى المشكلة البلاجية فرصة يحقق بها مبتغاه، فقد أعلن فى المجمع أنه يعتبر الممثل الحقيقى لشخص أوغسطين ، فواجهه أروزيوس بقوله : «إذا كنت حقا تمثل أوغسطين فعليك إذن أن تسير على هديه ». وقد علق أوروزيوس على ذلك قائلا إن يوحنا فعل هذا ليعطى لنفسه الحق فى التغاضى عن إهانة بلاجيوس لأوغسطين . ولم يلبث يوحنا أن طلب إلى أساقفة المجمع أن يعرضوا أولا الشكايات المقدمة ضد بلاجيوس ، فأعلن أوروزيوس أن بلاجيوس يؤكد أن الإنسان يمكن أن يكون بلا خطيئة ، فقط إذا أراد ذلك. وهنا يؤكد بلاجيوس على دور الإرادة الإنسانية فلما صدق الراهب الإنجليزى على ذلك، أضاف القس الأسبانى قوله بأن هذا المعتقد قد سبق شجبه فى مجمع قرطاجة ، وأدانه كل من أوغسطين وجيروم .

ولما حمى وطيس الجدال ، قطع يوحنا ذلك بقوله إنه يجب على أوروزيوس ومشايعيه أن يعلنوا بصفة رسمية أنهم يمثلون طرف الإدعاء ضد بلاجيوس ، وأن يعترفوا بيوحنا قاضيا فى هذا الخلاف . غير رفضوا الاقتراح ، وفشل يوحنا فى استمالة أوروزيوس إلى القول بأن الله قد جعل طبيعة الإنسان فى ذاتها شريرة .

والغريب أن اللغة لعبت هى الأخرى دورا كبيرا فى اتساع هوة الخلاف بين يوحنا وبلاجيوس ومؤيديه من ناحية ، واللاتين وعلى رأسهم أوروزيوس من الناحية الأخرى. فقد ذهب بلاجيوس خطوات بعيدة عندما أعلن أنه لم يقطع بأن الإنسان لايمكن أن يكون بطبيعته دون خطيئة ،

ولكن أى فرد يمكنه تجنب الإثم بأن يستمد من الله العون والقوة ، وبدون هذا العون السماوى لايمكن أن يصبح بلاخطيئة . وأكد أوروزيوس هو الآخر ذلك. غير أنه لما كان أوروزيوس يتحدث اللاتينية ، بينما كان يوحنا يونانيا ، فقد زاد المترجم الأمر سوءاً بالكثير من الأخطاء التى وقع فيها ، وهو ينقل للرجلين آراء كل منهما.

ولاشك أن أوروزيوس أدرك ما يضمره يوحنا سعيا إلى هدف معين ، وأيقن أن المجمع سوف يدور فى حلقة مفرغة دون أن يصل إلى نتيجة حاسمة ، بل ربما أعلن أرثوذكسية بلاجيوس إذا أفلح أسقف القدس فى التأثير على أساقفة فلسطين حضور المجمع ، وقد أيدت الأحداث التالية ذلك ، ومن ثم فقد حسم القس الأسبانى المسألة بإعلانه ، أنه لما كان خصوم بلاجيوس من اللاتين فإن القرار الذى يتعلق بهذه المسألة البلاجية يجب أن يترك لتقدير أساقفة الكنيسة اللاتينية وحدهم وكان هذا بطبيعة الحال إرهاصا بما سوف تأتى به سنو النصف الأول من القرن الخامس ، استباقا إلى كرسى الزعامة .

ولما كان معظم حضور مجمع القدس ، قد ساورهم الشك فى إمكانية التوصل إلى قرار فى هذا الشأن ، فقد تنفسوا الصعداء باقتراح أوروزيوس، وأيدوه على الفور ، وأمام ذلك أعلن يوحنا من جانبه- وقد قنعت نفسه بما حققه فى المجمع - أنه سوف يبعث إلى البابا انوسنت الأول (٤٠٢-٤١٧) بمند وبين عنه يحملون رسائله حول هذه المشكلة ، مؤكدا أنه سوف يلتزم بقرار أسقف روما ، وقد وافق المجمع على ذلك ، وانفض دون أن يصل إلى قرار بعينه .

غير أنه يبدو أن أوروزيوس كان مصمما على أن يخرج بقرار إدانة بلاجيوس من أساقفة فلسطين ، وبدا فى الوقت ذاته أن يوحنا عازم بدوره على أن يتحدى أوروزيوس مهما كلفه ذلك، وعلى هذا النحو تم تصعيد الخلاف إلى مطران الناحية ، أعنى أسقف قيسارية ، الذى دعا إلى مجمع تم عقده فى ديسمبر من نفس العام فى مدينة اللد Diosopolis حضره أربعة عشر أسقفا وترأسه يولوجيوس Eulogius الأسقف القيسارى ، بينما احتل يوحنا المرتبة التالية له مباشرة فى المجمع تبعا لما جرى به التقليد الكنسى، باعتبار أسقف قيسارية رئيسا لأساقفة فلسطين . وقد أدى يوحنا دوره هنا كما يجب ، فأعلن مجمع اللد تبرئة ساحة بلاجيوس مما نسبه إليه من هرطقة وقبوله فى شركة الكنيسة ، مما دفع القس الأسبانى إلى الارتحال عائدا إلى قرطاجة بعد أن ازدادت موجة العداء ضده من جانب أسقف القدس وأتباعه[٣١].

٣١- ومن المعروف أن المشكلة البلاجية انتقلت بعد ذلك بالفعل إلى الغرب فعقد مجمعان كنسبان فى =

والمتأمل بدقة فى هذا الذى يجرى بين يوحنا وأوروزيوس، يدرك للوهلة الأولى أن المسألة برمتها أخذت طابعا شخصيا بحتا ، فيوحنا لم يكن متضلعا من اللاهوت ولافقيها فى متاهاته ، بل مجرد راع لكنيسة ، شاء القدر أن تكون كنيسة القدس ، وكان هذا فقط دافعه للوقوف إلى جانب بلاجيوس ، والسعي إلى عدم إدانته كما كان يرغب رجل اللاهوت اللاتينى أوروزيوس ، وليس أدل على ذلك من أن يوحنا لم يكن قادرا على كتابة رسالة لاهوتية أو رد فقهى للدفاع عن وجهة نظر بلاجيوس ، وكان هذا أجدى فى مثل هذه الأمور ، ولكن هذا لم يحدث لعجزه عن ذلك ! ومن ثم فإن التفسير المنطقى لموقف يوحنا يكمن فى حرصه على التصدى لمحاولات رجل دين لاتينى الحصول على قرار من أساقفة الشرق اليونانى بإدانة بلاجيوس ، أو بتعبير أدق ، إدانة رجل سبقت إدانته من جانب الأساقفة اللاتين فى الغرب ، وكان الإقدام على ذلك يعد، فى رأى يوحنا ، سيرا على خطى أساقفة النصف الغربى وتبعية لهم ، وهذا شئ كان يأباه كل أساقفة الشرق وليس يوحنا وحده ، ولذا لم يجد أوروزيوس أمامه من سبيل إلا أن يعتبر القضية تخص الكنيسة اللاتينية .

وإذا كان يوحنا قد أفلح فى أن يحقق لكنيسته شيئا ضئيلا من مكانة كانت تفتقدها باعتبارها تابعة لمطرانية قيسارية فلسطين ، فإن خلفاءه سوف يحاولون ما وسعهم الجهد أن يقفزوا بكنيسة القدس خطوات أخرى إلى الأمام ليجدوا لها مكانا وسط عالم الكنائس الكبرى. وكانت الأحداث التى جرى بها القرن الخامس عاملا هاما دفعهم إلى سلوك هذا السبيل ؛ ذلك أن الجدال اللاهوتى الذى دار خلال ذلك القرن حول طبيعة المسيح ، كان مظهرا

= قرطاجه وميلفى Melevis فى عام ٤١٦ ، أعادا من جديد إدانة البلاجية فى شخص كايلستوس تلميذ بلاجيوس ، ثم رفعوا الأمر إلى إلى البابا إنوسنت الأول بالإضافة إلى ما بعث به إليه يوحنا أسقف القدس ، وقد سعد انوسنت الأول بالنغمة التى خاطبة بها رجال الأكليروس فى أفريقيا ونوميديا ، فأظهر ارتياحه لادانة بلاجيوس . غير أن البابا زوسيوس Zosimus أعاد من جديد نظر القضية وأعلن براءة بلاجيوس . غير أنه اضطر إلى التراجع عن رأيه فيما بعد حيث أدينت البلاجية من جانب الكنيسة والدولة. للمزيد من التفاصيل عن مجمعى القدس واللد، والدور الذى لعبه يوحنا ، وما تبع ذلك من أحداث .. انظر

Jones , Later Roman Empire , vol . I, 209 ; Hefele , Councils, vol. II pp. 448-454;

Hughes, A history of the Church, vol. II, pp. 13-18

Laistner, Thought and letters in western Europe, pp. 61-63 .

Leff, Medieval thought from St. Augustine to Ockham , pp . 52-54 .

خارجيا يخفى وراءه حقيقة جوهرية، هى اصطراع الكنائس الكبرى فى الإمبراطورية حول الزعامة الكنسية فى العالم المسيحى ، واتخذت كلها من مشكلة الكريستولوجية ستارا تخفى وراءه حقيقة أهدافها ونواياها . وقد راحت كل هذه الأسقفيات الكبرى تفتش فى ماضيها ، أو حتى حاضرها ، عن البراهين والأدلة التى يمكن أن تقدمها فى حلبة السباق هذه ، وسارعت كل منها إلى وضع النظريات والتفسيرات التى تدعم مركزها وترفعها قدرا عن غيرها .

فقد أذاعت روما أن القديس بطرس هو الذى أرسى قواعد الكنيسة فيها، وشاركه فى ذلك أيضا القديس بولس[٣٢] ولما كان بطرس هو أمير الرسل ، والصخرة التى بنى عليها المسيح كنيسته وصاحب الربط والحل على الأرض تباركه السماء فى ذلك، كما جاء فى حديث المسيح إليه، فقد اعتبرت كنيسة روما نفسها أعلى كعبا من كل الكنائس الأخرى بطبيعة نشأتها ، وأضافت إلى ذلك عاملا سياسيا يتمثل فى أن روما المدينة كانت عاصمة الإمبراطورية الرومانية لقرون طويلة ، وفيها مستقر الأباطرة ومقامهم. وساعد روما على أن تمسك بهذا الادعاء أن ميدان المنافسة على الزعامة فى الغرب قد خلا تمامًا من أية أسقفيات أخرى قد تنازع روما هذه المكانة ، هذا إذا استثنينا فقط أسقفية ميلانو إبان فترة قصيرة من الزمن اعتلى فيها كرسى الأسقفية القديس أمبروز Ambrosius (٣٧٤-٣٩٧) ، ومن ثم انفردت روما وحدها فى الغرب بزعامة الكنيسة [٣٣]. يضاف إلى ذلك أن كنيسة روما حظيت منذ القرن الثالث بعدد من الشخصيات القوية التى تولت أمور اسقفيتها ، كان من بينهم ديونيسيوس Dionysius (٢٥٩-٢٦٨) وليو الأول Leo (٤٤٠-٤٦١) وجلازيوس الأول Gelasius(٤٩٢-٤٩٦) وجريجورى الأول Gregorius (٥٩٠-٦٠٤) هذا بالإضافة إلى البابوات الذين تولوا كرسى أسقفية روما بعد ذلك خلال القرون من الحادى عشر إلى الثالث عشر .

أما الأسكندرية فقد كانت تعتبر نفسها بلا منازع كعبة الفكر اليونانى والثقافة فى حوض البحر المتوسط الشرقى ، وقبلة العلوم والمعرفة الإنسانية بمختلف فروعها ، يقصدها حجيج الدارسين من مختلف ولايات الإمبراطورية ، حتى من بين فلاسفة اليونان أنفسهم . وقد ذهبت مدارسها الفلسفية بشهرة واسعة ، فلما جاءتها المسيحية لم يكن لها أن تتخلى فى ظل هذه

٣٢- راجع رسالة روما ١٥ / ١٩

٣٣- EVSEB, hist. eccl, II. 14 , III . 4 ; VI. 25 ;

HIER. de vir. ill. c.I .

Ware, op. cit. p. 30 .

العقيدة الجديدة عن مركزها المرموق . ولما كانت واسطة العقد بين الشرق والغرب ، فقد أضحت تمثل بؤرة الثقافات المختلفة والعديدة وامتزجت فيها المسيحية بالتراث الفكرى الكلاسيكى فقدر لها بذلك أن تؤدى دورا بارزا فى المسيحية انتشارا وفكرا ، وقدمت لعالم هذه العقيدة الجديدة أشهر آبائه فى اللاهوت، يأتى فى مقدمتهم كليمنت Clemens (حوالى ١٥٠-٢١٥) وأوريجين (١٨٥-٢٥٤) وديونيسيوس Dionysius الذى تولى أسقفية الأسكندرية فيما بين عامى (٢٤٦-٢٦٥) وأضحى الثغر المصرى مركز نمو الفكر اللاهوتى فى الشرق، وأحرزت كنيسته شهرتها فى العالم المسيحى بوصفها كنيسة فكرية لم يعيها البحث فى أدق المشاكل فى الدين[٣٤] إلى الحد الذى دفع واحداً من المؤرخين إلى القول بأنه ليس هناك بلد من البلاد أثرفى تطور العقيدة المسيحية ، مثلما فعلت مصر، بل ليس ثمة مدينة تركت بصماتها على المعتقد المسيحى بصورة أشد عمقا من الأسكندرية[٣٥].

وإذا كانت روما تفاخر بأن مؤسس كنيستها هو بطرس ، فإن الأسكندرية راحت تعلن أن واضع أسس أسقفيتها هو القديس مرقس ، ولاينقص من قدرها أن مرقس كان تلميذاً لبطرس ومترجما وابنًا له بالتبنى، وأنه وضع إنجيله بناء على «رغبة الإخوة فى روما» ثم جاء ليبشر به فى الأسكندرية [٣٦]. ومن ثم فهى تعتبر نفسها كنيسة رسولية بالانتساب إلى بطرس ممثلا فى شخص مرقس. ولم تنس الأسكندرية فى خضم هذا الاصطراع أن تذكر الجميع دائما أنها كانت لثلاثة قرون خلت قبل الميلاد عاصمة امبراطورية البطالمة أصحاب السيادة البحرية فى شرقى المتوسط إبان تلك الفترة ، وأن روما لم تعد تبزها هذه المكانة بعد أن هجر الأباطرة التيبر إلى البسفور ، بل إن أباطرة النصف الغربى أيضا فى القرن الخامس قد ولوها دبرهم ليقيموا فى راڤنا .

٣٤- انظر EVSEB, hist. eccl. V. 8 , 11 ;

F. Jackson, The history of the Christian Church from the Earliest times to the death of St. Leo the Great, pp . 269-270 ; CMH. vol. IV, part 2 pp. 57 , 244 , 265 , 267 ; Vasiliev, A history of Byzantine Empire, vol . I, p. 45 .

Latourette, Expansion of Christianity, vol. I, p. 348 .

وللمزيد من التفاصيل عن مدرسة الأسكندرية انظر للباحث، الدولة والكنيسة : الجزء الثالث الفصل الأول.

٣٥- أنظر : Creed, Egypt and the Christian Church (in Legacy of Egypt) p. 300 .

٣٦- انظر رسالة بطرس الأول ٥ / ١٣ وأيضا EVSEB . hist. eccl . II , 15 , 16 ;

HIER. de vir. ill . c. 1 , 8 .

ولم تكن كنيسة أنطاكية تعتبر أقل شأنا من قرينتيها ، فقد كانت حاضرة سوريا السلوقية زمنا ليس باليسير، كما أنها كانت هى الأخرى أحد مراكز الفكر الفلسفى اليونانى فى الشرق، اشتهر من بنيها الفيلسوف الوثنى ليبانيوس Libanius (٣١٤-٣٩٣) الذى كان أستاذا للإمبراطور جوليان ، ويوحنا ذهبى الفم (٣٤٧-٤٠٧) اللاهوتى الأنطاكى الشهير[٣٧] وأسقف القسطنطينية (٣٩٨-٤٠٣) ونسطور Nestorius الراهب الذى تولى أسقفية القسطنطينية فى عشرينيات القرن الرابع، وأذاع آراءه الشهيرة حول العذراء أم المسيح . وحرصت الكنيسة الأنطاكية على أن تقدم من خلال مدرستها اللاهوتية ، المسيحية فى صورة عقلانية متبعة فى عرضها إياها النهج الأرسطى، وعدت نفسها كنيسة رسولية لاتقل عن روما مكانة حيث أن القديس بطرس كان قد أسس كنيستها قبل أن يبشر بالعقيدة المسيحية فى روما ، حيث أمضى هناك سبع حجج تقريبا ما بين عامى (٣٤ ، ٤١) [٣٨].

أما القسطنطينية ، فقد ألفت نفسها مدينة حديثة عهد بالحياة ، ومن ثم كانت فى القرن الخامس الميلادى ، ما تزال تحبو فى عمر الزمن إذا ما قورنت بروما والأسكندرية وأنطاكية ، فقد احتفل بافتتاحها فى ١١ مايو سنة ٣٣٠ بعد أن بدأ الرميراطور قسطنطين يضع حجر الأساس فى بنائها عام ٣٢٤ . ولهذا وجدت نفسها وقد افتقدت الأصالة التاريخية ، ولكنها سرعان ما استعاضت عن ذلك باعلانها أن هذه المدن الثلاث نشأت أصلا مدنا وثنية ، بينما بنيت القسطنطينية منذ اليوم الأول لها مدينة مسيحية لم تحن جبهتها فى يوم لوثن ، وأنه إذا كانت روما والأسكندرية وأنطاكية تفاخر بأنها كانت حواضر للإمبراطورية الرومانية ودولتى البطالمة والسلوقيين على التوالى، فإن ذلك شيئا «كان» أما القسطنطينية فهى عاصمة الإمبراطورية الرومانية «الآن» وهى مستقر الأباطرة ومقامهم. وأنها قلعة المسيحية الأرثوذكسية التى تصدت ، وما تزال، بحزم لهجمات جحافل الجرمان الذين اعتنقوا المسيحية

٣٧- انظر SOCR. hist. eccl. III, 1 , 17 , vi . 3 ;
THEOD . hist . eccl . III , 17 .

٣٨- أنظر أعمال الرسل ١١ / ٢٠ ، ٢٦ وأيضا
EVSEB. hist. eccl . II , 1 ;
HIER. de. vir. ill . c. I ;
CMH. vol . IV , part. 2 pp. 212 - 214 ;
Vasiliev, Byzantine Empire , vol . I . p. 116 .

الآريوسية[٣٩] وراحوا يقطعون أوصال النصف الغربى من الإمبراطورية بعد معركة أدريا نوبل سنة ٣٧٨ وعلى امتداد القرن الخامس .

ولكن كنيسة القسطنطينية كانت تشعر بقصر قامتها إزاء الأسقفيات الرسولية الأخرى التى أرسى قواعدها رسل المسيح، إذ أن نشأتها الحديثة لم تتح لها أن تحظى بمثل هذه المرتبة. غير أن القسطنطينية لم تعدم وسيلة إزاء ذلك بحيث تتوفر لديها الأسانيد الكفيلة بدفعها للمزاحمة على مركز الزعامة الكنسية ، ووجدت ضالتها فى إنجيل يوحنا الذى ينفرد عن بقية الأنا جيل الثلاثة الأخرى ، بسبق تعرف القديس أندراوس إلى المسيح قبل أخيه بطرس ، ولما كانت الروايات تنسب إلى أندراوس تأسيس كنيسة بيزنطة[٤٠] حيث ألقى على عاتقه مهمة التبشير بالمسيحية فى منطقة سكيزيا Scythia الأوروبية (شمال البحر الأسود ما بين الداتوب وطانى Tanais) . وتم نقل رفاته إلى القسطنطينية على عهد الإمبراطور- قسطنطيوس سنة ٣٥٧ ، ولما كانت القسطنطينية قد بنيت على أطلال بيزنطة المدينة الإغريقية القديمة، وكنيستها تعد امتداداً لها ، فإنها تقفز بذلك إلى المرتبة الأولى بين الكنائس الرسولية ، وإن كانت كنيسة القسطنطينية لم تزين مفرقها بلقب رسولى، ومن ثم لم تعلن رواية انتساب كنيستها إلى القديس أندراوس إلا فى فترة لاحقة أواخر القرن السادس أو أوائل السابع .

٣٩- انتشرت المسيحية الآريوسية بين القبائل الجرمانية- عدا الفرنجة- فى أوائل الأربعينيات من القرن الرابع، حيث كان أحد رجال الدين فيهم وهو أولفيلا Ulfila حاضراً لمجمع التدشين الذى عقد فى أنطاكية سنة ٣٤١ وهو يعد من أشهر المجامع التى عقدها الآريوسيون فى عهد الإمبراطور ، قسطنطيوس (٣٣٧-٣٦١) . وأكد ذلك أيضا بتقبله لمرسوم الإيمان الآريوسى الصادر عن مجمع سلوقية سنة ٣٥٩، والذى أقر فى نيقا Nice فى نفس العام ثم القسطنطينية سنة ٣٦٠ . أنظر :

THEOD . hist. eccl. IV , 33 ;

SOCR. hist. eccl. II , 41; IV .,33 ;

SOZOM . hist . eccl IV , 24 ; VI , 37 .

وراجع أيضا ، هسى ، العالم البيزنطى ، ترجمة رأفت عبد الحميد ، ص١٠٩ حاشية ١ .

٤٠- انظر : يوحنا ١ / ٤٠-٤٢

وأيضا

EVSEB. hist. eccl . III , 1 ;

HIER. de vir. ill . c . 7 ;

Nicene and post- Nicene Fathers. vol . I. p. 132 , n. 3 , 4 ;

Hussey , The Byzantine world, p. 17 .

وقارن للباحث الترجمة العربية لهذا الكتاب حاشية ١ ص١٠٧ و ١٠٨ .

وأيضا Baynes & Moss : Byzantium , p. 128 .

وليس من شك فى أن كنيسة القدس كانت تفوق هذه الكنائس جميعها مرتبة وترتفع بهامتها فوق الكراسى الرسولية الأخرى ، فهى الأم الأولى لكل الكنائس والنواة الرئيسية للمجتمع المسيحى كله ، ونقطة الانطلاق فى التبشير بالمسيحية ، أرسى المسيح بنفسه فيها كنيسته وتولى أمرها من بعده وكان أول أساقفتها جيمس ، الذى دعى «بأخى الرب» وذاع صيته باسم «العادل»(٤١) وشهدت مولد ما عرف باسم «الشيوخ السبعة» للقيام بالخدمة اليومية ، فكان ذلك فاتحة لمسائل التنظيم الكنسى فيما يتعلق بخدمة القداس ورعاية شعب الكنيسة(٤٢). وعرفت أول تجمع لآباء الكنيسة جميعهم ، قبل أن يقدم قسطنطين على عقد المجمع المسكونى الأول بثلاثة قرون ، عندما التقى بها رسل المسيح بعد أن مضوا إلى طريق أمم واصطدموا بأسلوب التفكير الوثنى وطرائق حياة الأمميين(٤٣) بل ان كثيراً من آباء الكنيسة الأول كانوا يفتخرون بالانتماء المجازى إلى مجتمع القدس، ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك ما ذكره بامفيليوس Pamphilius شيخ كنيسة قيسارية فلسطين وأستاذ يوسيبيوس المؤرخ الكنسى الشهير ، أثناء التحقيق معه بعد أن ألقى القبض عليه خلال فترة الاضطهاد الأعظم (حوالى سنة ٣١١) ، من أنه ينتمى إلى «اورشليم» التى جرى ذكرها بالتمجيد والاطراء على لسان القديس بولس فى رسالته إلى غلاطية والعبرانيين(٤٤).وإلى جانب هذا كله فهى تضم الأماكن المقدسة التى تهفوا إليها قلوب شعب الكنيسة فى الشرق والغرب على السواء .

٤١- أنظر رسالة غلاطية ١ / ١٩ وأيضا ; EVSEB , hist , eccl. II , 1

HIER, de vir. ill , c . 2 ;

Nicene and post - Nicene Fathers, vol . I, pp. n . 14 .

٤٢- أنظر أعمال الرسل ١ / ٢٣ - ٢٦ ، ٦٠ / ١-٧ . وكذلك EVSEB. hist. eccl . II, 1 ;

Bainton , History of Christianty . vol. I p. 86 .

٤٣- أنظر أعمال الرسل ١٥ .

٤٤- وأما أورشليم العليا التى هى أمنا جميعا فهى حرة (غلاطية ٤ / ٢٦) بل قد أتيتم إلى جبل صهيون وإلى مدينة الله الحى أورشليم السماوية ، وإلى ربوات هم حفل ملائكة وكنيسة أبكار مكتوبين فى السماوات وإلى الله ديان الجميع وإلى أرواح أبرار مكملين(عبرانيين ١٢ / ٢٣)) . وأيضا

EVSEB. hist. eccl. (Martyrs of Palestine) c. 11 .

وكان طبيعيا أن تحرز كنيسة القدس قصب السباق فى ميدان التنافس على الزعامة ، بكل هذا التراث الذى تحمله علي عاتقها تباهى به، ولما كانت الكنائس الأسقفية الأخرى تدرك ذلك تماما ، فقد حرصت منذ البداية على أن تقنن أوضاعها ومراكزها ، متغافلة عن عمد كنيسة القدس، ساعية كلها إلى إحباط مساعيها حتى لاتدخل حلبة المنافسة بادئ ذى بدء ، وساعدتها الظروف علي ذلك نتيجة تلك الضربات التى كالتها الإمبراطورية الرومانية للمدينة من جراء ثورات اليهود خلال القرنين الأول والثانى للميلاد ، واختصاص فلسطين ، إلى جانب مصر، بالمزيد من الاضطهاد الوثنى لجماعة المسيحيين، كما أن كنيسة القدس حتى بعد تحول الدولة إلى المسيحية افتقرت إلى الشخصيات القوية التى يمكن أن تتولى أمورها ، ولم تحظ بمثل ما حظيت به كنيسة روما والأسكندرية ، ومن ثم لم تجد مدافعا عن حق لها فى المجامع الكنسية المسكونية التى جرى فيها تقنين مراتب الأسقفيات الرسولية[٤٥] ولما كان التنظيم الكنسى قد جرى منذ البداية على هدى التقسيم الإدارى للإمبراطورية ، ولما كانت قيسارية قد أصبحت عاصمة لولاية سوريا الرومانية منذ عهد الإمبراطور اسكندر سفروس Alexander Severus (٢٢٢-٢٣٥) فقد أصبح أسقفها بالتالى مطران الولاية وكان على كنيسة القدس أن تصبح تابعة لها رعويا [٤٦].

وقد خطت الأسقفيات الكبرى أول خطو لها فى سبيل الزعامة ، وعرقلة أى جهد قد تقوم به، أو أمل تسعى إليه كنيسة القدس فى ميدان هذا التنافس ، وذلك من خلال القوانين التنظيمية التى صدرت عن مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ، فقد نص القانون السادس على أسبقية الأسقفيات الثلاث روما والأسكندرية وأنطاكية ، واعترف بحقها في الإشراف على المناطق التى كانت قد أصبحت بالفعل تحت رعايتها ، وامتد إليها نفوذها[٤٧] وكان هذا اعترافا

٤٥- بسط المؤلف هذا الصراع الكنسى على الزعامة بين الكنائس الرسولية بصورة تفصيلية فى كتاب ، الدولة والكنيسة ، الجزء الخامس .

٤٦- أنظر THEOD . hist . eccl . II , 22 .

٤٧- انظر Hefele, op. cit. vol . I, pp. 388-404 ;

Percival , The seven ecuminical councils (Nivene and post- Nicene Fathers. vol . XIV, pp. 15-16, 178 - 179 .

صريحا من أساقفة الكنيسة عامة فى الشرق والغرب فى أول مجمع مسكونى ، بما عليه هذه الأسقفيات الثلاث من التقدمة على غيرها . وعلى سبيل الترضية ، أردف المجمع هذا القانون بالقانون السابع الذى نص على أن كنيسة القدس تحتل المكانة التالية (الرابعة) فى المجد والكرامة بعد الكنائس الثلاث الأولى على أن تظل خاضعة لإشراف مطرانية قيسارية فلسطين.

ورغم ما يذكره بعض المؤرخين[٤٨] من أن هذا القانون ، أو هذه الكلمات المفعمة بالمودة ، تحدد الخطوة الحاسمة فى عملية الخلق التى تمت فى القرن الخامس بالنسبة لبطريركية القدس ، إلا أن الحقيقة التى لا مراء فيها ، أن القانونين السادس والسابع يتضمنان أمرين لايمكن إغفالهما؛ أولهما ، أن الكنيسة الجامعة ، ممثلة فى المجمع المسكونى الأول ، قد اعترفت صراحة بأسبقية روما والأسكندرية وأنطاكية على بقية الكنائس دون منازع ، ولم يرد للقسطنطينية ذكر هنا ، حيث لم يكن قد اكتمل بعد بناؤها، والأمر الثانى ، أن المجمع قد حدد- بما لا يدع مجالا للشك- وضع كنيسة القدس ، وأذن لها باحتلال المرتبة الرابعة بعد هذه الكراسى الثلاثة. وزاد هذا الأمر سوءاً، أن المجمع التزم هنا بالتقسيم الإدارى للإمبراطورية والذى سار عليه منذ بداية وضع أصول التنظيم الكنسى فأخضع كنيسة القدس لأسقفية قيسارية ، ومنذ هذا التاريخ غدا من سلطة المجامع المسكونية أن تحدد ترتيب الأسقفيات وأسبقية هذا الكرسى أو ذاك . وهكذا ضمنت هذه الكنائس الثلاث بمقتضى قانون كنسى عالمى – عدم مراجعة كنيسة القدس لها بعد ذلك إبان فترة الاستباق من أجل الزعامة الكنسية فى عالم المسيحية .

وكأن كنيسة القدس قد رضيت بذلك الأمر، وإن كانت كارهة خاصة وأنها لم تجد لها من بين حضور المجمع من يتولى مهمة الدفاع عن حق لها، ولم يهئ لها القدر- كما أسلفنا- أيا من الشخصيات القوية التى يمكن أن تعمل جاهدة من أجل هذا الحق، ومن ثم اقتصر صراعها فقط على أن تتحرر من سيطرة قيسارية ، وكان ذلك يمثل السمة العامة لها طوال القرنين الرابع والخامس الميلاديين .

٤٨- Chadwick, early church , pp . 131-132 ; Ware, Orthodox Church, p. 30 .

ولعلنا نلمس ذلك بوضوح فيما أقدم عليه أساقفتها خلال تلك الفترة، من إظهار نوع من التحدى عنيفا كان أو يسيرا- لأسقفية قيسارية : ففى عام ٣٤٦ ، التأم كما أوضحنا عقد مجمع القدس لمناصرة الأسقف السكندرى أثناسيوس الذى عاد هذه السنة من منفاه فى الغرب متوجها تلقاء الأسكندرية ، وكان من الطبيعى- كما جرى به العرف وكذا القانون الكنسى - أن يحصل ماكسيموس أسقف القدس على موافقة الأسقف القيسارى لعقد هذا المجمع ، غير أن ماكسيموس تجاهل تماما هذا الحق، وضرب بالعرف والقانون الكنسى عرض الحائط[٤٩]، وأخذ على عاتقه وحده مسئولية توجيه الدعوة إلى أساقفة فلسطين ، وترأس جلسات المجمع وأصدر قراراته المؤيدة لأثناسيوس ، وكان هذا إمعانا فى التحدى خاصة إذا علمنا أن أسقف قيسارية «أكاكيوس» Acacius[٥٠] كان من أشد المتحمسين للمسيحية الآريوسية ، بل كان زعيما لإحدى الفرق الآريوسية القوية .

وقد رأينا من قبل ذلك الدور البارز الذى قام به يوحنا أسقف القدس ، خلال اشتداد الجدال حول المشكلة البلاجية وما انتهى إليه أمر مجمعى القدس واللد سنة ٤١٥ ، رغم أن المجمع الأخير كان تحت رئاسة يولوجيوس أسقف قيسارية، وكيف سعى يوحنا إلى إحباط جهود أوروزيوس لدى الأسقف القيسارى بعد أن رفع القضية إليه .

٤٩- أنظر . Nicene and post- Nicene Fathers, vol. II , p. 52 n. 1

٥٠- تولى أكاكيوس أسقفية قيسارية سنة ٣٤٠ بعد وفاة شيخ مؤرخى الكنيسة وأسقف قيسارية يوسيبيوس، وكان أكاكيوس تلميذا له ومن أشد الناس تعلقا به ، وإن كان قد ذهب خطوات بعيدة عن طريقة أستاذه فى اعتناق الآريوسية، وسرعان ما تولى رئاسة الفريق الآريوسى اليوسابى بعد وفاة يوسيبيوس النيقوميدى سنة ٣٤٢ ، وكان هذا الأخير قد اعتلى كرسى أسقفية القسطنطينية سنة ٣٣٩ . وقد لعب أكاكيوس دورا بارزا فى المجامع الكنسية التى عقدت فى عهد قسطنطيوس خاصة مجمع أنطاكية سنة ٣٤١ وسلوقية سنة ٣٥٩ . انظر :

SOCR. hist. eccl. II, 4 , 40 , 42 ;

SOZOM . hist. eccl. II, 2 IV, 23 ;

THEOD. hist . eccl , II 22 , 24 ;

HIER. de vir. ill . c. 98 .

وازدادت حمى الصراع وظهرت بواعثه سافرة إبان أسقفية كيرلس (٣٥٠-٣٨٨) التى استمرت لفترة طويلة ، فقد دخل منذ البداية فى نزاع علنى مع أكاكيوس الأسقف القيسارى، حول حقوق المطران ، وهى الحقوق التى يطالب بها باعتبار أسقفيته أسقفية رسولية[٥١] بل أكثر من هذا أنها أم الكنائس ، والنواة الأولى للمجتمع المسيحى. وقد أدى هذا الجدل إلى إثارة شعور العداء بين الأسقفين ، وراح كل منهما يتهم الآخر بانتسابه إلى صفوف الهراطقة ، ولما كان أكاكيوس أسقف قيسارية آريوسيا ، وكانت الإمبراطورية آنذاك على عهد الإمبراطور قسطنطيوس تؤيد الآريوسية وتضطهد خصومها ، تعرض كيرلس للعزل من منصبه على الرغم من أنه كان يمثل جيل النيقية المعتدلة بعيدا عن التطرف الذى يمثله أثناسيوس الأسقف السكندرى، ويوستاتيوس Eustathius الأنطاكى الذى أفلح الآريوسيون فى عزله من منصبه سنة ٣٣٠ . غير أن كيرلس لم يستسلم لقرار عزله ، فبعث برسالة تحمل التهديد إلى خصومه بأنه سوف يصعد القضية إلى أعلى المستويات ، ومن ثم بعث بشكايته للإمبراطور قسطنطيوس، الذى صدق على هذا الملتمس. ويقول المؤرخ الكنسى سقراط معلقا على هذا الموقف «إن كيرلس كان أول إكليروسى، بل رجل الدين الوحيد الذى غامر بالخروج على التقليد الكنسى وذلك باستئناف الحكم الصادر ضده كما هو شائع فى القضاء المدنى »[٥٢]. وعلى

٥١- أنظر SOZOM. hist. eccl . IV , 25 .

٥٢- أنظر SOCR. hist. eccl. VI, 25 غير أنه من المعروف أن عددا من الأساقفة قد فعلوا ذلك أيضا ، بالالتجاء مباشرة إلى السلطة الزمنية ممثلة فى الإمبراطور ، وهناك من الأمثلة ما يدل على ذلك؛ فقد لجأ الدوناتيون سنة ٣١٥ إلى الإمبراطور قسطنطين وهو بعد سيد الغرب ليفصل فى النزاع القائم بينهم وبين الكنيسة الكاثوليكية فى قرطاجة ، بعد أن رفضوا الانصياع لقرارات مجمع روما سنة سنة ٣١٣ وأول سنة ٣١٤ ، وكذلك فعل أيضا هيلارى Hilarius أسقف بواتييه عندما كتب دفاعا إلى الإمبراطور قسطنطيوس Apologia ad Constantium Imperatorem ونهج نفس السبيل أثناسيوس الأسقف السكندرى عندما شخص بنفسه إلى القسطنطينية لعرض شكاية على الإمبراطور قسطنطين بعد أن أدرك ما يبيته له أعضاء مجمع صور المنعقد سنة ٣٣٥ ونياتهم العدائية ضده ، كما أنه كتب أيضا دفاعا عن نفسه للإمبراطور قسطنطيوس بعد ذلك Apologia ad Constantium وقد نصت الفقرة الأخيرة من القانون السادس لمجمع القسطنطينية على تحريم استئناف القضايا المتعلقة برجال الدين أمام الإمبراطور أو المحاكم المدنية. أنظر Hefele . Councils, II, p. 366 .

الرغم من أن المنشقين عن مجمع سلوقية سنة ٣٥٩ قد حكموا باعادته إلى كنيسته إلا أن انتصار الإمبراطورية للآريوسية أتاح لأكاكيوس وحزبه أن يستولى على كنيسة القدس ، وأن يتتابع عليها ثلاثة من الآريوسيين، ولكن كيرلس سرعان ما عاد ثانية إلى كرسيه ، وظل فترة طويلة حتى نهاية عمره يحتفظ بسيادته على كنيسة القدس ، حتى أن مؤرخ الكنيسة فى القرن الخامس سوزومين Sozomenos يذكر أنه فى الوقت الذى كانت فيه كل الكنائس آريوسية طوال عهد فالنز (٢٦٤-٣٧٨) وأوائل عهد ثيودوسيوس (٣٧٨-٣٩٥) ، فقد وقفت القدس وحدها وسط هذا المحيط الآريوسى نيقية تحت زعامة كيرلس(٥٣).

ولما كانت القسطنطينية قد وجدت نفسها بين تلك اللدات الثلاث، روما والأسكندرية وأنطاكية ، دون سند قانونى من مجمع مسكونى يعترف بقدرها ، فقد اهتبلت فرصة عقد المجمع المسكونى الثانى فى القسطنطينية سنة ٣٨١ ، لمناقشة الآراء المقدونية التى أذاعها مقدونيوس Macedonius أسقف القسطنطينية حول خلق الروح القدس(٥٤) لتحقق بغيتها ، ومن ثم صدر القانون الثالث للمجمع على النحو التالى : «يحتل أسقف القسطنطينية المرتبة الأولى بعد أسقف روما حيث أن القسطنطينية هى روما الجديدة(٥٥) وكان معنى هذا القانون أن تهبط كل من الأسكندرية وأنطاكية إلى المرتبة التالية، وأن تتولى كنيسة القدس إلى المرتبة

٥٣- أنظر SOZOM . hist. eccl . IV , 30 , VII , 2 .

٥٤- لمزيد من التفاصيل عن هذه الفرقة ، أنظر

SOCR. hist. eccl. II , 6 , 12 , 16 , 38 , 42 , 45 , IV, 2 ;

SOZOM. hist. eccl. III , 3 , 9 , IV . 2 . 20 , 26 , 27 ;

Dictionaire de theologie Catholique , art Macedonian Sect;

Encyclopeadia of Religion and ethics, art Mac .;

The New Schaff- Herzog encyclopeadia of religious knowledge, art . Mac .

٥٥- أنظر SOCR. hist. eccl. V, 8 ; SOZOM. hist. eccl . VII, 9 ;

Hefel, Councils, II , p. 357 .

الخامسة، ولم تُجد نفعا الاحتجاجات ألتى أعلنها أساقفة روما ضد هذا القانون[٥٦]. ومما هو جدير بالذكر أن كيرلس أسقف القدس ، كان بين حضور هذا المجمع وأعطى تصديقه على هذا القرار، ولم يبد أى تعليق إزاء وضع أسقفيته [٥٧].

وقد كتب أساقفة مجمع القسطنطينية رسالة مجمعية مطولة إلى البابا داماسوس الأول Damasus (٣٣٦-٣٨٤) الذى كان قد دعا إلى عقد مجمع مضاد فى روما[٥٨] فى العام التالى مباشرة (٣٨٢) أعلن تمسكه بالقانون السادس لمجمع نيقية ، وتناولت هذه الرسالة بالتفصيل الاضطهادات التى تعرض لها النيقيون فى الشرق على يد أساقفة الآريوسية وأباطرتها قبل عهد ثيودوسيوس ، وأثنت على كيرلس . «الوقور التقى» أسقف كنيسة القدس «أم كل الكنائس» وجهاده الكبير ضد الآريوسيين، ولكن هذا الاعتراف لم يغير شيئا من الحقيقة الواقعة بوضع كنيسة القدس صراحة فى ذيل قائمة الكنائس الرسولية .

غير أن الجدل اللاهوتى الذى اندلع فى النصف الأول من القرن الخامس فى النصف الشرقى من الإمبراطورية ، حول طبيعة المسيح كان فرصة سانحة حرصت الكنائس جميعها على انتهازها ، لتحقيق الزعامة الكنسية ، واتخذت هذه الأسقفيات كلها من المسألة

٥٦- أعلن المندوب البابوى لوكنتيوس Lucentius فى الجلسة السادسة عشرة لمجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ اعتراضه على هذا القانون ، وظلت روما ترفض الاعتراف بهذا الوضع الجديد الذى يخالف صراحة القانون السادس لمجمع نيقية، وذلك حتى نجح الصليبيون فى احتلال القسطنطينية سنة ١٢٠٤ وأقاموا فيها الإمبراطورية اللاتينية ، وعندها سمح البابا إنوسنت الثالث والمجمع اللاتيراتى الرابع سنة ١٢١٥ لبطريرك القسطنطينية باحتلال المرتبة الأولى بعد أسقف روما. أنظر : Hefele. op.cit. II . pp. 258-9 .

٥٧- SOZOM . hist. eccl . VII , 7 ;

SOCR. hist eccl . V, 8 ; THEOD. hist . eccl . V, 8 .

٥٨- يذكر ثيودوريتوس Hist. eccl. V, 6 أن مجمع القسطنطينية ٣٨١ كان قاصرا فقط على أساقفة النصف الشرقى من الإمبراطورية حيث وجه ثيودوسيوس الدعوة إليهم وحدهم، ويعلل ثيودوريتوس ذلك بقوله إن هذا النصف كان قد غرق حتى آذانه فى الجدل الآريوسى والفرق الأخرى المختلفة ، بينما آوى الغرب هادئا إلى عقيدة نيقية ، حيث حافظ ولدا قسطنطين هناك عليها بعد وفاة أبيهما وكذلك فعل فالنتينيان الأول .

الكريستولوجية ستارا تخفى وراءها أهدافها الحقيقية، وشاركت كنيسة القدس هى الأخرى بدور فعال بغية احتلال أحد المراكز الهامة فى ميدان الزعامة . ولايعنينا هنا أمر هذا الجدل اللاهوتى وتفاصيله العميقة، إلا بالقدر الذى يسمح بإلقاء الضوء على الدور الذى قامت به كنيسة القدس خلال ذلك الاصطراع الكنسى .

ففى عام ٤٢٨ اعتلى الراهب الأنطاكى نسطور Nestorius كرسى أسقفية القسطنطينية ، وهو يعود بجذور تفكيره، وأصول ثقافته إلى المدرسة العقلانية الأنطاكية ، ويؤمن بما جاء فى قانون الإيمان النيقى ، «أن ابن الله تجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء «والعذراء» بشر والبشر لاتلد إلها، ومن ثم فليس من المنطق القول عنها إنها «أم الإله». وهو يعترف بطبيعتين للمسيح ، طبيعة ابن الله المساوى للآب فى الجوهر ، وطبيعة الإنسان المولود من العذراء ، ويغلب الطبيعة البشرية فى المسيح، وعليه يغدو تعبير «والدة الإله» خلطا بين اللاهوت والناسوت . العذراء إذن أم المسيح البشر ، وليست أم المسيح الإله»(٥٩).

وقد ارتاعت القسطنطينية فور سماعها بهذه الأنباء ، حيث عمد أسقفها الجديد إلى حرمان المدينة فخار حاميتها ، أم الرب ، غير أن نسطور لم يأبه بشئ من ذاك ، وخاطب الإمبراطور بقوله : «أعطنى الأرض وقد تطهرت من المارقين أمنحك نعيم الجنة العقيم !!

وعلى حين وقف الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨-٤٥٠) إلى جانب أسقفه ، أعلن الأسقف السكندرى كيرلس (٤١٢-٤٤٤) إدانته لآراء نسطور ، ووافقه الرأى أسقف روما ، وفوضه - دون أن يعلم شيئا عن حقيقة هذه المسألة اللاهوتية - فى عزل نسطور . وأقنع أسقف القسطنطينية الإمبراطور بالدعوة لعقد مجمع كنسى لحسم هذا الجدال . وفى أحد العنصرة Whit Sunday السابع من يونية سنة ٤٣١ التأم عقد المجمع المسكونى الثالث فى مدينة إفسوس Ephesus ولما كان كيرلس السكندرى قد عزم على أن يكسب هذه الجولة من

٥٩- SOCR. hist. eccl. VII, 31-32 ;

GENN . de vir. ill . c. 54 ;

Dict. theol. Cath. art. Nest.;

Encycl. relig. Eth. art. Nest;

Jones, L. R. E. vol . I. pp. 213-214 .

جولات الصراع الكنسى ، كما كسب سابقتها سلفه ثوفيلوس[٦٠]. فقد اصطحب معه إلى مدينة المجمع عدداً كبيراً من إكليروسه ورهبان مصر لمساندته فى موقفه .

ولقد ظهر واضحا منذ البداية وحتى قبل أن يلتئم عقد المجمع ، أن هناك انقساما واضحا بين الأساقفة المشتركين فيه، وأن كلاً منهم يسعى لاستقطاب أكبر عدد من الحضور إلى جانب هذا الفريق أو ذاك ، فوقفت روما تؤيد الأسكندرية ، كوسيلة لقهر أسقف القسطنطينية ، وتعبيرا عن الحقد الذى كان يعتمل فى نفس كل من الكنيستين تجاه القسطنطينية نتيجة لما خصها به المجمع المسكونى الثانى، هذا بالإضافة إلى أن كنيسة القسطنطينية قد كسبت لنفسها عدداً من الأعداء الذين يحيطون بها ممثلين فى كنائس آسيا الصغرى، نتيجة لامتداد سلطانها إلى عدد من كنائس هذه المنطقة ، وكذا منطقة تراقيا التى كانت كنائسها تخضع قبل ذلك لأسقفية هرقليا Heraclea وكان عدد كبير من هؤلاء يتوق إلى الحصول على حرياتهم وسلطانهم ، ومن ثم أصبح ممنون Memmonius أسقف إفسوس من أشد الأساقفة تأييداً لكيرلس السكندرى [٦١]. أما أنطاكية فكانت تقف فى الناحية الأخرى تشد من أزر القسطنطينية حيث كان نسطور أحد تلامذة مدرستها ورئيسها لواحد من أديرتها . ولم تكن آراؤه عن «أم الإله» جديدة على الفكر اللاهوتى الأنطاكى .

٦٠- نشب الصراع بين الأسقف السكندرى ثيوفيلوس ، وأسقف القسطنطينية يوحنا ذهبى الفم فى مطلع القرن الرابع ، نتيجة لما حسبه أسقف الاسكندرية تدخلا من جانب أسقف العاصمة فى شئون أسقفيته ، وتدخل الإمبراطور أركاديوس (٣٩٥-٤٠٨) وزوجته الإمبراطورة يودوسيا التى كانت تحمل العداء الكامل لأسقف العاصمة ، لحسم هذا الخلاف ، وانتهى الأمر بعزل يوحنا ذهبى الفم ونفيه . أنظر

SOCR. hist. eccl. VI , 2 , 5 , 9 ;

SOZOM. hist. eccl . VIII ; 2 , 12 , 13 , 14 , 16-19 ;

THEOD. hist . eccl . V . 34 .

٦١- Chadwick, early church, p. 197 ;

Jones , L. R. E. I, p. 214 ;

Hefele , Councils, vol. II, pp. 355-6 .

هذا بينما صممت كنيسة القدس منذ اللحظة الأولى على أن تخرج من هذا الاستباق بشئ وأن لاتقف هكذا موقف المشاهد فحسب ، بل يجب أن تشارك بدور مهما يكن حجمه لتحريك الأحداث ، والتأثير فيها كلما أمكنها ذلك ، وساعدتها الظروف حيث كان يلى أمرها آنذاك جوفينال Juvenalius (٤٢٥-٤٥٨) ، وهو شخص عرفه الجميع ، كما يدل سجله الوظيفى ، مداورا أثيما نهازا للفرص مستهترا طموحا بغير حدود ، كان هدفه الأساسى والوحيد أن يجعل من أسقفيته بطريركية ، ولما كان يوحنا أسقف أنطاكية ، الذى يمثل خصمه العنيد فى هذا المشروع ، يقف إلى جانب نسطور ، فقد أعلن جوفينال انضمامه إلى كيرلس السكندرى(٦٢).

على هذا النحو جرت الأحداث فى مجمع إفسوس ، فلم يكن مجمعا بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة ، وإنما اتخذت قراراته كلها بصورة حزبية ، فاجتمع كيرلس وممنون وجوفينال وأداتوا نسطور وعزلوه ، فلما حضر الوفد الأنطاكى بزعامة يوحنا ، وكان قد تأخر به الطريق ، عقد اجتماعا مع أسقف القسطنطينية تحت رعاية كانديديان Candidianus ممثل الإمبراطور ، وتقرر إدانة كيرلس وممنون وعزلهما ، ولم يشمل قرار الإدانة هذا جوفينال ، وربما يعود ذلك إلى أسلوب المداورة والمداهنة الذى يجيده أسقف القدس ، وسوف نلمس ذلك بوضوح فى مواقفه المتباينة بل المتضادة . أو لعل الفريق القسطنطينى الأنطاكى كان يطمع فى استرضائه وضمه إلى صفه للحصول على تأييده ، وسرعان ما وصل مندوب البابا فأعلنوا على الفور مساندتهم للأسكندرية وحلفائها .

أعيا خلاف الرأى والهوى هذا ثيودوسيوس الثانى الإمبراطور ، وحتى يكون مع نفسه والحق منصفا ، فقد صدق على عزل الأساقفة الثلاثة رؤوس الجدال ، كيرلس ونسطور وممنون ، ولعن كل مارق عن الإيمان النيقى. والغريب أيضا أن قرار الإمبراطور قد خلا من إدانة جوفينال ، وقد صمتت المصادر عن ذلك تماما ، ولانجد لهذا الموقف تفسيرا ، إلا ما ذكرناه للتو ، أعنى سياسة المراوغة التى كان يتبعها أسقف المدينة المقدسة ، والتى نجح من خلالها فى الافلات من إدانة الأساقفة وغضبة الإمبراطور ، وإن كان هذا فقط هو كل ما استطاع جوفنال أن يحققه من هذا المجمع .

٦٢- SOCR. hist. eccl . VII. 34 ;
Jones, L . R. E. vol . I. p. 214 ;
Chadwick, early church, pp. 197-198 .

خلاصة القول أن كيرلس السكندرى لم يستسلم لهذا القرار وأفلح عن طريق وسائله الخاصة المشروعة وغير المشروعة فى إلغاء قرار عزله ، وأن يستعيد كرسيه الأسقفى ثانية، وأن يحقق لخليفه ممنون أسقف إفسوس نفس النتيجة [٦٣]. ولم يمض على ذلك أقل من عشرين عاما ، حتى اندلع الصراع من جديد ، أو بتعبير أدق ، ازداد أواره ، حيث أنه لم يَخْبُ طوال هذه السنين، فقد انقسمت الكنيسة بين مؤيد ومعارض للآراء النسطورية أو الكيرللية، ووصل التطرف هنا وهناك مداه فى نهاية النصف الأول من القرن الخامس . حيث أكد الراهب القسطنطينى يوطيخا Eutyches على الطبيعة الواحدة فى المسيح وهى الطبيعة الإلهية ، وقد عرف أصحاب هذا الرأى بالمنافزة Monophysites وأعلنت كنيسة الأسكندرية قانون إيمانها على لسان أسقفها الجديد ديوسقورس Dioscrus الذى خلف كيرلس سنة ٤٤٤ ، ويقول بوجود طبيعة واحدة فى المسيح من طبيعتين . ولما حمى وطيس الجدال بين يوطيخا من ناحية ، وفلاڤيان Flavianus أسقف القسطنطينية ، ويوسيبيوس أسقف ضورلة Dorylacum ، وليو الأول أسقف روما من ناحية أخرى ، أقدم الإمبراطور ثيودسيوس الثانى على توجيه الدعوة لعقد مجمع كنسى جديد ، اتخذ من مدينة إفسوس للمرة الثانية مكانا لانعقاده .

وفى الثامن من أغسطس سنة ٤٤٩ بلغ عدد الأساقفة الذين تقاطروا على مدينة المجمع مائة وثلاثون أسقفا تمثلت الأغلبية فى الأساقفة المصريين بزعامة ديوسقورس، والإكليروس الفلسطينى يقود جمعه جوفينال ، وترأس الأسقف السكندرى جلسات المجمع . وقد قام أسقف القدس هنا بنفس دوره فى المجمع السابق، ذلك أنه لما كان دومنوس Dominus أسقف أنطاكية مؤيدا لكنيسة القسطنطينية وأسقفها فلاڤيان ، فقد راح جوفنال يعضد يوطيخا والأسقف السكندرى ديوسقورس، وانتهى الأمر بتبرئة ساحة يوطيخا وإعلان قوامة إيمانه ، وإدانة فلاڤيان ويوسيبيوس ودومنوس وعزلهم من أسقفياتهم، وعاد جوفنال يتباهى ما حققه من نصر على الأسقف الأنطاكى الذى كان يمثل له حجر عثرة يعوقه عن الارتقاء بأسقفيته إلى مكانة مرموقة بين القرينات .

٦٣- لمزيد من التفاصيل عن مجمع إفسوس . أنظر SOCR. hist. eccl. VII. 34 .
Hefele, Councils, III , p. 599 .

ويبدو أن كنيسة القدس ، قد أضحت الآن فى مطلع النصف الثانى من القرن الخامس قاب قوسين أو أدنى من تحقيق ما كان يسعى إليه أساقفتها ، وساعدت الأحداث السياسية نفسها على تيسير هذا المبتغى؛ فقد توفى ثيودوسيوس الثانى عام ٤٥٠ ، ولما لم يعقب وريثا ذكرا، فقد خلفه على العرش مارقيان Marcianus عضو السناتو ، الذى كان يدرك تماما أنه لاينتمى إلى الأسرة الثيودوسية ، ومن ثم اقترن باخت الإمبراطور الراحل ، بولكيريا Pulcheria زواجا سياسيا محضا، ولكنه كان يحرص فى الوقت ذاته على استرضاء أسقف روما بعد أن تدهورت الحالة السياسية فى النصف الغربى من الإمبراطورية تحت ضربات جحافل الجرمان ، حتى يضمن بذلك عونه فى الحصول على رضاء امبراطور الغرب فالنتينيان الثالث عن اعتلائه العرش، حيث كان امبراطور الغرب يعتبر الوريث الشرعى لابن عمه وصهره ثيودوسيوس الثانى ، وحيث كان البابا يتمتع بنفوذ واسع فى بلاط الغرب (٦٤).

وكان الغضب قد تملك على ليو الأول كل سبيل من جراء ما أسفرت عنه جلسات مجمع إفسوس الثانى، حيث رفض ديوسقورس قراءة «رسالة العقيدة» TOMUS التى كان قد بعث بها ليو إلى المجمع ، ولهذا شرع مارقيان يدعو الأساقفة لعقد مجمع عام ، عرف بالمجمع المسكونى الرابع ، وشهدته مدينة خلقيدونية Chalcedon فى الثامن من أكتوبر سنة ٤٥١ . وقد اتضح منذ الجلسة الأولى ما كانت تبيته روما والقسطنطينية للنيل من المكانة التى ارتقت إليها كنيسة الأسكندرية على امتداد النصف الأول من القرن الخامس على يد ثيوفيلوس وكيرلس وديوسقورس ، وكانت الجلسة الثالثة من جلسات المجمع محاكمة صريحة لأسقفية الأسكندرية فى شخص ديوسقورس ، الذى رفض المثول أمام المجمع فصدر بالتالى ضده قرار الإدانة والعزل ، ووقف الأكليروس المصرى وحده ينافح عن قضية إيمانه ومكانة كنيسته .

أدرك جوفنال أن دفة الأحداث تسير الآن فى اتجاه معاكس ، وأن سفينة الأسكندرية وديوسقورس لا محالة غارقة ، ومن ثم أسرع يطلب النجاة ليحقق بعض طموحه ، فأعلن تخليه عن الأسقف السكندرى، وصدق على إدانته ، وكذا - كما يقول المؤرخ Chadwick ارتد جوفنال بحركة مسرحية عن موقفه الأول وتمت مكافأته على ذلك باحتفاظه بأسقفيته (٦٥).

٦٤- انظر : Jones, L. R. E . vol . I, 215 , 219 - 221 .

٦٥- The early Church, p. 203 .

وإن لم يستطع أن يعود إليه حقا إلا بعد عامين كاملين نتيجة الثورات التى اندلعت بين الرهبان فى فلسطين احتجاجا على موقفه هذا، واضطرت الحكومة إلى استخدام القوة لإخمادها[٦٦] بل لقد ذهب المجمع خطوات أبعد من ذلك تجاه كنيسة القدس ، فأعلن تحريرها من سيادة قيسارية وأمكن التوفيق بين ماكسيموس Maximus الأسقف الأنطاكى ، وجوفنال ، حيث خلع على الأخير منصب البطريرك ومنحت أسقفية القدس المرتبة الخامسة بين الكنائس الرسولية الكبرى !! بشرط أن لايتجاوز سلطانها الرعوى كنائس فلسطين فقط [٦٧].

وقد عرف هذا الترتيب بالنظام «الخماسى» فى الكنيسة ، وأنه قد اكتمل على هذا النحو بناؤه، وأذاعت الكنائس أنها رسولية ، على أنه إذا كانت الكراسى الأربعة الأولى (روما – القسطنطينية – الأسكندرية- أنطاكية) تمثل أكثر المدن أهمية فى الإمبراطورية ، فإن كنيسة القدس قد ألحقت فقط على اعتبار أنها المكان الذى انطلقت منه الدعوة المسيحية والموضع الذى شهد معاناة المسيح [٦٨]. وهكذا قنعت كنيسة القدس بما وصلت إليه ، وإن كان ذلك قد جاء متأخراً (فى القرن الخامس)، وجاءت هى الأخرى فى نهاية القائمة، على الرغم من أن كنيسة القسطنطينية ، حديثة العهد بالحياة ، قد أفسحت لنفسها مكانا مرموقا ، وزاحمت روما والأسكندرية بوحى من الإمبراطور وبقرار من رجال الكنيسة فى مجمع مسكونى !

وقد أكد الإمبراطور جوستنيان Justinianus (٥٢٧–٥٦٥) الاعتراف بالوضع الجديد لكنيسة القدس فى «المتجددات Novellac» التى صدرت حول المسائل المتعلقة بالتنظيم الكنسى ، واعتبرت أن هذا النظام «الخماسى» يمثل الوحدة التامة للكنيسة الكاثوليكية (الجامعة) [٦٩].

٦٦- Vasiliev , Byzantine empire I, p. 105 ;

Baynes & Moss, Byzantium , p. 99 .

٦٧- CMH. vol . IV . part 2 p. 107 ;

Hefele, Councils, vol. III .

Percival, Councils, vol . XIV .

٦٨- Ware , Orthodox Church, p. 34 .

٦٩- أنظر CMH. vol IV part I, p. 19 ومن الجدير بالذكر أن الإمبراطور جوستنيان كان يعترف =

هكذا ألقت كنيسة القدس أسلحتها الواهنة ، بعد أن حققت بيد الضعف مكانة كانت تسعى إلى غيرها ، وقنعت بأن تعد ضمن الكنائس الرسولية الكبرى، حتى ولو جاء ترتيبها الخامسة بين تلك اللدات. ولاشك أن الكراسى الأربعة الأخرى قد هدأت نفسا باقرارها لهذا الترتيب «الخماسى» وإن كان فى حلق الأسكندرية غصة بعد أن أزاحتها القسطنطينية سنة ٣٨١ لتحتل مكانها ، ولم تغفر الأسكندرية للقسطنطينية هذا التعدى فانتقمت لنفسها خلال الجولات الثلاث على امتداد النصف الأول للقرن الخامس الميلادى . حقيقة ردت القسطنطينية اعتبارها فى المجمع الخلقيدونى، وجرعت الأسكندرية كأسا كانت قد ذاقت مرارته ثلاث مرات قبل ذلك. غير أن خسارة القسطنطينية كانت عند نصرها فى خلقيدونية أفدح بكثير لحظة هزيمتها ؛ ذلك أن المناطق الإمبراطورية الشرقية فى سوريا وفلسطين ومصر ، أصبحت تموج بحركات العداء الكامن تجاه القسطنطينية ، وذلك نتيجة للسياسة العقائدية التى اتبعتها كنيسة العاصمة والأباطرة تجاه كنائس هذه المناطق بسبب الخلاف المذهبى ، بالإضافة إلى السياسة الاقتصادية المتمثلة فى الضرائب الباهظة التى ألقيت على كواهل الأهلين فى هذه الولايات لمواجهة الأعباء الناجمة عن محاولات الإمبراطورية ، خلال عهد جوستنيان ، استعادة الولايات الضائعة فى الغرب، والتى تساقطت فى أيدى زحوف الجرمان فى نهاية القرن الرابع وعلى امتداد القرن الخامس تساقط أوراق الشجر فى مهب رياح الخريف ، ثم مواجهة

= صراحة بالمركز المتفوق لأسقفية روما على بقية الكنائس الرسولية، ويبدو هذا واضحا فى رسائله وقوانينه . ففى رسالته إلى البطريرك إبيفانيوس يقول «ندين نسطور ويوطيخا ، محافظين بكل أسلوب على وحدة الكنائس المقدسة مع بابا وبطريرك روما القديمة ، لأننا لايمكن أن نتسامح مطلقا مع أى نظم كنسية تقر بعيدا عن قداسته ، باعتباره رأس كل رجال الله المقدسين ». وجاء فى نوفلاه الشهيرة رقم ١٣١ والتى صدرت فى عام ٥٤٥ « تطابقا مع ما اتفق عليه مسبقا (المجامع المسكونية الأربعة) نعلن ، البابا المقدس لكرسى روما يعتبر الأول بين كل رجال الدين ، وأن بطريرك القسطنطينية المبارك- روما الجديدة يأتى ترتيبه الثانى بعد أسقف كنيسة روما المقدسة الرسولية». انظر : CMH. vol. IV part I, pp. 436-7 ومن المعروف أن جوستنيان كان رومانيا بالقلب والقالب ، حتى عده بعض المؤرخين آخر الأباطرة الرومان انظر Hussey, Byzantine World, p. 21 ومن ثم كان لايجد فى القسطنطينية (روما الجديدة) عوضا كاملا عن روما القديمة على التعبير ، ولهذا كان حريصا على استعادتها من أيدى القوط الشرقيين ، وقد تحقق له ذلك بعد حرب طويلة معهم دامت عشرين عاما (٥٣٤-٥٥٥) .

الإمبراطورية لهجمات عناصر الآفار والصقالبة على البلقان ، ومن ثم بات واضحا أن هذه المناطق الشرقية تشكل خطرا حقيقيا على الإمبراطورية ، يتمثل داخليا فى الاضطرابات التى اندلعت فيها لقرنين تاليين، وخارجيا فى الطموح الفارسى الساسانى الذى يبتغى القفز إلى سواحل البحر المتوسط، وقد تحقق ذلك بالفعل فى السنوات الأولى من القرن السابع ، ولم يلبث المسلمون بعد ذلك أن أدخلوا هذه المناطق فى دائرة نفوذهم .

من هنا راحت السياسة الإمبراطورية تتقلب بين اللين والهوادة ومحاولة الاسترضاء تارة ، والعنف تارات ، وعانت كنائس الأسكندرية وأنطاكية والقدس كثيراً من جراء هذا التقلب ، غير أن هذه المحاولات كلها لم تثمر فى نهاية الأمر إلا شيئا واحدا ، هو ضياع هذه الأقاليم من الإمبراطور ضياعا لارجعة بعده .

وقد ساعد على اشتداد حركة العداء فى فلسطين بالذات تجاه القسطنطينية ، ازدياد نمو الحركة الرهبانية فى هذه المنطقة ، وكانت فلسطين - بلاشك- أكثر المناطق تأثرا بالنظام الرهبانى فى مصر ، وبرز من هؤلاء الرهبان فى القرن الرابع القديس هيلاريون Hilarion الذى عاش فى صحراء غزة ، والقديس شاريتون St. Chariton الذى يعزى إليه إقامة سيق[٧٠] (لافرا Lavra) فاران فى صحراء اليهودية Judaea. وكان هذا النسق من الرهبنة أكثر الأشكال الرهبانية انتشارا فى فلسطين ، ويستدل مما كتبه كيرلس البيسانى Cyril of Scy-thopolis فى القرن السادس ، على الانتشار الواسع للحركة الرهبانية وازدياد عدد الرهبان فى فلسطين خلال القرنين الخامس والسادس [٧١]. ولما كان الرهبان هم أكثر المسيحيين تمسكا بعقيدتهم ، وأشدهم تعصبا لما هم به يدينون ، كان من الصعب أن تفلح معهم محاولات الحكومة الإمبراطورية لاستمالتهم إلى مذهب آخر غير الذى يقومون على اعتناقه .

٧٠- كلمة Lavra مشتقة من الكلمة اليونانية Laura بمعنى زقاق أو عطفة ، وتأتى فى المخطوطات العربية القديمة باسم «السيق» وجمعها «أسياق» . أنظر : الأب متى المسكين، الرهبنة القبطية فى عصر القديس أنبا مقار ، ص٤٥ .

٧١- للمزيد من التفاصيل عن الحركة الرهبانية فى فلسطين أنظر :

SOZOM . hist. eccl. III , 14 , V. 10 .

وقارن PALLAD. hist. Laus. trans . by Budge in " Stories of the holy Fathers; Baynes &

كان الرهبان فى فلسطين مع ذلك لايشكلون قوة حقيقية يمكن أن تعتمد عليها كنيسة القدس إلا فى حالات نادرة ، ومن ثم افتقدت كنيسة القدس ما تمتعت به كنيسة الأسكندرية من اعتماد أساقفتها على الرهبان المصريين فى تحديها لسلطان الأباطرة ، إلى جانب أسلحتها الأخرى، حيث كان الرهبان المصريون يشكلون بهراواتهم - كما يقول المؤرخ Budge جيشا قويا يقلق بال الحكومة الإمبراطورية .

ففى عام ٤٨٢ أقدم الإمبراطور زينون على إصدار ما يعرف بقانون الاتحاد Henoticon تضمن موافقته على مراسيم الإيمان الصادرة عن نيقية والقسطنطينية ومبادئ كيرلس السكندرى ، وإدانته لنسطور ويوطيخا ، ولكن المرسوم لم يذكر شيئا عن طبيعة واحدة للمسيح كما يؤمن المنافزة أو طبيعتين كما يعتقد الخلقيدونيون، وكان زينون - الذى يبدو أنه يميل للمونوفيزية- يريد بهذا القانون استرضاء كنائس سوريا وفلسطين ومصر ، غير أن كنيسة القدس بتأييد من رهبان فلسطين رفضت هذا القانون ، فقد أعلن الرهبان أن هذا القانون لايتضمن إدانة صريحة للخلقيدونية، غير أن الحكومة لم تكن جادة فى مباشرة تنفيذ هذا القانون وحمل مسيحيى الشرق على الأخذ به، ومن ثم وقفت موقفا سلبيا إزاء صيحات الاحتجاج هذه .

وكان الإمبراطور أنسطاسيوس الأول Anastasius (٤٩١-٥١٨) الذى خلف زينون أكثر ميلا للمونوفيزية من سلفه ، وأشد رغبة فى استرضاء أهالى الولايات الشرقية، خاصة وأن أنسطاسيوس لم يكن يبدى اهتماما خاصا بما جرى فى الغرب الإمبراطورى، الذى راح يقع فى أيدى الجرمان ولاية وراء أخرى، ومن ثم أولى الشرق والمسألة العقيدية جل اهتمامه . وكان يتولى رعاية أسقفية القدس إلياس الذى أظهر ميله فى بادئ الأمر للمعتقد الخلقيدونى ثم اعلن انحيازه له صراحة بعد ذلك ، ويبدو أن إلياس ، الذى أمضى أسقفًا للقدس ما يقرب من ثلاث وعشرين سنة (٤٩٤-٥١٦) ، قد تمكن من استمالة مجموعة كبيرة من الرهبان فى فلسطين إلى جانب الطبيعتين فى المسيح ، بحيث تحولوا على هذا النحو إلى الجانب المضاد تماما. وقد ظهر ذلك واضحا عندما أخذ الإمبراطور فى السنة العشرين من حكمه يعلن جهارا

Moss, Byzantium , pp. 138-139 ;

Hussey, Byzantine world, pp. 107 n. 1 , 109 ;

ميله للمونوفيزية ويعزل أساقفة الخلقيدونية[٧٢] وإن كان قد اصطبر على إلياس حتى عام ٥١٦ حيث أصدر قرار عزله ونفيه نتيجة لما يعلمه من نجاحه في تحويل نفر كبير من الرهبان إلى الخلقيدونية ومناصرة هؤلاء له ، ومن ثم فقد لقى صعوبة بالغة في فرض إرادته هنا: ذلك أن يوحنا ، الذى كان أحد شمامسة إلياس واختير من قبل السلطات الإمبراطورية خلفا لأستاذه، كان عليه أن يعلن جهارا إنزال اللعنة على المجمع الخلقيدونى، وقد فعل ، فلما كان يوم رسامته لمنصب الأسقفية ، أحاط به عشرة آلاف راهب فلم يجد من سبيل إلا أن يصرح علانية ساعتها تمسكه بقانون الإيمان الخلقيدونى ، وكان قائد حامية فلسطين على قدر كبير من الذكاء أدرك به أنه من الأفضل أن ينسحب بقواته بهدوء دون تدخل من جانبه ، كما كانت تقضى الأوامر الإمبراطورية ، فقد أبصر العواقب الوخيمة التى يمكن أن تؤدى إليها مثل هذه المواجهة بين قواته وجيش الرهبان .

وقد عاشت كنيسة القدس ، شأن الكنائس الأخرى في الإمبراطورية ، فترة قلقة يسودها التوتر والاضطراب خلال العهد الطويل للإمبراطور جوستنيان Justinianus (٥٢٧-٥٦٥) - فقد كان قلب الإمبراطور يهوى الغرب ، ولكن بصره كان معلقا بالشرق، يروم استعادة - الولايات الإمبراطورية فى النصف الغربى، ويسعى لحماية ولايات الشطر الشرقى من الخطر الفارسى، وبين قلب الإمبراطور وبصره تأرجحت فى العقيدة سياسته، ومن ثم كانت العقيدة عنده تسير فى ركاب الجيش ، يقلب الإمبراطور بين كفيه كنائس الإمبراطورية حسبما تقتضى بذلك مصلحته السياسية ومتطلباته العسكرية[٧٣]. وقد أظهر

٧٢- كان يشد من أزر أنسطاسيوس فى سياسته العقيدية المؤيدة للمونوفيزية لاهوتيان هما فيلوكسنوس Philoxenus وهو سورى من منبج Hierapolis وسفروس Severus البيسيدى ، وكان مقدونيوس أسقف القسطنطينية خلقيدونيا متعصبا ، ومن ثم تبلورت الاتهامات بينه وبين الإمبراطور ، فأعلن أنسطاسيوس أن أسقفه يدين بالنسطورية ، ورد عليه الأسقف التهمة بأن الإمبراطور يوطاخيا ، وفى ٦ أغسطس ٥١١ تم عزل مقدونيوس ونفيه ، وفى السنة التالية عزل فلافيان Flavianus أسقف أنطاكية .

أنظر : Jones . L.R. E. vol . I pp. 222-3, 233-4 ;

Vasiliev, Byzantine empire, vol. I p. 111 ;

Chadwick, early Church pp. 206-208 .

٧٣- لمزيد من التفاصيل عن سياسة جوستنيان العقيدية أنظر :=

جوستنيان فى السنوات الأولى من حكمه ميلا تجاه المنافزة ، حيث كانت الجيوش تحارب الفرس على جبهة الفرات ، ولهذا كان حريصا على استرضاء أهالى الولايات الشرقية حتى يضمن هدوء الجبهة الداخلية، هذا بالإضافة إلى أن زوجه ثيودورا كانت تبدى تعاطفا طبيعيا مع المونوفيزية ، ولما أمن جبهة فارس بمعاهدة سلام اشتراها ، ونقل قواته للغرب محاربا محاولا استرداد أفريقيا وإيطاليا ، أدار للطبيعة الواحدة في المسيح وأتباعها ظهره ، وولى وجهه شطر روما الخلقيدونية يطلب ودها ، وعلى هذا النحو تعرضت الكنائس للكثير من مظاهر تدخل الدولة فى عزل أساقفتها وتعيين غيرهم تبعا للمصلحة السياسية، وإن كان هذا لايعنى أن الإمبراطور لم يكن راغبا حقيقة في التوصل إلى صيغة واحدة للإيمان تجتمع عليها إمبراطوريته.

غير أن كنيسة القدس تعرضت لهزة عنيفة إبان عهده، من جراء الصراع الذى نشب من جديد حول فكر الفيلسوف واللاهوتى السكندرى أوريجن، واشتد أواره بفعل اشتراك مثقفى الرهبان فيه، وزاد الأمر حدة أن إفاجريوس Evagrius الذى كان رئيس الشمامسة فى القسطنطينية ، قد غادر العاصمة واتجه إلى القدس ، وراح ينشر وجهة نظره المؤيدة للأوريجنية، وساعده فى ذلك أن اللافرا الجديدة التى كانت قد أقيمت فى صحراء اليهودية Judaea أصبحت تمثل مركز الفكر الأوريجنى فى فلسطين ، وعلى الرغم من أن إفاجريوس قد غادر القدس إلى الصحراء المصرية لإعجابه بالحياة الديرانية هناك ، إلا أن حدة الجدال لم تنته، مما دفع الإمبراطور جوستنيان أن يصدر فى سنة ٥٤٣ مرسوما مطولا يدين فيه الأوريجنية، وليعود بعد ذلك بعشر سنوات ، يؤكد هذه الإدانة فى المجمع المسكونى الخامس الذى شهدته القسطنطينية سنة ٥٥٣، وليشرك فى اللعنة مع أوريجن ، إفاجريوس وديديموس الضرير الذى كان رئيسا لمدرسة اللاهوت السكندرى فى أواخر القرن الرابع الميلادى .

= Ure, Justinian and his age, pp. 84, 599 ;

Vasiliev, Byzantine empire, I, pp. 148-154 ;

Jones, L. R. E. I, pp. 285-287, 296-298 .

Chadwick, early Church, pp. 208-209 ;

CMH. vol. IV, part. I. pp. 436-8 ; part. II , pp. 126-128 .

وبموت جوستنيان ، دخلت الإمبراطورية فى طور من الضعف امتد قرابة نصف قرن من الزمان (٥٦٥-٦١٠)، ورغم أن بعض أباطرة هذه الفترة مثل الإمبراطور موريس Mauricius (٥٨٢-٦٠٢) قد حاول جاهدا الحفاظ على كيان الإمبراطورية ، إلا أن الأحداث الخارجية التى عاجلت الإمبراطورية بضرباتها عند الدانوب وعلى الفرات ، كانت أقوى من جهود خلفه فوقاس Phocas الذى يعد عهده (٦٠٢-٦١٠) من أسوأ الفترات فى تاريخ الأمبراطورية .

انتهز الفرس فرصة الضعف الذى تردت فيه الإمبراطورية ، والفتنة الداخلية التى رفعت فوقاس إلى العرش[٧٤]، ووجهوا جيوشهم نحو الولايات الشرقية للإمبراطورية لتحقيق حلمهم الذى كانوا يطمحون إليه منذ زمن بعيد، بالوصول إلى شواطئ البحر المتوسط الذى كان يمثل مركز الثقافة والحضارة آنذاك ، واستطاعوا فى سنوات قليلة الاستيلاء على آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ومصر، ووقفت جيوشهم على الشاطئ الآسيوى للبسفور قبالة القسطنطينية، ولم يستطع الإمبراطور هرقل Heraclius حتى السنة الخامسة عشرة من حكمه (٦٢٥) أن يتصدى لهذا الزحف .

وقد تعرضت القدس للتخريب على يد الفرس ، فقد نهبت الكنائس ، وجردت كنيسة القبر المقدس من كنوزها وأشعلت فيها النيران، ونقلت كثير من النفائس التى كانت تزدان بها بيع المدينة ودور العبادة المسيحية إلى المدائن Ctesiphon ، ونقل معها أيضا صليب الصلبوت

٧٤- فى عام ٥٩١ تم اغتيال الملك الفارسى هو رميزدا ، ووجد ابنه كسرى نفسه عاجزا عن الاحتفاظ بعرشه فى مواجهة ڤاران Varanes الذى تمرد فى ميديا ، واضطر كسرى أبرويز للهروب إلى قرقيسية Circesium ووضع نفسه تحت رحمة الإمبراطور البيزنطى ، وعرض عليه التنازل عن ميافارقين Martyropolis ودارا Dara والتخلى عن ادعاءاته فى أرمينية مقابل عونه لاسترداد عرشه . وقد قبل موريس ذلك وأوفى بما عاهد عليه ملك الفرس ، وفى سنة ٦٠٢ تمردت القوات الرومانية ضد الإمبراطور عند الدانوب يتزعمها فوقاس ، الذى عاد إلى القسطنطينية ، وقتل موريس مع أبنائه الخمسة ، رغم فرارها إلى الشاطئ الآسيوى واحتمائهم بكنيسة الشهيد أوتونوموس Autonomus ومن ثم أعلن الملك الفارسى استياءه لمقتل حليفه ، وساق جيوشه داخل الأراضى الإمبراطورية ، معلنا عزمه على الانتقام من فوقاس . أنظر : Jones, L. R. E. vol . I , pp. 311 , 315 - 6 ;

Vasiliev, Byzantine empire, I, pp. 174-175 ;

CMH: vol. IV, part. I. pp. 29-30 .

الذى قيل- كما أسلفنا- أن رحلة هيلانة والدة قسطنطين استهدفته وتم العثور عليه، هذا بالإضافة إلى عدد من الأسرى كان فى مقدمتهم زكريا Zacharia أسقف كنيسة القدس ، ولم يأت عام ٦١٨ حتى كانت مصر هى الأخرى قد سقطت فى أيدى الفرس. هكذا فقدت الإمبراطورية كل ولاياتها الشرقية. وكان الآفار فى الوقت ذاته قد عاثوا فى البلقان فسادا، وألقوا على القسطنطينية حصارهم. وهكذا لم يبق من بيزنطة الإمبراطورية إلا بيزنطية المدينة!!

غير أن الإمبراطور هرقل تشاركه الكنيسة ، بذل جهودا كبيرة فى سبيل استعادة هذه الولايات الضائعة ، وفى ديسمبر سنة ٦٢٧ حقق هرقل نصره الكبير ، وقدر أن تشهد نهاية العام خاتمة الصراع بين الإمبراطورية وفارس. وعند أطلال نينوى جفت الأقلام وطويت الصحف بعد أن سجلت آخر سطور ملحمة الصراع الطويلة بين الفريقين ، ولم نسمع مرة أخرى فى التاريخ البيزنطى عن حرب خاضتها الإمبراطورية ضد فارس، لا لأن بيزنطة كانت قد كالت لعدوها الكثير ، ولكن لأن دولة الفرس سرعان ما دالت تماما بعد ذلك ببضع سنين على يد المسلمين .

وعاد هرقل إلى عاصمته تحفه أكاليل الغار وزهو الانتصار ، يحمل إلى شعب القسطنطينية صليب الصلبوت الذى طيف به أمام مذبح أياصوفيا ، وفى سنة ٦٣٠ ارتحل الإمبراطور وزوجته مارتينا Martina قاصدين القدس ، حيث أعيد الصليب فى احتفال مهيب إلى سابق مكانه (٧٤).ولاشك أن هرقل كان يدرك تماما الأسباب الحقيقية لضياع هذه الولايات على هذا النحو من السرعة، واتخاذ الأهلين فيها موقف السلبية تجاه هذا الغزو الفارسى،

٧٤- يحلو لبعض المؤرخين أن يخلعوا على حملات هرقل ضد فارس صفة الصليبية، ولعل ذلك يعود إلى ما واكب هذه الحملات من مظاهر وطقوس دينية ، شارك هرقل بنفسه فى عدد منها، فقد انقطع عن دنيا الناس عدة أيام آوى خلالها إلى أحد الأديرة ، كما أنه وضع أيقونة العذراء فى مقدمة جيوشه ، وأحاط به عند خروجه فى حملته الأخيرة عدد كبير من رجال الأكليروس ، هذا بالإضافة إلى الجهود الكبيرة التى بذلتها الكنيسة فى العاصمة وبطريركها سرجيوس ، سواء بتوفير الأموال اللازمة لهذه الحرب ، أو قيام البطريرك بدور فعال أثناء حصار العاصمة من جانب الآفار، كل هذا بالطبع إلى جانب الاهتمام الواضح بعودة صليب الصلبوت إلى مكانه فى القدس .

أنظر Hussey; The Byzantine World, p.23 والترجمة العربية ص١٣٠ .

(وسوف يتكرر هذا المشهد ثانية إلى حد كبير أمام حركة الفتوح الإسلامية الأولى) ، نتيجة ضجرهم ونقمتهم على القسطنطينية لسياستها العقيدية المخالفة لهم والمتعنتة فى معاملتهم. غير أن هرقل عندما حاول معالجة هذه الناحية ، لم يخرج عن السبل التى رسمها أسلافه من قبل، وهى محاولة التوفيق بين أصحاب الطبيعة الواحدة المنافرة ، وأصحاب الطبيعتين الخلقيدونيين ، وهى سياسة أثبتت على مر القرون فشلها بسبب الخلاف الجذرى العقيدى بين هؤلاء وأولئك ، والأحقاد الدفينة منذ سنى الاصطراع استباقا من أجل الزعامة الكنسية. إلا أن هرقل كان يحدوه الأمل فى اقام الوحدة الكنسية حتى يضفى على نصره العسكرى شيئا من قداسة ، خاصة وأن البدايات هيأت له بعض التفاؤل .فقد انتهز الإمبراطور فرصة وجوده على رأس حملاته العسكرية فى حرب فارس ، وراح يتفاوض مع أساقفة بعض الكنائس الواقعة فى دائرة عملياته العسكرية ، ونعنى بذلك بولس الأسقف الأرمنى ، وذلك فى عام ٦٢٣، وأبدى راعى الأرمن هذا ارتياحه لرغبة الإمبراطور فى توحيد الكنيسة ، وكذلك قيرس Cyrus أسقف فاسيس Phasis فى بلاد الأكراد ، وأثناسيوس الجمال أسقف أنطاكية ، ولعب البطريرك سرجيوس أسقف القسطنطينية دورا كبيرا فى محاولة استمالة عدد من رجال الأكليروس إلى الدعوة الجديدة التى ابتدعها الإمبراطور، ولما أعجب هرقل بلباقة قيرس واندفاعه فى تأييد الإمبراطور وآرائه ، عينه أسقفا على الأسكندرية.

أذاع هرقل بيان إيمانه Ecthesis سنة ٦٣٨ بعد أن اطمأن إلى رضاء عدد من أساقفته عنه، وتضمن هذا المرسوم القول بالطبيعتين فى المسيح حسبما أقر الإيمان الخلقيدونى، وأضاف القول بالمشيئة أو الإرادة الواحدة (Thelima) . ومن هذه الكلمة اليونانية اشتق مصطلح المونوثلية[٧٥] Monotheletism وتولى سرجيوس أمر الصياغة اللاهوتية لهذا المرسوم العقيدى الجديد الذى كان يبغى فى ظاهره التوفيق بين أنصار المذهب الخلقيدونى وأصحاب الطبيعة الواحدة (المونوفيزية) ، وعلى الرغم من أن البابا هونوريوس الأول Honorius اعترف

٧٥- Dictionaire de theologie Catholique , vol. X part. 2 art Mono ; Encyclopeadia of religion and ethics , art . Mono; The New Schaff- Herzog encyclopedia of Religious Knowledge, art. Mono; Baynes & Moss , Byzantium , p.103 Vasiliev, Byzantine empire, vol. I, pp. 222-223 .

بخطورة كل المناقشات التى تثور حول المشاكل العقيدية التى لم تقرها المجامع المسكونية ، فقد أعلن صحة التعاليم القائلة بإرادة واحدة .

غير أن كنائس الولايات الشرقية رفضت الاعتراف بهذه الآراء الجديدة ، وقاد البطريرك السكندري بنيامين حملة المعارضة فى مصر ضد الأسقف الإمبراطورى (الملكانى) قيرس، أما كنيسة القدس فقد علا صوتها بالاحتجاج الصارخ على هذا التشويه للعقيدة المسيحية، وكان بطريركها صفرونيوس Sophronius الراهب الفلسطينى ، وتلميذ الأسكندرية، أشد رجال الأكليروس تحديا للمونوثلية التى اعتبرها صورة ممسوخة من مذهب الطبيعة الواحدة وشكلا فاسدا للإيمان الخلقيدونى ، وكتب رسالة مجمعية إلى أسقف القسطنطينية ناقش فيها بمهارة واضحة وذكاء عدم قوامة التعاليم المونوثلية ، وكان فشل كل الجهود الدبلوماسية التى بذلها الإمبراطور وأسقفه سرجيوس أمام المقاومة العنيدة التى أبداها صفرونيوس ، دافعا حمل هرقل على اتباع سياسة العنف بغية تحقيق أهدافه . غير أن هذه السياسة لقيت هى الأخرى فشلا ذريعا، وكان عاقبة أمرها خسرا، إذ لم يمض على ذلك أشهر قلائل حتى كان المسلمون قد أخضعوا هذه المناطق لسلطانهم . ويعلق المؤرخ بتلر فى كتابه «فتح العرب لمصر» على ذلك بقوله «... لقد كان رأى الإمبراطور فى القضاء على اختلاف المذاهب بأمر يأمر به ، رأيا بعث به الخيال والوهم . فقد ظن أنه يستطيع بكلمة سحر يقولها أن يهدئ العواصف الثائرة من الخلاف فى المذاهب ، فما كان منه إلا أن زاد العاصفة هياجا ، ولم يستطع الصبر على الخيبة ، ولم يرض أن يدع الأمور إلى الزمن ويلزم جانب الاعتدال، فعزم على أن يسعى للسلام بخوض حرب دينية فى مصر والشام ، فكان بعمله هذا يمهد السبيل فى القطرين لمطلع جنود الإسلام».

هكذا رأينا كيف عاشت كنيسة القدس تعانى لفترة طويلة أوجاع اضطهاد نبيل خصتها به قريناتها روما والقسطنطينية والأسكندرية وأنطاكية لتضمن بقاءها فى مرتبة دنيا ، تقصر هامتها دون رقاب تلك الأسقفيات. وأولاء اللدات تعلم علم اليقين أنه لو أتيحت لكنيسة القدس الفرصة فى منافسة عادلة، لعلت برصيدها الروحى، فقط ، والذى لاتمتلك سواه، سمت رفعة وفخار يفوق كل ما كان لهولاء جميعا من ماض وثنى تتباهى به روما ، وحاضر تزهو به القسطنطينية ، أو فكر فلسفى تتعالى به الأسكندرية وأنطاكية . وليس غريبا أن يشارك الأباطرة أساقفتهم هذا السبيل ، فاذا كان الإمبراطور هو الكاهن الأعظم فى الوثنية ، فقد أصبح الآن الأسقف الأعلى فى المسيحية، ورأس الكنيسة ، يعين الأساقفة ويعزلهم، ويدعو

لعقد المجامع الكنسية العالمية ، وحتى المحلية ويترأس جلساتها ويصدق على قراراتها ، ويتدخل فى أمر العقيدة والتنظيمات الكنسية. ويكفى أن نقف على سياسة قسطنطين إزاء المسيحية ، أو متجددات جستنيان، لنعلم إلى أى حد بلغ سلطان الأباطرة على الكنيسة ، ومن ثم كان من اللائق بل من الضرورى أن تحتل أسقفية العاصمة المرتبة اللائقة بها، ولكى يصاغ الترتيب الذى عمدت إليه هذه الكنائس فى قالب مقدس ، أصبح من سلطة المجامع الكنسية ، حتى المحلية منها أن تصدر قوانينها بأسبقية هذا الكرسى الأسقفى أو ذاك. على هذا النحو سار مجمع نيقية سنة ٣٢٥ والقسطنطينية سنة ٣٨١ وخلقيدونية سنة ٤٥١ . بل وأيضا مجمع التدشين الذى عقد فى أنطاكية سنة ٣٤١ ، حيث نص القانون التاسع على إضفاء المرتبة الأولى على الأساقفة الذين يرعون كنائس عواصم الولايات[٧٦] ووسط متاهات الكريستولوجية السحيقة التى تفرقت بها السبل فى القرن الخامس الميلادى لهثت الكراسى التى عدت نفسها رسولية وتقطعت أنفاسها جريا وراء مركز للزعامة مرموق فى عالم المسيحية، مستترة برداء تنشره فى وجه الخصوم ، هو الدفاع عن لاهوت المسيح عند نفر ، وناسوته عند آخر ، وعن هذا وذاك عند ثالث !!

وتركت الظروف الخاصة بكنيسة القدس أيضا بصماتها على موقع هذه الكنيسة، فافتقدت القوة الرهبانية التى يمكن أن تجد فيها سندا ومعينا يحمى ظهرها فى مواجهة السلطة الإمبراطورية، وهى القوة التى فازت بها كنيسة الاسكندرية ، وعرف أساقفتها كيف يفيدون منها إلى أقصى حد. كما أن أحداً من الشخصيات القوية لم تحظ به كنيسة القدس أسقفا لها يمكن أن يجهر بحق الكنيسة فى مرتبة متقدمة ، بل شغل أساقفتها ، وحتى ذوى السمعة منهم وهم قليلون ، برفع عقيرتهم بالشكوى من خضوعهم لقيسارية ، فلما آنست الكنائس الرسولية من نفسها قوة ، سمحت لكنيسة القدس أن تلحق فى النهاية بركب قافلة الكراسى الأربعة الكبار ، وتنزل المنزلة الخامسة .

وقد يقال إن هذا التنظيم «الخماسى» لايعنى ترتيب مكانة ، صعودا إلى روما أو نزولا إلى القدس ، فالكل فى حق الأخوة والرفعة سواء ، وإذا جاز أن يصدق هذا القول من الناحية النظرية وحدها ، فإن الواقع العملى بالصورة التى جرى بها فى القرن الخامس يرفض هذا

٧٦- أنظر : Hefele, Councils, vol . II , p. 69 .

الإدعاء ويدحضه ، ولعل المحاكمة الشهيرة التي جرت للأسقف السكندري ديوسقورس في المجمع الخليقدوني ، والإهانات التي وجهت إليه ، وبلغت حسب رواية بعض المصادر إلى حد الاعتداء ، خير شاهد على ما تذهب إليه، وحسبنا ما قاله أسقف سلوقية أمام هذا المجمع دليلا مؤكدا «يفضل ديوسقورس أن يذهب جميع الأساقفة إلى المنفى بسببه .. ويدعى هذا القديس أنه يدافع عن العقيدة الحقة ، غير أنه يعتبر شخصه فوق الله وفوق رسل روما والقسطنطينية وأنطاكية وجميع الأساقفة الآخرين ... فإذا هزمت الأسكندرية وقضى ديوسقورس نحبه ، فلن يظل العالم بلا أسقف» !!

والأسقف السلوقي بقوله هذا يعبر بصراحة مفرطة عن هذا الصراع الرهيب الذي دار بين الكنائس من أجل الزعامة ، ويخص بالذكر عمد ذلك الصراع ، روما والقسطنطينية والأسكندرية وأنطاكية ويجعل القدس في زمرة «الأساقفة الآخرين» الذين يتعالى عليهم جميعا أسقف الأسكندرية .

وقد قنعت كنيسة القدس بما حققته في منتصف القرن الخامس ، وأكده جوستنيان في القرن السادس ، ورضيت بقدرها ذاك. حتى كان عام ٦٣٨ عندما فتح المسلمون فلسطين ، وسلم صفرونيوس القدس بنفسه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لتبدأ كنيسة القدس بذلك رحلة جديدة في تاريخها عبر العصور الوسطى .

الفصل الثالث

قواعد الدبلوماسية البيزنطية



قواعد الدبلوماسية البيزنطية

أمام كل باحث فى التاريخ البيزنطى .. علامة استفهام كبيرة، تقف بارزة بين القرينات... علامة استفهام فرضتها أحداث التاريخ ..

فعلى امتداد ألف ومائة من السنين ، عاشت الإمبراطورية البيزنطية ، وهى من هذه الناحية فقط ، وبغض النظر عن حضارتها الزاهرة ، التى هذبت بها أخلاق الشعوب القبلية النازحة إلى منطقة البلقان، وهدت بها خطى الحائرين عند الدانوب والبحر الأسود ، إلى الحد الذى يتنافس فيها المتنافسون الآن، من الروس واليونان، يدعى كل منهم أنه الوارث الشرعى لها ، الضمين الحقيقى على تراثها !! نقول .. إنها من ناحية الامتداد الزمنى فقط ، عبر أحد عشر قرنا من الزمان، ما بين الرابع إلى الخامس عشر ، تبز كل لداتها من الإمبراطوريات التى عرفها التاريخ عبر العصور .

إلا أن هذه القرون الطويلة ، لم تكن نغما موسيقيا حالما، عزفه البيزنطيون على قيثارة السلام ، ليقدموا للعالم فى زمانهم ومن بعد ، حضارة متميزة، بل كان عليهم- كما تقول المؤرخة ج . م . هسى J. M. Hussey فى كتابها «العالم البيزنطى» The Byzantine world أن يواجهوا فى صبيحة كل يوم، بما يحتمه عليهم الموقع الجغرافى ، جيرانا تختلف طرائق حياتهم ونماذج تفكيرهم ، عما كان عليه البيزنطيون .

كانت الحدود الطويلة للإمبراطورية البيزنطية ، والتى راحت تتآكل مع الزمن بفعل ما يقضمه منها أولئك الجيران ، تفرض عليها مجاورة شعوب لها جذورها الحضارية كالفرس ، أو حضارتها القائمة الراسخة كالمسلمين . وشعوب ضاربة فى التخلف كالقبائل الجرمانية العديدة، والهون والآفار والصقالبة ، والبلغار والمجيار والغز والكومان والبشناق .

كان هناك طامحون .. طامعون فى الوصول إلى مركز الثقل الحضارى آنذاك .. البحر المتوسط ، أولئك هم الفرس ، وآخرون يقاتلون ، فيقتلون ويُقتلون من أجل الاستقرار على الأرض الرومانية ، والتمتع بقطوف خيراتها الدانية ، وأولاء هم الجرمان .

جماعات تطمح إلى القفز على القسطنطينية نفسها ، كالنورمان، وأخرى يأكل الحقد قلبها وتود إسقاط الإمبراطورية كلها.. كاللاتين .. وقبائل انقلبت إلى دول تدعى وراثة بيزنطة ، وبيزنطة بعد على قيد الحياة.. كالبلغار .. الذين قاد ملكهم سيمون Symeon جيشه فى أوليات القرن العاشر ضد القسطنطينية ، وادعى فى جرأة حمل اللقب الإمبراطورى ، ولم يكن هدفه إقامة مملكة منافسة لبيزنطة ، أو بديلة عنها ، بل أن يرفع نفسه على عرش القسطنطينية امبراطورا رومانيا ! بل والصرب ، الذين سمى ملكهم ستفن دوشان Stephen Dusan نفسه فى أربعينيات القرن الرابع عشر (١٣٤٥) «سيد كل الإمبراطورية الرومانية تقريبا» !! بعد أن راودته الأحلام حول إمكانية خلع الإمبراطور يوحنا الخامس باليولوجوس Ioannes V Palaeologus وداعبته الآمال فى إعادة مجد روما القديم على يديه ، وكيف لا وهو يرى نفسه يسيطر إلى جوار المناطق التى كانت تحتلها القبائل الصربية أصلا، على ألبانيا وإبيروس وتساليا ومقدونيا ، بينما أمست بلغاريا تدور فى فلكه!

ومن قبل .. فى القرن الثانى عشر، كاد فردريك بربروسا Frederick Barbarossa ملك ألمانيا وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة (١١٥٢-١١٩٠)، يعتبر نفسه خليفة قيصر وأوكتافيانوس أوغسطس وقسطنطين العظيم وجوستنيان ، رغم أصله الجرمانى ودولته القبلية! ولذا نراه فى عام ١١٧٦ ينتهز فرصة الهزيمة التى لحقت بالإمبراطورالرومانى فى القسطنطينية على يد سلطان قونية السلجوقى ، عند ميريوكفالوم Myriocephalum فى آسيا الصغرى، ليكتب بكل التشفى والاحتقار إلى عاهل الرومان ذاك، مانويل كومننوس Manuel Comnenus (١١٤٣-١١٨٠) رسالة يجرده فيها من صفته الرومانية الشرعية ويصفه بأنه ملك اليونان Rex Grecorum وأنه هو ومملكته اليونانية Regmun Greciae جزء من امبراطوريته الرومانية !! أى إمبراطورية فردريك بربروسا .

هكذا تبدو علامة الاستفهام كبيرة لأعين الدارسين للتاريخ البيزنطى، إذا أضفنا إلى ما سبق ، البابوية فى روما ، والتى مافتئت تعمل للسيطرة على القسطنطينية ، كنيسة ودولة ، بحجة أنها بيعة مارقة وامبراطورية مهرطقة . كيف استطاعت الإمبراطور البيزنطة إذن أن تعمر كل هذه القرون ، وسط كل هذه الأخطار المحدقة ، التى تتهددها صبيحة كل يوم ؟!

ولا مندوحة عن القول، إن الإمبراطورية البيزنطية كانت تتمتع لفترات طويلة باستقرارسياسى بعيد عن التقلبات ، واستقرار اقتصادى بعيد عن الهزات ، وعملة ذهبية لها

وضعها ومكانتها فى السوق التجارى العالمى ، وتحظى بجهاز إدارى كفؤ، كان عونا كبيرا للسلطة الإمبراطورية فى إدارة شئون الدولة ، فى ظل حكومة مركزية صارمة، يجلس على رأسها امبراطور، يمثل فى الفكر السياسى الرومانى ، «نائب المسيح» Vicarius Christi على الأرض ، ويتبعه جيش كبير من الموظفين فى العاصمة ومختلف الولايات ، ورغم ما كان يعترى هذا الجهاز من التعقيد ، إلا أنه لم يفتقد المرونة . ولعل الكتاب الذى وضع فى منتصف القرن العاشر الميلادى بقلم امبراطورى «عن الإدارة الإمبراطورية» De Ad-ministrando Imperio دليل واضح على ما يمكن أن تحققه الإدارة الناجحة من خدمات .

وإلى جانب هذا كله كانت الإمبراطورية تنعم بتوافق يكاد يكون مستمرا بين السلطتين الزمنية والروحية ، بعد أن أمست الكنيسة فى بيزنطة دائرة من دوائر الحكومة ، وغدا أسقفها موظفا كبيرا لدى الإمبراطور، على عكس ما كان عليه الحال فى الغرب الأوروبى: من الصراع السافر بين البابوية والإمبراطورية، حول السيادة العالمية ، والذى انتهى فى ستينيات القرن الثالث عشر ، بتوجيه الضربة القاضية للإمبراطورية ، عندما سيق الملك الصبى كونرادينو Conradino آخر سلالة أسرة الهوهنشتاوفن Hohenstaufen الحاكمة فى ألمانيا ، إلى الإعدام فى نابولى، بايعاز من البابوية (١).

ولايغيب عن الذهن فى إطار هذه العوامل الإيجابية ، ما شهدته بيزنطة طوال عصرها من استتباب النظام السياسى، منذ رفع منه قسطنطين العظيم (٣٠٦-٣٣٧) القواعد فى القرن الرابع الميلادى، بحيث لم تشهد ثورة حقيقية تستهدف قلب نظام الحكم، وتغيير قاعدة النظام السياسى بشكل جذرى ، إلا مرة واحدة هى التى حدثت فى عام ٥٣٢ فى القسطنطينية (٢)، وإن كنا قد شهدنا حركات تمرد متعددة، إلا أنها كانت موجهة ضد شخص الجالس على العرش، ولم تكن تستهدف العرش نفسه .

١- راجع فى ذلك بحثنا المعنون : «السمو البابوى بين النظرية والتطبيق»، مجلة ندوة التاريخ الاسلامى والوسيط ، المجلد الثالث. القاهرة ١٩٨٥ .

٢- تعتبر هذه الثورة التى اندلعت ضد الامبراطور جوستنيان فى عام ٥٣٢ من أخطر الثورات فى تاريخ بيزنطة؛ إذ شارك فيها السناتو والحرس الإمبراطورى وحزبا الزرق والخضر وأصحاب الديانات المختلفة من الوثنيين والمسيحيين على تعدد مذاهبهم وجموع الناس فى العاصمة، وكادت أن تطيح فعلا بالنظام السياسى القائم. للمزيد من التفاصيل عن هذه الثورة . راجع الفصل الخامس .

ولنضع إلى جوار هذا كله .. القسطنطينية، العاصمة الإمبراطورية، باحتلالها لذلك الموقع الاستراتيجي الممتاز، حيث تطوقها المياه بأذرع ثلاث ، البسفور وبحر مرمره والقرن الذهبي، فتوفر لها حماية طبيعية ، ضمنت لها وللإمبراطورية الأمن العسكري ، وبالتالي البقاء السياسي، بعد أن صمدت لهجمات الجرمان والفرس والآفار والمسلمين والبلغار والنورمان واللاتين ! لقد جاء زمان لم يبق فيه من بيزنطة الإمبراطورية ، إلا بيزنطة العاصمة ، كان هذا في عام ٦٢٦ عندما حاصرها الآفار من الغرب ، وراح الفرس يشعلون نار ربهم على الشاطئ الآسيوي للبسفور قبالة القسطنطينية ، والجيوش البيزنطية تعمل في الخارج تحت زعامة هرقل Heraclius (٦١٠-٦٤١) في أرض فارس نفسها، وأفلحت العاصمة في الإفلات من هذا الحصار ، بمناعة موقعها ، وقوة تحصيناتها، ودبلوماسية ساستها .

إذن .. فالاستقرار السياسي في الداخل والخارج ، والعمل الإداري الناجح، والإزدهار الاقتصادي ، وتأمين طرق التجارة العالمية ، وضمان السيادة للعملة البيزنطية ، وتوجيه السياسة الاقتصادية في السوق العالمي، والتأييد المادي والمعنوي للجهود التي تبذلها الكنيسة الأرثوذكسية لنشر المسيحية بين شعوب البلقان الوثنية ، والتي تمهد تلقائيا لبسط النفوذ السياسي للإمبراطورية على جيرانها، كل هذا يحتاج بلاريب إلى قوة عسكرية رادعة قادرة على تحقيقه، ودبلوماسية ماهرة .

من هنا كان طبيعيا أن يوجه الأباطرة اهتمامهم الكامل إلى الجيش، ويعنون بتدريبه وتنظيماته وأسلحته ، وخططه العسكرية ، ولاغرابة إذن أن نجد جل أباطرة بيزنطة من العسكريين، وأن معظمهم قادوا جيوشهم بأنفسهم، ووضع بعضهم رسائل تحتوي على دراسة قيمة عن الجيش في زمانه ، مثل الإمبراطور موريس Mauricius في القرن السادس. وحتى هؤلاء المدنيين منهم ساهموا بفكرهم في الاهتمام بالجيش البيزنطي ، فوضع ليو السادس Leo VI الحكيم في أوائل القرن العاشر الميلادي، كتابه عن «التاكتيكات العسكرية»، وخلف إبنه قسطنطين السابع آخر عن «الثغور» .

لقد كان الجيش بحق- كما يقول المؤرخ البيزنطي الذي عاش في القرن الحادي عشر الميلادي، ميخائيل بسللوس Michael Psellus هو مصدر القوة الحقيقية للإمبراطورية ، بينما يعبر عالم الدراسات البيزنطية ، نورمان بينز N. Baynes عن ذلك في عبارة بليغة بقوله : «ليس تاريخ روما إلا تاريخ الجيش الروماني، ولايصدق اعتبار بيزنطة وريثة روما في شئ ،

بقدر ما يصدق فيما يختص بسياستها العسكرية . لقد بنيت الإمبراطورية وأمنت بفضل كتائبها ». وهذا ستفن رنسيمان S. Runciman يؤكد قائلا : «كان النظام الإدارى فى بيزنطة مرتبطا ارتباطا وثيقا بقواتها العسكرية ؛ فالأعداء يحيطون بالإمبراطورية من كل جانب ، ولم يحدث قط أن الحكومة أحست لحظة واحدة أنها غير معرضة لخطر الغزو الأجنبى ، بل إن وجودها فى حد ذاته كان متوقفا على ضبط الشعوب المحيطة بها الضبط الصائب. وهذا يتوقف على جيش وأسطول يتصفان بالكفاية والاستعداد الدائم ، وعلى سياسة دبلوماسية يقظة لاتهدأ لحظة عن العمل ... لقد قضت الضرورة على البيزنطيين أن يصوغوا أنفسهم فى الوقت المناسب على أسس عسكرية ، وأن يولوا هذه الشئون العسكرية كل التفاتهم وعملهم، وكان ذلك كله فى مصلحتهم ». ويضيف .. «لقد كانت بيزنطة طوال العصور الوسطى بلدا تدرس فيه أدوات القتال ووسائل تنظيم الجيش والفنون الاستراتيجية بعناية كاملة ، وأخرجت بيزنطة سلسلة متصلة الحلقات من الكتاب العسكريين ذوى الاقتدار، كما أن كثيرا من مؤرخيها كانوا يأخذون بطرف من الاهتمام بالشئون العسكرية ، ومنهم نستطيع أن نتعقب تطور تاريخ العسكرية البيزنطية» .

وقد يصبح الاعتماد على الجيش أمرا طبيعيا لبعض زمن ، وقد يطول ، لكن أن تظل الدولة فى حالة تعبئة عسكرية كاملة لزمن طويل ، خاصة إذا امتد هذا الزمن إلى ألف ومائة من السنين ، فإن هذا يعد ضربا من المستحيل ، وحرثا فى بحر ، لخزانة لابد أن تعلن إفلاسها ، وروح معنوية لابد أن تنهار ، ومعين لابد أن ينضب من الموارد البشرية ؛ لقد ظل الإمبراطور جوستنيان Iustinianus (٥٢٧-٥٦٥) خمسا وعشرين سنة متصلة يحارب فى الغرب الإمبراطورى ، من أجل استرداد الولايات الرومانية الضائعة والواقعة فى قبضة الشعوب الجرمانية، ويدفع خلالها جزية سنوية ضخمة لفارس ، فترك فى النهاية خزانة خاوية ، وولايات مقفرة خربة فى إيطاليا وأفريقيا ، وأخرى على شفا الثورة والضياع كمصر وسوريا، وجيشا ممزقا ، رغم أن جوستنيان كان دبلوماسيا بارعا !! وهذا هو باسل الثانى Basilius II (٩٧٦-١٠٢٥) يشغل من القرن الحادى عشر سنواته الأولى حتى الثامنة عشرة، فى حرب مع المملكة البلغارية ، ويذهب فى التاريخ بشهرة «سفاح البلغار» Bulgaroctonos حتى إذا قضى نحبه بعد ذلك بسبع سنين ، هوت بيزنطة دفعة واحدة ، ولم تقم لها من بعد قائمة ، وإن ظلت موجودة فى سجلات التاريخ حتى منتصف القرن الخامس عشر، ولم تكن السنوات المائة

(١٠٨١-١١٨٥) التى حكمها آل كومننوس Commeni إلا بريقا .. ومض .. ومضى !!
وعندما أمست السيادة فى آسيا الصغرى Asia Minor للأتراك السلاجقة فى القرن الحادى عشر بعد «مانزكرت» عام ١٠٧١، فقدت بيزنطة إلى حد كبير معينها الرئيسى فى تجييش الجيوش ، وراحت تولى وجهها شطر الغرب باحثة عن المرتزقة من الجنود .

فى مثل هذه الظروف .. وغيرها .. كان لابد لبيزنطة أن تستخدم سلاحا آخر إلى جانب القوة العسكرية ، كان له مضاؤه وتأثيره البعيد، أعنى الدبلوماسية . وقد برعت بيزنطة فى استخدام هذا السلاح خلال العصور الوسطى ، حتى أصبح علما عليها، وغدت هى بحق أستاذا فى هذا الفن ، بعد أن وضعت له قواعده ومبادئه، والتزم أباطرتها جميعا- مع المرونة المطلوبة- بهذه القواعد ، حتى أحلها قسطنطين السابع فى القرن العاشر مكانا مقدسا ، فوق منضدة مذبح أيا صوفيا Hagia Sophia وأوصى ابنه وهو يعظه أن يدخل فى روع الشعوب التى يتعامل معها، أن هذه القواعد قررتها العناية الإلهية منذ عهد قسطنطين الأول فى القرن الرابع . وعلى هذا النحو ، كان طبيعيا أن يتحقق لبيزنطة بدبلوماسيتها، إلى جانب كل ما عرضنا له من عوامل القوة ، بقاؤها عبر هذه القرون الطويلة من الرابع إلى الخامس عشر.

لقد كان ضروريا- على حد قول دفورنيك[٣] Dvornik – أن تعلم بيزنطة الكثير عن الشعوب المجاورة لها، حتى يمكنها التعامل معها من الناحيتين السياسية والعسكرية ، لذا كانت الدبلوماسية تعتبر الحماية الحقيقية ضد أية مفاجآت قد تحدث ، خاصة وأن القوة العسكرية للإمبراطورية، كانت تسير دائما، منذ نهاية الربع الأول من القرن الحادى عشر نحو التدهور. ومما لاشك فيه أن التوافق بين العسكرية والدبلوماسية كان كفيلا بانقاذ الإمبراطورية خلال أشد فتراتها تأزما إبان القرنين السادس والسابع ، على سبيل المثال . وساعد الأباطرة ليس فقط فى التغلب على كثير من الأزمات ، بل فى إعادة إحياء مجد الإمبراطورية خلال القرنين العاشر والحادى عشر .

لقد سارت الدبلوماسية البيزنطية جنبا إلى جانب القوة العسكرية فى خطين متوازيين، يعملان معا، وقد يسبق أحدهما الآخر أحيانا ، لكنهما يمثلان جناحا السياسة البيزنطية الخارجية ، وكثيرا بل ودائما ، ما عوضت الدبلوماسية النقص الذى كان يعتور القوة العسكرية

٣- Dvornik , Origins of intelligence Services, pp . 165-166 .

فى معظم الأزمات ؛ ذلك أن الحدود الطويلة والتهديدات المستمرة من جانب أعدائها ، كما تقول المؤرخة «هسى»[٤] لم تكن تسمح لإدارة الخارجية البيزنطية إلا بوقت قليل تسترد فيه أنفاسها اللاهثة . ومن ثم كانت الدبلوماسية سلاح بيزنطة التقليدى المحبب إليها ، والذى أثبت فعاليته فى مناسبات عديدة ، هى إن شئنا إذن بتعبير «أو بلنسكى»[٥] Obolensky واحدة من أشهر ما خلفته الإمبراطورية البيزنطية من سمعة فى التاريخ الأوربى». ويضيف فى موضع آخر[٦] قائلا : «ليس هناك شك فى أن الدبلوماسية البيزنطية كانت بشكل عام ويقينى .. ناجحة . ولم لا .. وقد أنقذت الإمبراطورية فى مواطن كثيرة من الغزو والدمار ، وجذبت جموعا من الوثنيين إلى دائرة ضوء الحضارة اليونانية الرومانية ، وأضافت إلى عالم المسيحية مساحات واسعة من الأراضى فى البلقان وإلى الشمال عند البحر الأسود . لقد كانت الدبلوماسية البيزنطية عاملا من أهم العوامل فى التاريخ الأوروبى ، يُرى أثره بصورة واضحة فى الميراث الثقافى ؛ فشعوب أوروبا الشرقية تلقت الكثير من مبادئ السياسة الخارجية على يد ساسة بيزنطة ، وتعلم حكام هذه المنطقة فى العصور الوسطى الشئ الكثير من سادتهم ، بينما انتقلت بعض تقاليد الدبلوماسية البيزنطية ، عن طريق البنادقة ، إلى الغرب الأوربى . ومن الغريب .. أنه على الرغم من هذا الدور الحيوى الذى لعبته الدبلوماسية البيزنطية فى السياسة الإمبراطورية إلا أنها كما يقول مؤرخنا سالف الذكر أو بلنسكى ، ما زالت ميدانا بكرا فى حاجة إلى كثير من الجهد والدراسة . والمحاولات التى جرت فى هذا السبيل رغم أهميتها ، قليلة ، نخص منها بالذكر ما جاء ضمن كتابات «شارل ديل» عن الامبراطور «جوستنيان»؛ و«رنسيمان» عن «رومانوس لكابنوس»؛ و«رامبو» عن «قسطنطين السابع»؛ و«جيناكوبلوس» عن «السياسة الغربية لميخائيل الثامن». وما كتبه «أوبلنسكى» نفسه عن «الدبلوماسية البيزنطية»، والذى قصر الحديث فيه عن السياسة البيزنطية تجاه الشعوب الواقعة على الحدود الشمالية للإمبراطورية فى مناطق القوقاز وشبه جزيرة القرم ونهر الدانوب، خلال القرن العاشر الميلادى، مع دراسة للخلفية التى ارتكزت عليها هذه الدبلوماسية (٧).

٤- العالم البيزنطى ، تأليف ج .م هسى ، ترجمة دكتور رأفت عبد الحميد ، ص٢٤٩ .

٥- C. M. H. IV, 1 , p. 473 .

٦- The Principles and methhods of Byzantine diplomacy , p. 61 .

٧- Ibid. p. 46 .

وفى ضوء هذه النقطة الأخيرة ، فإنه مما يثير الانتباه ، أن أحد أباطرة بيزنطة الأدباء فى عصرها الذهبى، إبان القرن العاشر ، أعنى قسطنطين السابع.. الأرجوانى المولد -Constantinus VII Porphyrogenitus ، أى المولود فى الأرجوان ، قد ترك ضمن ما ترك من مؤلفات، كتابه الذائع «عن الإدارة الإمبراطورية» De Administrando Imperio وقد وضعه حوالى بين عامى ٩٤٨-٩٥٢ ، ووجهه إلى ابنه الأمير الشاب رومانوس Romanus (الثانى فيما بعد) يهدف به إلى تعليمه كيف يمكن أن يصبح حاكما أريبا ؛ وذلك بأن يضع بين يديه من خلال هذا الكتاب ، معرفة كاملة بالشعوب المجاورة للإمبراطورية ، وكيفية التعامل معها، « ... لأن المعرفة بهذه الشعوب ستكون دائما ذات فوائد عظيمة لك يا طفلى الحبيب، وستنفعك عندما تجد نفسك فى حاجة إليها ، فمن الصواب أن لا تكون جاهلا، بل أن تكون لديك المعرفة الدائمة بالأجزاء التى تشرق عليها الشمس ، فكلها كانت فى وقت ما خاضعة للرومان »[٨].

ويمضى قسطنطين السابع قائلا : «أى بُنى .. يجب أن تعلم الاختلافات القائمة بين كل شعب وآخر ، وكيف تعامل كلا منهم ، كيف تستميلهم وكيف تحاربهم. إنهم سوف يرتعدون أمامك لفرط حكمتك ، ويهربون كما يفرون خوف النار ! وسوف تطبق من الخوف شفاهم وتجرحهم كلماتك كالسهام فتودى بهم إلى الموت »[٩].

كان قسطنطين السابع حريصا على أن ينقل إلى إبنه خبرته السياسية التى كونها وهو بعد فى الظل قبل أن يغدو إمبراطورا [١٠]، فقد أريد له أن يظل قاصرا حتى الأربعين من عمره !!

٨- D . A . I . XLIII .

٩- Ibid. XLVII .

١٠- أريد لقسطنطين السابع أن يظل طفلا قاصر لفترة طويلة؛ إذ وقع بعد وفاة أبيه ليو السادس تحت وصاية القائد البحرى الشهير رومانوس لكابنوس ، الذى جعل من نفسه الإمبراطور السيد وأنزل قسطنطين الامبراطور الشرعى إلى مرتبة الإمبراطور الشريك ، وهو النظام الذى كان سائدا فى بيزنطة خلال فترات كثيرة، خاصة زمن الأسرة المقدونية . بل إنه رفع أبناءه أيضا إلى هذه المرتبة ، وظل يسير دفة الدولة ربع قرن (٩١٩-٩٤٤) وكف أيدى قسطنطين طوال هذه السنوات . وفى عام ٩٤٤ دبر أبناؤه مؤامرة تم فيها القبض عليه، فاستغل الإمبراطور قسطنطين هذه الفرصة ، ولم يسمح لولدى رومانوس لكابنوس بأن يفرضا عليه من جديد سلطة أبيهما ، وأيده فى ذلك أهالى القسطنطينية الذين كانوا يتعلقون به ، فأعدمهما عام ٩٤٥ وهكذا تولى زمام السلطة وتخلص من الوصاية وهو فى سن الأربعين !!

ولم تكن هذه السنوات الطوال التى قضاها تحت وصاية صهره القائد البحرى رومانوس لكابنوس Romanus Lecapenus لهوا وعبثا، كما كان يتوقع الوصى ويتمنى ، لكنها كانت فترة تأمل وصمت ودراسة ، شغل نفسه خلالها بالوقوف على تفصيلات كل صغيرة وكبيرة لكل ناحية من نواحي الإدارة ، بصورة لاتعرف الملل ، وفى كل ما دق من أمور البلاط ، وبلغت سمعته مرتبة عالية فى المجال الخارجى فى ميدان الدبلوماسية ، وعلى الصعيد الداخلى فى النواحى الثقافية ، وأبدى اهتماما زائدا بالفن والأدب والتاريخ والآثار ، يصفه المؤرخ جنكنز Jenkins[١١] فى دراسة مقارنة ، بعبارات بليغة بقوله : «ورث عن أبيه حب العلم والمعرفة، فغدا بحق إبنا لوالده المثقف ليو السادس الحكيم ، ومثقفا من طراز فوطيوس[١٢] Photius ، أحب الكتب وهام بها وراح يجمعها من كل مكان من الإمبراطورية وربما من خارجها. كان واحدا من البيزنطيين القلائل الذين أدركوا جيدا أسلوب ومعنى النثر الكلاسيكى. لقد كان على النقيض تماما من جده باسل الأول Basilius I الذى لم يكن يستطيع الكتابة على الإطلاق ، (كان مجرد سائس للخيول قبل أن يغدو امبراطور) ، وأبيه الذى كان يكتب بحذلقة ، وحفيده باسل الثانى الذى أوتى بسطة فى الجسم ، بينما لم ترق كتابته إلى أبعد من مستوى صبى غَر».

وإذا كانت منجزاته فى ميدان الثقافة تعد شيئا رائعا، فإن حمايته لمختلف الفنون تفوق الوصف ، وإذا كان لابد من الحديث عن شئ ، فليكن حول تشجيعه للتعليم والبحث. لقد كان متضلعا من الدراسات الكلاسيكية ، وتَفَهَّمَ ذكاؤه المفاهيم النظرية والتطبيقية للمعرفة ، المعرفة فى حد ذاتها ، والتى تعد ضرورة لمقدرة الرجل العملى للوصول إلى القرار الصواب فى

١١- D. A. I., general introduction , by Jenkins, p. 7

وراجع له أيضا Byzantium, the imperial Centuries, p . 265

١٢- يعتبر أعظم رجالات القرن التاسع فى بيزنطة والغرب الأوربى علما ومعرفة ، وقد عمل أولا أستاذاً بجامعة القسطنطينية ، واتخذ من بيته ناديا أدبيا وعلميا، دون خلاصة ما كان يقرأه فى النادى من المؤلفات، فترك بذلك مؤلفه الشهير الذى عرف باسم «المكتبة» Bibliotheca وقد أصبح بطريركا للقسطنطينية على عهد الإمبراطور ميخائيل الثالث العمورى (٨٤٢-٨٦٧) ، وحاز شهرة واسعة أيضا من موقعه هذا بخلافه فى الرأى مع كنيسة روما حول الروح القدس فى الثالوث .

مختلف شئون الحياة. وفى هذه الناحية والتى تتضمن بصورة رئيسية دراسة التاريخ ، نجد أن قسطنطين أعطاها اهتماما خاصا. فمن بين خريجى جامعة القسطنطينية ، التى كان هو المؤسس لها بعد القيصر بارداس[١٣] Bardas اختار موظفيه المدنيين ورجال الاكليروس . وقد أخضع ابنه رومانوس لمثل هذه الدراسة العملية . وإذا كانت هذه المعرفة ضرورية للفرد العادى فى ممارسة حياته اليومية ومتطلباتها ، فهى بالأحرى أشد ضرورة لمن سيصبح حاكما . ولاشك دفعه وساعده على ذلك أن بيزنطة بلغت فى عهده أوج مجدها السياسى والعسكرى ، وقمة رقيها الثقافى ، وأروع آياتها الفنية [١٤].

لاغرابة إذن أن يتمخض عن هذا كله انتاج فكرى ضخم ، ينم عن شخصية موسوعية متكاملة ، تمثلت فى كتابه الهام جدا «عن الثغور» De Thematibus ومؤلفه الراقى «عن المراسم» De Cermoniis aulae Byzantinae الذى يعد وصفا دقيقا لما كان عليه البلاط البيزنطى، ويعتبر - كما يؤكد قسطنطين السابع نفسه فى مقدمته ، المظهر الخارجى والتجسيد المرئى للتناغم والانسجام فى الداخل ، ونظاما للطقوس العامة ، يرفع من قدر العظمة الإمبراطورية ، ويحدد أطر ومظاهر الحياة اليومية فى الدوائر الإمبراطورية البيزنطية ، ويقدم أنموذجا يحتذى لبلاط الملوك والأمراء الآخرين [١٥]. أما كتابه «عن الإدارة الإمبراطورية» De Administrando Imperio فهو عمل رائع فى فن السياسة ، ومقال خطيرة فى أصول الدبلوماسية ، وتصور دقيق لوجهة نظر القسطنطينية تجاه العالم المحيط بها ، سماه صاحبه ببساطة «من قسطنطين إلى إبنه رومانوس» وعرفه التاريخ باسم «عن الإدارة الإمبراطورية»، ومن ثم فقد كان من وجهة نظر الإمبراطور عملا بالغ السرية top Secret ، وليس مسموحا بتداوله خارج القصر ، بل كان غير مسموح إلا لعدد محدود جدا من الدبلوماسيين بالاطلاع عليه [١٦]. ويمكن تقسيم هذا العمل إلى أقسام أربعة ؛ أولها مفتاح للسياسة الخارجية

١٣- هو خال الإمبراطور ميخائيل الثالث ومستشاره ، قام بدور بارز فى إعادة تنظيم جامعة القسطنطينية ثانية ، بعد أن امتدت إليها يد الإهمال لفترة طويلة من الزمن بفعل الظروف العسكرية الخارجية التى تعرضت لها الإمبراطورية .

١٤- D. A. I., general introduction , by Jenkins , pp. 7-9 .

١٥- هسى : العالم البيزنطى ، ترجمة دكتور رأفت عبد الحميد ، ص٣١٢ ، ٣٧٥ .

١٦- Jenkins , Byzantium , p. 260 .

البيزنطية ، خاصة فى المنطقة المضطربة عند الحدود الشمالية ، والثانى درس فى فن الدبلوماسية ، والثالث وهو أطولها ، مسح شامل لمعظم الشعوب التى تحيط بالإمبراطورية ، بدءا بالعرب فى الجنوب الشرقى ومن يحيطون بحوض البحر المتوسط والبحر الأسود ، وانتهاء بالأرمن على الحدود الشرقية . والرابع ملخص عن التاريخ الداخلى السياسى والإدارى على حدود الإمبراطورية (١٧).

والكتاب على هذا النحو يفصح عن الهدف الذى من أجله أقدم الإمبراطور قسطنطين السابع على وضعه ، فهو يحاول أن يقدم لابنه خلاصة فكره وتجاربه وقراءاته فيما يتعلق بفن معاملة الشعوب ، التى كان على بيزنطة أن تحتك بها دائما ، راضية أم كارهة ، ونراه يلح بصورة واضحة على أن يعى ابنه رومانوس خبرة هذه السنوات ، فيقول : «... تفهم يا بنى جيدا هذه الأمور ... وكن حكيما ، فقد تتولى زمام الحكم يوما ما ، وسوف أراعى فيما أقدمه لك من موضوعات أن تكون مفيدة قدر الطاقة ، وما يخصك منها واضح وفيه الأمن للجميع ، ومن خلاله تستطيع أن تدبر وتوجه شئون الحكم فى هذا العالم ، وسيكون حديثى سهلا وبأسلوب مبسط ، ولاغرابة يا بنى فى ذلك ، فلست أديبا لأقدم لك حديثا رائعا من طراز العصر اليونانى، بأسلوب سامٍ رفيع ، لكنه سيكون واضحا يصلح لكل حين ، ومما أقدمه لك وأناقشه ، سوف تتعلم الكثير من الأمور التى تنير لك الطريق . إن ما أقدمه - أى بُنى- خلاصة خبرتى الطويلة، يُسهل عليك فهم الأمور وتدبر العواقب (١٨).

ويجب أن لا ينصرف الذهن إلى أن حديثنا الآن عما كتبه قسطنطين السابع ، يعنى أن الإمبراطور قد ابتدع أساليب جديدة فى فن الدبلوماسية البيزنطية، أو أضاف المزيد إلى ما اتبعه الأباطرة الأسلاف ، فقد كان العديد من أولئك الذين سبقوه ، وأولاء الذين من بعده أتوا ، أساتذة فى هذا الفن ، إلى الحد الذى دفع مؤرخا مثل «أوبلنسكى» إلى الحديث عن جوستنيان بقوله : «إن هذا الإمبراطور هو الذى أورث خلفاءه مفهوم الدبلوماسية باعتبارها علما معقدا وفنا رائعا، بحيث يصبح الضغط العسكرى والذكاء السياسى والمهارة الاقتصادية والدعاية الدينية، أسلحة قوية فى السياسة الدفاعية للإمبراطورية(١٩). كل ما نعنيه إذن ، أن

١٧- D. A. I., general introduction , p. 10 .

١٨- D. A. I., I

١٩- C. M. H. IV, p. 47 .

قسطنطين استلهم أحداث التاريخ وتجارب السابقين ، وسجل ذلك بنفسه فى قوله لابنه وهو يعظه : «يا بنى .. هذه هى الأحداث التى جرت فى أوقات مختلفة بين الرومان والأمم الأخرى، وهى وقائع تستحق التسجيل ، وعليك قراءتها والعلم بها ، حتى إذا تصادف ووقعت مثلها أحداث فى ظروف مشابهة ، تصبح بمعرفتك السابقةقادرا على معالجتها »(٢٠). ولايعنى هذا أيضا التقليل من قيمة الدور الذى بذله قسطنطين السابع فى رصد هذه القواعد وتصنيفها والتعامل معها بأسلوب فيه من الذكاء قدر ما به من الجدية ، فكفل لهذه القواعد البقاء ، وأحاطها بسياج من القداسة وسجل خلاصة تجاربه الشخصية إبان فترة حكمه ، مع الشعوب النازلة فى المناطق الشمالية من الإمبراطورية .

وكان طبيعيا إذن أن تحظى إدارة الخارجية البيزنطية برعاية تفوق بقية الإدارات الأخرى فى الجهاز الحكومى ، فعلى ما يتوافر لديها من معلومات ، تتوقف سلامة الدولة وأمنها. وكانت المعلومات التى تنقلها السفارات والبعثات والتجار وغير ذلك من الوسائل الأخرى عن الشعوب المجاورة، تصب كلها لدى جهة أنشئت لهذا الغرض عرفت باسم «إدارة شئون البرابرة» Scrinium barbarorum وربما يعود تاريخ انشائها إلى القرن الخامس الميلادى، وتركزت مهامها حول مراقبة الأجانب المقيمين فى العاصمة أو الوافدين إليها ، والاهتمام بالسفارات الخارجية القادمة إلى القسطنطينية (٢١). وقد ظل هذا الجهاز قائما حتى القرن الحادى عشر ، وإن كانت سلطاته نفسها قد انتقلت منذ منتصف القرن الثامن الميلادى، فى أخريات سنى حكم الإمبراطور ليو الثالث الايزورى (٧١٧-٧٤١) إلى يد موظف عرف باسم Logothetc راحت أهميته تزداد باطراد حتى أضحى منذ القرن التاسع أهم منصب وزارى فى الإمبراطورية(٢٢). وإطلاق هذا الاسم بالذات ، «إدارة شئون البرابرة» على جهاز له خطورته وأهميته فيما يتعلق بالعلاقات السياسية الخارجية لبيزنطة مع الشعوب المجاورة، أمر له دلالاته البعيدة؛ فقد انطلقت الدبلوماسية البيزنطية من مبدأ أساسى قائم على ما استقر فى الفكر الرومانى ، إرثا عن اليونان ، أن ما عداهم من الشعوب الخارجة عن نطاق نفوذهم

٢٠- D. A. I., XLVI .

٢١- Dvornik, intelligence Services . p. 174 .

٢٢- Id .

السياسى وسلطانهم الحضارى ، وقبل هذا وبعده، لسانهم ، محض «برابرة» Barbaroi يجب أن ينظر إليهم من علٍ . ولايستثنى من هذه الشعوب إلا الفرس والعرب فى بعض الأحيان ؛ فيحدثنا مؤرخ القرن الحادى عشر ميخائيل بسللوس ، والذى عمل وزيرا لخمسة من الأباطرة ، أن أحدهم وهو قسطنطين التاسع ، أمره أن يكتب إلى المستنصر بالله الفاطمى فى القاهرة رسالة تفيض بالمودة ، وتظهر الخليفة المسلم فى صورة لاتقل عن الإمبراطور البيزنطى مكانة ، ويعلق بسللوس على هذا بقوله ، إنه أبدى موافقته على ذلك أمام سيده ، فلما خلا إلى نفسه ليكتب الرسالة ، حرص على أن لايجعلها مطلقا فى الصورة التى رآها الإمبراطور ، لأن أحدا- فى اعتقاده - لايمكن أن يطاول الرومان منزلة (٢٣).

لقد قر فى ذهن الرومان ، وبشئ من الإصرار ، أنهم الأمة المتحضرة الوحيدة فى هذا العالم، وأن ما عداهم من الشعوب يجب أن يكون فى خدمة أهداف الإمبراطورية، خاضعين لسيادتها أو دائرين فى فلكها ، قانعين بسيادة ملك الملوك Basileus باعتبارهم أفصالا ورعايا ، ذلك دورهم ، وتلك فى الوقت نفسه مهمة الدبلوماسية البيزنطية (٢٤). ولم يكن ذلك غريبا على جوهر الفكر السياسى الرومانى، الذى يؤمن أن حضارته تجمع أرقى ثلاثة عناصر ، التراث الرومانى بأحسن ما قدمه فى القانون والإدارة ؛ والهللينية بأروع ما أبدعته فى اللغة والأدب والفلسفة ، والمسيحية بكل ما حملته من مبادئ . ومن ثم اعتقد البيزنطيون أن إمبراطوريتهم فى جوهرها الحضارى تمثل «العالمية» Oikoumene يجلس على عرشها امبراطور يعد «السيد» الشرعى الوحيد والقانون الحى (٢٥). هذا المعنى حرص على إبرازه مؤرخ القرن السادس أجاثياس Agathias عندما يكتب قائلا : «إن سيادة الإمبراطور تسع العالم كله »(٢٦) ويؤكده بعد قرون أربعة ، الإمبراطور قسطنطين السابع فى كتابه «عن المراسم» عندما يقارن بين سلطان الإمبراطور فى نسقه وانسجامه، وحركة العالم فى تناغمه على يد خالقه»(٢٧).

٢٣- للمزيد من التفصيلات راجع الفصل السادس من هذا الكتاب .

٢٤- Diehl, Byzantium , Greatness and Decline , p. 54 .

٢٥- Obolensky , Byzantine diplomacy, p. 52 .

٢٦- Cited in , Ure, Justinian and his Age , p. 248 .

٢٧- Cited in, Obolensky , Byzantine diplomacy , p. 53 .

بل إن قسطنطين السابع يدعم هذا المعنى ويزيده وضوحا وهو يخاطب ولده بقوله : «أى بنى .. ضع نصب عينيك كلماتى واحفظ جيدا ما آمرك به ، فتغدو فى الوقت المناسب قادرا على أن تستوحى من كنوز الأسلاف مدارج الحكمة، ألا فلتعلم أن كل القبائل فى الشمال قد طبعت على الشره للمال نفوسهم ، لايقنعون أبدا ، تدور أعينهم وراء كل شئ نهما وطمعا ، يرفعون عقيدتهم بقول واحد .. هل من مزيد ؟! لايؤدون عملا إلا لقاء ما هو أكثر منه مالا وأشد نفعا. مثل هذه الأشياء التى يلحفون فى طلبها ، ويدعونها لأنفسهم فى قحة ، يجب أن يرد عليهم بقول معسول واعتذار مقبول !! »[٢٨]. ويستخدم قسطنطين السابع نعوتا قاسية فى وصفه لهذه القبائل بعد قليل ، حيث يصمها بـ «المراوغة» «والدناءة» .

وهذه النظرة التى راح قسطنطين السابع يلح عليها بصفة مستمرة فى كل صفحات كتابه «عن الإدارة الإمبراطورية» فى منتصف القرن العاشر ، والإمبراطورية البيزنطية فى أوج مجدها إبان عصرها الذهبى زمن الأسرة المقدونية ، نسمع رنينها فى القرون الأولى، ويتردد صداها فى القرون التالية والإمبراطورية تعالج سكرات الموت البطئ ! نجدها واضحة فى رسالة قسطنطين الأول التى كتبها إلى مجمع صور عام ٣٣٥ [٢٩]، ورسالة ابنه قسطنطيوس Constantius سنة ٣٥٦ إلى السكندريين[٣٠]، ورسالة جوليان Iulianus إلى باسل أسقف قيسارية كبادوكيا فى آسيا الصغرى عام ٣٦٣ [٣١]، وجوستنيان Iustinianus فى العديد من تشريعاته[٣٢]. ولم يكن المؤرخون البيزنطيون أقل حرصا من أباطرتهم على إبراز هذا المفهوم الذى يعد جوهر الفكر السياسى الرومانى إزاء هذه الشعوب ، ابتداء من يوسيبيوس Eusebius القيسارى فى القرن الرابع [٣٣]، ومرورا بالقرن السادس عند بروكوبيوس

٢٨- D. A. I. , XIII .

٢٩- SOCRAT. historia ecclesiastica , I , 34 .

٣٠- ATHANAS. apologia ad Constantium , 30 .

٣١- IUL . epistola ad Basilium , (BASIL. ep . XL) .

٣٢- IUS. novella XXX . 11 .

٣٣- EUSEB . vita Constantini , IV 56 .

Procopius[٣٤] وميخائيل بسللوس فى القرن الحادى عشر[٣٥] والأميرة أنا كومننا Anna Comnena فى القرن الثانى عشر[٣٦] ونيقتاس الخونياتى Nicetas Choniates فى القرن الثالث عشر[٣٧]. وغير هؤلاء وأولاء كثير .

ولاشك أن هذه النظرة قد شكلت بصورة أساسية طبيعة العلاقات بين الإمبراطورية وجيرانها؛ فالزواج السياسى مثلا ، كان أحد الدعامات الرئيسية للدبلوماسية البيزنطية ، رغم أنه استخدم فى نطاق ضيق تماما ، خاصة إذا كانت العروس بيزنطية. فقد جرى التقليد بمنع زواج أميرات البيت البيزنطى الجالس على العرش ، من أحد ملوك أو أمراء أو زعماء الدول والقبائل الأخرى ، حتى لاتختلط الدماء البيزنطية «النقية» بغيرها .. الأقل منها نقاء ! وإن كان مسموحا بزواج الأباطرة من أميرات أجنبيات ، سعيا لاكتساب ولاء هذه الشعوب ، أو تحريضها ضد عدو يتأبط شرا للإمبراطورية .

وكان التوجيه الذى وجهه قسطنطين السابع لابنه فى هذا السبيل واضحا ، «... إذا أقدم أحد من هذه القبائل المراوغة الدنيئة القاطنة فى الشمال، (ويحددها هو بالخزر والأتراك والروس والسكيزيين) ، على طلب عقد زواج مع امبراطور الرومان ، بغية التحالف، فإن هذا المطلب الرهيب والذى لايليق، عليك أن ترده قائلا : «إن تبعة مشقلة ألقيت على كواهل الأباطرة ، وتمثلت فى وصية لامجال للشك فى صحتها ، حفرت على المنضدة المقدسة للكنيسة الجامعة فى أيا صوفيا ، بحيث لايمكن لأى إمبراطور رومانى أن يربط نفسه برباط الزواج، مع أمة تختلف طبائعها وتقاليدها عما جبل عليه الرومان ، خاصة مع أولئك الوثنيين الذين لم يتناولوا سر المعمودية ، ويستثنى من ذلك الفرنجة وحدهم[٣٨]. وإذا كان لابد من الإجابة عن سؤال حول..

٣٤- PROCOP . de bello Persico II, V 29 .

٣٥- PSELL . Chronographia, III , 9-15 ; IV 40-41 ; VI 75 , 90-91, 95 , 153 ; VIII, 45 , 63-67-70 .

٣٦- ANNA COMN. Alexiad, VIII - X .

٣٧- NICET. CHON . historia , pp. 757-763 .

نقلا عن دكتور اسحق عبيد، روما وبيزنطة ، حاشية ص١٠ .

٣٨- كان الفرنجة هم الشعب الجرمانى الوحيد من بين الجرمان الآخرين ، الذى تحول منذ البداية إلى =

لماذا هؤلاء بالذات ؟ .. فإنه يمكن القول إنه نتيجة لتلك الشهرة التقليدية التى حازتها تلك المنطقة ، والأصول النبيلة لهذه القبائل !! أما فيما عدا هؤلاء فإنه ليس من سلطة أى إمبراطور أن يقدم على مثل هذا ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما ، إذ يقع تحت طائلة الإدانة باعتباره أصبح غريبا عن جماعة المسيحيين ، وتحق عليه الأناثيما (اللعنة) ، حيث اعتدى على قوانين الأسلاف والشرائع الإمبراطورية »[٣٩].

وإذا كان قسطنطين السابع قد استثنى الفرنجة من بين هذه الشعوب، لما يذكره من «أصولهم النبيلة»، والتى يخالف بها الحقيقة عمدا؛ إذ هم قبيلة من بين القبائل الجرمانية العديدة ، التى التصقت بها صفة «البرابرة» التى خلعها عليهم جميعا الرومان. إلا أن الشئ الذى لم يذكره قسطنطين السابع، والذى يعد تبريرا حقيقيا لهذا الاستثناء ، هو أن ابنه رومانوس قد أقدم على الزواج فى عام ٩٤٤ من «برتا» Bertha إبنة «هيو» Hugh ملك إيطاليا (٩٢٦-٩٤٧)[٤٠]، وبينما يخصص فصلا كاملا من كتابه[٤١] للعودة بنسب من أصهر إليه، أعنى «هيو» إلى الإمبراطور شارلمان Carolus Magnus (Charlemagne) نجده ينحى باللائمة على سلفه الإمبراطور ليو الثالث الإيزورى ، الذى زوج ابنه قسطنطين الخامس من ابنة خان الخزر ، رغم ما حققته الدبلوماسية البيزنطية من نجاح فى هذا السبيل ، إذ أدى هؤلاء الأصهار دورا كبيرا فى وقف تهديد المسلمين للحدود الشرقية للإمبراطورية، ليتفرغ الإمبراطور لدرء الأخطار على الجبهة الشمالية . بل إن قسطنطين السابع لايجد ما يحول بينه وبين خلع صفات وألقاب غير كريمة على ليو الثالث ، لما جلبه من «عار» - حسب تعبيره- على نفسه

= المسيحية الكاثوليكية ، التى أقرها المجمع المنعقد فى نيقية سنة ٣٢٥ ، وكان هذا التحول على عهد ملكهم «كلوفيس» Clovis فى أوائل القرن السادس الميلادى ، بينما اعتنقت بقية الشعوب الجرمانية الأخرى المسيحية فى صورتها الآريوسية . وقد أدى اعتناق الفرنجة للمسيحية الكاثوليكية إلى آثار بعيدة المدى فى علاقات مملكتهم مع البابوية ، بلغت أوجها بتتويج ملكهم شارلمان امبراطورا بيد البابا فى ليلة عيد ميلاد عام ٨٠٠ . للوقوف على تفصيلات الخلاف العقيدى بين الآريوسية والنيقية (الكاثوليكية) راجع : دكتور رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى ، الفصل الخامس .

٣٩- D. A . I., XIII .

٤٠- Jenkins , Commentary on D. A . I. vol. 2 , p. 83 .

وراجع تفصيلات ظروف هذه الزيجة فى C. M. H. vol. III, p. 139

٤١- D. A. I., XXVI .

والإمبراطورية، ويصفه بأنه لم يكن مسيحيا قويا ، بل هرطوقا محطما للأيقونات [٤٢]، ومن ثم لقي الحرمان الكنسي وقيد بقيود اللعنة، لأنه «كيف يليق بالمسيحيين أن يربطوا أنفسهم برباط الزواج مع أولئك الوثنيات ، بينما الكنيسة تحرم ذلك وتعتبره شيئا نكرا»، ويمضي قسطنطين في تساؤله : «... بل كيف يمكن للأباطرة الرومان الأشهار وهم النبلاء الحكماء أن يقبلوا هذا الأمر؟!» [٤٣].

واضح تماما من عبارات الإمبراطور المولود في الأرجوان ، مدى تأصل الفكر الروماني حول دونية هذه الشعوب المجاورة للإمبراطورية ، خاصة عند حدودها الشمالية ، وهي المنطقة التي أضحت في القرنين التاسع والعاشر ، تمثل مركز الأمن والتهديد لبيزنطة في وقت واحد ، وتحظى بأهمية كبيرة لدى إدارة الخارجية البيزنطية. وكانت تمتد من سهول هنغاريا حتى بحر قزوين ، وتشمل جبال الكربات ومراعي الاستبس الروسية والأراضي الواطئة إلى الشمال من القوقاز ، وتصل شمالا إلى أنهار «الدونيستر» و«الدنيبر» و«الدون» ، وحتى منتصف الدانوب في الغرب والفولجا الأدنى في الشرق، وتضم من بين ما تضم قبائل الآفار والصقالبة والبلغار والمجيار والروس والبشناق . ولاريب أن هذه القبائل كانت ما تزال على وثنيتها

٤٢- ذهب ليو الثالث وابنه قسطنطين الخامس بشهرة واسعة في التاريخ لتوليهما زعامة حركة تحطيم الأيقونات Icons أو الصور المقدسة . وكانت هذه الصور التي تمثل العذراء والمسيح والقديسين والشهداء ، قد لقيت رواجا في دور العبادة المسيحية والأديرة والدور الخاصة ، حيث ازدانت بها جدران تلك الأماكن ، لكن خطورتها تمثلت في أنها أضحت محور إجلال يصل إلى حد التقديس عند جموع المسيحيين ، وقد عد ليو الثالث ذلك ضربا من الوثنية الجديدة تشوب المسيحية ، فأصدر أوامره بتحطيم الأيقونات في كل أنحاء الإمبراطورية. وكان ابنه قسطنطين الخامس أعنف منه في هذه الأتجاه . ولقي كلاهما العنت والمقاومة من جانب البابوية في روما ، التي كانت من أشد المتحمسين لتقديس الصور. وأخذت هذه المشكلة أبعادا سياسية واقتصادية ، ونتائج عسكرية وإدارية وفنية إبان القرنين الثامن والتاسع . أنظر .

Hefele , history of the Councils of the Church , vol . 5

وأيضا Percival , the Seven ecumenical Councils (in Nicene and post Nicene Fathers , vol . XIV .

وراجع كذلك : دكتور أسد رستم : حرب في الكنائس . بيروت ١٩٥٨ .

٤٣- D. A . I., XIII .

وبداوتها ، يباعد بينها وبين الإمبراطورية البيزنطة، الدين والحضارة ، وإن أخذت تتحول تدريجيا على يد مبشرين بيزنطيين إلى المسيحية الأرثوذكسية ، ومن ثم كانت نغمة «الرومانية» أو «الدولة الوحيدة المتحضرة فى العالم»، عالية تماما فى كتابات قسطنطين السابع، وهو يحدث عند هذه القبائل فى معرض الزواج السياسى ، «فلكل قوم- حسب تعبيره- عاداتهم وتقاليدهم التى يتميزون بها عن غيرهم ، ونظامهم الخاص بهم ، وعليهم اتباع الأعراف السائدة بينهم واحترامها والحفاظ عليها، فكما أن كل حيوان يحن إلى فصيلته، فإن على كل أمة أن ترتبط عن طريق الزواج ، ليس من أولئك الذين يخالفونها الأصل واللسان، بل مع من ينتمون إليها ويتحدثون لغتها ، حتى يسود الوئام والتفاهم بين من هم على شاكلة واحدة»(٤٤).

وليس معنى هذا أن التقاليد البزنطية كانت تحرم تحريما قاطعا مثل هذه الزيجات ، فقد كانت تسمح- فى إطار- دبلوماسية بارعة- بالزواج من أميرات بيزنطيات لاينتسبن إلى الأسرة الجالسة على العرش ، كما حدث مثلا من زواج أوتو الثانى Otto II ولى العهد الألمانى والمرشح لاعتلاء عرش امبراطورية الرومان فى الغرب بعد أبيه، من الأميرة البيزنطية ثيوفانو Theophano فى ستينيات القرن العاشر ، وزواج الأميرة ماريا لكابنا Maria Lecapena حفيدة الإمبراطور رومانوس الأول لكابنوس من بطرس Petrus ملك البلغار . ورغم أن هذه الزيجة الأخيرة كان أكثر نفعا للإمبراطورية بصورة مباشرة ، بعد اشتداد حدة العداء بينها وبين المملكة البلغارية على عهد ملكها سيمون ، إلا أن قسطنطين السابع أعلن امتعاضه وسخطه على هذا الزواج ، ووجدها فرصة سانحة للتشهير بصهره رومانوس ، الذى أبقى عليه- كما أسلفنا- قاصرا حتى الأربعين من عمره .

كتب قسطنطين مخاطبا ابنه .. «فإن سألوك - يعنى القبائل النازلة فى الشمال - كيف سمح إذن الإمبراطور رومانوس لنفسه ، أن يرتبط بعلاقة زواج مع البلغار ، معطيا يد حفيدته

٤٤- Id . وللوقوف على خطورة الزواج من الأجانب كما تجسده التقاليد البيزنطية، راجع تلك القصة التى يرويها قسطنطين السابع عن أهالى خرسون Cherson (حاليا سباستبول فى أقصى جنوب غربى شبه جزيرة القرم) وبسبور Bosporus وهى حاليا كرش الواقعة على المضيق الذى يربط بحر آزونى بالبحر الأسود) .. وذلك فى الفصل الثالث والخمسين من كتابه D. A. I .

إلى بطرس ملك بلغاريا ؟! فيجب أن يكون دفاعك : «لقد كان رومانوس امبراطورا شريكا[٤٥] وشخصا جاهلا ، ولم يكن أبدا فى يوم ما من بين أولاء الذين ولدوا فى الأرجوان ، ولم يُرَبَّ على التقاليد الرومانية منذ كان ، ولاينحدر من أصول نبيلة ؛ ومن ثم نتيجة هذا كله كان فى كثير من تصرفاته يتسم بالحماقة والاستبداد . وفى هذا الأمر بصفة خاصة ، لم يبال بما تحرمه الكنيسة ، ولم يتبع أمر ووصية قسطنطين العظيم ، لكنه بما جبل عليه من مزاج عنيف وطبع حاد ، وبعد عن الفضائل ، ورفض لأتباع ما هو حق وصواب، وعدم التزام بالتعاليم التى خلفها لنا الآباء ، تجاسر على أن يقدم على فعلته هذى ... ومن ثم فإن تلك التى أصبحت زوجة ، (يعنى ماريا لكابنا) لم تكن إبنة الحاكم والإمبراطور الشرعى، بل إبنة من يأتى ترتيبه الثالث (يعنى طبعا بعد الإمبراطور والإمبراطور الشريك) ، وما زال فى مرتبة أدنى، ولم يشارك بعد فى السلطة ، ولم يمارس أى عمل من أعمال الحكم »[٤٦]. ثم يتحدث قسطنطين بعد ذلك عما أصاب الإمبراطور رومانوس لكابنوس فى أخريات أيامه من المصائب، حيث أمسى مكروها من السناتو والكنيسة ، وانتهى الأمر بمقتله »[٤٧].

على أن دفاع قسطنطين على هذا النحو ، عن التقاليد الرومانية ، لايخلو ، بل يمتلئ ، بالتحامل على رومانوس لكابنوس ؛ ذلك أن زواج ماريا لكابنا من بطرس البلغارى، أنقذ السلام فى البلقان خمسة وعشرين عاما ، وكان هذا فى حد ذاته عملا سياسيا بارعا ، بل إن

٤٥- لم يكن رومانوس لكابنوس ينتمى للأسرة الجالسة على العرش ، وهى الأسرة المقدونية التى أسسها باسل الأول المقدونى عام ٨٦٧ . وقد توارث أبناء الأسرة الحكم على النحو التالى : باسل الأول ، ليو السادس ، قسطنطين السابع ، رومانوس الثانى ، باسل الثانى، قسطنطين الثامن ، زوى وثيودورا . وفى خلال سن القصور الذى عاشه كل من قسطنطين السابع ورومانوس الثانى وباسل الثانى ، قفز إلى العرش كأباطرة شركاء أوصياء على الإمبراطور الشرعى ، عدد من القادة العسكريين الذين ينتمون إلى العائلات الأرستقراطية الزراعية والعسكرية فى الوقت نفسه ، خاصة فى منطقة آسيا الصغرى . وكان من بين هؤلاء القائد البحرى رومانوس لكابنوس ثم نقفور فوقاس Nicephorus Phocas ويوحنا تزيمسكس Ioannes Tzimices وعرف هؤلاء بالأباطرة الشركاء ، وهو النظام السياسى الذى عرفته بيزنطة كما أسلفنا . وقد تحقق لبيزنطة على يد هؤلاء الشركاء الكثير من الانتصارات العسكرية الحاسمة فى الخارج .

٤٦- D. A. I., XIII.

٤٧- Id.

قسطنطين نفسه لم يجد أمامه مفرا ، إلا أن يلتمس العذر ، وإن كان على استحياء ، لرومانوس فيما أقدم عليه، لما تم نتيجة هذه الزيجة من افتداء عدد من الأسرى ، بالإضافة إلى أن البلغار كانوا قد تحولوا إلى المسيحية . إلا أنه يضع القاعدة الأساسية فى هذا الزواج السياسى باعتباره أحد عمد الدبلوماسية البيزنطية ، حين يؤكد بلا أى لبس أو غموض، أنه حتى الاتفاق فى العقيدة «لايبيح زواجهم من أية أميرة من الأسرة الحاكمة، سواء كانت صلة قرابتها من الدرجة الأولى، أو حتى أبعد من ذلك ، ومهما أدى هذا الزواج من خدمات للحكومة !!»(٤٨). ومن الغريب أن يؤكد الإمبراطور ذلك بإلحاح ، بينما يبارك زواج أخته «أنّا» Anna من لويس الثالث ملك إيطاليا ، وزواج ابنه رومانوس من ابنة الملك هيو . ولاشك أن هذه الزيجات الثلاث ، رغم ما يقوله قسطنطين ، كانت عملا من أعمال الدبلوماسية البارعة والحتمية آنذاك (٤٩).

ولن تمضى على ذلك سنوات قلائل ، حتى يقوم حفيده الإمبراطور باسل الثانى بنقض هذه القاعدة والخروج عليها، عندما يتعرض فى سنة ٩٨٨ للفتنة الداخلية التى أشعلها ضده بارداس فوقاس Bardas Phocas فى الوقت الذى كان البلغار يهددون حدود الإمبراطورية، والخليفة الفاطمى العزيز بالله يعد أسطوله لمهاجمة السواحل البيزنطية ، فلم يجد باسل الثانى أمامه إلا الاستعانة بالأمير الروسى فلاديمير Vladimir الذى سير إليه قوة عسكرية قوامها ستة آلاف جندى ، ساعدته فى الخروج من هذا المأزق ، وكان ذلك مقابل الزواج من الأميرة «أنّا» Anna أخت الإمبراطور . ورغم أن باسل حاول أن ينكص على عقبيه، التزاما بالتقليد البيزنطى، بعد أن تم له القضاء على ثورة بارداس ، إلا أن فلاديمير اضطره إلى الوفاء بما عاهد عليه الأمير، وتم تعميد هذا العاهل الروسى وزواجه من الأميرة البيزنطية .

وفى القرن الثانى عشر ، أصهر الإمبراطور يوحنا كومننوس إلى البيت المالك الهنغارى ، بينما كانت أزواج ابنه مانويل كلهن من الغرب ، وأولاهن «برتا» Bertha من سولزباخ Sulz-bach أخت زوجة كونراد الثالث الملك الألمانى . بل إن الإمبراطور مانويل كومننوس هذا، أقدم على وضع خطة دبلوماسية بارعة ، يستهدف بها ضم المجر إلى الإمبراطورية، وذلك بسعيه

٤٨- Id .

٤٩- Jenkins, Byzantium, p. 262 .

لزواج ابنته من الأمير «بيلا» Bela وريث العرش الهنغارى . ولم يحل دون إتمام هذه الزيجة ، إلا مولد إبنه ألكسيوس (الثانى) .

ومن الملاحظ أن عدد الزيجات السياسية قد ارتفع فى أعقاب الحملة الصليبية الأولى ، بين البيت الإمبراطورى ، والعائلات الملكية الصلقبية أو الغربية، على خلاف ما كان سائدا فى القرون الأولى، حيث كان التقليد البيزنطى مرعيا إلى حد كبير من جانب الأباطرة . ويعود هذا بالطبع إلى قدوم عدد من ملوك أوروبا وأمرائها إلى الشرق مروراً بالقسطنطينية ، على رأس حملاتهم الصليبية ، وازدياد علاقتهم بالإمبراطورية سلبا أو إيجابا ، فى الوقت الذى راحت فيه بيزنطة تحث الخطى نحو الانهيار ، ويزداد اعتمادها على الجند المرتزقة من الغرب الأوربى خاصة الانجليز والاسكندنافيين بالإضافة إلى الصقالبة ، ليشكل هؤلاء من بعد ، القوة الرئيسية للحرس الإمبراطورى ، حتى عرفوا باسم «الورنك» Varangians وأطلق ذلك أيضا على الطريق الذى كانوا يسلكونه إلى القسطنطينية ، فذاع باسم «طريق الورنك» Va- rangian route . وعلى هذا نرى أنه بالرغم من أن المبادئ الأساسية للدبلوماسية البيزنطية بقيت دون تغيير ، إلا أنها كانت غالبا ما تتسم بالمرونة عند تطبيقها ، لتتمشى مع الظروف المتغيرة . وليس أدل على ذلك من أنه خلال القرن الرابع عشر ، أقدم الامبراطور يوحنا السادس كانتاكوزينوس Ioannes VI Cantacuzenus فى ظل الظروف السياسية المتدهورة فى الداخل ، والصراع الدائر حول العرش ، إلى أن يعطى يد ابنته إلى الأمير العثمانى المسلم أورخان Orchan ليحصل على عونه فى الحرب الأهلية الدائرة مع أسرة باليولوجوس Pa- laeologus .

وإذا كان الزواج السياسى بما أداه من خدمات للإمبراطورية، كدعامة من دعائم دبلوماسيتها ، يعطينا صورة جلية عن أطر الفكر السياسى الرومانى حيال هذه الشعوب ، فإن جانبا آخر من جوانب الدبلوماسية يدعم هذا الاتجاه ؛ ذلك أن الوفود الرسمية التى كانت تقدم على العاصمة الإمبراطورية ، يأخذ بألبابها ثراء المدينة وبهاؤها ، وما كانت عليه من الترف فى الدور والقصور والكنائس والأبنية العامة، إذ يعمد الوفد البيزنطى المرافق لهؤلاء القادمين، إلى المرور بهم عبر أجمل شوارع المدينة، فإذا ما زاغت منهم الأبصار ، وبلغ بهم العجب مبلغه عند نهاية التطواف ، وجدوا أنفسهم وقد تمت استضافتهم فى قصر فخيم من القصور الإمبراطورية ، وقبل أن يفيقوا يخلع عليهم الإمبراطور الخلع الثمينة والهدايا[٥٠] وهذا هو

-٥٠ D. A . I., LIII .

أجاثياس Agathias يصف لنا قسطنطينية جوستنيان فى القرن السادس الميلادى بقوله، إنها كانت تزخر بالعديد من زعماء الشعوب المجاورة للإمبراطورية ، تصحبهم نساؤهم وبنوهم وخاصتهم وخادموهم ، فتتمثل المدنية لأعين الرائين معرضا يضم أزياء الدنيا ، وألسنة الأمم جميعا !! يلقون الترحيب على أكمل وجه ، وهم يسيرون وسط العاصمة وقد امتطوا صهوات جيادهم، يحف بهم الفرسان من حملة الأعلام ونافخى الأبواق فى منظر يأخذ بالألباب»(٥١).

ولاشك أن هذه المظاهر البراقة ، كانت تترك بصماتها واضحة على هؤلاء الذين سرعان ما ينقلبون سفراء لبيزنطة لدى دولهم، وليس أدل على ذلك مما تتناقله الروايات عن الأمير الروسى فلاديمير ، الذى قيل إنه أرسل مبعوثيه إلى الكنيسة الكاثوليكية فى روما ، والأرثوذكسية فى القسطنطينية ، والمسلمين، واليهود الخزر ، للوقوف على أى العقائد ينتهجون !! فلما عادوا جميعا وراحوا يقدمون تقاريرهم ، قال الذين جاءوا إلى القسطنطينية ، «قادنا اليونان (البيزنطيون) إلى الدور التى يعبدون فيها الله، فلم ندر أفى السماء كنا أم على الأرض؟! فإذا كانت الأخيرة ، فليس هناك ما هو أفخم ولا أعظم من ذلك ، ونحن إزاء عاجزون عن الوصف ، كل ما يمكننا قوله أيها المليك .. إن الله يقيم وسط هؤلاء الناس»(٥٢) ولايقل ما جاء فى تقرير ليوتبراند Liutprand أسقف كريمونا Cremona الذى قدم مبعوثا من قبل الملك اللومباردى برنجار سنة ٩٤٩ ، فى رحلته الأولى إلى القسطنطينية ، شيئا عن تلك الأسطورة !

ويفيض الكتاب الذى وضعه قسطنطين السابع «عن المراسم De Cermoniis والكثير من فصول كتابه «عن الإدارة الإمبراطورية» بالصور الحية التى تصف استقبال القسطنطينية للعديد من وفود الدول الأجنبية والشعوب المجاورة التى كانت ترد إليها (٥٣)، ومنها ندرك أن مظاهر الترحيب والاحتفال كانت تزداد مع القادمين من مناطق جديدة ترغب إدارة الخارجية البيزنطية فى كسب ولائهم: من ذلك مثلا ما حدث للأميرة الروسية أولجا Olga التى زارت القسطنطينية عام ٩٥٧ ، مصطحبة معها حاشية ضخمة وقسيسها جريجورى الذى كان يعلمها

٥١- AGATH . historia, 172 .

٥٢- Dvornik , intelligence Sevices p. 176 .

٥٣- De Cermoniis, I , 89-90 ; II , 15 , Cited in Dvornik , intelligence Services . p. 175 .

المسيحية فى «كييف» Kiev، فقد دعيت لتتخذ مجلسها إلى جوار الإمبراطور، وخلع عليها الكثير من الهدايا القيمة عند اجراء طقوس عمادها .

ومن الجدير بالذكر أن تعليمات إدارة الخارجية البيزنطية ، كانت صريحة بضرورة عدم السماح لأى سفير من هؤلاء ، أو قادم رسمى بالتجول فى المدينة وحده دون حرس أو وفد مرافق ، أو الاطلاع على شئ مما ترغب الحكومة فى إخفائه عن الأعين. ومن ثم كان لابد أن يحف بهم الحرس منذ قدومهم وحتى ارتحالهم عن القسطنطينية (٥٤)، مع الحرص على أن يبدو ذلك فى ظاهره نوعا من التكريم ، وإن كان فى جوهره نوعا من الرقابة الصارمة على تصرفات هؤلاء السفراء ، يزيدها حدة ما كان يجرى من وضع عدد من الخدم تحت تصرفهم ، تنحصر مهامهم الرئيسية الخفية فى الحصول على أى نوع من المعلومات عن الوفد المرافق للسفير . وقد عبر عن ذلك أحسن تعبير ، ليوتبراند ، سالف الذكر ، وذلك فى تقريره الذى كتبه عن زيارته الثانية للقسطنطينية ، مبعوثا هذه المرة للملك الألمانى امبراطور الرومان، أوتو الأول . وكانت شكواه بصفة خاصة أيضا مما لقيه عند مغادرته العاصمة الإمبراطورية ، من تفتيش دقيق لكل ما يحمل من جانب موظفى الجمارك (٥٥).

وقد درجت بيزنطة إلى جانب استقبال هؤلاء السفراء إلى استضافة أبناء الأمراء والحكام المجاورين ، وذلك فى البلاط البيزنطى، وإحاطتهم بهالة من مظاهر العظمة والفخامة ، والترحيب بضحايا الحروب الأهلية فى الدول الخارجية كلاجئين سياسيين يمكن الاعتماد عليهم عند الضرورة لمصلحة السياسة البيزنطية. بل إن بيزنطة كانت تلح فى بعض الأحيان على عدد من الزعماء لزيارتها ، من ذلك مثلا ما جرى مع أمير طارون Taron(٥٦).

وتنوعت وسائل الإغراء والترغيب لهؤلاء السفراء الأجانب ، حتى ينقلبوا - كما ذكرنا - ممثلين لبيزنطة لدى دولهم، وكان الفارق الحضارى الكبير بين الإمبراطورية وهذه الشعوب المجاورة ، باستثناء الفرس والمسلمين كما قدمنا، عاملا هاما وسلاحا فعالا فى نجاح هذا

٥٤- Dvornik. Loc. cit .

٥٥- راجع نص التقرير فى مجموعة الوثائق الخاصة بالعصور الوسطى التى ضمها كتاب .
Cantor , The Middle Ages. New York 1964 .

٥٦- D. A . I. , XLIII

الأسلوب التأثيرى. فاستخدمت وسائل الترفيه والتسلية مع بعض الوفود (٥٧)، وجرى الإنعام على الموالين منهم بألقاب التشريف التى كان من أبرزها Hypatus و Patricias و Magister إلى الحد الذى دفع هؤلاء الزعماء إلى التنافس فيما بينهم للحصول على المزيد من الهبات أو الأموال أو الألقاب من الإمبراطور(٥٨) ويضرب قسطنطين السابع المثل على ذلك بأهالى خرسون Cherson ، حين أنعم عليهم بألف رتبة عسكرية من درجة «رماة السهام» ، مع التأكيد بدوام إرسال المنح إليهم بانتظام (٥٩).وكيف لايتنافس القوم ، وهذه الألقاب كانت تجعل منهم أنصاف رومان «بسلوك متحضر ووقار لاتينى» (٦٠)، ولافرق فى ذلك بين الأمير البربرى فى أى منطقة ودوج البندقية الذى كان شغوفا لحمل لقب «بطريق» . كما كان الكثير من الأمراء حريصين على أن يتسلموا من يد الإمبراطور شخصيا ، أشعرة السلطة الملكية مثل التاج الذهبى والرداء الحريرى المطرز بالذهب ، والذى يظهر الأمير من وجهة نظره شبيها بـ«البازيليوس» Basileus أى الإمبراطور البيزنطى (٦١).

وكانت العباءة الأرجوانية الإمبراطورية بصفة خاصة ، تمثل لدى هؤلاء الأمراء شيئا رفيعا ، ومن ثم فلاغرو أن نجدهم يتهافتون للحصول على مثلها . لكن هذا كان يعد فى نظر الرومان امتهانا للتقاليد الإمبراطورية (٦٢)، إذ أن هذه العباءة من حق الإمبراطور وحده ، وإذا كانت

٥٧- Ibid . LIII .

٥٨- Ibid. XLIII - XLIV , XLVI - L , LI .

٥٩- Ibid . LIII .

٦٠- Diehl , Byzantium, p. 56 .

٦١- يتحدث قسطنطين السابع عن البشناق ، ويصفهم بأنهم طماعون جشعون ، لايؤدون خدمة لأى فرد دون مقابل، ولايخجلون من كثرة طلبهم للهدايا والأشياء التى يندر وجودها عندهم لأنفسهم وزوجاتهم . كما يطلبها الشخص المرافق للمندوب الإمبراطورى ، لنفسه ، لقاء جهده فى مرافقته واستخدام دوابه . ويقول إنه عندما يصل المندوب الإمبراطورى إلى بلادهم يكون أول سؤال يوجهونه إليه ، يدور حول هدايا الإمبراطور لهم، ثم يعودون فيسألونه عن هدايا زوجاتهم ووالديهم ».

انظر D. A I . , VI , VII .

٦٢- كانت الأشعرة والاردية الإمبراطورية، شيئا خاصا بالإمبراطور نفسه دون غيره من الناس مهما =

الدبلوماسية قد وجدت فى هذه المظاهر ما يحقق لصانعيها السيادة على هذه الشعوب ، إلا أن ذلك يجب أن يظل فى إطار معين لايتعداه . كان من الجائز إهداء اردية قريبة الشبه ، لكنها ليست مثل الأردية الإمبراطورية تماما ، وهذه الحقيقة لم يغفلها قسطنطين وهو يعظ ابنه بقوله : «إذا ما أقدم الخزر أو الأتراك أو الروس أو غيرهم من الشماليين والاسكيزيين Scythians على طلب ما اعتادوا عليه دوما ، أعنى بعض الأردية الإمبراطورية أو التيجان أو الثياب الرسمية ، لقاء بعض خدمات يؤدونها فليكن قولك إن هذه الثياب أو التيجان ، لم تصنعها يد إنسان ، ولا زينتها فنون بشر ، بل تنبئنا قصص التاريخ أن الله عندما اختار قسطنطين العظيم امبراطورا ، فكان أول امبراطور مسيحى [٦٣] ، أنعم عليه بهذه الثياب عن طريق ملاكه ، وكذا التيجان ، وعهد إليه أن يضعها فى الكنيسة المقدسة العظمى ، أيا صوفيا ... وعلى المنضدة المقدسة حفرت هذه العبارات .. «إذا ما سولت لأى إمبراطور نفسه أن يعطى شيئا من هذه الثياب لغيره ، حلت به اللعنة كخصم لله وعدو ، واستوجب صدور قرار الحرم الكنسى »[٦٤].

ويبين من حديث قسطنطين السابع مدى الإحساس بـ «التفوق» الرومانى ، الذى يصل إلى درجة «الشعب المختار» ، وهى الفكرة التى يعود بها أو بلنسكى[٦٥] عند الرومان إلى جذور يهودية مسيحية ، متناغمة مع «العالمية» الرومانية ، والثقافة الأصيلة المستمدة من

= علت مكانتهم أو سمت أصولهم ، ولايسمح لأى إنسان آخر بارتدائها ، لما فى ذلك من اعتداء على الحقوق الإمبراطورية . ولعل أوضح الأمثلة على ذلك ، ما حدث لبطريرك القسطنطينية فى القرن الحادى عشر ، ميخائيل كريولاريوس Michael Cerularius عندما أقدم على انتعال «الصندل» الإمبراطورى ، منتهزا فرصة ضعف السلطة الإمبراطورية واضطراب الأمور على عهد إسحق كومننوس . وكان هذا يعنى مظهرا من المنافسة التدريجية للإمبراطور فى سلطانه ، لابد تتلوها خطوات أخرى كما كان يؤمل البطريرك ، مما دفع الإمبراطور إلى الأمر بالقبض عليه وتقديمه للمحاكمة ، ولم ينقذه من ذلك سوى موت الإمبراطور . أنظر PSELL . Chron . VI

٦٣- اختلف المؤرخون ولايزالون ، حول مسيحية قسطنطين ، منهم من رفعه مكانا عليا فجعله أحد حواريى المسيح ، وأولئك هم مؤرخو الكنيسة . وآخرون يجعلونه أول امبراطور مسيحى ، جعل المسيحية الدين الرسمى للإمبراطورية . وبعض يجعله وثنيا مدافعا عن عقيدة الرومان الأسلاف . وفريق رابع يجعله امبراطوراً بلا دين . عن كل هذه الآراء ، ورأينا فى هذه القضية التاريخية الشائكة ، راجع كتابنا : الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى قسطنطين ، دار المعارف - القاهرة ١٩٨٢ .

٦٤- D . A . I ., XIII .

٦٥- Obolensky, Byzantine diplomacy , p. 56 .

الهللينية وهذا كله كان بالطبع كفيلا أن يجعل من الرومان فى نظر أنفسهم ، بل وفى نظر بعض معاصريهم أيضا ، «سادة» العالم فى زمانهم بلامنازع ، بحيث لايمكن لأى شعب من الشعوب الأخرى أن يطاولهم سمت الحضارة وعلو الهامة .

ويتصل بالهدايا والخلع والثياب والألقاب ، جانب آخر من أكثر العوامل تأثيرا واستخداما من لدن صانعى السياسة البيزنطية الخارجية ، ذلكم هو المال .. فقد كان الاعتقاد الراسخ لدى الرومان ، أن لكل إنسان ثمنه ، سواء كان أميرا بربريا لقبائل الهون Hunni الآسيوية ، أو كان جودفرى البويونى Godfrey du Bouillon دوق اللورين، أو بوهيمند Bohemund النورمانى ، وكلاهما من زعماء الحملة الصليبية الأولى المبرزين ! فالمال - على حد تعبير شارل ديل -(٦٦) هو أسرع السبل وأقصرها طريقا للتأثير على هذه الشعوب المجاورة لبيزنطة، ومن ثم كان ينظر إلى المال من وجهة نظر الدبلوماسيين البيزنطيين ، على أنه سلاح لايمكن مقاومته ، وأثبتت الأحداث فعلا صدق نظرتهم . ولقد دفعت الحكومة البيزنطية مبالغ طائلة من الأموال منذ عهد جوستنيان فى القرن السادس ، وحتى باسل الثانى فى القرن الحادى عشر، بل وبعد ذلك بقرنين آخرين أيضا لضمان ولاء هذه الشعوب المجاورة ، أو لتنفيذ مآربها السياسية الخارجية ضد دول أخرى ، أو على الأقل - وهو كثير - لضمان سكوتها وحَيْدتها إبان حروبها مع أعدائها . ويكفى أن نقرأ ما كتبه مؤرخ القرن السادس الأشهر ، بروكوبيوس Procopius القيسارى فى كتابه «التاريخ السرى» Historia Arcana لندرك حجم المبالغ التى أنفقتها الإمبراطور جوستنيان لاستمالة أمراء الهون والبربر والحبشة واللومبارد والجبيد والهيروليين والآفار والإيبريين . بل إن ما قدمه لخزانة الملك الفارسى يكاد يعدل ما قدم لهؤلاء جميعا !! ومن ثم لم يسلم من النقد اللاذع الذى وجهه إليه بروكوبيوس فى كتابه . وجرى نفس الحال مع المؤرخ نيقتاس الخونياتى عندما صب جام غضبه ولومه على الإمبراطور مانويل كومننوس ، للأموال التى بددها دون طائل على اللاتين فى إيطاليا والنورمان فى صقلية ، إلى الحد الذى يحمله فيه نيقتاس مسئولية الكارثة التى حلت بالإمبراطورية بعد وفاته بسنوات قلائل ، عندما تعرضت للسقوط فى أيدى اللاتين عام ١٢٠٤ بفعل جنود الحملة الصليبية الرابعة ، وفعال البابوية والبندقية والإمبراطورية فى الغرب جميعا (٦٧).

٦٦- Diehl, Byzantium, p. 55 .

٦٧- للوقوف على تفصيلات هذه الأحداث ، يمكن الرجوع إلى المصدر المعاصر الذى تناولها وكتبه شاهد عيان وهو : روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ، ترجمة دكتور حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٤ .

وقد استخدمت هذه الأموال فى كثير من الأحيان ، لإيقاع الفرقة والانقسام بين القبائل المجاورة ، وأفلحت الدبلوماسية البيزنطية فى هذا الميدان وحققت نجاحا كبيرا باعتمادها على الأموال، لتطبيق المبدأ الشهير الذى كان يؤمن به الرومان .. «فرق تسد». وكان هذا أمرا لامندوحة عنه كى تستطيع الإمبراطورية مواجهة التهديدات التى تحقيق بها من جانب الجماعات القبلية العديدة التى هطلت عليها منذ القرن الرابع وحتى العاشر الميلادى.

ويعطينا قسطنطين السابع تصويرا واقعيا للدبلوماسية البيزنطية ، فيما يتعلق بما يجب على ابنه أن يفعله إزاء القبائل المجاورة للإمبراطورية فى زمانه، وهو يعد من أهم ما جاء فى كتابه «عن الإدارة الإمبراطورية».. فبيزنطة تخشى البشناق Pechenegs الذين كانوا يقطنون المنطقة الممتدة من مصب نهر الدنيبر Dnieper متجهة غربا إلى فم الدانوب Danupe، ويمثلون فى الوقت نفسه مفتاح العلاقات السياسية لبيزنطة مع بلاد الخزر Chazaria والروس والبلغار والهنغاريين. والإمبراطورية مع خشيتها من البشناق، تخاف الروس والأتراك ، لكن خشيتها من البشناق تفوق خوفها من الأخيرين ؛ لذا فإن بقاء الإمبراطورية على سلام معهم ، يضمن عدم تعرض الأراضى الرومانية لهجمات الروس والأتراك ، وعدم مطالبتهم بفدية ضخمة من الرومان لقاء السلام. وإذا ازدادت العلاقات وثوقا بين البشناق وبيزنطة عن طريق استمالتهم بالهدايا ، أمكن بسهولة للبيزنطيين القفز على أراضى الروس والأتراك، واستعباد نسائهم وأطفالهم وتدمير أراضيهم- والحديث هنا لقسطنطين السابع- لذا كان ضروريا إرسال مندوبى الإمبراطور سنويا إلى البشناق محملين بالهدايا والأموال لتجديد الاتفاق معهم وضمان الموالاة[٦٨].

كان البشناق فى نظر قسطنطين السابع ، قادرين على خوض الحرب ضد الروس والبلغار والأتراك ، ولذا وجب استرضاؤهم كل عام [٦٩]. وحتى لاتقع السياسة البيزنطية على هذا النحو تحت رحمة البشناق ، فإنه يصبح من الضرورى استمالة «الغز» Uzes إلى جانب الإمبراطورية، لأنه بمقدور هؤلاء مهاجمة البشناق[٧٠] والخزر[٧١] على حد سواء. والدبلوماسية

٦٨- D. A. I., II- IV .

٦٩- Ibid. VIII, XXXVII .

٧٠- Ibid. IX .

٧١- Ibid. X .

تؤدى دورها بنجاح كبير فى هذا السبيل ، فتشجع الصرب Serbs ضد البلغار [٧٢]، وتؤلب الخرسونيين على السارماثيين[٧٣] Sarmatians وتبحث عن حليف جديد تثيره ضد البشناق ، فتجده فى المجيار، فترسل إليهم سفارتين خلال عامى ٨٩٤ ، ٩٢٧ تهدف من ورائها إلى حث هؤلاء على مهاجمة البشناق [٧٤].

ولم يكن قسطنطين السابع فيما أورده مبتدعا ، ولاواضعا لقواعد الدبلوماسية البيزنطية ، كما ذكرنا من قبل ، لكنه كان يرصد ويسجل تجارب السابقين من الأباطرة الأسلاف ، الذين وضعوا هذه القواعد موضع التنفيذ ، وبلغوا فى تطبيقها مبلغا من النجاح كان كبيرا ، فها هو الإمبراطور زينون Zeno فى أخريات القرن الخامس الميلادى، لايرى أمامه سبيلا كى ينقذ القسطنطينية من ضربات قبيلة القوط الشرقيين Ostrogoths الموجعة ، إلا أن يوجه زعيمهم ثيودوريك Theodoric صوب إيطاليا ، التى كانت قاعدة الإمبراطورية الرومانية قديما ، والتى ضاعت منذ سنوات قلائل(٤٧٦) على يد القائد الجرمانى أودواكر Odovacer فضرب بذلك العناصر الجرمانية ببعضها لتخلص له القسطنطينية وأرباضها .

وقد طبق الإمبراطور جوستنيان ، أستاذ الدبلوماسية البيزنطية بلا منازع ، هذه السياسة ببراعة كبيرة فى المناطق الشمالية والشرقية ، فراح رجاله يؤلبون القبائل ضد بعضها ، ويؤججون نيران التنافس الذى يصل إلى حد الكراهية فيما بينهم ، فيستبقون للحصول على عون بيزنطة ضد بعضهم بعضا، وليس أيسر من ذلك لضمان خضوع شعوب هذه المناطق [٧٥]. هذا فى الوقت الذى حرص فيه على استرداد ولايات الغرب الرومانى التى استولى عليها الجرمان، وأقاموا عليها ممالك لهم، وشراء سكوت الفرس بجزية سنوية ضخمة يؤديها، وأفلحت

٧٢- Ibid. XXXII .

٧٣- Ibid . LIII .

٧٤- Ibid . XXXVIII - XL ويمكن مراجعة أحداث هذه الفترة الهامة فى تاريخ الدبلوماسية البيزنطية من خلال علاقات بيزنطة مع الشعوب المجاورة ، فى Obolensky , The Byzantine Commonwelth, London 1971 ; Ostrogorsky, History of the Byzantine State, Oxford 1965 ; Vasiliev, A History of the Byzantine Empire, vol . 2 , Madison and Milwauke, 1964 .

٧٥- AGATH. historia, pp. 332-333 .

أموالهودسائسه ومظاهر العظمة البادية فى عاصمته وجيوشه فى إخضاع المناطق الواقعة إلى الشمال من حدود الإمبراطورية ، لسلطانه ، واسترداد أفريقيا وإيطاليا وأجزاء من إسبانيا .

وتمدنا المصادر التاريخية المعاصرة لتلك الفترة ، بمعلومات وفيرة عن السياسة التى اتبعها جوستنيان تجاه القبائل النازلة إلى الشمال الشرقى من الحدود الإمبراطورية، خاصة منطقة شبه جزيرة القرم والمناطق المحيطة بالبحر الأسود ونهر الدانوب؛ فقد راح يؤلب بعض عشائر القوط، الذين كانوا قد تحولوا إلى المسيحية ، ضد الهون الوثنيين ، حيث استقبل منهم وفدا قدم إلى القسطنطينية سرا، وعهد إليهم القيام بتدبير الفتن والمؤامرات وإثارة الاضطرابات فى صفوف الهون(٧٦) بل استخدم بطون الهون ضد بعضهم ، فأوعز إلى جماعة أوتيجور Utigur بمهاجمة جماعات الكوتريجور Kotrigurs بحجة الحصول على كنوز الذهب التى استولى عليها الأخيرون من أراضى الإمبراطورية، وابتعلت الجماعة الأولى طعم الخديعة ، ونجحت الدبلوماسية هنا فى الخلاص منهما معا بأيديهما (٧٧). وعلى جبهة الدانوب استقطبت الإمبراطورية قبائل الأنطاى Antac وأغدقت عليهم الأموال لتوجههم ضد البلغار(٧٨) ، ولم يجد جوستنيان ما يمنعه من أن يستخدم قبائل الآفار Avares من بعد ضد الأنطاى أنفسهم ، عندما دعت الضرورة إلى ذلك !! (٧٩).

وقد انتهج الإمبراطور موريس Mauricius فى أواخر القرن السادس، السياسة نفسها فى تحريض ملك الفرنجة «شيلدبرت Childebert ضد اللومبارديين Lombards لقاء مبلغ ضخم من المال. ودارت المراسلات فى القرن التاسع بين الإمبراطور ثيوفيلوس Theophilus العمورى، وبابك الخرمى، الذى أشعل نيران التمرد ضد العباسيين على عهد الخليفة المعتصم

٧٦- PROCOP . de bello Gothico, IV , 474 .

٧٧- AGATH . hisroria , pp. 330-335 .

وأيضا MENAN. excer . Legat . Rom. p. 345 .

٧٨- PROCOP. de bello Gothico, VII , 273 .

٧٩- MENAN . excer. Legat . Rom . p. 344 .

وأيضا MALAL . Chron . p. 489 .

وكذلك EVAG. historia ecclesiastica, p. 425 .

بالله ، وتم الاتفاق على إعلان الفتنة فى الداخل بينما تتقدم جيوش البيزنطيين باتجاه الحدود الإسلامية ، ليقع المعتصم بين شقى الرحى، لكن المعتصم فطن إلى هذه الخطة وفوت على الإمبراطورية الفرصة، حين بادر أولا بالقضاء على فتنة بابك الرخمى ، قبل أن تتصل قواته بقوات ثيوفيلوس ، مما دفع الأخير إلى تخريب بعض المدن الإسلامية فى آسيا الصغرى ، ومن بينها «زبطرة» التى يقال إنها كانت مسقط رأس المعتصم . وقد قام الخليفة العباسى بملاحقة جيوش ثيوفيلوس ودمر مدينة «عمورية» التى ينتسب إليها الإمبراطور ، ليمتدحه شاعر العربية أبو تمام ببائيته الشهيرة .

وما فعلته الأسرة المقدونية بعد ذلك خلال القرن العاشر ، من استغلال الصراعات القائمة بين المسلمين ، خاصة خلافتى بغداد العباسية والقاهرة الفاطمية ، لضرب القوى الإسلامية التى كانت تهدد الحدود والمصالح البيزنطية فى بلاد الشام ، شئ لايمكن تجاهله . ولعل أبرزها ما كان حادثا بالفعل بين الحمدانيين والبيزنطيين ، بينما يقف العباسيون والفاطميون موقف المتفرج ، بل ويظهرون الرضى لتحطيم قوة الحمدانيين على يد البيزنطيين ، الذين أفلحوا عن طريق استغلال هذا الموقف فى الوصول بجيوشهم إلى تخوم بيت المقدس .

وقد تعرضت الإمبراطورية فى آخر سنى القرن الحادى عشر لكارثة خطيرة كادت تودى بها ، ممثلة فى الحملات الصليبية التى وضعت فى اعتبارها منذ البداية الاستيلاء على القسطنطينية. ولولا الدبلوماسية البارعة التى مارسها آل كومنين الثلاثة ، ألكسيوس الأول Alexius وابنه يوحنا وحفيده مانويل، لتعرضت الإمبراطورية للضياع منذ السنوات الأولى للحروب الصليبية ، وكما حدث لها بالفعل من بعد سنة ١٢٠٤ . ويكفى أن نقرأ فقط ما كتبته الأميرة «أنَّا كومننا» Anna Comnena إبنة ألكسيوس فى كتابها الـ «ألكسياد» Alexiad عن وسائل الدبلوماسية التى استخدمها أبوها مع زعماء الحملة الصليبية الأولى، بإغداق الأموال والهدايا والخلع والألقاب ، ومنح الإقطاعات ، والتقريب ، وتحريض بعضهم ضد بعض. وكان أبرز مثالين واضحين لذلك، موقفه حيال كل من بوهيمند النورمانى وريموند أمير تولوز. وليس ببعيد عن ذلك ما فعله حفيده مانويل مع كل من لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث ملك ألمانيا ، اللذين قادا الحملة الصليبية الثانية .

وإلى قلب أوروبا الغربية وصلت أصابع الدبلوماسية البيزنطية فى القرن الثالث عشر ، عندما ازدادت حدة التوتر بين الإمبراطور البيزنطى مانويل كومننوس، والملك الألمانى فردريك بربروسا ، إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى الغرب، بعد أن نظر الأخير إلى نفسه

باعتباره الإمبراطور الشرعى للرومان ، ضاربا عرض الحائط بالشرعية والحقوق التاريخية لأباطرة الرومان فى الشرق. ومن ثم دارت المراسلات بين كل من مانويل كومننوس والأمير هنرى الأسد دوق سكسونيا ، والذى كان يعد أحد الأفصال الإقطاعيين لفردريك بربروسا ، ويحمل فى الوقت ذاته العداء التقليدى القائم بين عائلته «الولفيين» وعائلة «الهوهنشتاوفن» التى ينتمى إليها فردريك، ولذا فقد استقبل فى بلاطه فى سكسونيا ، سفراء من لدن الإمبراطور البيزنطى ، من وراء ظهر الملك الألمانى، ورفض مرافقة سيده فى حملته الخامسة إلى إيطاليا ، مما أدى إلى هزيمة فردريك عند ليناو Legnano سنة ١١٧٦ على يد مدن العصبة اللومباردية[٨٠]. بل إن مانويل استخدم أمواله وسلاحه أيضا لإثارة النورمان فى صقلية ضد النفوذ الألمانى .

وحتى القرن الثالث عشر ، والإمبراطورية البيزنطية العائدة على يد ميخائيل الثامن باليولوجوس Michael VIII Palaeologus ظلت سياسة «فرق تسد» ، تتصدر قائمة عمد الدبلوماسية ، فى وقت عانت فيه الخزانة النقص الكامل فى الموارد المالية ، فمنح الجنوية امتيازات ضخمة فى القسطنطينية ، ليضرب بهم المصالح التجارية والسياسية لجمهورية البندقية ، التى كانت سببا رئيسيا فى سقوط القسطنطينية عام ١٢٠٤ ، ونجح بذلك فى استعادة الإمبراطورية . ولما وجد نفسه من جراء هذا فى مواجهة حلف كونه شارل كونت أنجو، الذى احتل صقلية بدعوة من البابوية للقضاء على بقايا أسرة الهوهنشتاوفن الألمانية فى الجزيرة ، ويضم هذا الحلف، البابوية ، وبلدوين الثانى إمبراطور القسطنطينية اللاتينى المخلوع، ووليم فيلهاردوان، الذى كان قد هزم مؤخرا على يد ميخائيل فى المورة ،والبلغار، أدرك ميخائيل أن السلاح التقليدى للخارجية البيزنطية ، وهو الدبلوماسية البارعة ، خير وسيلة للإفلات من هذا الخطر ، فوجه القبيلة الذهبية المغولية ضد البلغار ، وسلاجقة الروم والمجيار ضد الصرب ، وصادق لويس التاسع نفسه وهو الذى كان أخا لشارل كونت أنجو ، وأعان الصقليين ضد ملكهم الفرنسى ، فانفرط عقد الحلف .

٨٠- راجع هذه الأحداث وتفصيلاتها فى:

Brooke , A history of Europe from 911 to 1198 , pp. 51 , 501 - 503 .

وراجع أيضا للباحث : الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب فى العصور الوسطى ، مجلة ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، المجلد الثانى ، ص١٢٤-١٢٧ .

ولكى تصبح هذه الوسائل الدبلوماسية ناجعة ، كان لابد أن يدعمها صانعوها بإقامة حائط بشرى دفاعى على امتداد حدود الإمبراطورية ، يقى جسم الدولة الرئيسى نفسه مغبة هذه الهجمات التى لاتنقطع ، وتمثل ذلك فى حرص بيزنطة على وجود عدد من «الدول الحاجزة» فى المناطق التى تتعرض بصفة دائمة للأخطار؛ فالغساسنة على الحدود الشرقية أدوا دورهم كاملا لزمن طويل ، دفاعا عن الإمبراطورية ، فى مواجهة الاعتداءات الفارسية المستترة وراء دولة اللخميين المناذرة . وجماعات الآلان Alan كانت تشكل قوة متقدمة لمراقبة ما يجرى فى المنطقة القوقازية ، وكان لهم فضل إطلاع بيزنطة على كثير من التحركات العسكرية الفارسية تجاه حدود الإمبراطورية(٨١). والقوط الغربيون Visigoths أمل بهم الإمبراطور فالنز Valens فى سبعينيات القرن الرابع ، أن يشكلوا درعا واقيا يحمى منطقة البلقان من غزو الهون الآسيويين . والبشناق والصرب والبلغار والأرمن ، قاموا جميعا بنفس الدور فى فترات التاريخ البيزنطى المختلفة . ولعل هذه الناحية تتضح أهميتها بصفة خاصة منذ القرن الحادى عشر الميلادى، عندما أهملت الإمبراطورية سياسة إقامة الدول الحاجزة، بل وساهمت بنوع من قصر النظر السياسى عند بعض أباطرتها ، لتحقيق نفوذ أكثر إتساعا، فى هذا الخسران ، عندما اجتاحت جيوشها أرمينيا وضمتها للإمبراطورية، وحولت بلغاريا إلى ولايتين بيزنطيتين ، فأصبحت البيزنطية فى الشرق والشمال الغربى مكشوفة مباشرة لشعوب أخرى تقع خلف هاتين الدولتين ، وتتأهب للقفز على بيزنطة .

وفى إطار هذه السياسة الذكية ، كانت الدعامة الرئيسية فى الأعمال الحربية للإمبراطورية، تتمثل فى حرص إدارة الخارجية فى القسطنطينية على تجنب الدخول فى حرب على جبهتين فى وقت واحد ، إذ كان ذلك يشكل خطرا مدلهما؛ فمع تكاثر الأعداء الذين أحاطوا بالإمبراطورية من كل جانب ، كان يبدو مستحيلا مواجهة هؤلاء جميعا دفعة واحدة ، أو العمل على جبهتين بنجاح تام فى كل منهما، لذا كان لنجاح الدبلوماسية هنا كبيرا . فإذا كان عليها أن تحرك قواها العسكرية فى ناحية معينة ، كان عليها بالتالى أن تسخر جهودها الدبلوماسية لتحقيق نصر سياسى فى الناحية الأخرى ، ربما لايقل عن النصر العسكرى .

وكان الإمبراطور جوستنيان مثالا يحتذى فى تطبيق هذه القاعدة فمع طموحاته الواسعة لاسترداد الولايات الرومانية فى الغرب، المتطابقة مع الفكر السياسى الرومانى القائم على

٨١- Dvornik , intelligence Services, p. 170 .

عالمية الإمبراطورية ووحدتها وتوحدها ، والتى عبر عنها بوضوح فى احدى تشريعاته بقوله : «لدينا أمل كبير فى أن يأذن الله لنا باسترداد أراضى الإمبراطورية الرومانية القديمة التى من جراء التراخي ضاعت »[٨٢]. إلا أنه لم يكن بغافل عن الأطماع الفارسية فى الولايات الشرقية من الإمبراطورية ؛ فالفرس كان يعنيهم فى المقام الأول ، إلى جانب التوسع السياسى والنفع الاقتصادي ، الوصول إلى مركز الثقل الحضارى فى العالم آنذاك ، أعنى البحر المتوسط، وهو ما كانت الإمبراطورية البيزنطية تعتبره حقا خاصا بها . ومن ثم فإنه لأهمية هذا الصراع الذى يبدو فى ظاهره سياسيا واقتصاديا ، وفى جوهره حضاريا ، حرص جوستنيان على أن لايدع الفرصة للفرس كى يحققوا مآربهم .

لهذا .. نرى جوستنيان يقدم فى السنوات الأولى من عهده على تحريك قواته العسكرية على جبهة الفرات ، دون أن يبغى من وراء ذلك اكتساب أراض جديدة ، بل فقط دفع الفرس إلى الدخول فى مفاوضات للتوصل إلى اتفاق يؤمن ظهره أثناء استدارته لحرب الجرمان ، وكان على استعداد لدفع جزية سنوية ضخمة للفرس لقاء أن يدعوه وشأنه لتحقيق آماله فى الغرب الإمبراطورى. ولم يكن ذلك يغيب عن بصيرة الفرس ، ولذا كثيرا ما نراهم يحركون مهماز جيوشهم على جبهة الفرات هم الآخرون ، ابتغاء مزيد من الأموال من الخزانة البيزنطية . بل إن أطرف ما يمكن أن يروى فى هذا السبيل ، ما ذكره بروكوبيوس من أنه عقب انتصار جوستنيان على الوندال Vandals فى شمال أفريقيا ، وعودة الولاية للسيادة الرومانية ، طالب ملك فارس بجزء من الأموال والغنائم باعتباره شريكا فى هذا النصر الذى تحقق لوقوفه على الحياد أثناء المعارك . وقد انصاع جوستنيان لمطالب الملك الفارسى من أجل استكمال مشروعاته فى الغرب، وإن كان قد اعتبر هذه الأموال نوعا من الهدية !!

ولعل هذه النظرة المتبادلة بين الجانبين تفسر لنا تجدد عقد «معاهدات السلام» بينهما أكثر من مرة ، وذلك فى أعوام ٥٣٢ ، ٥٤٥ ، ٥٦٢ . وفى المعاهدة الأولى كان على بيزنطة أن تدفع لفارس سنويا أحد عشر ألف رطل من الذهب. وفى الأخيرة والتى أمل الجانبان أن تستمر خمسين عاما ، دفعت بيزنطة مقدما مبلغ ثلاثين ألف رطل من الذهب باعتباره أقساط سبع سنوات كاملة[٨٣] . وكان جوستنيان قد شغل نفسه ودولته وجيشه وخزانته على امتداد خمس

٨٢- IUS . novella XXX , 11 .

٨٣- PROCOP. de bello Goth, I, pp. 133.5. MENAN . excer. Legat . Rom. pp. 395-363 .

وعشرين سنة كاملة ، ابتداء من عام ٥٣٢ بالحرب فى محاولة لاسترداد النصف الغربى من الإمبراطورية، ولم يكن على استعداد أن يحارب الفرس والجرمان فى وقت واحد (٨٤).

وفى عام ٦٢٦ تعرضت الإمبراطورية لخطر مدلهم مزدوج : فالفرس اكتسحوا الولايات الشرقية للإمبراطورية، ووقفوا قبالة القسطنطينية على الشاطئ الآسيوى للبسفور ، بينما ألقى الآفار حصارهم عليها من الناحية الأخرى، فى الوقت الذى كانت الجيوش البيزنطية تعمل تحت قيادة الإمبراطور هرقل Heraclius على الأراضى الفارسية نفسها ، والعاصمة من الجند خالية . على أن الذى يعنينا هنا، أن هذا الحصار المزدوج كان اختباراً وتحديا حقيقيا للدبلوماسية البيزنطية لقهرها على التخلى عن قاعدتها الأساسية ، بعدم الحرب على جبهتين فى وقت واحد. وفى سبيل ذلك وصل الفرس صفوفهم بالآفار ، بعد الدرس العملى الذى لقنوه زمن جوستنيان . غير أن الدبلوماسية البيزنطية فوتت على الفرس هدفهم، ونجحت فى عزل الآفار عنهم بوسائلها المعروفة ، واستخدمت الكروات لتحطيم شوكة الآفار (٨٥).

وتتجلى براعة الدبلوماسية فى الوقوف على الأهداف الحقيقية لأعدائها، ولنضرب على ذلك مثالا واحداً. ففى القرن الحادى عشر ، وقعت الإمبراطورية بين شقى الرحى، الأتراك السلاجقة من الشرق ، وذلك بعد انتصارهم بزعامة السلطان ألب أرسلان على الإمبراطورية فى موقعة مانزكرت عام ١٠٧١ ، ووقع الإمبراطور رومانوس الرابع ديوجينس Romanus IV Diogenes فى الأسر ، ومن الغرب كان النورمان . وأدركت إدارة الخارجية البيزنطية أن الخطر الحقيقى يتمثل فى هؤلاء الأخيرين، على الرغم من أن آسيا الصغرى كانت تعتبر من الناحية

٨٤- لدراسة نشاط جوستنيان العسكرى ، يفضل الرجوع ، بالإضافة إلى ما كتبه بروكوبيوس ، إلى المراجع الحديثة التالية .

Bury, history of the Later Roman Empire , vol. 2 . London 1931.

وأيضا Jones, Later Roman Empire , vol. I, Oxford 1964 .

وله كذلك The decline of theAncient world, London 1975 .

وراجع كذلك Holmes , The Age of Justinian and Theodora, 2 vols London 1912 .

٨٥- Dvornik , intelligence Services , p. 182 .

العملية فى قبضة السلاجقة لكن هؤلاء لم يكونوا قد وضعوا فى خطتهم حتى الآن، فكرة القفز على القسطنطينية ، بل كانوا مشغولين بإقامة إمبراطورية إسلامية فى ظل السيادة العباسية، ولم تأت الخطوة التالية بالاتجاه نحو الغرب إلا على عهد سلطانهم الأشهر ملكشاه ووزيره نظام الملك. أما النورمان فقد داعبتهم الآمال تحت زعامة عائلة هوتفيل Hauteville ممثلة فى روبرت جويسكارد Robert Guiscard وبوهيمند Bohemund من بعد ، حول إمكانية إقامة إمبراطورية نورمانية عاصمتها القسطنطينية ، ولم يذهب هذا التفكير من مخيلتهم حتى قيام الحروب الصليبية. لذا لم يتردد البيزنطيون لحظة فى مهادنة السلاجقة ، وتوجيه قواهم كلها للتصدى للخطر النورمانى ، مستعينين فى هذا المجال بقوات سلوجقية(٨٦).

ولو حاولنا أن نسير مع قسطنطين السابع فى عرض نماذج معينة لما تضمنه كتابه حول هذه القاعدة القاضية بعدم الحرب على جبهتين فى وقت واحد ، لاحتاج الأمر إلى الكثير من الصفحات . فقد عرض لكثير من جوانب السياسة البيزنطية فى هذا السبيل، وبوجه خاص فى المنطقة الواقعة إلى الشمال من الحدود البيزنطية ، والتى كانت تشكل بؤرة اهتمام القسطنطينية فى القرن العاشر (٨٧).

والآن .. وقبل أن نطوى الصفحة الأخيرة من صفحات قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، لايمكننا أن نغض الطرف عن أحد أسلحتها الفعالة، والتى لم يكن دورها يقل أهمية وبعد أثر عن الجوانب الأخرى التى تناولناها ، بل ربما فاق بعضها أحيانا ، نعنى بذلك التبشير بالمسيحية بين هذه الشعوب المجاورة ، خاصة وأن القسطنطينية كانت تعتبر نفسها درع الأرثوذكسية ، وقلعة المسيحية الشرقية ، وآمن الأباطرة أن واجبهم ، باعتبارهم نواب المسيح على الأرض، يحتم عليهم نشر العقيدة المسيحية بين القبائل الوثنية المحيطة بالإمبراطورية. لهذا لقيت كنيسة القسطنطينية التأييد الكامل ، بل والحث من جانب الأباطرة فى هذا السبيل؛ فقد كان امتداد النفوذ الروحى لكنيسة القسطنطينية فى منطقة ما ، يستتبع بالضرورة امتداد سلطان الدولة السياسى إلى هذه المنطقة .

٨٦- راجع تفصيلات ذلك فى Haskins , The Normans in European History, New York 1966.

٨٧- إلى جانب كتاب De Adminstrando Imperio راجع أيضا :

Obolensky , The Byzantine Commonwelth, pp. 69-236 .

لقد سارت عملية التبشير جنبا إلى جانب الغزو ، فالكاهن المسيحى كان يمهد الطريق تماماً لرجل السياسة ، حيث يسبقه إلى أراضى «البرابرة» ليعرض على الناس هناك ديانته، ويسعى بصفة خاصة إلى جذب النساء أولا ، حيث كان يستهويهن غموض العقيدة الجديدة ، ويصبح من السهل بعد ذلك التأثير على الرجال من ذوى العقول البسيطة[٨٨] ، ولقد ضربنا على ذلك مثالا بمبعوثى فلاديمير الروسى وما قالوه عن القسطنطينية وكنائسها بين يدى زعيمهم. وقد شابههم فى ذلك القوط والقفجاق ، والكروات والصرب والمورافيون والبلغار ، وغيرهم كثير. ولم يأخذ هؤلاء عن البيزنطيين دينهم فحسب، بل عالما كاملا من الأفكار والمشاعر والعادات ومظاهر الحضارة بصفة عامة[٨٩].

لقد كانت السياسة التبشيرية التى مارستها الإمبراطورية البيزنطية بصورة لاتعرف الكلل ، تدور فى إطار «العالمية» Oikoumene التى يرتكز عليها الفكر الرومانى ، فالبيزنطيون يعتقدون أن التنظيم السياسى للعالم، إن هو إلا جزء من الغاية العالمية لله، ويرتبط أساسا بفكرة «الخلاص» الإنسانى، ومن ثم فإن «عالمية» الإمبراطورية الرومانية ، مهدت الطريق فى ظل العناية الإلهية أمام انتصار العقيدة المسيحية على الوثنية. وعليه غدت مهمة الرومان ، حمل لواء الخدمة من أجل المسيح ، والتبشير بالإنجيل بين كل شعوب الأرض[٩٠]، فلاغرابة إذن أن يصبح مفهوم «السلام الرومانى» Pax Romana يعادل «السلام المسيحى» Pax Christiana وأن تتواكب اهتمامات الإمبراطورية مع تعزيز الإيمان المسيحى [٩١]. وبناء على ذلك كان للإمبراطور البيزنطى السيادة الكاملة على كل الشعوب المسيحية بوصفه - كما قدمنا- نائب المسيح على الأرض. لقد ظل هذا المفهوم حيا فى الإمبراطورية حتى أيامها الأخيرة: ففى القرن الرابع عشر أبدى أسقف القسطنطينية شجبه الكامل لما فعله دوق موسكو من الإقدام على حذف اسم الإمبراطور من سجلات الكنيسة الروسية، إذ كتب الأسقف إليه يذكره بالالتزامات الواجبة عليه تجاه الإمبراطور العالمى، ويوضح له بما لايدع مجالا للشك ،

٨٨- Diehl , Byzantium, p. 59 .

٨٩- Bury , history of the Lat . Rom. Emp . II , p. 292 وأيضا Id .

٩٠- Obolensky , Byzantine diplomacy , p. 55 .

٩١- Id .

امتداد سلطان الإمبراطور البيزنطى على روسيا ، قائلا «أى بنى .. لقد تم تتويج ملك الملوك Basileus و «الحاكم المطلق » Autokrator للرومان ، ليرعى المسيحيين جميعا [٩٢]. ولذلك فإن هذا التمرد من جانب الدوق الروسى ضد القاعدة الأساسية «للعالمية» Oikoumene كانت مجرد استثناء لا أكثر ، إذ سرعان ما كتب إبنه وخليفته، باسل ، إلى الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر، آخر أباطرة بيزنطة قائلا : «لقد تسلمت سلطانك الإمبراطورى العظيم.. لإقرار المسيحية الأرثوذكسية فى مملكتك ، ولتقدم العون كل العون لنا دنيا ودينا »[٩٣].

ويكفى أن نرتد على آثارنا قصصا، عبر ألف ومائة من السنين ، هى الفاصلة بين قسطنطين الأول وسميه الحادى عشر هذا ، لندرك أن هذا المفهوم عن سلطان الإمبراطور «نائب المسيح» Vicarius Christi و «عالمية» الإمبراطورية التى ظلت قائمة حتى القرن الخامس عشر، كانت واضحة منذ البداية فى القرن الرابع ، تمثلها هذه العبارات التى وردت فى رسائل قسطنطين الأول، رغم الشكوك حول مسيحيته ، والتى جاء فيها : «لقد كنت عدة الرب التى اختارها وقدر صلاحها لإنفاذ مشيئته ، وعليه .. فإنه ابتداء من المحيط البريطانى البعيد، والأقاليم التى وفقا لقانون الطبيعة ، تستتر الشمس فيها بالأفق ، وعدد إلهى ، أقصيت تماما وأزلت كل صنوف للشر سادت ، آملا ، وأداتيتى للرب تنير خطوى، أن يرعى البشر ناموس الإله المقدس ، ويزدهر بهدى يديه المقتدرتين معتقدنا الطوباى[٩٤] » ويضيف « ... بفضل جهدى، ولأنى لله نعم الخادم، آمن البرابرة بعبادة الرب، وما ذلك إلا لأنهم أيقنوا أنه حافظى وحامينى فى كل خطو ودرب ، ولأنهم من خشيتنا أدخلوا إلى المعرفة الحقة للإله الذى هم الآن بعبادته قائمون »[٩٥].

وقد ساعد على نجاح السياسة البيزنطية فى مهمتها التبشيرية ، وبالتالى امتداد نفوذ الإمبراطورية إلى مناطق جديدة ، أن منطقة البلقان كانت تشهد بصفة مستمرة ، موجات إثر موجات من الشعوب الوثنية التى تتابعت على المنطقة ابتداء بالعناصر الجرمانية منذ القرن

٩٢- Ibid. 54 .

٩٣- Id .

٩٤- EUSEB . Vita Constantini , III 57 .

٩٥- Ibid . IV 9-13 .

الرابع الميلادى ، وانتهاء بالقبائل التركية ، والصقلبية فى القرون من الثامن إلى العاشر . وكان فتح المسلمين للولايات البيزنطية فى الشرق ، سوريا ومصر وأفريقية ، عاملا هاما جداً فى تخلص الإمبراطورية - كارهة- من المناطق التى كانت بؤرة الخلافات العقيدية مع القسطنطينية . ثم جاء عدم تمكن المسلمين من إسقاط القسطنطينية خلال الحصار الذى فرضوه عليها سنة ٧١٧ للميلاد ، نجاحا كبيرا للسياسة التبشيرية البيزنطية فى منطقة البلقان، التى كانت تموج آنذاك بالشعوب الوثنية، التى تحولت تباعا إلى المسيحية الأرثوذكسية على يد المبشرين البيزنطيين . ولاشك أن الخسارة التى منى بها المسلمون أمام القسطنطينية الآن، تفوق بكثير هزيمتهم بعد ذلك بسنوات قلائل فى أقصى الغرب على يد شارل مارتل Charles Martel فى موقعة بلاط الشهداء (تور - بواتييه) ، إذ لو تمكن المسلمون من فتح القسطنطينية آنذاك ، لوجدوا تربة خصبة للدعوة للإسلام فى منطقة البلقان ، على العكس من فرنسا فى الغرب ومن ورائها إيطاليا . كما أن الإمبراطورية سرعان ما اجتازت أزمة الحروب الأيقونية التى شغلت معظم عهود أباطرة الأسرتين الأيزورية والعمورية ، لتنطلق بعد ذلك بكامل طاقاتها للتبشير بالمسيحية فى منطقة البلقان ، التى أمست من بعد عن طريق العقيدة ، داخلة ضمن «عالمية» الإمبراطورية ، أو الدوران فى فلك نفوذها .

وتجلت خطورة الدبلوماسية البيزنطية فى هذه الناحية ، باستخدامها تلك المسألة العقيدية سلاحا رفعته القسطنطينية فى وجه كنيسة روما، التى حاولت أن تجد لها مكانا ولعقيدتها الكاثوليكية موطئ قدم فى تلك المنطقة . وبلغ الصراع بين الكنيسة الكاثوليكية فى روما ، والكنيسة الأرثوذكسية فى القسطنطينية ، يساندها الأباطرة ، حدا بعيدا أضاف إلى الرصيد العدائى بينهما بعدا جديدا ، حتى لقد وصل الأمر عند كل منهما إلى حد تقديم تنازلات على حساب العقيدة أحيانا ، والقوانين الكنسية أحيانا أخرى، لاسترضاء هذه الشعوب . لكن الجولة الأخيرة فى هذا الاصطراع كانت لصالح القسطنطينية [٩٦]. وليس أدل على ذلك من أنه خلال السنوات الأخيرة من عمر الإمبراطورية ، وفى القرن الرابع عشر ، عندما خارت قواها ، وغلبها على أمرها أعداؤها ، خاصة السلطنة العثمانية الناشئة، راح بعض من أباطرتها مثل يوحنا الخامس باليولوجوس ومن بعده إبنه مانويل ، يتوجهون تلقاء الغرب وروما يطلبون العون

٩٦- يمكن الوقوف على تفصيلات هذه الأمور فى :

Ware , The Orthodox Church , Penguin book , 1967 .

العسكرى . وكان الثمن فادحا ، يتمثل فى تخليهم عن الأرثوذكسية ، العقيدة التقليدية للإمبراطورية ، وجوهر «العالمية» المسيحية لبيزنطة، وتحولهم إلى الكاثوليكية . رغم أن الغرب لم يقدم شيئا مطلقا سوى التمنيات الطيبة !! فى هذه الظروف الحالكة وقفت الكنائس البلقانية التى تدين بالأرثوذكسية ، لترفض اتجاه الأباطرة هذا وتعلن تمسكها بعقيدتها التقليدية ، محافظة على التقليد الإمبراطورى الجوهرى. وعندما سقطت القسطنطينية عام ١٤٥٣ على يد محمد الفاتح العثمانى ، بدا لأعين الممالك الصلقبية ، أن المسئوليات الإمبراطورية الرومانية والمسيحية قد ألقيت إليها ، وتزوجت صوفيا Sophia إحدى أميرات أسرة باليولوجوس من إيفان Ivan الموسكوفى !!

والآن .. يبدو أن علامة الاستفهام الكبيرة التى كانت تطرح نفسها فى أول الحديث، قد وجدت لها الآن إجابة مقنعة : فالدبلوماسية البيزنطية كانت تشكل بلاريب ، القوة الرئيسية إلى جانب الجيش فى الحفاظ على سلامة الإمبراطورية طيلة هذه القرون . وكان تنوع أساليبها بين الزواج السياسى والإغداق بالمنح والهدايا والألقاب والثياب والأموال، واستقبال الوفود واستضافة أبناء الحكام الأجانب فى البلاط ، واستخدام الوقيعة بين القبائل ، وإقامة الدول الحاجزة على الحدود الطويلة للإمبراطورية ، والتبشير بالمسيحية بين الشعوب الوثنية ، دليلا عمليا على قدرة صانعى السياسة البيزنطية على التمكين للإمبراطورية عبر ألف ومائة من السنين . ومع الحفاظ على قواعد الدبلوماسية فى جوهرها ، إلا أن المرونة كانت أهم سماتها. وإذا كان الجيش هو الذراع القوية للإمبراطورية البيزنطية، فلاشك أن الدبلوماسية كانت ذراعها الطويلة !



الفصل الرابع

الصراع الدولى حول شبه الجزيرة العربية
فى القرن السادس الميلادى



مكتبة المهتدين الإسلامية - http://kotob.has.it

الصراع الدولي حول شبه الجزيرة العربية
في القرن السادس الميلادي

على مشارف النهاية ، للربع الأول من القرن السادس الميلادي، حملت صفحة الماء ، عند الطرف الجنوبي للبحر الأحمر ، أسطولا ضخما من السفن الحربية ، كان يقل جيشا من الأحباش، وجهته بلاد العرب السعيدة.. اليمن Arabia Felix .. ما لبث أن ألقى عند ميناء «مخا» Mokha مراسيه ، ليندفع جنوده إلى اليابسة يصطدمون بقوات الملك الحميري ، «ذي نواس» الذي سرعان ما حلت به وبجيشه الهزيمة ، عندها آثر أن يبتلعه اليم على أن يساق أسيرا في موكب نصر الأحباش ، إذ ساق جواده وألقى بنفسه في البحر ، ليخط بذلك الصفحة الأخيرة في ملك الحميريين ، وليقول في رثائه «علقمة بن ذي جدن» :

أو ما سمعت بقَيْل حمير يوسف　　أكل الثعالف[1] لحمه لم يقبر

ورأى بأن المـوت خيـر عنـده　　من أن يدين لأسود أو أحمر

ولتمسى اليمن بذلك تابعة لمملكة أكسوم Auxuma ، وإن كان ذلك إلى حين ، حين يستقل بها - ذاتيا- أبرهه Abramos «الأشرم» ويقيم على أرضها مملكة حبشية ، حاملا لقب «ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت واليمن وتوابعها وتهامة» .

وتتفق المصادر التاريخية العربية[2] وتظاهرها كتب التفاسير[3] على أن هذا الغزو الحبشي لليمن ، إنما كان نتيجة طبيعية للاضطهاد الديني الذي أنزله «ذو نواس» ، وكان قد تهود ،

١- الثعالف : الحيتان ، راجع محمد الأكوع الحوالي، اليمن الخضراء ص٤٠٣ .

٢- ابن هشام : السيرة ، جـ١ ص٢٨ -٣٠ ؛ التيجان في ملوك حمير، ص٣١٢ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم والملوك جـ٢ ص١٠٥-١٠٦ ؛ ابن قتيبة ، المعارف ص٦٣٧ ؛ اليعقوبي، تاريخ جـ١ ص١٩٩ ؛ المسعودي، مروج الذهب جـ٢ ص٧٧-٧٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ جـ١ ص٢٥٣ ؛ البلخي ، البدء والتاريخ جـ٣ ص١٨٤ ؛ ياقوت ، معجم البلدان جـ٧ ص٢٦٢ .

٣- جاء في القرآن الكريم قول الله تعالى: «قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها =

بالمسيحيين فى مملكته ، خاصة منطقة نجران ، محاولا قهرهم على هجران دينهم والتحول عنه إلى اليهودية . وتقرن هذه المصادر كلها تلك الأحداث بما ورد فى القرآن الكريم عن أصحاب الأخدود. ولاتبتعد بعض المصادر البيزنطية والسريانية المعاصرة[٤] كثيرا عما أورده المؤرخون والمفسرون المسلمون .

ورغم ما يقدمه المفسرون من روايات كثيرة وآراء متعددة حول قصة أصحاب الأخدود ، إلا أنهم يتفقون على أن «أخدود» ذى نواس كان واحداً بين هذه الأخاديد ، وأنه المعنى بقصص القرآن الكريم عن تلك الواقعة ، التى أثارت نوعا من الخلاف فى الرأى بين ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ، حول «يهودية» ذى نواس أو «وثنيته» . ويرى نفر من هؤلاء وأولئك فيه وثنيا ، مستندين فى ذلك إلى النص القرآنى فى قوله تعالى : «.. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السماوات والأرض ، والله على كل شئ شهيد»[٥]. . وعليه يبدى ياقوت الحموى دهشته من نسب حادث الأخدود إلى ذى نواس «اليهودى» ، لأن ذلك يقضى - فى رأيه- أن يكون القاتل والمقتول من أهل التوحد ، والله قد ذم المحرق والقاتل لأصحاب الأخدود [٦]. وعلى نهجه ينسج محدثون قولهم إن ذا نواس دعا أهل نجران المسيحيين للرجوع إلى الوثنية لا إلى اليهودية ، لأن المسيحية واليهودية المعاصرتين لنزول القرآن ، كانتا- حسب تعبيره- ديانتين سماويتين لا مجال لتفضيل إحداهما على الأخرى[٧] ،

= قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السماوات والأرض والله على كل شئ شهيد . إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق». (البروج ٤-١٠) . وانظر : الطبرى : جامع البيان جـ٣ ص١٣٢-١٣٥ ؛ الفخر الرازى، التفسير الكبير جـ٣١ ص١١٨-١٢٢ ؛ القرطبى ، الجامع لأحكام القرآن ، جـ٢٠ ص ٢٨٦-٢٩٣ ؛ النسفى ، مدارك التنزيل جـ٣ ص٦٧٣-٦٧٤ ؛ ابن كثير، جـ٤ ص٣٦٥-٣٦٦ ؛ الألوسى، روح المعانى جـ٣٠ ص٨٨-٩٠ .

٤- ZACH. MET. Chron . pp. 190-200 ; PROCOP. Bell . Pers . I, 189 The Book of Himyarites , p. cv .

٥- سورة البروج : الآيات ٨-١٠ .

٦- معجم البلدان جـ٧ ص٢٦٢ .

٧- عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص٧٤ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص١٢٧ .

أو لأن ذا نواس - عند ثان - خشى عاقبة الاتصالات التى كانت قائمة بين المسيحيين فى مملكته ومملكة أكسوم على الجانب الآخر للبحر الأحمر [٨].

غير أن هذا النص القرآنى الذى اتخذه هؤلاء دليلا للحكم بوثنية الملك الحميرى، لو أخذ فى ضوء النصوص القرآنية الأخرى، وليس منفصلا عنها، عد دليلا أوضح بيانا على «يهودية» ذى نواس ، نعنى بذلك قول الله سبحانه وتعالى : «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، اليهود والذين أشركوا »[٩] والإتيان باليهود قبل المشركين فى الآية ، له دلالته ومغزاه، وقوله تعالى أيضا، «وقالت اليهود ليست النصارى على شئ ، وقالت النصارى ليست اليهود على شئ ، وهم يتلون الكتاب »[١٠]، ثم ما جاء على لسان اليهود، «... قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل »[١١]، ولما كان المسيحيون غير اليهود خارجين عن نطاق اليهودية عقيدة ، فهم يندرجون ضمن الأميين أو الأمميين حسب تعبير التوراة ، وذلك فى عرف اليهود. وقد لمس القرطبى ذلك فى «الجامع» بتأكيد القول على يهودية ذى نواس ، عند تفسيره لسورة البروج ، فى قوله : «فخدّ لهم أخدودا وعرضهم على الكفر (يعنى الكفر بديانتهم واعتناق اليهودية) فمن أبى أن يكفر قذفه فى النار » [١٢]. وكان هذا بعينه الاعتراف الذى ورد فى الرسالة ، التى تذكرها المصادر التاريخية منسوبة إلى ذى نواس ، والتى بعث بها إلى المنذر الثالث ملك الحيرة ، حيث قال : «كان أول عمل أقدمتُ عليه بعد أن غدوت ملكا على حمير ، هو ذبح المسيحيين جميعهم ، إلا من رأى أن يتحول إلى اليهودية مثلنا ... لقد طلبت منهم أن يكفروا بالمسيح والصليب ويصبحوا يهوداً ، لكنهم أصروا على عقيدتهم» .

ويؤيد ذلك تماما ما جاء فى مخطوطة «استشهاد الحارث» أحد كبار رجال الدين المسيحيين الذين ماتوا فى هذه الأحداث ، وهى تعود إلى القرن السادس الميلادى، أى أنها معاصرة لتلك الوقائع ، وإن كان لايُعرف مؤلفها على وجه التحديد ، وقد جاء فيها ما نصه : «... وكان

٨- جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام جـ٣ ص١٧٩ .

٩- سورة المائدة : آية ٨٢ .

١٠- سورة البقرة : آية ١١٣ .

١١- سورة آل عمران : آية ٧٥ .

١٢- القرطبى : الجامع جـ٢٠ ص٢٨٦ - ٢٩٣ .

المنادى ينادى بلغته ويقول اكفروا بالذى يقال له المسيح الناصرى وتهودوا وكونوا على دين الملك (ذى نواس) لكيما تحيون (هكذا) ويضيف فى موضع آخر قوله «... وكان الملك الملعون يقول لهم لاتصلون وتبتغون الذى يقال له المسيح الذى ضربه آباؤنا بالعصى وصلبوه وقتلوه، لكن أطيعونى وتهودوا فتعيشون مع بنيكم ، وإن لم تطيعونى فستموتون موتا »[١٣].

ولم يكن ذو نواس[١٤] أول من تهود من ملوك حمير ، وإن كان آخرهم ؛ ذلك أن المنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة العربية ، كانت قد أضحت أحد المراكز الهامة لليهودية خلال القرون الأولى للميلاد[١٥]، إذ وجد اليهود فيها ملجأ لهم وملاذا ، بعيدا عن أيدى الرومان ، عقب الأحداث التى وقعت على عهد كل من الإمبراطورين فسباسيان Vispasianus إبان القرن الأول للميلاد ، وهادريان Hadrianus فى القرن التالى ، فى أعقاب ثورتهم التى أشعلوها ضد الحكومة الرومانية ، وامتدت من برقة إلى فلسطين . ومن ثم وجد اليهود فى جنوب الجزيرة العربية وغربها مهربا بعد تدمير الهيكل، وراح نفوذهم يزداد تدريجيا خاصة خلال الربع الأخير من القرن الرابع ومطلع القرن الخامس ، عندما تحول بعض من ملوك حمير آنذاك إلى اليهودية [١٦].

ويحاول بعض المؤرخين[١٧] أن يضفى على «يهودية» ذى نواس طابعا سياسيا ، بمعنى أنه فى مواجهة القوى الدولية الكبرى آنئذ ، الإمبراطورية البيزنطية ومملكة أكسوم بعقيدتهما

١٣- ZACH. Chron. p. 193 وقارن ، كوبشيانوف ، الشمال الشرقى الأفريقى فى العصور الوسطى المبكرة وعلاقته بالجزيرة العربية ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، ص٤٧-٤٨ . وقد أورد كوبشيانوف نص هذه المخطوطة ملحقا فى كتابه سالف الذكر ، ص٤٠٣-٤٢٦ .

١٤- تذكره النصوص البيزنطية باسم «دميانوس» Dimianus و «ديمنوس» Dimnus ، بينما يرد ذكره عند الأحباش باسم «فنحاص» Phinhas وفى المصادر السريانية باسم «مسروق» Masruk وإن كان هو نفسه قد تسمى بيوسف عند تهوده .

١٥- Shahid , Byzantium in South Arabia, p. 31 .

١٦- فيليب حتى : تاريخ العرب ص٩٥-٩٦ ؛ موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ، ترجمة السيد يعقوب بكر ص١٩٣ ، وراجع أيضا : Sharf, Byzantine Jewry , p. 31 .

١٧- Trimingham, Christianity among the Arabs in pre-Islamic times, p. 289 .

وراجع أيضا Sellassie , Ancient and Medieval Ethiopian history , pp. 126-127 .

المسيحية ، وامبراطورية الساسانيين الفرس بوثنيتها ، أقدم ملك حمير على التحول إلى اليهودية ، ليقف بها قوة ثالثة بين هؤلاء وأولئك . غير أن هذا المنحى يحمل كثيرا من المبالغة، وإذا كان قد صدق من بعد على إمبراطورية الخزر Khazar فى القرن الثامن الميلادى، عندما تحول ملكها وشعبه إلى اليهودية ، ليتخلص من الصراع السياسى العنيف الدائر حول مملكته بين الخلافة الإسلامية فى بغداد ، والإمبراطورية المسيحية فى القسطنطينية [١٨]، فإنه من الصعب قبول ذلك فى حالة ذى نواس؛ فالخزر كانوا يومئذ قوة سياسية كبرى يحسب فى لعبة الأمم حسابها ، أما اليهود فى اليمن فلم تكن أعدادهم ولاقوتهم ولامكاناتهم تسمح لهم بالقيام بمثل هذا الدور، أو إنشاء «دولة يهودية»، على حد تعبير بعض المؤرخين المحدثين[١٩] ، إذ كان إلى جوارهم المسيحيون ، خاصة فى ظفار ، عاصمة الحميريين ، ونجران ، المركز التجارى الهام فى طريق القوافل إلى الشمال ، بالإضافة طبعا إلى الأغلبية الوثنية التى كانت لها السيادة طيلة القرن الأخير على الأقل ، وذو نواس نفسه كان وثنيا قبل أن يتحول إلى دين يهود ، ومن غير المعقول ، أن يتمكن خلال سنى حكمه القصيرة، حوالى عشر سنوات (٥١٥-٥٢٥) من إقامة «دولة يهودية» من حطام مملكة حمير التى كانت تعانى أوجاع الفوضى السياسية والاضطراب الاقتصادى والصراع العقائدى خلال أيامها الأخيرة ، وإن كان

١٨- هناك أحداث شبيهة بذلك إلى حد كبير وقعت فى القرن الثامن الميلادى، عندما تحولت دولة الخزر ، الواقعة بين بحر قزوين (الخزر) والبحر الأسود شرقا وغربا ، والفولجا والقوقاز شمالا وجنوبا ، إلى اليهودية ، لتتصدى لمحاولات القوتين السياسيتين الكبيرتين آنذاك ، الدولة الإسلامية ممثلة فى الخلافة العباسية ، والإمبراطورية البيزنطية المسيحية، ويقول «كوستلر» فى كتابه The Khazar Empire and its heritage : «كانت إمبراطورية الخزر تمثل قوة ثالثة أثبتت أنها ند لكل منهما، سواء باعتبارها خصما أو حليفا ، ولكنها كانت تستطيع الاحتفاظ باستقلالها فقط عندما ترفض اعتناق المسيحية أو الإسلام ، لأن كلا من الخيارين كان سيؤدى بها تلقائيا إلى الانضواء تحت سلطة الإمبراطور الرومانى أو خليفة بغداد »، راجع ص٧٢ من الترجمة العربية لكتاب «كوستلر» التى قام بها حمدى متولى صالح، دمشق ١٩٨٥ . ويقول «بيورى» Bury فى كتابه Eastern Roman Empire, p. 406 : «ليس ثمة شك فى أن الحاكم الخزرى كان متأثرا بدوافع سياسية حينما اعتنق اليهودية ، ذلك أن اعتناق الاسلام كان سيجعل منه تابعا روحيا للخلفاء الذين حاولوا أن ينشروا عقيدتهم بين الخزر ، كما أن اعتناق المسيحية كان يكتنفه خطر الخضوع للكنيسة الأرثوذكسية» .

١٩- Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 289 .

وأيضا Sharf , Byzantine Jewry, p. 32 .

اليهود بالطبع قد وجدوا فى «تهود» ذى نواس فرصة يقفزون عبرها إلى دست السلطة ، منتهزين فرصة هذه الحال المتردية التى تعيشها حمير فى مرضها الأخير .

ولاشك أن ذا نواس نفسه كان يدرك أنه بحاجة إلى التأييد الخارجى لسياسته ، خاصة بعد أن راح يمارس سياسة الاضطهاد ضد المسيحيين فى مملكته ، يدلنا على ذلك رسالته التى أشرنا إليها من قبل، والتى بعث بها إلى المنذر الثالث ، يقص فيها على مسامعه أنباء ما حل بالمسيحيين على يديه، ويطلب إليه فى الوقت نفسه أن يحذو حذوه، وأن يترفق فى معاملة يهود الحيرة ، ثم يعلن فى النهاية استعداده لتلبية كل ما يطلب إليه لصالح المنذر . وتضيف مخطوطة «استشهاد الحارث» أن ذا نواس وعد ملك الحيرة بأن يبعث إليه بثلاثة آلاف دينار لقاء تأييده فى خطوته هذه التى أقدم عليها ، كما كتب أيضا إلى ملك فارس يخبره بما جرى «ويسأله أن يفعل هو بدوره مثل ذلك فى المسيحيين عنده»[٢٠].

ورغم أن الرسالة تحمل فى كلماتها مظاهر الاعتداد بالنفس ، والتباهى بما أوقعه الملك الحميرى برعيته المسيحية ، ورغم ما يكون قد داخلها من عبارات تحمل طابع المبالغة ، مما قد يوحى بأنها مضافة إلى نصها الأصلى، ولم تصدر عن ذى نواس ، إلا أنها فى الوقت ذاته تنبئ فى سطورها الأخيرة عن رغبته فى أن يقف المنذر إلى جانبه، مخافة ما لابد أن يترتب على هذه الأحداث ، خاصة وأنه يذكر فى رسالته هذه، أن عددا من الأحباش المقيمين على أرضه قد نالتهم يد العذاب [٢١]. ويؤكد ذلك ما أورده عن هذا الأمر أيضا ، المؤرخ البيزنطى المعاصر بروكوبيوس Procopius القيسارى [٢٢]. فإذا أضفنا إلى هذا كله ما تذكره بعض

٢٠- ZACH . Chron. p. 197 وأيضا مخطوطة «استشهاد الحادث» فى كتاب كويشيانوف، ص٣٩٧ .

٢١- راجع نص الرسالة فى ZACH . Chron. pp. 193-197 والمعروف أن هذه الرسالة التى يوردها المؤرخ الكنسى زكريا المتلينى ، نقلا عما كتبه الأسقف سمعان ، راعى المسيحيين فى فارس إلى سميه كاهن كنيسة كابولا Cabbula وقد تضمنت مواقف المسيحيين فى ظفار ونجران من يهودية ذى نواس ومحاولته صرف هؤلاء عن عقيدتهم ، وذكرت الكثير عن «البطولات» التى قدمها النساء تضامنا مع أزواجهن، مما يضع أمام الباحث كثيرا من علامات الاستفهام فى صحة نسب هذا الجزء من الرسالة إلى ذى نواس ، الذى لايعقل أن يذكر بـ «الاعجاب» موقف المسيحيين من فعاله .

٢٢- Bell . Pers. I, p. 189 .

المصادر البيزنطية والسريانية[٢٣] عن تعرض جماعات من التجار الرومان العابرين للقتل ضمن جملة المسيحيين فى ظفار ونجران ، أدركنا خطورة موقف ذى نواس ، والمغزى الحقيقى من وراء رسالته إلى ملك الحيرة .

وإذا كان المنذر الثالث قد أبدى شيئا من التعاطف إزاء رغبات الملك الحميرى، والذى ربما يعزى إلى ما يذكره ابن العبرى من انتماء ذى نواس فى نسبه لأمه ، التى كانت على اليهودية، إلى أهل الحيرة [٢٤]، إلا أنه كان تعاطفا سلبيا وقف فقط عند حد الأمنيات الطيبة، دون التعاون الفعلى الذى كان يؤمله ذو نواس من خلال هذه المراسلات ، خاصة وهو يعلم علم اليقين ، مدى العلاقة التى تربط مملكة الحيرة بالإمبراطورية الفارسية. ولعله كان يقصد بذلك أن يضمن وقوف إحدى القوى الكبرى فى عصره إلى جواره، ولما كان الفرس بطبيعة الحال غير متحمسين ، عقيديا وسياسيا، لنصرة المسيحية ، فقد أمل أن يتحقق له هذا العون فى إطار استغلال ظروف الصراع السياسى الدائر يومذاك بين فارس وبيزنطة .

ومع أننا لانميل إلى الأخذ بما يذهب إليه بعض الباحثين ، من أن اضطهاد ذى نواس للمسيحيين فى دولته ، بما فيهم الأحباش والتجار الرومان، كان متفقا عليه من قبل مع اللخميين فى الحيرة ومن ورائهم الفرس [٢٥]، معتمدين فى ذلك على الرسالة السابق ذكرها ، لأنه لو صح هذا الافتراض ، لامتد هذا الاضطهاد ليشمل مسيحيى الحيرة أيضا ، ولوجدت فعال ذى نواس ترحيبا من المنذر الثالث، لكن شيئا من هذا لم يحدث، نقول مع كل ذلك، إلا أن الذى لاشك فيه ، أن ذا نواس كان على علم كامل بمسألة الصراع الدولى الدائر آنذاك بين القوتين الكبيرتين ، والتى كانت شبه الجزيرة العربية إحدى محطاته ، بما تمثله من أهمية اقتصادية ، وبالتالى سياسية تتجسد فى كونها تضم أهم طرق التجارة الرئيسية بين الشرق والغرب فى العصور القديمة وطوال العصور الوسطى .

٢٣- MALALAS, Chron. p. 432 .

وأيضا MICH . SYR. Chron . p. 183 .

٢٤- ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص٨٧ ، وراجع أيضا كوبشيانوف ، الشمال الشرقى الأفريقى، ص٤٦ .

٢٥- منذر عبد الكريم ، العرب قبل الإسلام ص٣٦٢-٣٦٣ .

وهذه النقطة الأخيرة تضيف بعدا جديدا لمسألة الاضطهاد الذى مارسه ذو نواس ضد المسيحيين فى مملكته ، مشركا معهم فى وطأته التجار الرومان والأحباش ؛ فمما لاريب فيه أن يكون ازدياد نفوذ هؤلاء التجار ، العابرين والمقيمين ، قد أثار حفيظته ، إذ رأى ما يجنيه أولئك من ثروات طائلة من جراء ممارستهم أو سيطرتهم على طريق التجارة الرئيسى عبر جنوب الجزيرة العربية والبحر الأحمر إلى شمالها وحتى البحر المتوسط إنتهاءاً ببلاد الشام أو مصر فى طريقه إلى الأراضى البيزنطية، ولابد أن يكون قد رأى أيضا فى المسيحيين فى ظفار ونجران أعوانا لهؤلاء الرومان والأحباش فى هذا السبيل ، ولذا راح يمارس سياسته والأمل يحدوه فى أن يتحول هذا الثراء لبنى عقيدته من اليهود ، إذا ما حل تجارهم محل أولئك الأجانب «المسيحيين» ولعبوا دورهم فى حركة التجارة النشطة بين مناطق المواد الخام والتوابل والبخور والحرير فى شرق آسيا وجنوبها الشرقى وشرق أفريقيا ، وأسواق الاستهلاك فى الإمبراطورية البيزنطية وما وراءها. ومن ثم فإن سياسة الملك الحميرى تجاه المسيحيين ، إذا كانت لاتخلو من نغمة التعصب الدينى ، إلا أنها فى الوقت نفسه تنطوى على أهداف اقتصادية بعيدة . وإن كان أحد الباحثين أيضا يفسر هذه السياسة بأنها مجرد إجراء انتقامى للمعاملة السيئة التى يلقاها اليهود من الإدارة الرومانية [٢٦].

وكان طبيعيا وقد اتجه ذو نواس ببصره إلى خارج دولته، ليضمن إلى جواره ملك الحيرة، ومن ورائه قوة الفرس إذا حزب الأمر، أن يولى المسيحيون هم الآخرون وجوههم شطر قوة دولية أخرى يدينون بدينها وهى الإمبراطورية البيزنطية ، وهنا تختلف الروايات فى المصادر الإسلامية مرة أخرى حول الوجهة التى اتخذ «دوس ذو ثعلبان» - الذى لجا من من الاضطهاد - إليها سبيلا : فبعضها يقرب به المسافة وصولا إلى كالب Kaleb نجاشى الحبشة [٢٧]، وبعض ثان يوجهه إلى جوستين Iustinus إمبراطور الرومان فى القسطنطينية [٢٨]، وثالث

٢٦- Sharf, Byzantine Jewry, p. 32 وراجع أيضا ، نبيه عاقل : تاريخ العرب القديم ص١٠٤ .

٢٧- ابن هشام : التيجان فى ملوك حمير ص٣١٢ ؛ ابن قتيبة : المعارف ص٦٣٧ ؛ اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى جـ١ ص١٩٩ . ومن المعروف أن كالب هذا هو الاسم الذى ورد فى الكتابات الحبشية ، أما المصادر البيزنطية فتسميه إل أصبحة Elisbahaz .

٢٨- ابن هشام : السيرة جـ١ ص٣١ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ١ ص٢٥٣ .

لاحظ أن ابن هشام يذكر الروايتين فى كتابيه ، التيجان والسيرة .

يورد الروايتين معا [٢٩] ، ورابع يحاول التوفيق ؛ فالأزرقى يذكر أن دوس ذا ثعلبان هذا اتجه إلى «القيصر» مباشرة ، وقص عليه القصص ، فقال له : «بعدت بلادك عنا.. لكن سأكتب إلى ملك الحبشة فإنه على ديننا فينصرك» [٣٠] وتؤيد مخطوطة «استشهاد الحارث» ما يذهب إليه الأزرقى ، حيث تقول إن وفد نجران قدم إلى ملك الروم (وإن كانت تعتبره جوستنيان وليس خاله جوستين) ، وحكى له ما كان ، فاشتد ذلك على الملك وكتب للوقت إلى «تيموثى» بطريرك الاسكندرية كتابا يوعز إليه أن يكتب إلى ملك الحبشة كتابا يحثه فيه على الخروج بجيوشه إلى صاحب سبأ (يعنى ملك حمير) ليهلكه ويهلك جيشه ، ثم كتب أيضا إلى ملك الحبشة» بالمعنى نفسه ، بل زاد على ذلك تهديده بغزو الحبشة نفسها إن لم يفعل ما يأمره به ا!بينما تأخذ رواية البلخى الجانب الآخر، إذ يقول : «وصل صريخ أهل نجران إلى النجاشى ملك الحبشة ، فقال : «عندى رجال وليس عندى سفن ، فكتب إلى قيصر الروم وبعث إليه بالأوراق المحرقة من الانجيل يغريه بذلك» [٣١] وقد لاتعدو هذه الرواية الحقيقة ، فالسفن التى تمتلكها مملكة أكسوم، كانت سفنا تجارية فى معظمها ، ولم تكن أعدادها تسمح بنقل جيش كبير إلى الشاطئ الآسيوى المقابل. ومن ثم تم نقل القوات الحبشية ، على سفن الأسطول البيزنطى التى كانت راسية فى موانى القلزم (السويس) وعيتاب (تيران) والتى تجمعت كلها فى ميناء عدول Adulis التابع للأحباش [٣٢]. والذى يلفت الانتباه هنا أن كاتب مخطوطة «استشهاد الحارث» يخبرنا بعد ورقة واحدة من روايته السابقة عن وفد نجران إلى الامبراطور البيزنطى، أن رجلا من أهل نجران يمت بصلة نسب إلى الحارث ، قد تمكن من الوصول إلى ملك الحبشة ليستنجد به، والمخطوطة هنا تتفق مع ما يقوله المؤرخ الطبرى. ومن

٢٩- الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ٢ ص١٠٦ .

٣٠- الأزرقى : أخبار مكة جـ١ ص١٣٥ .

٣١- البلخى : البدء والتاريخ جـ٣ ص١٨٤ . وراجع أيضا ابن هشام ، التيجان ، ص٣١٢ .

٣٢- Shahid, Byzantium in South Arabia, p . 25 ، وللمزيد من التفاصيل عن وقائع الحرب وخط سير الحملة داخل أراضى اليمن . راجع كويشيانوف . الشمال الشرقى الأفريقى ص٧٢-٨٧ . وأيضا مخطوط «استشهاد الحارث» حيث يقدم وصفا تفصيليا لذلك ، وهو ما اعتمد عليه كويشيانوف فى كتابه ، وكذلك Vasiliev , Justin , p. 367 .

ثم يقول كاتبها إنه عندما وصلت رسل الامبراطور إلى ملك الحبشة وجدته قد استعد بالفعل لأمر الغزوة، ثم تورد لنا الموانئ التى وردت منها السفن التى استخدمها الملك فى هذا الهجوم.

ومهما يكن من أمر ، فالذى يصح لدينا أن كلا من الإمبراطور البيزنطى والملك الحبشى ، قد أحاطا خُبراً بما حدث لأبناء دينهما وجلدتيهما، من اضطهاد على يد ملك حمير. ولم يكن أى منهما بأقل من صاحبه حرصا على أن يمد يديه لنصرة من استنصروه ، ليس فقط بدافع الوازع الدينى ، بل لأن كلا منهما له مصالحه الخاصة فى هذه المنطقة ، والتى تتفق مع بعضها فى غالب الأحيان ، ولم تكن أحداث ظفار ونجران إلا الضوء الأخضر الذى أنار لهما الطريق للعمل سويا من أجل تحقيق هذه المصالح؛ فقد كانت الجهود العسكرية الحبشية البيزنطية عندئذ تمثل حجر الزاوية فى العلاقات بين القوتين فى القرن السادس الميلادى ، وخلال هذه السنوات ظلت أكسوم الحليف الوفى لبيزنطة فى المنطقة الأفرو-عربية ، على حد تعبير أحد الباحثين[٣٣]، وظل الحال على هذا النحو إلى أن تم الغزو الفارسى لليمن فى سبعينيات ذلك القرن .

كانت مملكة أكسوم قد بلغت درجة كبيرة من القوة السياسية والازدهار الاقتصادى، خلال القرن الرابع الميلادى، على عهد ملكها عيزان Aezanes وظلت على هذا القدر من القوة حتى القرن السابع الميلادى. وامتدت سيطرتها شمالا حتى بلاد النوبة [٣٤]. بل إن منطقة جنوب شبه الجزيرة العربية وأجزاء من غربها ، خضعت لمملكة أكسوم خلال فترة قصيرة من القرن الرابع، كما أن الأحباش كانوا قد اشتركوا من قبل فى الحروب الأهلية التى دارت بين سبأ وذى ريدان (حمير) ، وحمل ملوكهم آنذاك الألقاب التى أشرنا فى صدر هذا البحث إلى أن أبرهة حملها من بعد ، «ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت واليمن وتوابعها فى تهامة»[٣٥]. هذا بالإضافة إلى نشاط أكسوم التجارى فى البحر الأحمر والمحيط الهندى عن طريق ميناءى عدول وزيلع ، حيث كانت سفنها تنقل العاج إلى الهند وفارس وحمير وبيزنطة[٣٦]. وإذا كانت

٣٣- Shahid, Byzantium in South Arabia , p. 25 .

٣٤- ممتاز العارف : الأحباش بين مأرب وأكسوم ص٤٣-٤٤ .

٣٥- جواد على : تاريخ العرب جـ٣ ص٤٤٩-٤٥٦ وقارن ، بافقيه. تاريخ اليمن القديم ص١٣٤-١٣٦، ١٥٦- ، ١٧٧-١٧٨ وحاشية رقم ١٩٥ ص٢٣٩ .

٣٦- MALALAS, Chron. pp. 456-459 وأيضا PROCOP. Bell. Pers., I, XIX.

سيلان تمثل مركز التجارة بين الصين والشرق الأدنى فى تلك الأوقات ، وإذا كانت سفن الصينيين تسير غربا حتى سيلان ، فإن التجارة فيما بين سيلان والمناطق الواقعة غربها ، كان يتولى أمرها الفرس والأحباش(٣٧) .

هكذا إذن ، كانت أكسوم ، بسيطرتها على ميناءى عدول وزيلع، تتحكم فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر، الذى كانت الإمبراطورية البيزنطية تمتلك القسم الشمالى منه ، وكان البحر وما يحاذيه على ساحله الشرقى ، يمثل واحداً من أهم الطرق التجارية الرئيسية آنذاك ، وإن لم يكن أهمها على الإطلاق ، حيث كانت التجارة القادمة من الصين وجنوب شرقى آسيا وشرق أفريقيا تتجمع فى عدن ، «المخزن الرومانى» - كما عُرفت (٣٨)، ومن هناك تنقلها السفن الحبشية أو البيزنطية إلى ميناء القلزم، ومنه إلى النيل عبر قناة تم حفرها لتصل بين النيل وخليج القلزم، وهى التى كانت تعرف بقناة تراجان (٣٩)، ثم إلى البحر المتوسط بعد ذلك عن طريق النيل ؛ أو إلى ميناء أيلة على رأس خليج العقبة، إلى دمشق مارا بالبتراء وبُصرى، ومن دمشق إلى الساحل (٤٠).

أضف إلى هذا الطريق البحرى ، طريقا آخر للقوافل يحاذيه ، وهو الذى يمتد من عدن إلى مأرب ثم فى جوف اليمن إلى معين ونجران ، ومنها إلى الطائف ومكة فيثرب ، ثم إلى واحة تيماء مروا بمدائن صالح (الحجر) ثم البتراء أو مُعان من بعد ، حيث تتجه بعض القوافل إلى غزة ومصر، بينما يستمر الجزء الأعظم منها إلى بصرى فدمشق إلى صور على البحر المتوسط،

٣٧- حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ص٩٦ .

٣٨- محمد أحمد حسونة : الجغرافيا التاريخيَة الإسلامية ص١٣ وأيضا: حورانى : العرب والملاحة ص٩٤ .

٣٩- ربما يعود حفر هذه القناة فى أول أمرها إلى الفرعون المصرى القديم نكاو من ملوك الأسرة السادسة والعشرين . وقد أعاد ملك فارس دارا الأول حفرها فى القرن الخامس قبل الميلاد ، ثم قام الإمبراطور الرومانى تراجان بتطهيرها وحفر قسما جديدا من طرفها الغربى ليصلها بالنيل عند بابليون ، حتى يحسن الاتصال بالفرع الكانوبى من دلتا النيل ، كى تسهل حركة الملاحة إلى الأسكندرية . وقد أعيد حفر هذه القناة مرة أخرى على عهد الخليفة عمر بن الخطاب حيث عرفت بخليج أمير المؤمنين .

٤٠- حورانى : العرب والملاحة ، ص٨٦ .

أو يمتد شمالا إلى حمص فأنطاكية [٤١]. وفى دمشق وحمص كان هذا الطريق يلتقى بطريق آخر قادم من الشرق ، يبدأ من الخليج الفارسي ويصعد فى الفرات حيث يتجه غربا إلى المدن السورية ماراً بواحة تدمر . وتربط بين هذين الطريقين سلسلة من طرق القوافل الفرعية ، أهمها الطريق الذى يبدأ من نجران ثم يسير فى وادى الدواسر إلى الجرعا (جره) Gerrha على ساحل الأحساء [٤٢] .

على هذا النحو، ندرك أن البحر الأحمر والخليج الفارسى ، يكملها النيل والفرات ، كانا ممرين طبيعين للملاحة بين حوض البحر المتوسط ودول شرق آسيا وجنوبها الشرقى وشرق أفريقيا ، بالإضافة إلى طريق القوافل الرئيسى الموازى للبحر الأحمر وروافده وتفريعاته . وهذا يعنى أن عرب شبه الجزيرة العربية كانوا يطلون من جانبى جزيرتهم هذه ، على أهم الطرق التجارية الكبرى فى عالم القرن السادس [٤٣].

وقد شكلت اليمن بصفة خاصة أكبر سوق تجارية فى شبه الجزيرة العربية، فكانت تتاجر فى حاصلاتها الإقليمية كاللبان والعطور والطيب والبخور، الذى كانت له أهميته الخاصة فى ذلك العصر[٤٤]، كما كانت تتاجر أيضا فيما يرد إليها من بضائع الخليج والهند والصين مثل اللؤلؤ والمنسوجات والعاج والذهب وريش النعام والحرير ، بالإضافة إلى ما يأتيها من السواحل الشرقية لأفريقيا[٤٥]. وهذا يعنى أنها كانت حلقة الاتصال بين الهند والحبشة وشرق أفريقيا من ناحية ، وشمال أفريقيا وجنوب أوروبا من ناحية أخري، حتى خيل لبعض القدماء أن هناك

٤١- موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ص٣٥٤ حاشية ١٢ .

٤٢- المرجع نفسه ؛ للوقوف على تفاصيل هذه الطرق التجارية كلها، راجع محمد أحمد حسونة : الجغرافيا التاريخية الاسلامية ص١٢-٢٠ .

٤٣- حورانى : العرب والملاحة ص٢٤ .

٤٤- كان البخور على رأس بضائع العالم الثمينة المطلوبة فى ذلك العصر ، كان سعره - على حد تعبير جواد علي- يساوى سعر الذهب والبترول فى أيامنا هذه، ولم يكن يشتريه لغلائه إلا رجال الدين لاستعماله فى الطقوس الدينية التى تستنزف القسم الأكبر منه ، وكذا الملوك والأثرياء ، وذلك لإحراقه فى المناسبات الدينية والاجتماعية. وكان حرق هذه المادة يكلف خزانة الدولة ثمنا باهظا لارتفاع أسعارها . راجع جواد علي، تاريخ العرب جـ٢ ص٦٦ .

قارة تمتد من أفريقيا إلى الهند ، وأن بلاد العرب بمثابة بيت وسط هذه القارة يقع على الساحل الشمالى من المياه الواقعة جنوب باب المندب [٤٦].

وإذا كان الفرس يسيطرون على تجارة الهند وطريق الشرق كما يسميه د. «هيكل» [٤٧]، أعنى طريق الخليج الفرات ، فإن مملكة أكسوم والإمبراطورية البيزنطية كان يعنيهما فى المقام الأول أن يدعما سيادتهما ونفوذهما على «طريق الغرب» . ولاشك أن البيزنطيين كانوا بطبيعة الحال، يفضلون أن يتسلموا بضائع الشرق من أيدى أصدقائهم الأحباش المسيحيين ، على أن يتلقوها من أيدى أعدائهم الفرس المجوس [٤٨]. ولهذا لم يكن غريبا أن نجد عددا ليس بالقليل من التجار البيزنطيين يذهبون إلى أكسوم عن طريق أيلة وخليج العقبة ، أو من الإسكندرية ، بل إن بعضهم كان يركب سفنا حبشية تبحر بهم إلى الهند [٤٩].

منطقة إذن لها هذه الأهمية الاقتصادية ، فى عالم لعب فيه النشاط التجارى دورا بارزا فى دولاب العمل الاقتصادى ، وترك بصماته على الحياة السياسية، كان لابد أن يتنافس فيها المتنافسون . من هنا ندرك الأهداف الحقيقية للغزو الحبشى لليمن ، فقد كانت مملكة أكسوم ترى فى هذه المنطقة امتدادا طبيعيا لمملكتها المزدهرة آنذاك ، وما دامت حمير غير قادرة فى أخريات أيامها، بضعفها وتفككها ، على إدارة هذا الإقليم الحيوى، إذن فلتتم أكسوم بهذا الدور ، حتى وإن كانت الأسباب المعلنة ، الانتقام لضحايا نجران ، يعضد أكسوم ، بل ويدفعها إلى ذلك دفعا ، الإدارة الإمبراطورية فى القسطنطينية ، حيث تخبرنا المصادر أن الإمبراطور جوستين أرسل إلى أسقف الاسكندرية ، يطلب إليه أن يستخدم نفوذه لدى ملك أكسوم ، لسرعة إنجاز هذه الحملة العسكرية ، بما لكنيسة الاسكندرية من حق الرعاية على الكنيسة الحبشية . لقد كانت القسطنطينية ترى فى سيادة حلفائها الأحباش على «بلاد العرب السعيدة» تدعيما لسيادتها هى فى البحر الأحمر وعلى جانبيه ، كجزء أساسى من صراعها

٤٦- أوليرى ، علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب ، ترجمة كامل وهيب، ص١٣٥ .

٤٧- محمد حسين هيكل : حياة محمد ص٨٩ ، ويطلق على طريق البحر الأحمر (البرى والبحرى) طريق الغرب .

٤٨- هايد: تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، جـ١ ترجمة أحمد محمد رضا ص٢٢ .

٤٩- MALALAS , Chron. , p. 433 .

المستمر مع الإمبراطورية الفارسية، اقتصاديا وسياسيا وعقيديا . ومن هنا لم تتوان عن تقديم سفنها أسطولا يحمل الأحباش إلى اليمن .

كان البيزنطيون يعلمون جيدا أن سفن الفرس لاتقف فقط عند سيلان والخليج الفارسى والشواطئ الجنوبية الشرقية لشبه الجزيرة العربية؛ فقد كان للفرس سفنهم فى عدول ، وليس من المستبعد أبدا أن تكون قد زارت حمير ، كما كانوا يرسلون قوافلهم التجارية إلى اليمن، ويوكلون حراستها لجماعات من العرب يختارونهم من زعماء القبائل المعروفين الذين يتمتعون بالمهابة فى قومهم [٥٠]، وكان هذا يثير الريبة فى نفوس البيزنطيين فى نيات الفرس ، إذ لو تم التقارب بين ملوك حمير والساسانيين، لوقعت الطرق التجارية الرئيسية المؤدية إلى بيزنطة عبر الخليج والبحر الأحمر فى قبضة الفرس، ولخسر البيزنطيون بذلك خسارة اقتصادية كبيرة، ولضيق عليهم فى أهم ما يستوردونه من أقصى الشرق، أعنى الحرير ، خاصة وأن الفرس كانوا يسيطرون بالفعل لفترات طويلة ، وإن كانت متقطعة أحيانا ، على طريق برى ، لايقل أهمية عن سابقيه ، يبدأ من وسط آسيا ، ويمضى محاذيا الساحل الجنوبى لبحر قزوين ، أو الشمالى فى فترة لاحقة ، وينتهى إما إلى بحر آزوف أو إلى القرم، فى المواقع التى شيدها البيزنطيون، أعنى مدينتى بسفور Bosporus وخرسون Cherson باعتبارهما مخفرين أماميين ، وهو الذى يعرف بطريق الحرير [٥١].

ولم يكن الاهتمام البيزنطى بشبه الجزيرة العربية ، وما يحيط بها ويمر فيها من الطرق التجارية ، شيئا حديث عهد على الإدارة الإمبراطورية ، بل إن ذلك يعود إلى فترة مبكرة منذ بدايات العصر الإمبراطورى الرومانى؛ عندما أقدم أول الأباطرة أوكتافيانوس أوغسطس Octavianus Augustus على تكليف والى مصر آيليوس جاللوس Aelius Gallus بتجريد حملة على اليمن، متخليا بذلك عن سياسة عدم التوسع ، وذلك من أجل تحقيق هدف اقتصادى هام [٥٢]. ولتحقيق ذلك حشد هذا الوالى حملة قوامها عشرة آلاف جندى، وبعض

٥٠- جواد على : تاريخ العرب جـ٢ ص٦٣٢ ؛ حورانى : العرب والملاحة ص٩٨ .

٥١- هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى ص٢٤ .

٥٢- عبد اللطيف أحمد على: مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ص٦٣ .

وحدات مساعدة من الحامية المرابطة في مصر ، وحصل على عون من الأنباط مقدارهم ألف رجل ، بعث بهم الملك عبادة الثالث مع وزيره صالح Syllaeus ليكون دليلا للحملة ، وأمده هيرودس ملك اليهود بخمسمائة يهودى، حملتهم جميعا من ميناء أرسينوى Arsinoe (قرب السويس الحالية) مائة وثلاثون حاملة للجنود ، يدعمها أسطول حربى من ثمانين سفينة ، اتخذت سبيلها فى البحر عجبا إلى ميناء الحوراء (ليوكي كومى Leuke Kome) ، وكان ذلك حوالى العام الرابع والعشرين قبل الميلاد [٥٣]. وهذه الاستعدادات تدل بوضوح على مدى الاهتمام الذى كان يوليه الرومان لهذه الحملة وما يؤملون عليها من نجاح .

غير أن هذه الحملة بكل ما توافر لديها على هذا النحو ، حققت فشلا ذريعا فى جانبها العسكرى وبالتالى السياسى ، إلا أن ذلك لم يهن من عزم أوغسطس ، بل راح هو وخلفاؤه من بعد يبدون اهتمامهم المتزايد بهذه المنطقة وطرقها التجارية ، وأدى ذلك إلى تحول جانب من تجارة الشرق من ميناء «ليوكى كومى» إلى ميناء «ميوس هرموس» المصرى (أبو شعر القبلى حاليا) [٥٤]. ومع إدراك أباطرة الرومان لصعوبة الغزو العسكرى المباشر لجزيرة العرب وجنوبها ، لطبيعة المنطقة وبعد الشقة ، ازداد الاهتمام بتقوية أسطولهم التجارى فى البحر الأحمر ، وتحسين علاقاتهم السياسية مع زعماء القبائل العربية ، وتعزيز تحالفهم مع مملكة أكسوم ، للحفاظ على مصالحهم الاقتصادية ، وتحقيق أهدافهم السياسية [٥٥].

ومع تحول الإمبراطورية الرومانية إلى المسيحية ، «كديانة شرعية» riligio Licita فى أول الأمر على يد الإمبراطور قسطنطين الأول Constantinus I (٣٠٦-٣٣٧) ثم ديانة رسمية مع نهاية القرن الرابع الميلادى زمن الإمبراطور ثيودوسيوس الأول[٥٦] Theodoius I

٥٣- راجع تفاصيل هذه الحملة عند عبد اللطيف أحمد على، مصر والإمبراطورية الرومانية ص٦٣-٦٧، ١٣٤، وأيضا جواد على : تاريخ العرب جـ٢ ص٤٤-٥٩ ، وكذلك بافقيه : تاريخ اليمن القديم ص٨٢-٨٣ .

٥٤- عبد اللطيف أحمد على : مصر والإمبراطورية الرومانية ص١٣٥ .

٥٥- للوقوف على تفاصيل مشروعات الأباطرة الرومان فى سبيل الحفاظ على نفوذهم ومصالحهم فى هذه المنطقة على عهود تراجان فى القرن الثانى الميلادى، وسبتميوس سفروس فى القرن الثالث الميلادى ، راجع جواد على جـ٢ ص٦٠ ، ٦٥ -٦٨ .

٥٦- راجع تفصيلات هذه الأحداث والأدوار التى مرت بها المسيحية من خلال موقف الأباطرة الرومان منها فى مؤلفات الباحث ، الدولة والكنيسة ، الأجزاء ٢ ، ٣ ، ٤ ، القاهرة ١٩٨٢-١٩٨٤ .

(٣٧٨-٣٩٥) ، ظهر على مسرح الأحداث عامل جديد، كان له دوره الفعال فى تسيير سياسة الإدارة الحكومية فى القسطنطينية: فالإمبراطور الرومانى باعتباره أولا «مبعوث الرب»(٥٧) إلى الناس، ثم «نائب المسيح» Vicarius Christi على الأرض من بعد ، أصبح «مصباح الأرثوذكسية» وحامى ذمار «الإيمان القويم» وأسقف المسيحيين خارج دولته، والمسئول عن التبشير بالمسيحية بين «الأمميين» (٥٨). وهذه كانت تمثل حجر الزاوية فى الالتزامات المنوطة بالإمبراطور باعتباره كما ذكرنا «نائب المسيح» على الأرض .

وفى هذا السبيل أرسل الإمبراطور قسطنطيوس Constantius (٣٣٧-٣٦١) بعثة قام بها ثيوفيلوس Theophilus حوالى مطلع النصف الثانى من القرن الرابع الميلادى ، إلى اليمن للتبشير بالمسيحية بين الحميريين (٥٩)، حتى إذا نجحت هذه البعثة التبشيرية فى مهمتها ، كان ذلك يعنى تلقائيا امتداد النفوذ البيزنطى إلى تلك المنطقة ، فقد كانت الدبلوماسية البيزنطية الذكية ، تضع بين قواعدها الرئيسية التى ترتكز عليها، أن يتبع النفوذ السياسى البيزنطى الأسقف الأرثوذكس أينما حط رحاله ووصلت دعواه ، والأمثلة على ذلك عديدة طوال امتداد التاريخ البيزنطى (٦٠).

ولايغيب عن أذهاننا أن قسطنطيوس كان يدين بالمذهب الأريوسى(٦١) ويسعى جهده لفرضه

٥٧- هكذا كان يحلو لقسطنطين أن يسمى نفسه، راجع للباحث : الدولة والكنيسة جـ٢ ص١١٢- ١١٩ .

٥٨- كتب قسطنطين الأول رسالة إلى ملك فارس ، يحثه فيها على معاملة رعيته المسيحية معاملة طيبة، وأن ينزلهم منزلا كريما ، وإلا فإنه سوف يجلب على نفسه عداء «مبعوث الرب» (يعنى نفسه) ، الذى لابد أن ينتقم لما قد يحل بهؤلاء الرعايا المسيحيين فى فارس ، راجع للباحث : الدولة والكنيسة جـ٢ ص١١٢- ١١٤ .

٥٩- ATHANAS . apologia ad Constantium , 31 .

٦٠- راجع الفصل السابق من هذا الكتاب .

وراجع أيضا . Bury , history of the Later Roman Empire, II . p. 292

وكذلك . Diehl , Byzantium : Greatnes and Decline, p. 59

٦١- عن الآريوسية : نشأتها وفكرها ورجالها ، وكذا النيقية ، راجع للباحث ، الدولة والكنيسة جـ٢ ص١٥٥ - ٢٥١ .

على كل الكنائس فى شطرى الإمبراطورية، شرقا وغربا ، ولما كان يعلم أن كنيسة أكسوم تدين بالمذهب النيقى، منذ قام الأسقف السكندرى أثناسيوس Athanasius (٣٢٨-٣٧٢) برسم فرومنتيوس Fromentius أسقفا عليها فى أربعينيات القرن الرابع، فقد حاول أن يجعل من ثيوفيلوس هذا الآريوسى فى اليمن ، منافسا لهذا الأخير ، النيقى، فى أكسوم ، خاصة بعد أن فشلت مهمته لدى ملك أكسوم، عندما حاول أن يحمله على العداء لأثناسيوس السكندرى(٦٢).

ولايبعد مطلقا أن يكون ثيوفيلوس قد حمل إلى جانب مهمته التبشيرية ، مهمة أخرى تتعلق بالتفاوض مع ملكى أكسوم وحمير لضمان حسن معاملتهم للتجار الرومان الذين كانوا يعبرون ببضائعهم عن طريق اليمن، والعمل معا لمجابهة السيادة البحرية التجارية للفرس فيما وراء هذه المنطقة باتجاه الشرق (٦٣)، ويزيد من حرصه على ذلك الهزائم التى كانت تتلقاها الإمبراطورية على يد الفرس فى أعالى الفرات فى تلك الفترة .

ولم يفتر الاهتمام الرومانى بهذا الشريان الحيوى الهام ، رغم الاضطرابات السياسية الداخلية التى عانت منها القسطنطينية خلال القرن الخامس الميلادى، ممثلة فى الصراع السياسى بين الأحزاب الرومانية والجرمانية والأيزورية فى العاصمة (٦٤)، بالإضافة إلى الخلافات العقيدية الحادة التى دهمت الكنيسة المسيحية فى الولايات الشرقية بشكل خاص، وأسفرت عن انقسام خطير بين كنيستى القسطنطينية وروما من ناحية ، وكنيستى الاسكندرية وأنطاكية من ناحية أخرى، بحيث أصبحت العاصمة الإمبراطورية تدين بالأرثوذكسية الخلقيدونية ذى الطبيعتين فى المسيح ، بينما تؤمن كنائس الشرق البيزنطى بالأرثوذكسية ذى الطبيعة الواحدة (٦٥). ورغم كل ذلك فقد كانت الإدارة الإمبراطورية فى القسطنطينية

٦٢- للوقوف على تفصيلات الأحداث التى امتلأت بها هذه الفترة ، راجع للباحث ، الدولة والكنيسة جـ٣ ص١٨٥-١٨٧ ، ٢٣٢-٢٣٤ .

٦٣- Dvornik, origins of the intelligence Services, p. 169 .

وأيضا : عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ص٣٨ - ٣٩ .

٦٤- راجع تفصيلات ذلك فى . Jones, Later Roman Empire, I , pp . 225 -230.

٦٥- يمكن التعرف على كل هذه الخلافات العقيدية التى حدثت فى القرن الخامس فى Hefele, history=

تدرك مدى الخطورة الكامنة التى يمكن أن تترتب على هذا الخلاف العقيدى ، خاصة بينها وبين أكسوم، التى كانت تتبع الأسكندرية رعويا ، وبالتالى المسيحيين فى حمير، والذين يتبعون الكنيسة الحبشية ، وبالتالى الكنيسة السكندرية؛ ذلك أن النساطرة القائلين ببشرية العذراء أم المسيح، المغلبين ناسوت المسيح على لاهوته ، على عكس أصحاب الطبيعة الواحدة(٦٦) ، والذين كانوا ينتشرون فى المناطق الشرقية ويحظون بحماية الدولة الفارسية ، سارعوا إلى انتهاز هذه الفرصة للتبشير بعقيدتهم فى بلاد اليمن ، حيث كان لهم وجودهم فى جزيرة سوقطرة Sukhatara وفى بعض الموانئ اليمنية (٦٧).

ومع أن هذا النشاط التبشيرى لم يلق استجابة من جانب مسيحيى تلك المناطق ، إلا أن بيزنطة تدرك جيدا أن أصابع فارس وراء هذه الجهود النسطورية . ورغم أن الفرس لم يكن يعينهم فى شئ أمر المسيحية ، بل كان بالتأكيد يغضبهم أن تنتشر هنا أو هناك ، إلا أنهم رأوا فى هؤلاء النساطرة ورقة ، ربما تصبح رابحة، إذا أجادوا اللعب بها فى صراعهم مع الإمبراطورية البيزنطية . ولعل أدق وصف لهذه الحال، ما جرى به قلم «جواد على»(٦٨) بما

Percival, The Seven ecumenical councils, in Ni- وأيضا of the Councils, vols, II , III =
cene and post Nicene Fathere , vol . XIV

٦٦- النساطرة هم أتباع نسطور Nestorius بطريرك كنيسة القسطنطينية فى عشرينيات القرن الخامس الميلادى ، نادى بأن العذراء هى أم المسيح البشر وليست أم المسيح الإله ، مغلبا بذلك الطبيعة البشرية فى المسيح على الطبيعة الإلهية ، جهر بآرائه عام ٤٢٨ وتصدت له كنيسة الاسكندرية فى عهد أسقفها كيرلس Cyrillus ومن ورائها روما، ومن ثم دعا الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى إلى عقد مجمع فى مدينة إفسوس Ephesus فى آسيا الصغرى، عرف بالمجمع المسكونى الثالث عام ٤٣١ ، تقرر فيه إدانة نسطور ونفيه ولعن النسطورية ومطاردة أتباعها، مما اضطر هؤلاء إلى اللجوء إلى الأراضى الفارسية . راجع :

Hefele , history of the Councils, III pp. 9-79

وأيضا Chadwick, The Early Church , pp. 194-200

وأنظر أيضا الفصل الثانى من هذا الكتاب .

٦٧- Trimingham , Christianity among the Arabs, p. 303.

٦٨- جواد على : تاريخ العرب القديم جـ٣ ص.٤٩٠-٤٩١ .

نصه : « ... كان العالم آنذاك - كما هو الآن -(قبل التسعينيات)- جبهتين، غربية وشرقية، الروم والفرس ، ولكلٍّ طبالون ومزمرون من الممالك الصغيرة وسادات القبائل (ونضيف نحن ، وزعماء الفرق الدينية) ، يطبلون ويزمرون، ويرضون أو يغضبون ، يثيبون أو يعاقبون إرضاء للجهة التى هم فيها. لقد سَخَّر الروم كل قواهم السياسية للهيمنة على جزيرة العرب، أو إبعادها عن الفرس وعن الميالين إليهم على الأقل، وعمل الفرس من جهتهم على تحطيم كل جبهة تميل إلى الروم وتؤيد وجهة نظرهم ، وعلى منع سفنهم من الدخول إلى المحيط الهندى، والاتجار مع بلاد العرب. وعمل المعسكران على نشر وسائل الدعاية وكسب معركتها والفكر ، فسعى الروم لنشر النصرانية فى الجزيرة ، وحرضوا الحبشة على نصرها ونشرها ، وسعى الفرس لنشر المذاهب النصرانية المعارضة لمذهب الروم والحبشة ، ولتأييد اليهودية أيضا ، ولم يكن دين الفرس يهوديا ولانصرانيا ، ولم يكن غرض الروم من بث النصرانية أيضا خالصا من الغرض أو بريئا » .

لهذا .. ما أن اعتلى الإمبراطور أنسطاسيوس Anastasius (٤٩١-٥١٨) العرش ، وأعلن تخليه تدريجيا عن الأرثوذكسية الحكومية- الخلقيدونية - ومالأته للأرثوذكسية المونوفيزيتية، حتى سعى جهده لدرء هذا الخطر الفارسى، المستتر برداء النسطورية ، حيث سارع إلى إرسال عدد من الأكليروس ورجال البلاط إلى أكسوم واليمن لإقامة عدد من الكنائس بهدف إعادة الثقة بين المسيحيين هناك فى السياسة العقيدية البيزنطية ، وجذب ملك حمير ثانية إلى جانب القسطنطينية بعيدا عن الطموحات الفارسية (٦٩). ومع أن الأمبراطور جوستين الأول (٥١٨-٥٢٧) الذى خلف أنسطاسيوس ، قد تراجع عن سياسة سلفه العقيدية ، وعاد إلى الأخذ بالأرثوذكسية الخلقيدونية ، حتى يحظى بتأييد كنيسة القسطنطينية ، ليضفى على اعتلائه العرش الإمبراطورى شرعية كان يفتقر إليها فى أول عهده ، إلا أن الأحداث التى وقعت فى اليمن فى ذلك الوقت ، جذبت انتباه القائمين بالأمر فى العاصمة البيزنطية ، وأضافت بعدا جديدا للصراع البيزنطى الفارسى حول هذه المنطقة بأسرها .

٦٩- Dvomik, Origins of the intelligence Sevices , pp. 168-169 .

وأيضا Jones, Later Roman Empire, I, pp. 232-235.

وكذلك Milne, A history of Egypt under Roman rule, p. 103 .

لقد كانت الدولتان الفارسية والبيزنطية ، مع بدايات القرن السادس الميلادى، تتربص كل منهما بالأخرى ، ولم يكن ذلك شيئا جديدا بل كان امتدادا لتاريخ طويل من الصراع بينهما عبر قرون عدة خلت ، يدعمه اختلاف وبالتالى تباعد حضارى كبير بينهما ، وتقارب فى الحدود أو تماس فى بعض المواضع ، يزيد من هذا التباعد ويؤجج نيران العداء . وزاد النار ضراما انتقال العاصمة الرومانية من على ضفاف التيبر فى الغرب ، إلى شطآن البسفور فى الشرق ، لتصبح أنظار الساسة فى القسطنطينية على مقربة جداً من مطامح الساسانيين فى طيسفون Ctesiphon (المدائن) ومطامعهم .

وكان أكاسرة الفرس قد وصلوا بدولتهم آنذاك إلى درجة كبيرة من القوة السياسية والعسكرية والاقتصادية ، وراحوا يهددون التخوم البيزنطية والولايات الشرقية للإمبراطورية الرومانية ، وكانت مناطق الحدود ، خاصة عند أرمينيا وإيبريا ولازيقا ، تعد بصفة دائمة نقاط نزاع مستمر بينهما ، واجتاحت الجيوش الفارسية هذه المناطق أكثر من مرة خلال القرون من الثالث إلى الخامس ، وإذا كانت القسطنطينية قد أفلحت فى التصدى فى بعض الأحيان لهجمات الفرس ، واستعادة سيطرتها هناك ، إلا أن ذلك كان يسبب قلقا دائما وصداعا مستمرا لصانعى السياسة البيزنطية .

وزاد من رجحان كفة الفرس ، أن الجيش الرومانى لقى الهزيمة على أيديهم عام ٣٦٣ ، وقتل الإمبراطور جوليان Iulianus واضطر خليفته جوفيان Iuvianus (٣٦٣-٣٦٤) أن يوقع معاهدة مهينة، تنازل فيها عن عدد من مناطق الحدود الرومانية [٧٠]، وزاد الأمر سوءاً أنه لم يكد يمضى على ذلك أكثر من خمسة عشر عاما، حتى منيت الإمبراطورية بهزيمة مروعة على يد القوط الغربيين Visigoths الجرمان سنة ٣٧٨ فى معركة أدريانوبل Adrianopolis حيث قتل الإمبراطور فالنز Valens وخسرت الإمبراطورية على أقل تقدير خمسة وأربعين ألف جندى، واكتسحت العناصر الجرمانية الأخرى ، النصف الغربى من الإمبراطورية، وأقامت على امتداد القرن التالى (الخامس) عددا من الممالك [٧١]، بحيث فقدت الإمبراطورية شطرها ذاك، ولم يبق لها إلا ولاياتها الشرقية المواجهة للدولة الساسانية .

٧٠- رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة جـ٣ ص٣٥٧ .

٧١- كانت هذه الممالك هى: مملكة الوندال فى أفريقيا ، ومملكة القوط الغربيين فى إسبانيا ، مملكة الأنجلوسكسون فى بريطانيا ، مملكة الفرنجة فى غالة (فرنسا) ، ومملكة القوط الشرقيين فى إيطاليا .

ورغم الجهود الكبيرة التى بذلها الإمبراطور ثيودوسيوس الأول لإقالة الإمبراطورية من عثرتها عقيب هذه المذبحة فى أدريانوبل، إلا أنه لم يستطع أن يوقف هطول الجرمان على الإمبراطورية، أو يتصدى لأطماع الفرس على جبهته الشرقية ، فاضطر إلى عقد اتفاقية معهم قضت بتقسيم أرمينية بينهما ، رغم أنها كانت قد تحولت مؤخرا إلى المسيحية . وبموت ثيودوسيوس جاء الطوفان ولا عاصم ، حيث ضاع النصف الغربى تحت وطأة ضربات القبائل الجرمانية المتصاعدة ، وخضع الشطر الشرقى لسلسلة من الأباطرة الضعاف الذين عجزوا إلى حد كبير عن مواجهة هذه التحديات المتلاحقة ، وانغمسوا حتى آذانهم فى الخلافات الكريستولوجية التى دارت حول طبيعة المسيح ، وشغلت القرن الخامس كله، وتركت بصماتها واضحة على علاقة القسطنطينية بولاياتها الشرقية ، التى اتخذت فى جملتها - كما أسلفنا- مذهبا يخالف ما آمنت به العاصمة الإمبراطورية .

ولاشك أن فارس وجدت فى هذه الظروف السيئة التى تحيط بعدوها التقليدى ، فرصة سانحة لتحقيق أهدافها ؛ فقد كان يعنيها فى المقام الأول أن تقفز إلى الولايات الشرقية للإمبراطورية ، ليصلها ذلك مباشرة بالبحر المتوسط الذى كان يعد المركز الحضارى آنذاك ولفترات تاريخية طويلة ، سابقة على هذا التاريخ أو لاحقة . وكان هذا شيئا واضحا تماما فى اتجاهات السياسة الفارسية منذ زمن بعيد ، يعود إلى القرن الخامس قبل ميلاد المسيح ، وراحت هذه الاتجاهات تزداد وضوحا ، بعد أن اعتلت الأسرة الساسانية عرش الأكاسرة فى القرن الثالث الميلادى(٧٢) . وبعد أن انتقلت حاضرة الإمبراطورية الرومانية إلى القسطنطينية منذ القرن الرابع ، وحتى سقوطها فى يد الأتراك العثمانيين فى القرن الخامس عشر الميلادى(٧٣) .

٧٢- كانت أول تجربة عملية فى هذا السبيل آنذاك ، الحرب التى دارت بين الفرس والرومان فى عام ٢٦٠ ، وتمكنت فارس من إنزال هزيمة ساحقة بروما وأخذ الإمبراطور الرومانى فاليريان Valerianus أسيرا مما عد إذلالاً للإمبراطورية .

٧٣- يستثنى من ذلك طبعا الفترة التى خضعت فيها القسطنطينية لسيادة العناصر اللاتينية ، نتيجة الحملة الصليبية الرابعة والتى امتدت إلى سبع وخمسين سنة بين عامى ١٢٠٤- ١٢٦١ .

وكانت هناك أمور أخرى لاتقل عن ذلك أهمية، فالأطماع الفارسية تجاه المناطق الواقعة على الحدود الشرقية ، والتى كان الفرس يعتبرونها امتدادا طبيعيا لدولتهم ، اصطدمت فى القرنين الرابع والخامس بزحف الهون Hunni ، القبائل الآسيوية التى اكتسحت وسط آسيا وامتد طوفانها إلى قلب الإمبراطورية الرومانية ، مرورا بشمالى فارس عند بحر قزوين . ولم تكد فارس تفيق من ذلك ، بعد أن لقى الهون هزيمة قاسية على يد الرومان عند شالون سنة ٤٥١ ، وتصدع «إمبراطورية الخيام»(٧٤) هذه بعد موت زعيمها أتيلا Atilla عام ٤٥٣ ، حتى وجدت إلى جوارها قوة أخرى تتمثل فى بعض القبائل التركية التى انضمت إلى بعضها البعض فيما يشبه اتحادا كونفيدراليا فى منطقة آسيا الوسطى (٧٥). هذا بالإضافة إلى ظهور قوة جماعات الهون مرة أخرى فيما عرف بقبيلة «الهياطلة» أو الهون البيض ، الذين أوقعوا بفارس هزيمة قاسية عام ٤٨٤ ، واضطروها أن تدفع لهم الجزية حتى منتصف القرن السادس الميلادى(٧٦).

واستشعرت فارس الخطر داهما ، عندما تحولت كل من إيبريا Iberia ولازيقا Lazica الواقعتين على حدودها مع بيزنطة ، والمتنازع عليهما دائما ، منضما إليهما أرمينية ، إلى المسيحية ، بعد اعتناق ملكيهما لهذه العقيدة ، وقصدهما إلى القسطنطينية ، وما صحب ذلك من مظاهر الحفاوة البالغة التى لقياها فى العاصمة الإمبراطورية، وما أفاض به عليهما الإمبراطور من الخلع الثمينة والحلى وألقاب التشريف (٧٧) ، وتلك كانت إحدى الدعائم

٧٤- هذا التعبير استخدمه ب . كاسل أحد مستشرقى القرن التاسع عشر، للدلالة على حقيقة الإمبراطورية التى كونها الهون خلال القرن الخامس الميلادى، وامتدت من وسط آسيا حتى وسط أوروبا . نقلا عن : كوستلر : إمبراطورية الخزر وميراثها ، ص٢٣ .

٧٥- كوستلر : إمبراطورية الخزر ص٣١ ؛ بارتولد : تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، ص٣٠٥ .

٧٦- توينبى : تاريخ البشرية جـ٢ ص٣٢-٣٣ ، ٤٣ .

٧٧- MALALAS, Chron. pp. 413-429 .

وأيضا CHRON. PASCH. , pp. 613-614 .

وكذلك Holmes, The Age of Justinian and Theodora, I, p. 311 .

الأساسية للدبلوماسية البيزنطية (٧٨). وقد تزامنت هذه الأحداث تقريبا (حوالى ٥٢٢-٥٢٥) مع ما جرى فى اليمن ، وقيام الأحباش بدفع جيوشهم إلى هناك .

ومع إدراك الفرس أن الرومان ، عن طريق حلفائهم الأحباش ، قد كسبوا أرضا جديدة فى أقصى الجنوب الغربى لشبه الجزيرة العربية، مع كل ما تمثله المنطقة من أهمية استراتيجية واقتصادية ، وما أيقنوا أنه يمثل خطرا فادحا ، بتحول مناطق الحدود الشمالية إلى المسيحية ، بعد أن سبقتهما أرمينية إلى ذلك منذ القرن الرابع الميلادى ، فقد أقدم الفرس دون توان على احتلال إيبيريا ثم لازيقا سنة ٥٢٦ / ٥٢٧ (٧٩). ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن هذا التاريخ ليس ببعيد عن السنة التى شهدت الغزو الحبشى لليمن (حوالى سنة ٥٢٥) . وإذا كانت كل من أكسوم ومن ورائها القسطنطينية قد تذرعتا بحماية المسيحيين فى حمير ، فقد أعلن ملك فارس أن احتلاله لهاتين المنطقتين هو من قبيل حماية معتنقى الزرادشتية فيهما (٨٠). وتلك مسألة لاتحتاج إلى تعليق حول مناطق النفوذ ، سواء كان ذلك فى أقصى الشمال عند البحر الأسود وبحر قزوين ، أو عند الجنوب القصى فى بلاد العرب السعيدة ، والتى كان كل من القوتين العظميتين آنذاك يسعى للسيطرة عليها فى إطار سياسة التوازن الدولى.

وكان طبيعيا أن ترد القسطنطينية على ذلك ، وهى تدرك خطورة اقتراب الفرس من البحر الأسود ، مما يعد تهديدا مباشرا لها ، لذا فقد هاجمت الجزء الفارسى من أرمينيا ، وعادت هذه القوات محملة بالأسرى والغنائم ؛ إذ لم يكن يعنيها آنئذ أن تحتل أرمينيا الفارسية ردا على احتلال الفرس لإبريا ولازيقا ، بل كان كل ما تريده إظهار قوتها لخصمها، بأنها قادرة على التصدى له بالمثل ، يدفعها إلى ذلك شغلها الشاغل المتمثل فى محاولة استرداد ولايات النصف الغربى من الإمبراطورية، والتى كانت قد ضاعت على يد الجحافل الجرمانية .

٧٨- راجع الفصل السابق .

٧٩- PROCOP . Bell . Pers. I, p. 93 .

وراجع Stein, histoire du Bas- Empire II, p. 270.

٨٠- Bury, Later Roman Empire II, p. 80 .

وأيضا Benjamin , Story of Persia, pp. 231-232.

وكانت هذه النقطة الأخيرة مما يزيد الإمبراطورية الفارسية ، على عهد ملكها الجديد كسرى أنوشروان Chosroes Anushirvan حنقا وغيظا ، وهي ترى جارتها تستعيد قوتها وحيوتها على عهد إمبراطورها جوستنيان الأول Iustinianus I الروماني القلب والقالب ، والذي كان يؤمن باليقين كله أن إمبراطورية رومانية لايستقيم أمرها ولاحتى اسمها ، دون روما القديمة على ضفاف التيبر، والتي أخضعت جبينها كارهة لقبيلة القوط الشرقيين Ostrogoths الجرمانية ، وأن روما الجديدة عند البسفور لاتغني عن سميتها القديمة شيئا ، ومن ثم وضع نصب عينيه منذ اليوم الأول لاعتلائه العرش ، خلفا لخاله جوستين ، أن يسترد من أيدي الجرمان ، ولايات الغرب الروماني الضائعة ، مهما كلفه ذلك من جهد ومال ، وليس أدل على ذلك من أن الرجل أمضى نيفا وخمسا وعشرين سنة ، من فترة حكمه البالغة ثمانية وثلاثين عاما ، يدفع بجيوشه وخزائنه لحرب الممالك الجرمانية التي قامت فوق الأرض الرومانية في الغرب ، كان من بينها ثلاثة وعشرون عاما كاملة (٥٣٣-٥٥٥) أنفقها في استرداد إيطاليا وحدها .

ولما كانت الدبلوماسية البيزنطية تعتمد أساسا في جوهرها على عدم خوض حرب في جبهتين في وقت واحد [٨١]، فإن جوستنيان لم يعمد- كما رأينا- إلى احتلال أرمينية الفارسية ، إذ لم يكن على استعداد للدخول في حرب سافرة مع فارس ، قد تؤدي إلى معركة حاسمة يعرف مقدما أن فرصته فيها قليلة ، ما دامت جيوشه تعمل في الغرب ، من هنا ظل حريصا طيلة عهده (٥٢٧-٥٦٥) على أن تبقى حروبه مع فارس ، مجرد مناوشات على الحدود ، تعقبها المفاوضات لعقد هدنة أو إقرار معاهدة للسلام ، يُسكت من خلالها جوستنيان خصومه إلى حين ، بما يقدمه إليهم من الأموال جزية كل عام . وقد نجحت الدبلوماسية البيزنطية على عهد جوستنيان في هذا المجال نجاحا منقطع النظير ، وإن كان على حساب الخزانة الإمبراطورية . وهذا واضح تماما من المراسلات التي دارت بين كل من عاهلي فارس وبيزنطة [٨٢].

٨١- راجع الفصل السابق .

٨٢- يبدو من هذه المراسلات مدى حرص جوستنيان على إحلال السلام بين الدولتين ، ليتمكن من تحقيق مشروعه الاستردادي في الغرب ، فقد جاء في إحدى رسائله إلى قباذ قوله : «علمنا من رسلنا بعد عودتهم =

كان الفرس يدركون ذلك كله جيدا ، ويستشعرون خطورة الانتصارات التى قد يحققها خصمهم فى الغرب ، مخافة أن تنتهى الحرب الاستردادية سريعا ، فتستدير القسطنطينية - كعادتها- لمجابهتهم والتفرغ لهم ، وزاد من مخاوفهم أن جوستنيان تمكن من القضاء على الثورة الشعبية العارمة التى استهدفت قلب نظام الحكم فى أول عام ٥٣٢ ، وخرج منها أقوى بأسا وأشد قوة (٨٤)، ليتربع على عرش الإمبراطورية من بعد أربعا وثلاثين سنة .

ولم يكن بخاف على جوستنيان ، القلق الذى يستبد بالفرس تجاه مشروعاته الاستردادية ، ولا كان غافلا عن طموحاتهم وأطماعهم فى ولاياته الشرقية ، ولا كان على استعداد لخسارة هذه المناطق التى يرتكز عليها اقتصاد الإمبراطورية لحساب ولايات الغرب الفقيرة ، وكان يدرك أن الفرس يعانون من ثقل وطأة الجزية التي يدفعونها سنويا للهون البيض على حدودهم الشرقية ، ومن ثم كان على استعداد لتعويضهم عن هذا الذى يدفعونه لقاء سكوتهم عن حروبه الاستردادية فى الغرب ، وتركه يتفرغ لانجاز هذا المشروع الضخم الذى يعتبر حجر الزاويه فى سياسته الخارجية .

وإذا أضفنا إلى هذا كله أن العملة الساسانية كانت تضرب بشكل عام من الفضة ، وأنها نادرا ما كانت تسك من الذهب (٨٤)، أدركنا لماذا كان يسيل لعاب الفرس للحصول على النقود البيزنطية الذهبية. وتدلنا رسالة بعث بها الملك الفارسى قباذ - سلف كسرى- إلى جوستنيان ، على صدق ذلك ، فقد ورد فيها : « ... لقد تأكد لدينا أننا إخوة يعين أحدنا الآخر فى حاجته، وعليه إذ دخلنا فى معارك مع أعدائنا المجاورين ، ودفعنا لبعضهم الأموال استرضاء ، فقد أفلست خزائننا ، ولما لم تفلح محاولاتنا مع سلفيكم أنسطاسيوس وجوستين ، لتقديم الأموال إلينا ، اضطررنا لمهاجمة حدودكم حتى نحذركم، إما الحرب وإما المال» (٨٥).

= من ضيافتكم صدق نياتكم ، ... وإنه لمن حق الله علينا أن نحمده شاكرين فضله حتى يتحقق السلام بيننا. إن هذا السلام لأمر عظيم ، يحمل لبلدينا الأمن والرخاء ، ويزيح من أمامنا أعداءنا ، ولتكن على يقين من أننى سوف أعهد إلى ممثلينا دائما بأن يبذلوا كل ما فى وسعهم كى تنجح مفاوضات السلام هذه، ودمتم لنا محبا ودودا». راجع . MALALAS , Chron., pp. 449-450

٨٣- أنظر الفصل الخامس من هذا الكتاب .

٨٤- Ghirshman, Iran from the Earliest times to the Islamic conquest, p. 341 .

٨٥- MALALAS . Chron . pp . 454-455 .

وكانت الإمبراطورية البيزنطية على عهد أنسطاسيوس قد تعهدت فى عام ٥٠٥، بمقتضى معاهدة السلام التى وقعتها مع فارس ، بعد الهجمات التى تعرضت لها من جانب قباذ ، بدفع مبلغ خمسمائة رطل من الذهب سنويا[٨٦]، غير أن هذا الرقم ارتفع فى معاهدة السلام التالية التى وقعت سنة ٥٣٢ والتى عرفت بمعاهدة السلام الدائم، ليصل إلى أحد عشر ألف رطل من الذهب سنويا. ولما كان من المستحيل أن يدوم السلام ، فقد قبل جوستنيان فى عام ٥٤٥ مكرها أن يقدم لفارس ألفى رطل من الذهب مقابل عقد هدنة مدتها خمس سنوات[٨٧]. وما أن انقضى أجل الهدنة ، حتى كان على القسطنطينية عند تجديدها سنة ٥٥١ لمدة خمس سنوات أخرى أن تدفع ألفين وستمائة رطل من الذهب [٨٨]. حتى إذا جاء عام ٥٦٢ وتم توقيع معاهدة سلام جديدة مدتها خمسون عاما ، كان على الإمبراطورية أن تدفع ثلاثين ألف رطل من الذهب دفعة واحدة مقدما عن السنوات السبع القادمة ابتداء من عام ٥٦٢ ، وأن تدفع فى بداية السنة الثامنة ، ما يعادل جزية ثلاث سنوات تالية ابتداء من عام ٥٦٩ ، ثم تدفع الأقساط بعد ذلك بانتظام إلى نهاية السنوات الخمسين التى حددتها المعاهدة [٨٩].

واضح إذن أن الفرس كانوا يصرون على استنزاف الذهب البيزنطى التى امتلأت به خزائن الإمبراطورية، والذى حدث عند المؤرخ المعاصر يوحنا الليدى[٩٠] Ioannes Lydus بقوله إنه كان آلافا من أرطال الذهب يصعب حصرها وذلك عند وفاة الإمبراطور أنسطاسيوس عام ٥١٨ ، بينما قدره بروكوبيوس بما يقرب من ثلاثمائة وعشرين ألف رطل من الذهب ، زاد على مدار السنوات التسع التى أمضاها جوستين على العرش ، حسب رواية بروكوبيوس، على ما ادخره

٨٦- ZACH. MET. Chron., p. 163 ; PROCOP. Bell . pers. I, p. 77 .

٨٧- PROCOP. Bell. Goth. II., p. 517 .

وأيضا Ure, Justinian and his Age, p. 77 .

٨٨- PROCO. Bell Goth. II , pp. 536-537 .

٨٩- MENAN. excer. de Leg. Roman . pp. 359-363 .

وراجع Ure, Justinian, pp. 97-99 .

٩٠- IOAN. LYD. de magist. p. 244.

وقارن PROCOP. hist. arc. p. 137 .

أنسطاسيوس على امتداد عهده البالغ سبعا وعشرين سنة (٩١)، بالإضافة إلى ما جمعه جوستنيان نفسه طيلة أيامه ، وهو كثير، ومع كل هذا أمست الخزانة البيزنطية فعلا فى نهاية عهد جوستنيان ، تعانى الإفلاس من جراء هذا النزيف المتدفق باتجاه فارس ، وتيار الانفاق الهادر بلا حساب على آتون الحرب الاستردادية في الغرب، بعد أن فشلت خطته القائمة على أن الحرب تأتى بنفقات الحرب، ثم المنشآت المعمارية الضخمة ، العسكرية منها والمدنية على حد سواء .

ولعله مما يؤكد حرص الفرس على الذهب البيزنطى، أنهم راحوا منذ عام ٥٢٩ يثيرون فى مفاوضاتهم مع البيزنطيين، مسألة استعادة منجمين للذهب كانا يقعان على الحدود بين أرمينيا الفارسية وأرمينيا الرومانية، مرددين دائما أن الإمبراطور أنسطاسيوس كان قد استولى عليهما ، وظلوا يلحفون فى طلبهم رغم توقف المفاوضات أكثر من مرة ، إلى أن تحقق لهم ما أرادوا بمقتضى معاهدة السلام الدائم التى وقعت عام ٥٣٢ ، والتى نصت على عودة المنجمين إلى السيادة الفارسية (٩٢).

وكانت لهفة الفرس على العملة الذهبية البيزنطية ، وفى الوقت نفسه، مخاوفهم وطموحاتهم ، كلها فى وقت واحد ، تزداد كلما صكت مسامعهم أنباء انتصارات يحققها جوستنيان فى حروبه الاستردادية ، فقد أذهلتهم مفاجأة استعادة الإمبراطور لولاية أفريقيا الرومانية من يد الوندال Vandal إثر حملة خاطفة قام بها قائده الأشهر بليزاريوس Blisarius عام ٥٣٣ وعاد منها إلى القسطنطينية وفى ركابه الملك الوندالى جليمار Glimer أسيرا ، وبين يديه الكنوز الضخمة التى كان الوندال قد سلبوها من كنيسة القديس بطرس فى روما ، عند مهاجمتهم لإيطاليا عام ٤٥٥ ، عندها لم يتمالك الملك الفارسى نفسه من الغيظ ، فكتب إلى الإمبراطور البيزنطى يطلب إليه اقتسام هذه الأسلاب باعتباره شريكا فى صنع هذا النصر، بالتزامه الحياد بمقتضى معاهدة سنة ٥٣٢ " والطريف أن جوستنيان رغم اشمئزازه من هذا المطلب الفارسى ، إلا أنه حقق رغبة العاهل الفارسى وأرسل إليه بعض الأموال فى شكل الهدية على سبيل الترضيه " (٩٣).

٩١- Id.

٩٢- PROCOP. Build. pp. 133-135 .

٩٣- PROCOP . Bell . pers. I, p. 253 .

ولم يكد يمضى على ذلك سبعة أعوام ، حتى كان بليزاريوس قد نجح عن طريق الخديعة ، فى القبض على ملك القوط الشرقيين فى إيطاليا ، ودخول العاصمة رافنا Ravenna ، وهئ للجميع ساعتها أن مملكة الأوستروقوط هذى قد دالت [٩٤]. فغلت فى عروق الساسانيين دماء الغيظ والخوف فى وقت واحد ، فاندفعت جيوشهم لا تلوى على شئ ، لتخرب أجزاء متفرقة من الولايات الرومانية الشرقية ، ولتستولى على لازيقا ثانية والجزء البيزنطى من أرمينية ، ولتقفز إلى ساحل البحر المتوسط ، المركز الحضارى باحتلال أنطاكية فى العام نفسه (٥٤٠) ، لتحقق بذلك حلما طالما راودها ، وإن كان ذلك إلى حين ، إذ سرعان ما انسحبوا بعد أن قدم لهم جوستنيان عام ٥٤٥ نقوده الذهبية !!

لم يكن أمام الإمبراطورية البيزنطية ، رضيت أم كرهت ، إلا أن تدفع بسخاء كل ما يطلبه الفرس من الذهب، وهذا واضح من نصوص الاتفاقيات التى أشرنا إليها من قبل ، فلم تكن بيزنطة تستطيع أن تفعل غير ذلك ، وهى تضع نصب عينيها مشروعها الاستردادى الضخم، ودبلوماسيتها كما علمنا ، ترتكز على عدم الحرب فى جبهتين فى وقت واحد، ولم يكن الفرس وحدهم فى الميدان يرتجى سكوتهم ، بل كانت هناك شعوب قبلية عديدة تنزل عند حدود الإمبراطورية فى الشمال والشمال الشرقى والغرب، مثل الهون والعناصر التركية على اختلاف مسمياتها، والآفار والجبيد واللومبارد وغيرهم .. وكان على بيزنطة أن تستخدم أسلوب الترغيب أو الترهيب هنا وهناك حسب الظروف ، ومن هنا كان الفرس يحتلون المرتبة الأولى فى الأهمية ، حتى لاتعطيهم بيزنطة الفرصة للوصول إلى هذه القبائل ، يؤلبونها ضد القسطنطينية .

وكان مما يؤلم القسطنطينية إلى جانب هذا كله ، أن الفرس يسيطرون على الطريق الرئيسى الذى تسلكه تجارة الحرير القادم من الصين ، عبر وسط آسيا إلى الإمبراطورية البيزنطية ، والتى كانت تستورد منه كميات هائلة تستخدمها فى الحياة الاجتماعية والسياسية على السواء . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تعداه إلى تحكم التجار الفرس فى كميات الحرير

٩٤- من المعروف أن الحرب استؤنفت من جديد بين البيزنطيين والقوط الشرقيين، بعد أن أدرك هؤلاء حقيقة الخديعة التى أوقعهم فيها القائد البيزنطى واستمرت هذه الحرب من بعد خمسة عشر عاما تالية حتى انتهت بهزيمة القوط عام ٥٥٥ فى موقعة عرفت باسم مقبرة الغال .

الصينى المتجهة غربا إلى بيزنطة عن طريق البحر ، أعنى المحيط الهندى وما وراءه سواء الخليج العربى أو البحر الأحمر ؛ فقد كانت سفن هؤلاء التجار تصل إلى بعض موانئ البحر الأحمر كما أشرنا من قبل، ومن ثم كانت سيادة فارس على طرق تجارة الحرير القادم إلى القسطنطينية براً أو بحراً يمثل غصة فى حلق العاصمة البيزنطية ، التى كانت تعتبر الحرير الصينى ضرورة حياة !!

لقد كانت القسطنطينية فى القرن السادس الميلادى، وعلى عهد جوستنيان ، تمثل بتعبيرنا الحديث ، باريس عصرها، مدينة الأضواء والشهرة الذائعة ، يقصدها القاصى والدانى ، ويؤمها حجيج المعرفة وطلاب الحاجات ، والباحثون عن المتعة ، والمولعون بالثراء، والساعون للرزق ، تختلط فيها الأجناس ، وتختلف الألسنة ، وتتباين الأفكار. والمترفون من النبلاء ورجال السناتو ووجوه البلاط والأسرة الحاكمة ، يتبخترون فى ثيابهم الحريرية الرقيقة ، المزدانة بخيوط الذهب والمرصعة بالحلى والأحجار الكريمة !! ويدلون بذلك فى خيلاء على الوفود الأجنبية الآتية من كل صقع ، خاصة القبائل النازلة عند حدود الإمبراطورية ، والذين قدموا للبحث عن معاهدة للسلام ، أو هدنة توقف حربا، أو طمعا فى ألقاب التشريف، أو تطلعا إلى الخلع الثمينة والهدايا من الحلى والثياب الحريرية ، التى تعتبرها شعوب تلك القبائل ، نوعا من التكريم الرومانى يتنافس فيه المتنافسون !!

وقد أمدنا الإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع «الأرجوانى المولد Constantinus VII Porphyrogentius (٩٤٤-٩٥٩) فى كتابيه الرائعين «عن الإدارة الإمبراطورية» De Ad-minstrando Imperio وعن المراسم De Cermoniis بمادة علمية وافرة عن مظاهر الترف التى كان يحيا فيها البلاط البيزنطى ، وعن حاجة القسطنطينية الماسة دائما لهذا الحرير لإهدائه إلى زعماء الشعوب القبلية ، دليلا على المودة البيزنطية تجاههم. ويعلق هايد[٩٥] Heyd على ذلك بقوله : « لقد كان البلاط حريصا على أن يعرض على أنظار برابرة الشمال صلاته التجارية مع البلدين ، الهند والصين . وكلما ضعفت إمكانية الإيهام باستعراض مظاهر القوة والجبروت ، زادت الحاجة إلى استخدام مثل هذه الوسائل لتأكيد تفوق الإمبراطورية الرومانية . ومهما كانت روابط الصداقة بين أمير بربرى وبين بيزنطة ضعيفة ، فإن هذه كانت

٩٥- التجارة فى الشرق الأدنى ص٣٢ - ٣٣ .

تهدى إليه أو إلى مبعوثيه أقمشة حريرية وأحجاراً كريمة وتوابل، كذلك كانت كميات كبيرة من الحرير تذهب إلى الغرب ، يهديها الإمبراطور إلى الكنائس أو إلى رؤساء الأساقفة فيها أو إلى بعض الأمراء ليصنعوا منها ثيابهم ، إعلاءً لهيبة البلاط». ويضيف مؤرخنا « من هنا كان الفرس يحرصون كل الحرص على أن لايصل الحرير إلى بيزنطة بطريق آخر غير الطريق الذى يجتاز بلادهم ، أو بأيد أخرى غير أيديهم» (٩٦). وكيف لا وقد أثروا من هذه التجارة ثراء حسنا (٩٧). ولذا .. فإن الطريق الوحيد للحصول على هذه المادة الخام الثمينة هو الاتفاق مع فارس . وفى هذا السبيل توصل الإمبراطور دقلديانوس Diocletianus منذ أواخر القرن الثالث الميلادى ، إلى اتفاق مع الملك الفارسى نارسيس Narses بحيث أصبحت مدينة نصيبين Nisibe الفارسية ، السوق الرئيسى للحرير المستورد من الصين ، ومنها يصدر إلى مدن الإمبراطورية الرومانية (٩٨).

ولم تأل الدبلوماسية البيزنطية جهدا فى محاولات لاختراق هذا الحصار الفارسى لتجارة الحرير ، وفى سبيل ذلك كان جوستنيان حريصا على أن يمد نفوذه إلى شبه جزيرة القرم كلها بعد أن كان قاصرا فقط على مدينتى خرسون وبسفور(٩٩) وذلك بالإضافة إلى لازيقا وإقليم القوقاز ، هادفا بذلك إلى الالتفاف حول مناطق السيادة الفارسية من أجل الوصول إلى الحرير الصينى ، خاصة وأنه قد جرت محاولات بيزنطية للاتصال مع الأتراك فى إقليم ما وراء النهر، بعد أن تمكن خانات الترك من توحيد آسيا الوسطى تحت سلطانهم ، على النحو الذى

٩٦- المرجع نفسه ص١٧ .

٩٧- Bury, Later Roman Empire, II, p. 320 .

وأيضا حورانى : العرب والملاحة ص٩٧ .

٩٨- Dvornik, Origins of the intelligence Services, p. 168.

ومن المعروف أن نصيبين لم تكن وحدها فقط هى الموضع الوحيد لتسويق هذه التجارة ، إذ كانت هناك أيضا «الرقة» على الفرات ، وسهل دوبيوس Doubius فى أرمينيا الفارسية بالقرب من أرضروم Theodosiopolis، راجع . ZACH. MET. Chron. p. 5 ; PROCOP. Bell. Pers. I, 25 , 30 .

٩٩- خرسون هى حاليا سباستبول، وبوسفور هى كرش .

أسلفنا[١٠٠]. ولعل هذا هو الذى يفسر بوضوح ذلك النقد اللاذع الذى وجهه بروكوبيوس القيسارى فى كتاباته إلى الإمبراطور جوستنيان ، عند فقدان لازيقا على يد الفرس عام ٥٤٠ متهما إياه بالتقصير فى الحصول على المعلومات الضرورية من عيونه حول تحركات الجيش الفارسى مما أدى إلى ضياع لازيقا [١٠١].

وكانت إدارة الخارجية البيزنطية تعلم يقينا أن جهودها لحرمان الفرس من الحصول على الأرباح الهائلة التى يجنونها بقيامهم بدور الوسطاء فى تجارة الحرير عبر الطريق البرى، لن تحقق النجاح الذى ترتجيه ، ولذا كانت تتحين الفرص للبحث عن طريق آخر يصلها مباشرة مع مراكز بيع هذه «المادة الثمينة» ، وسرعان ما جاءتها هذه الفرصة على غير توقع ، عندما وضع الأحباش أقدامهم فى الجنوب الغربى لشبه الجزيرة العربية ، ولم تتوان القسطنطينية عن تأييد الغزو الحبشى عسكريا ومعنويا ؛ فقد كانت سيادة حلفائها الأحباش على طرفى البحر الأحمر عند مدخله ، تضمن لهم طريقا بحريا آمنا ، كما أملوا، للحصول على الحرير الصينى بعيدا عن السيادة الفارسية [١٠٢] .

وليس بخاف على أحد، أن سيادة اليهود على اليمن قبل الغزو الحبشى، كانت تثير إلى حد كبير جدا مخاوف الساسة البيزنطيين، ليس فقط بدافع العداء بين اليهود والإدارة البيزنطية، وما نتج عنه من اعتداء على التجار الرومان فى اليمن ، ولكن لما قد تمثله هذه السيادة اليهودية من امتداد للنفوذ الفارسى أيضا إلى هذه المنطقة الحيوية والهامة بالنسبة لبيزنطة . وتأكدت هذه المخاوف بعد المراسلات التى دارت بين ذى نواس وملك الحيرة اللخمى، الذى كان يدور فى فلك السياسة الفارسية . هذا بالإضافة إلى أن أعدادا من يهود الفرس كانوا قد انخرطوا منذ زمن ليس بالقصير فى سلك الخدمة العسكرية فى الجيش الفارسى، وحظوا بالاحترام، على حد تعبير المؤرخ الكنسى يوسيبيوس Eusebius القيسارى ، من جانب

١٠٠- أنظر قبله ، وأيضا ، بارتولد : تركستان ص٣٠٥ .

١٠١- PROCOP . hist . arc. 30 .

١٠٢- أشرنا من قبل إلى محاولات بيزنطية جرت فى هذا السبيل ، وهى جهود كل من الإمبراطور قسطنطيوس فى القرن الرابع ، والإمبراطور أنسطاسيوس فى أواخر القرن الخامس الميلادى وبدايات القرن السادس.

قادتهم[١٠٣] ، وأن جماعات أخرى منهم قد عملت بالتجارة وجنت على عهد الساسانيين ثروات كبيرة ، بإقدامهم على إرسال سفن تجارية تعمل لحسابهم إلى منطقة القرن الأفريقى[١٠٤] ، ولهذا رحبت بيزنطة ، بل ولعبت دورا أساسيا فى أن تمد مملكة أكسوم نفوذها إلى الشاطئ الآسيوى للبحر الأحمر، بدلا من أن يقفز إليها - عبر اليهود- النفوذ الفارسى.

ولم يكن من السهل أن يغفر اليهود لبيزنطة دورها فى تدمير مملكتهم الناشئة فى جنوب شبه الجزيرة العربية، ولهذا فإنه بعد مضى أربع سنوات فقط على ذلك ، شرعوا فى تحدى الحكومة البيزنطية والخروج عن طاعتها ، عندما أعلنت جماعات السامريين اختيار جوليان Iu-lianus ملكا عليهم سنة ٥٢٩ ، وأوقعوا بالمسيحيين فى نابلس Neapolis وبيسان Scy-thopolis وقتلوا منهم أعدادا كبيرة [١٠٥]، منتهزين فرصة الحرب الدائرة يومئذ بين فارس وبيزنطة ، مؤملين أن يمد لهم الفرس يد المساعدة ، غير أن جوستنيان سرعان ما فوت عليهم هذه الفرصة بالدخول فى مفاوضات مع الفرس، وأوعز فى الوقت نفسه إلى الحارث بن جبلة ملك الغساسنة الذى كان يدين بالولاء لبيزنطة ، أن يتصدى لهذا التمرد اليهودى ، ونجح الحارث ومعه القوات البيزنطية فى إخماد هذه الفتنة وإعادة الهدوء إلى فلسطين [١٠٦].

١٠٣- EUSEB hist. eccl. V. 16 .

١٠٤- هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى ص٢١ حاشية ٢ .

١٠٥- لم تكن هذه هى المرة الأولى فى العصر البيزنطى ، التى يقدم اليهود فيها على إعلان مملكة لهم ، بل فعلوا ذلك من قبل على عهد الإمبراطور زينون (٤٧٤-٤٩١) واختاروا شخصا يدعى جوستوس Iustus ملكا عليهم ، واعتدوا على المسيحيين فى نابلس وقيسارية . غير أن هذه الفتنة قضى عليها بعد أن تخلص زينون من المشكلات التى واجهته فى أول عهده ، وجئ برأس جستوس وتاجه إلى الإمبراطور . أنظر .

PROCOP. Build. pp. 349-353 ; MALALAS , Chron. pp. 382-383 ; MICH. SYR. Chron II, pp. 148-149 ; Dubnov, history of the Jews, II, pp. 208-209 .

١٠٦- كانت الحكومة البيزنطية قد أصدرت على عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى عدة تشريعات سنة ٤٣٨ لصالح العقيدة المسيحية ، تقضى بحرمان اليهود السامريين من الوظائف العامة ، وعدم السماح لهم ببناء معابد جديدة، أو الدعوة لديانتهم. وفى سنة ٥٢٧ وهى السنة التى اعتلى فيها جوستنيان العرش ، كان أول شئ أقدم عليه الإمبراطور الجديد، هو تجديد تشريعات الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى، وأضاف إليها جواز مصادرة ممتلكات الوارثين من السامريين لصالح خزانة الدولة ، إلا أن يتحول هؤلاء إلى المسيحية . =

على هذا النحو كان جوستنيان يدرك ضرورة الأخذ على يد اليهود بشدة، حتى لايشكلوا له طابورا خامسا داخل دولته ، وعونا للفرس عليه، ومن ثم جاءت خطوته الهامة التالية ، وهى ضرب تجمع تجار اليهود فى جزيرة تيران عند مدخل خليج العقبة ، حيث كانت الجزيرة موضعا لتحصيل الجمارك فى الإمبراطورية ، وكان العائد سواء من التجارة أو حصيلة الخدمات التى تقوم عليها، تشكل دخلا وفيرا . وكانت أعداد اليهود فى هذه الجزيرة قد ازدادت بصورة تلفت الانتباه ، خاصة بعد تدمير مملكة ذى نواس وفرار عدد من اليهود اليمنيين إليها واحتمائهم بها ، إلى الحد الذى دفع التجار المسيحيين فيها إلى الاحتجاج على هذه المضايقات التى يلقونها من جانب اليهود ، ولقيت هذه الاحتجاجات آذانا صاغية لدى الإمبراطور جوستنيان ، فأقدم فى عام ٥٣٥ على تدمير هذه المستوطنة اليهودية ، وقضى على نفوذ اليهود فيها ، حتى يصبح الطريق التجارى البحرى من رأس البحر عند تيران والقلزم آمنا حتى مدخله فى الجنوب . وقد مثلت هذه الخطوة أهمية سياسية واقتصادية كبيرة لدى بيزنطة ، حتى أن مؤرخا مثل Sharf[١٠٧] اعتبرها تتمة طبيعية لتدمير مملكة ذى نواس فى اليمن .

وكان جوستنيان قبل ذلك ، وفى سبيل تأمين هذا الطريق التجارى، وتخليص تجارة الحرير من التبعية للفرس ، قد أرسل فى عام ٥٣١ / ٥٣٢ وفدا إلى مملكة أكسوم ، ليطلب إلى الأحباش أن يقوموا هم بشراء الحرير من الهنود ، ثم يقومون هم ببيعه للبيزنطيين، فيصبحون على هذا النحو وسطاء حلفاء ، بدلا من الفرس ، وتذهب إليهم الإرباح التى تجنيها منها فارس[١٠٨]. وقد أبدى الأحباش استعدادهم للقيام بهذا الدور ، غير أنهم كانوا فى الوقت نفسه عاجزين عن الوفاء بذلك ، حيث أن التجار الفرس ، الذين كانوا قريبين من مركز تجمع

= وإذ تزامنت هذه القرارات مع ضياع أمل اليهود فى إقامة مملكة لهم فى اليمن ، بعيدا عن سلطان بيزنطة ، أقدموا على إحداث هذه الاضطرابات . أنظر

PROCOP. hist. arc. p. . 97 ; ZACH. MET. Chron . p. 232 ; MALALAS, Chron. p. 455 ; CHRON. PASCH. p. 872 ; Parkes, A history of Palestine, pp. 79-81 ; Milman, history of the Jews, pp. 224 - 225 .

١٠٧- Byzantine Jewry, p. 33 .

١٠٨- PROCOP. Bell . Pers. I, pp. 193-195 .

الحرير فى سيلان ، درجوا على شراء كل شحنات الحرير القادمة من الصين ، فلم يجد تجار الأحباش شيئا يبتاعونه ، هذا بالإضافة إلى أن أهل سيلان الذين اعتادوا التعامل مع التجار الفرس منذ عهد بعيد ، لم يشاءوا الإساءة إلى هؤلاء عن طريق التعامل مع منافسيهم الجدد[١٠٩]. وهكذا ظل الفرس دون منازع ، يحتكرون هذه التجارة إلى ما بعد منتصف القرن السادس الميلادى ، حتى تمكن الإمبراطور جوستنيان ، الذى لم يفتأ يبذل المحاولات للخلاص من هذه التبعية الاحتكارية لفارس، والحصول على بيض دود القز وبذور شجر التوت ، عن طريق بعض الرهبان المسيحيين ، الذين كانوا قد توغلوا إلى وسط آسيا حتى مملكة خوتان Khotan وذلك حوالى عام ٥٥٢ للميلاد[١١٠].

غير أنه كان على بيزنطة أن تتحمل لسنوات طويلة قادمة، تحكم الفرس فى هذه التجارة ، لأن الطلب البيزنطى على الحرير الصينى ، كان يزداد بصفة مستمرة ، ولم يكن بمقدور هذه الصناعة البيزنطية الناشئة أن تفى باحتياجات الإمبراطورية للحرير، لاستخدامها المتزايد له- كما أسلفنا- فى الأغراض السياسية والاجتماعية على السواء، لهذا لم يكن أمام القسطنطينية والحالة هذه ، إلا أن تكثف نشاطها الدبلوماسى فى الجنوب عن طريق حلفائها الأحباش ، الذين يسيطرون الآن على ساحلى البحر الأحمر عند مدخله .

وفى سبيل ذلك جدد جوستنيان سفارته برئاسة مبعوثه جوليان حوالى سنة ٥٣١ إلى ملك أكسوم وإلى «السميفع» Esimiphaeus الذى يذكر المؤرخ المعاصر بروكوبيوس ، أن الأحباش قد اختاروه ليكون ملكا على حمير ، تحت نفوذهم ، خلفا لذى نواس[١١١] . وقد أمل الإمبراطور البيزنطى من وراء بعثته هذه أن يجد تجاوبا لدى الأحباش بهدف لفت أنظار الفرس إلى تلك المناطق عن طريق جرهم إلى الدخول فى مناوشات عند منطقة الخليج ، ليخفف الضغط على قواته عند الجبهة الشمالية الشرقية . وبلغت به الآمال مبلغا كبيرا عندما سعى جاهدا ليحقق تقاربا بين قوات الأحباش فى اليمن والقبائل العربية فى نجد ، مثل قبيلة

١٠٩- Id .

١١٠- PROCOP. Bell . Goth. II 17 وكان قد تم نقل هذه الصناعة إلى خوتان عن طريق زواج ملكها بأميرة صينية ، نقلت خلسة معها إلى مملكة زوجها دود القز وبذر التوت .

١١١- PROCOP . Bell . Pers . I . p . 193 .

«المعديين» Maddeni وذلك للتعاون من أجل الوصول بقواتهم معا إلى شرقى شبه الجزيرة العربية، تهديدا للأراضى الفارسية والنفوذ الفارسى [١١٢]. ورغم الوعود الطيبة التى عاد بها جوليان إلى سيده ، إلا أن شيئا من ذلك لم يتحقق ، فالأحباش- بغض النظر عن كونهم لايستطيعون مواجهة الجيوش الفارسية المتفوقة عليهم عددا وعدة ، لم يكونوا راغبين أصلا فى الدخول فى حرب مع الفرس على الجانب الشرقى لشبه الجزيرة العربية دون فائدة حقيقية ملموسة تعود عليهم، واعتبروا ذلك – على حد تعبير بروكوبيوس- صفقة المغبون ، فى الحرب[١١٣] ولم تكن القبائل العربية فى نجد بأقل من الأحباش تبصرا بنتائج هذه المغامرة غير المأمونة[١١٤] .

غير أن هذه الجهود الدبلوماسية البيزنطية المكثفة مع مملكة أكسوم وشيوخ القبائل العربية فى شبه الجزيرة ، لم تكن لتغيب عن أعين الساسانيين فى فارس ، وهم يقدرون تماما مدى خطورة امتداد النفوذ البيزنطى إلى قرب حدودهم الجنوبية الغربية . وإذا كانوا قد ضمنوا سيطرتهم الاحتكارية على طريق الحرير عبر وسط آسيا ، وحققوا نجاحا كبيرا فى استنزاف الخزانة البيزنطية عن طريق المكوس الجمركية على هذه التجارة وغيرها، والجزية السنوية التى يحصلون عليها ، فإنه لاضير أيضا أن يمدوا أصابعهم وأنفهم إلى هذه المنطقة ، حتى تكتمل حلقات الحصار الاقتصادى لأهم سلعة بالنسبة لبيزنطة فى زمانها ، حول عدوهم التقليدى الإمبراطورية البيزنطية .

١١٢- يذكر بروكوبيوس أن جوستنيان كان يظهر صداقته تجاه أحد سادات العرب يسميه «قيس» ، وقد منحه لقب Phylarchus وأراد أن ييسر له السيادة على قبائل نجد العربية ، ليمد بالتالى نفوذه إلى هذه المنطقة ، غير أن هذه المحاولة لم يقدر لها النجاح . أنظر PROCOP. Bell . pers. I, p. 193 .

وقارن فى ذلك كوبشيانوف ، الشمال الشرقى الأفريقى ، ص٩٥-١٠٩ .

١١٣- Id .

١١٤- Kawar , Byzantium and Kinda, p. 61 ; Bury, Later Roman Empire, II, p. 325 جواد على ، تاريخ العرب القديم ، جـ٣ ص٤٧٢ - ٤٧٣ .

من هنا كان الاحتفال بإتمام ترميم سد مأرب حوالى عام ٥٤٢ / ٥٤٣ فرصة سانحة كى يسارع الفرس بإرسال وفود التهنئة إلى أبرهة ، الذى غدا الآن حاكما فعليا مستقلا بحكم اليمن ، ضمن سيادة واهنة لملك أكسوم (١١٥). وحث الفرس حليفهم ملك الحيرة ، المنذر الثالث، أن يحذو حذوهم ، ففعل . ولم تكن بيزنطة لتترك الساحة للفرس على هذا النحو، فى منطقة تعتبرها ضمن مناطق نفوذها عن طريق حلفائها ؛ فقدم وفد الإمبراطور البيزنطى إلى اليمن تحف به وفود الحلفاء ، أعنى الحارث الغسانى وأبا كارب شيخ عرب فلسطين الثالثة(١١٦). هكذا وجد أبرهة نفسه محاطا برسل أقوى دولتين فى زمانه، ومن يدور فى فلكيهما، والكل جاء يخطب وده ويرجو مودته !! مما ترك أثرا بعيدا على شخصيته ، ظهر واضحا بعد ذلك فى سياسته . لكن الذى لاشك فيه أن كلا من فارس وبيزنطة، كان يطمح فى أن يفسح لنفسه نفوذا عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر . ولم يكن أبرهة نفسه بغافل عما يدور فى أذهان هؤلاء وأولئك ، وما تبديه أحاديثهم إليه ، ومن ثم أحسن استقبال الجميع ، لكن أيًا من الوعود التى قطعها على نفسه ، خاصة لمن هم على عقيدته ، لم يشأ أن يحقق منها شيئا .

١١٥- لم يستمر السميفع فى حكم اليمن تحت نفوذ الأحباش طويلا ، إذ سرعان ما ثار عليه الأحباش أنفسهم ، وأعقب ذلك الصراع بين أرياط وأبرهة، قائدى الحملة ، وتمكن أبرهة من هزيمة منافسه ، والانفراد بالسلطة. أنظر PROCOP. Bell . Pers. I, pp. 191-193 وتذكر المصادر العربية روايات طريفة حول هذه الناحية ، وهى أن ملك الحبشة عندما علم بأمر أبرهة ، أقسم أن يطأ أرض اليمن بقدمه، وأن يجز ناصية أبرهة ويريق دمه، فلما سمع أبرهة بذلك ، وضع حفنة من تراب اليمن فى وعاء ، وقص طرفا من شعر رأسه ، وسكب بعضا من دمه فى قارورة ، وأرسل بهذا كله مع رسالة إلى ملك أكسوم يحله من قسمه ، فهذه أرض اليمن ممثلة فى هذه الحفنة من التراب، ما عليه إلا أن يطأها ، وهذا دمه وشعره ، وتضيف الروايات أن ملك أكسوم أعجب بذكاء أبرهة ودهائه وحسن تصرفه ، ورضى عنه لقاء جزية سنوية يدفعها له، وبعد أن غمره بالهدايا الثمينة . أنظر ، ابن هشام : السيرة جـ١ ص٣٦ وما بعدها ، الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ٢ ص١٠٩ ؛ المسعودى مروج الذهب جـ٢ ص٧٨ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ١ ص٢٥٤ .

١١٦- Philiby, The Background of Islam , p. 122 .

ولمزيد من المناقشات عن هذه السفارات راجع ، كوبشيانوف، الشمال الشرقى الأفريقى ، ص١٣٩ وما بعدها .

لقد كان أبرهة يدرك من اجتماع هذه الوفود لديه كلها فى آن واحد، رغم العداء الذى يضمره كل منهم تجاه الآخر ، أن الدخول فى لعبة صراع القوى العظمى هذه، سوف تفقده مكانته المستقلة ومركزه الذى يتمتع به، في هذه المنطقة الحيوية لكل من القوتين ، وهو لم يتحرر من نفوذ سيده المباشر ، ملك أكسوم ، وإن كان قد أبقى على حبل ضعيف يتمثل فى الجزية ، ليقع فى أيدى الفرس أو البيزنطيين، وليدخل فى دوامة التبعية التى قد لايفيق منها أبداً ما دام الصراع قائما بين المعسكرين. ورغم أن هواه كان مع البيزنطيين بحكم العقيدة ، إلا أنه لم يغامر بإظهار العداء السافر تجاه الفرس تحسبا لقوتهم العسكرية التى يعلم أبرهة قدرها.

والغريب فى الأمر ، والذى يدعو للدهشة فى الوقت نفسه ، أن السياسة البيزنطية ساهمت، دون قصد ، على أن يسلك أبرهة هذا المسلك المتحفظ تجاهها ، بل والمستقل . فمن المعروف – كما قدمنا- أن السياسة البيزنطية كانت تعتبر الأسقف المسيحى رأس جسر طبيعى وضرورى للنفوذ السياسى للإمبراطورية ، فى أى منطقة من العالم المحيط بها، قرب أم بعد هذا العالم ، وطبقت ذلك الأسلوب باقتدار ونجاح فى مناطق كثيرة ، إلا أنها هنا سلكت - على غير عادتها- سلوكا مغايرا سبب لها بعض العراقيل فى طريق تدعيم النفوذ الذى تؤمله . وقد يبدو للوهلة الأولى من الرؤية السريعة للأحداث ، أن الدبلوماسية البيزنطية قد أصيبت هنا بقصر النظر ، لكن شيئا من ذلك ليس واردا فى عصر وصف فيه جوستنيان بأنه يعد بحق أستاذ الدبلوماسية البيزنطية(١١٧).

لقد كان الخلاف العقيدى - كما أسلفنا - قائما بين كنيسة القسطنطينية من ناحية ، وكنائس ولايات الإمبراطورية الشرقية فى سوريا ومصر من ناحية ثانية، وكانت كنيسة أكسوم تدين بما تؤمن به الأسكندرية ، وأصبح للأسكندرية منذ القرن الرابع الإشراف الرعوى على الكنيسة الحبشية ، ومن هنا توجه ملك أكسوم إلى تيموثى Timotheus الأسقف السكندرى (٥٢٠-٥٣٦) يطلب إليه أن يرسل من لدنه أسقفا ، له من المهابة ما لراعيه ، ليصحب الحملة المتجهة إلى اليمن (١١٨)، ولم يتوان تيموتى ، فأرسل على الفور أسقفا يصحبه عدد من

١١٧- راجع الفصل السابق .

١١٨- Shahid, Byzantium in South Arabia, p. 59 ويحاول عرفان شهيد أن يؤكد دائما على=

القسيسين ، بهدف إعادة تنظيم الكنيسة فى اليمن بعد الأحداث التى تعرضت لها على يد ذى نواس [١١٩]. ولاشك أن هذا الأسقف كان من أصحاب الطبيعة الواحدة ، إلا أن فترة مكثه هناك لم تدم طويلا، إذ سرعان ما مات ، ودارت المراسلات من جديد فى سبيل الحصول على من يرعى كنيسة اليمن بدلا منه .

غير أن هذه المراسلات توقفت فجأة ، وأعلن أبرهة رفضه استقبال أسقف جديد [١٢٠]، وكان ملك أكسوم قد سلك فى الوقت نفسه ذلك السبيل [١٢١]. بل إن الأمر وصل إلى حد قتل الأسقف الذى أرسله الإمبراطور البيزنطى إلى أكسوم بعد وصوله إليها بوقت قصير [١٢٢] ولاشك أن هذا التصرف من جانب ملكى أكسوم واليمن ، يعود إلى تغيير جذرى فى السياسة العقيدية أقدمت عليه القسطنطينية .

لقد كان الإمبراطور جوستنيان يضع نصب عينيه مبدأ لايبغى عنه حولا ، يتلخص فى القول بدولة واحدة وقانون واحد وكنيسة واحدة، وفى النقطة الأخيرة ، فإنه بإيمانه المطلق لقيصرية البابوية Caesaropapism كان يعتقد يقينا بأنه وحده له الحق فى اختيار المذهب الذى تدين به رعيته . غير أن السياسات الدولية فى زمانه اضطرته فى كثير من الأحيان إلى عدم الثبات على اتجاه واحد فى المسألة الدينية. كان الإمبراطور كما يصفه المؤرخون ، آخر الأباطرة الرومان[١٢٣]، رومانى القلب والقالب . كان قلبه يهوى الغرب، لكن بصره كان معلقا بالشرق، وبين قلب الإمبراطور وبصره ، تأرجحت فى العقيدة سياسته .

= الدور السورى فى جنوب الجزيرة العربية ، ويجعله متفوقا على التأثير الحبشى ، ويعلل ذلك بعاملين : أولهما التوافق المذهبى يعنى الطبيعة الواحدة !! وثانيهما رابطة الدم التى تربط- - على حد قوله- بين البيت الغسانى فى سوريا ، وبيت الحارث فى نجران ، وهو الذى كانت له الزعامة بين المسيحيين هناك حتى عهد ذى نواس . Ibid. 58

١١٩- IOAN. EPH. hist. eccl. III , pp. 323 ff .

١٢٠- Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 302 .

١٢١- Neale, A history of the holy Eastern Church, II, p. 36 .

١٢٢- Sellassie, Ancient and Medieval Ethiopian history p. 142 .

١٢٣- هسى . العالم البيزنطى ، ترجمة رأفت عبد الحميد ص١١٨ .

فقد أقدم جوستنيان فى أول عهده على ممالأة أصحاب الطبيعة الواحدة ، أو بتعبير أدق ، أهالى الولايات الشرقية ؛ ذلك أنه كان مقدما على الدخول فى حرب «المناوشات» مع فارس ، ومن ثم حرص على استرضاء أهالى هذه الولايات ، حتى لايسمح للنفوذ الفارسى أن يمتد إليهم، فيشكلون شوكة فى ظهره أثناء مواجهته للفرس ، حتى إذا انتهى الأمر بعقد معاهدة السلام الدائم عام ٥٣٢ ، وأمن جوستنيان - ولو إلى حين- جانب الفرس، وبدأ مشروعه الضخم لاسترداد ولايات الغرب ، أصبح فى حاجة ماسة للحصول على تأييد البابا فى روما ، حتى يضمن وقوف شعب الكنيسة الرومانية فى ولايات الغرب إلى جانبه . ولما كانت كنيسة روما تدين بالخلقيدونية ، فقد أدار ظهره الآن لكنائس الشرق ورعاياها ، وراح يعزل الأساقفة المنافرة فى القسطنطينية والاسكندرية وأنطاكية ، ويحل محلهم أساقفة خلقيدونيين [١٢٤].

وكان الأسقف السكندرى ثيودوسيوس الأول Theodosius I (٥٣٦-٥٣٨) الذى خلف تيموثى ، ممن شملهم قرار العزل ، ليحل محله أسقف جديد يدعى بولس (٥٣٨-٥٤٢) يدين بالمذهب الخلقيدونى [١٢٥]. ولعل هذا هو الذى يفسر لنا الآن ، إقدام كل من ملك أكسوم وملك اليمن على رفض استقبال الأساقفة الخلقيدونيين الذين أرسلهم جوستنيان أو حاول إرسالهم ، وظلت كنيستا أكسوم واليمن شاغرتين قرابة خمسة وعشرين عاما [١٢٦].

ورغم أن أبرهة كتب إلى الإمبراطور جوستنيان، يطلب إليه إرسال أساقفة يكون المسيحيون هناك على استعداد للتعامل معهم، أى يدين بمذهبهم ، إلا أن جوستنيان رفض ذلك ، أو لعله

١٢٤- راجع تفاصيل السياسة العقيدية للإمبراطور جوستنيان فى :

Jones, Later Roman Empir, I, pp. 285-287, 296-298 .

١٢٥- تعاقب على كرسى الأسكندرية الأسقفى طيلة عهد جوستنيان ، عدد من الأساقفة الخلقيدونيين ، هم على التوالى : بولس (٥٣٨-٥٤٢) زويلوس Zoilus (٥٤٢-٥٥١) ، أبولليناريوس Appollinarius (٥٥١-٥٧٠) ونلاحظ أن جوستنيان ظل يحارب فى إيطاليا من أجل استعادتها حتى عام ٥٥٥ ، ثم انتقل بعد ذلك إلى إسبانيا . ومن ثم كان حريصا على أن يظل فى جانب الخلقيدونية كسبا لعطف البابوية. ومن الجدير بالذكر أن المصريين كان لهم أسقفهم المونوفيزيتى خلال هذه الفترة أيضا يقيم فى حمى رهبان وادى النطرون . أنظر . Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 302 n . 39

١٢٦- Neale, holy Eastern Church, II , p. 36 .

راح يماطل فى تحقيق هذا المطلب (١٢٧)، رغم أنه كان مهتما جدا- كما نعلم- باستمالة مملكتى أكسوم واليمن إلى صفه للوقوف معه فى صراعه مع فارس. غير أن حلم الإمبراطور البيزنطى وطموحه لاسترداد ولايات النصف الغربى من الإمبراطورية ، أملى عليه سياسته العقيدية على هذا النحو ، مما أعطى الفرصة لأبرهة نفسه ، أن ينهج نهجا مستقلا إلى حد بعيد فى سياسته الخارجية ، وإن كان هذا لم يؤد بالضرورة إلى تقطع حبائل العلاقات الودية بين القسطنطينية وصنعاء .

ولقد كان مما يعنى القسطنطينية فى المقام الأول ، أن يظل نفوذها السياسى ممتدا إلى هذه المنطقة ، وأن يبقى أبرهة حليفا ضد المدائن، بل إن أبرهة نفسه كان حريصا الحرص كله على أن تظل علاقاته السياسية والاقتصادية طيبة مع بيزنطة ، حتى يضمن وقوفها دائما إلى جانبه ، خاصة وهو يعلم أن ملك أكسوم لم يكن ليغفر له استقلاله بالأمر دونه فى اليمن(١٢٨) ، وإن كانت ظروفه العسكرية لم تسمح له بالتخلص منه. ولذا لم يترك أبرهة الفرصة لهذه الخلافات المذهبية بين صنعاء والقسطنطينية أن تؤثر فى طبيعة العلاقات بين الحليفين . بل إن بعض الباحثين يذهب إلى القول بأن أبرهة ربما يكون قد قبل فى نهاية الأمر أمام إصرار جوستنيان ، وحتى لايفقد صداقته، وجود أسقف خلقيدونى فى مملكته (١٢٩).

لقد كان أبرهة يدرك تماما الأهمية الاستراتيجية التى تحتلها المنطقة التى يسيطر عليها فى الجنوب الغربى لشبه الجزيرة العربية، ويعى بصورة واضحة المكانة التجارية التى تمثلها اليمن فى عالم الاقتصاد الدولى آنذاك، وبالتالى الصراع السياسى بين أكبر قوتين فى زمانه ، ورأى- كى يفلت من الدوران فى فلك أى منهما ، أن يحاول وضع قدم له بين العملاقين، وإذا كانت بيزنطة تسيطر بأسطولها فى القلزم وتيران على البحر الأحمر ، وتتحكم فارس بسفنها فى تجارة الخليج والمحيط الهندى حتى سيلان ، وبموقعها على الطريق البرى عبر وسط آسيا ، فلم لايقدم هو الآخر على البحث عن طريق يخضعه لسلطانه ، وهو الطريق الذى كان قائما منذ

١٢٧- Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 302 .

١٢٨- تخبرنا المصادر أن ملك أكسوم حاول القضاء على أبرهة والتخلص منه وإعادة اليمن إلى التبعية الحبشية المباشرة، إلا أن حملاته التى أرسلها لتحقيق هذا الهدف باءت بالفشل ، فاضطر للسكوت على مضض ورضى وإن كان دون اقتناع بالهدايا القيمة والجزية السنوية التى يرسلها إليه أبرهة . أنظر PROCOP. Bell . Pers., p. 197 وقارن حاشية رقم ١١٥ .

١٢٩- Shahid, Byzantium in South Arabia, p. 27 .

زمن بعيد ، والذى يبدأ من صنعاء ويتجه شمالا ليمر بالمدن الرئيسية كالطائف ومكة ويثرب إلى دمشق ، وهو الذى يربط اليمن بعالم البحر المتوسط ، والسيطرة على هذا الطريق تحقق دون شك فائدة اقتصادية هامة للجنوب العربى .

ولاشك أن إقدام أبرهة على نقل عاصمة اليمن من ظفار (حاضرة الحميريين) إلى صنعاء التى تقع إلى الشمال ، كان خطوة على هذا الطريق، وامتد اهتمامه إلى مأرب ليعيد ترميم سدها الشهير ، ويقيم فيها قصرا وكنيسة [١٣٠]. وكانت الخطوة التالية بلوغا إلى الشام، تعنى القفز على مكة ، المركز التجارى الهام لمنطقة شبه الجزيرة العربية كلها، وقبلة الحجيج إلى الكعبة بأوثانها قبل الإسلام، ومنتدى الشعراء والفصحاء والبلغاء بأسواقها الثقافية .ولم يكن الوثوب إلى مكة آنئذ بالأمر الهين أو اليسير ، فهذا يعنى أن تتوحد القبائل العربية الوثنية كلها ضد ذلك الملك المسيحى الذى يريد بهم وببلدهم وآلهتهم شرا مستطيرا ، حتى وإن لم يؤد هذا التوحد إلى احتجاج عملى حاسم، فإنه سوف يحمل فى جوهره مشاعر عدائية بالغة تجاه أبرهة، فى وقت كان هو وحلفاؤه البيزنطيون حريصين على استمالة هذه القبائل ضد عدوهم المشترك ، الفرس. وكان جوستنيان من جانبه قد سار فى ذلك خطوات واضحة واسعة، فالغساسنة يمثلون بالنسبة له، خط دفاعه الأول ضد فارس ، أو بتعبير آخر «دولة حاجزة» فى مقابل المناذرة اللخميين فى الحيرة ، الذين كانوا يلعبون الدور نفسه بالنسبة للفرس . ونادرا ما كان العداء بين القبيلتين العربيتين يتوقف حتى فى أوقات الهدنة بين فارس وبيزنطة !!

ولم يتردد جوستنيان فى أن يخلع على الحارث بن جبلة لقب الملك عام ٥٣٠ ، جزاءً الحسنى على ما أظهره من ولاء للإمبراطورية أثناء حروبها مع فارس [١٣١]، واشتراكه مع القوات الرومانية فى إخماد فتنة اليهود عام ٥٢٩ . وفعل الإمبراطور نفس الشئ أيضا مع أبى كارب بن جبلة الذى كان يسيطر على عرب فلسطين الثالثة ، والغنية جدا بنخيلها مثل تيماء ، مثلها مثل مناطق بنى كلب فى الشمال من صحراء النفود . وقد اعترف به جوستنيان حاكما معاهدا Foederatus على هذه المنطقة[١٣٢] التى تعود أهميتها أيضا إلى سيطرتها على

١٣٠- Sellassie, Ancient and Medieval Ethiopian history, P. 147 .

١٣١- بلغ من عظم شأن الحارث بن جبلة عند جوستنيان ، أنه نجح فى إقناع الإمبراطور بتعيين أسقفين من أصحاب الطبيعة الواحدة ، هما ثيودور ويعقوب على كنيستى بصرى والرها ، وهو شئ لم يفلح ملكا أكسوم واليمن فى الحصول عليه ، لتأييد الإمبراطور مذهب الطبيعتين . أنظر .

IOAN. EPH. Lives of the Eastern Saints, P. O. XIX , pp. 237 -238 .

١٣٢- PROCOP. Bell . Bers, I , XIX; hist. Arc. XI; MALALAS, Chron. XVIII .

المراكز التجارية الهامة للتجارة البيزنطية في البحر الأحمر ، مثل ميناء الحوراء وتيران ، شأنها في ذلك شأن تبوك وتيماء ومدائن صالح (١٣٣). هذا كله بالإضافة إلى سعي جوستنيان لاستمالة قبائل المعديين في نجد عن طريق استقطاب شيخهم قيس، الذين ذكرنا أمرهم آنفا .

وليس بخاف أن تجار مكة كانوا يقومون برحلتى الشتاء والصيف إلى اليمن والشام (١٣٤)، وأن هذا الأمر ، بالإضافة أصلا إلى وجود البيت الحرام ، قد رفع من قدر مكة وزعمائها القرشيين في أعين القبائل العربية كلها، وأصبح لهم من المكانة والمهابة قدرا كريما. ومن المعروف أيضا أنهم في رحلتهم إلى الشام كانوا يصلون إلى بُصرى ، حاضرة العربية الشمالية، بعد أن يدفعوا مكوسا معينة تسمح لهم بالمرور إلى الأراضي البيزنطية ، أو الواقعة في فلكهم. وعلى طبيعة هذه العلاقة التجارية كانت تتوقف العلاقات السياسية ؛ إذ قد يقع الضرر أحيانا بالتجار العرب من جراء زيادة المكوس الجمركية ، لكن بيزنطة كانت تحرص دائما على استرضاء عرب الحجاز هؤلاء ، لفتح المجال للتجار البيزنطيين للمرور عبر بلادهم إلى الجنوب ، أو لاستخدام نفوذهم ومكانتهم في نفوس القبائل لمنعهم من الإغارة على الحدود البيزنطية الجنوبية (١٣٥). ويذكر بعض الباحثين أنه كان يوجد في مكة بيوت تجارية بيزنطية تزاول الشئون التجارية الخاصة بالإمبراطورية ، كما كان فيها أحباش يرعون مصالح قومهم التجارية ، حتى عرفت مكة بأنها «بندقية العرب» (١٣٦)، هذا بينما كان الفرس يستعينون بعرب الحيرة لحماية قوافلهم التجارية المتجهة إلى قلب الجزيرة العربية (١٣٧).

١٣٣- TRimingham, Christianity among the Arabs, p. 276 Kawar, The Arab in the peace treaty of A. D. 561 , p. 182 .

١٣٤- أكد القرآن الكريم هذه الصلات التجارية بين مكة من ناحية واليمن والشام من ناحية أخرى في سورة قريش «لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف».

١٣٥- جواد علي : تاريخ العرب القديم جـ٢ ص٦٣٢ .

١٣٦- أحمد أمين : فجر الإسلام ص١٣ ؛ الحوفي : الحياة العربية من الشعر الجاهلي ص١٠١ . ومن الطريف ما يذكره بروكوبيوس من أن أبرهة كان عبدا وإن كان مواطنا رومانيا ، وكان يعمل في التجارة في ميناء عدول PROCOP. Bell pers. I, p. 191 ويرجح Sellasie أنه يكون أبرهة هذا هو الممثل التجاري للملك الحبشي كالب في هذا الميناء. راجع . Ancient and Medieval Ethiopian history, p. 135

١٣٧- الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي ص١٠٠ .

وقد ساعد هذا كله زعماء مكة على عقد معاهدات تجارية مع الشعوب المجاورة ، فعقد بنو عبد مناف معاهدات لقريش ، منها مثلا ما عقده هاشم مع ملوك الشام ، وما عقده عبد شمس مع ملك الحبشة، ونوفل مع فارس ، والمطلب مع حمير ، ليفد العرب على هذه البلاد كلها[١٣٨]، لهذا كله كانت مكة تشكل بموقعها الجغرافي ومركزها الاقتصادي ومكانتها السياسية ، أهمية خاصة لدى البيزنطيين والأحباش في اليمن على السواء؛ فالقسطنطينية تعتبرها واسطة العقد في سلسلة مناطق النفوذ بلوغا إلى الجنوب ، بينما أبرهة ينظر إليها ضمن منطقة تهامة كلها والمنطقة الساحلية، على أنها بصورة تقليدية واقعة ضمن مناطق سيادة حكام اليمن ، من ناحية كونها ضرورية لتأمين الطريق التجاري الذي يصلهم بالشام .

لم يكن أمام أبرهة إذن والحالة هذه، إذا أراد تجنب سخط القبائل العربية، لما قد يحدثه وثوبه على مكة ، إلا أن يسلك سلوكا آخر يفضي إلى تقليص دور مكة التجاري تدريجيا ، ونقله إلى صنعاء ، وصرف أنظار العرب عنها عقيديا ببناء كنيسة في عاصمة ملكه ، يطوف العرب بها كما يفعلون عند الكعبة في مكة ، فيضمن بذلك أيضا تحويلهم إلى المسيحية. وشمر ملك اليمن عن ساعد الجد ، فابتنى كنيسة ضخمة في صنعاء[١٣٩] عرفت باسم «القليس» Al - Qullais[١٤٠] ونقل إليها بعض آثار شهداء نجران ليضفي عليها- كما للكعبة- نوعا من القداسة[١٤١]، وأصدر عددا من المراسيم يوجب بمقتضاها على العرب

١٣٨- الطبري ، تاريخ الأمم والملوك جـ٢ ص١٨٠ ويضيف قوله : «فجبر الله بهم قريشا ، وأصلح أحوالها ، وأفاء عليها كثيرا من الخيرات فسمي هؤلاء الأربعة المجبرين».

١٣٩- يناقش عرفان شهيد مسألة بناء هذه الكنيسة في صنعاء ، ويقدم آراء أخرى ترى بناءها في ظفار أو نجران .. لمعرفة ذلك راجع : Shahid, Byzantium in south Arabia, p. 81

وقارن الأزرقي ، أخبار مكة جـ١ ص١٣٩ ؛ الدينوري ، الأخبار الطوال؛ ص٦٢ ، ياقوت ، معجم البلدان جـ٣ ص٥٧٧ .

١٤٠- هذه الكلمة تصحيف للكلمة اليونانية Ecclesia ولمزيد من التفاصيل عن وصف هذه الكنيسة ، راجع . بتلر ، فتح العرب لمصر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد ، ص١٣٤ .

١٤١- Shahid , Byzantium in South Arabia, pp. 81-82 .

الخاضعين لسلطانه ، الحج إلى هذه الكنيسة، بينما أرسل بهذا المعنى وفودا إلى المناطق العربية الخارجة عن نفوذه ، مؤملا بذلك أن يحول الحجيج من مكة إلى صنعاء[١٤٢].

وداعبت الأحلام والآمال أبرهة فى أن ترث صنعاء مكة، وأن تحل المسيحية محل الوثنية ، متناسيا أن الصحراء العربية الواسعة وقفت حائلا منيعا أمام امتداد المسيحية إلى داخل شبه الجزيرة العربية بعد أن وقفت عند أطرافها فقط[١٤٣]. وبالتالى نجت من الوقوع تحت السيادة البيزنطية . بالإضافة إلى أن طبيعة المسيحية نفسها لم تكن تتفق فى كثير من جوانبها مع واقع الحياة القبلية عند العرب . ورغم احتكاك التجار العرب فى رحلتى الشتاء والصيف ، بالمسيحيين فى اليمن والشام ، إلا أن سادات مكة حافظوا على وثنيتهم ، لارتباطها بمركزهم السيادى بين القبائل العربية، باعتبارهم سدنة الكعبة وحماة الأرباب. ومن ثم كان أمرا دونه خرط القتاد أن تولى القبائل العربية مكة دبرها متحرفة إلى صنعاء ، حتى وإن فاقت كنيستها الكعبة بهاء وفخامة .

وأدرك أبرهة بمضى الوقت أن مشروعه الضخم هذا لن يكتب له النجاح ، وأنه إذا بقيت مكة وكعبتها، فلن تقوم لصنعاء و «قليسها» قائمة . ومن ثم فقد عزم على أن ينفذ ما كان من قبل يراوده، من القفز مباشرة على مكة للقضاء على مكانتها سياسيا واقتصاديا وعقيديا فى نفوس القبائل العربية ، وليخلو الجو لمنافستها صنعاء . هذا بالإضافة إلى أنه سوف يحقق بذلك لنفوذه امتدادا سياسيا يصله مباشرة بالممتلكات البيزنطية فى جنوب الشام وشمال

١٤٢- Sellassie, Ancient and Medieval Ethiopian history ,p. 151 ويذكر الطبرى أن رجلا يدعى محمد بن خزاعة الزكوانى، قدم على أبرهة فى نفر من قومه ، يلتمسون فضله ، فأمّره أبرهة على مكة ، وأمره أن يسير فى الناس فيدعوهم فى جملة ما يدعوهم إليه إلى حج القليس ، فسار هذا حتى إذ نزل ببعض أرض بنى كنانة ، وقد بلغ أهل تهامة أمره ، وما جاء له، بعثوا إليه رجلا من هزيل يقال له عروة بن حياض الملاحى، فرماه بسهم فقتله وتفرق أصحابه . راجع تاريخ الأمم والملوك جـ٢ ص١١٠ وأيضا تفسير الطبرى جـ٣ ص١٩٣ .

١٤٣- كانت بعض القبائل العربية مثل جذام وتغلب وعاملة على المسيحية ، لكنها مسيحية سطحية ، ولاشك أن السرعة التى اعتنقت بها هذه القبائل الإسلام ، تعد دليلا على رقة إيمانهم بالمسيحية وسطحيته . أنظر عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربى جـ١ ص٦٣ .

شبه الجزيرة . ومما لاريب فيه أن الإمبراطورية البيزنطية نفسها كانت تجد فى هذه الحملة التى يشنها أبرهة على مكة لإخضاعها لسلطانه ، خطوة فى سبيل تحقيق أهدافها بالوصول إلى الجنوب العربى عن طريق ربط هذه المناطق ببعضها ابتداء من فلسطين الثالثة ووصولا إلى أقصى الجنوب في اليمن ، مرورا بمكة . ويعلق جواد على على ذلك بقوله : «وهكذا يحقق البيزنطيون والأحباش نصرا سياسيا واقتصاديا كبيرا ، فيتخلص البيزنطيون بذلك من الخضوع للأسعار العالية التى يفرضها الساسانيون على السلع التجارية النادرة المطلوبة ، والتى احتكروا بيعها لمرورها ببلادهم، إذ سترد إليهم من سيلان والهند رأسا عن طريق بلاد العرب[١٤٤].

ورغم ما تورده المصادر العربية ، من أن قيام أبرهة بمهاجمة مكة ومحاولة هدم الكعبة ، إنما جاء انتقاما لما أوقعه أحد رجال كنانة بالقليس [١٤٥]، إلا هذا لايمكن مطلقا أن يكون سببا كافيا لهذه الحملة، حتى وإن صحت الرواية . لكن علينا أن نبحث عن هذه الأسباب فى محاولة بسط نفوذه السياسى على هذه المنطقة الهامة ، استكمالا لسيادته على اليمن واستقلاله بها عن ملك أكسوم ، ولتحقيق الرخاء الاقتصادى لدولته فى الجنوب العربى، وإسهاما فى الوقت نفسه فى تحقيق آمال حلفائه البيزنطيين بالتخلص من الاحتكار التجارى الفارسى للسلع الثمينة والهامة للإمبراطورية البيزنطية .

ولاشك أن نجاح أبرهة فى مد نفوذه إلى مكة ، ووصل ما بينه وبين ممتلكات البيزنطيين فى الشام ونفوذهم فى أقصى شمال شبه الجزيرة العربية ، كان يشكل للدولة الفارسية تحديا خطيرا من الناحيتين السياسية والاقتصادية ، إذ تصبح هذه القوة الجديدة خصما مخيفا لفارس[١٤٦]

١٤٤- جواد على ، تاريخ العرب القديم جـ٣ ص٥١٧-٥١٨ .

١٤٥- تذكر المصادر العربية أن رجلا من بنى مالك بن كنانة ، أغاظه ما أغاظ العرب من بناء هذه الكنيسة ، فخرج حتى قدم اليمن، فدخل الهيكل فأحدث فيه. فغضب أبرهة وأجمع على غزو مكة وهدم البيت!! راجع ابن هشام ، السيرة جـ١ ص٤٣-٤٦ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك جـ٢ ص١١٠ ؛ الأزرقى، أخبار مكة . ص١٣٨-١٤٠ .

١٤٦- Benjamin, Story of persia, p. 233 .

وقارن كوبيشيانوف (الشمال الشرقى الأفريقى ص١٤٧) الذى يقول إنه ليس هناك سبب مفهوم لهذه الحملة، وإن كان فى الوقت نفسه يعزوها إلى أنها تمت بإيعاز من الحكومة الفارسية وحلفائها ملوك الحيرة . وهذا رأي لايتفق مع طبيعة الأحداث .

خاصة إذا دانت القبائل العربية فى نجد والمناطق المجاورة لها على ساحل الخليج بالسيادة للبيزنطيين والأحباش (١٤٧)، ولهذا كانت فارس تنظر بعين الحذر الدائم، والقلق والترقب ، لكل ما يجرى حولها فى منطقة شبه الجزيرة العربية .

غير أن الحملة الضخمة التى قادها أبرهة بنفسه إلى مكة ، ووفر لها الاستعدادات العسكرية الضخمة ، وجلب لها الأدلاء تيسيرا للمسيرة فى دروب لايعرفها ، أصيبت بالفشل، وحققت إخفاقا كاملا(١٤٨) ولم ينج من جيش أبرهة الضخم إلا النذر اليسير ، حتى أبرهة نفسه ما لبث أن مات ، وقد تقطعت أكباده فرقا وحزنا على هذه الخسارة الفادحة التى منى بها ، وعلى ضياع آماله وطموحاته ! ولم يكن لدى البيزنطيين آنذاك القدرة على مد يد العون له، كما حدث عند الغزو الحبشى لليمن ؛ فقد كانت بيزنطة غارقة حتى آذانها فى مشاكل حدودها مع جيرانها التى لاتنتهى أبدا(١٤٩) بالإضافة إلى الاستنزاف المادى الذى كانت تتعرض له من جراء الجزية الذهبية السنوية التى تقدمها لفارس . وقبل هذا كله كانت الدوائر العسكرية البيزنطية تضع نصب عينيها الإخفاق الذى حاق بالحملة الرومانية التى قادها والى مصر آيليوس جاللوس فى نهايات القرن الأول قبل الميلاد، بسبب الطبيعة الجغرافية القاسية لهذه المناطق . ورغم ما اعترى بيزنطة من خيبة الأمل لفشل هذه الحملة الحبشية، إلا أن آمالها هناك لم تخبُ أبدا .

١٤٧- كانت هناك بعض الصلات بين المنذر الثالث ملك الحيرة ، وجوستنيان، فقد حصل المنذر فى بعض الأحيان على الجزية من الإمبراطور البيزنطى ، وكان قادرا على التعامل معه دون تدخل الملك الفارسى، بل إن هناك مراسلات دارت بين المنذر وجوستنيان كان واضحا منها أن جوستنيان يحاول استخدام دهائه الدبلوماسى لاستمالة المنذر إلى صفه أو على الأقل زعزعة الثقة بينه وبين الملك الفارسى، وقد وقعت بعض هذه المراسلات فى يد كسرى أنوشروان مما أفقده لبعض زمن، الثقة فى ملك الحيرة . أنظر PROCOP. Build. p. 163, hist. arc. p. 50; Trimingham , Christianity among the Arabs, p. 198 .

١٤٨- يربط المفسرون المسلمون هذه الحملة وفشلها بمولد الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ، ويطلقون على هذا العام عام الفيل ، ويستدلون على ذلك بخبر أصحاب الفيل الذى ورد ذكرهم فى القرآن الكريم فى قول الله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم فى تضليل . وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول» . وتختلف الروايات فيما بينها ، وبين القدامى والمحدثين حول السنة التى وقعت فيها هذه الحملة . وليس هنا مجال الخوض فى مثل هذه الآراء.

١٤٩- هسى ، العالم البيزنطى، ترجمة رأفت عبد الحميد ص٢٤٩ .

على أن أهم ما فى الأمر ، أن هذا الفشل، إنعكس بصورة واضحة على الوجود الحبشى نفسه فى الجنوب العربى، وبالتالى المصالح البيزنطية ؛ فقد خلف أبرهة ولداه يكسوم ومسروق على التوالى، ولم يكن لأيهما شخصية أبيه. فوقعت اليمن فى الفوضى وشهدت الكثير من الاضطرابات ، وبدأت القبائل العربية فى الجنوب ، والتى لم تكن راضية أصلا عن هذا الغزو الحبشى المسيحى لليمن ، ترفع رأسها مثيرة العقبات فى وجه ولدى أبرهة . ولم تكن الحبشة فى وضع يسمح لها باستعادة نفوذ لها كان قد حرمها منه أبرهة .

وهكذا سمحت وقائع الأحداث لواحد من أذواء اليمن ، ينتمى لأسرة عريقة ، هو سيف بن ذى يزن ، أن يعمل فكره فى كيفية استغلال هذه الفوضى السياسية والضعف العسكرى للوجود الحبشى فى اليمن ، للتخلص من هذا الاحتلال. ولم يكن الرجل بغافل عن لعبة الصراع الدولى بين فارس وبيزنطة حول المنطقة ، ولذا رأى هو الآخر، كما رأى نواس الحميرى اليهودى، وكما فعل المسيحيون فى نجران من قبل ، ضرورة الاستعانة بإحدى هاتين القوتين العظميتين لتحقيق أهدافه .

والذى يلفت الانتباه ، تبعا لما ورد فى المصادر التاريخية ، أن سيف بن ذى يزن ، قد التجأ فى أول الأمر إلى الإمبراطور البيزنطى ليساعده فى طرد الأحباش من اليمن ، غير أن الإمبراطور رفض ، وكان طبيعيا أن يرفض هذا المطلب، متعللا بأنه يتفق والأحباش فى العقيدة ، ومن ثم فلا يمكنه تحقيق ما جاء من أجله الزعيم اليمنى (١٥٠). وقد يبدو هذا الأمر غريبا لأن سيف بن ذى يزن كان يعلم بالعلاقات التى تربط بين الإمبراطورية البيزنطية والأحباش . ويقدم أحد الباحثين اليمنيين رأيا طريفا لتفسير هذا الذى أقدم عليه سيف، فيقول: «إنه عندما ذهب وجهاء القوم إلى قيصر الروم ، لم يكونوا ينوون حقيقة الاستعانة بهم، لعلمهم مسبقا أنه مسيحى يناصر الأحباش ، وإنما كان الهدف تخفيف الضغط ومساومته بالخداع وتقليل مساعدته للأحباش على أقل الأحوال »، ويضيف : «واليمنى ذكى بالطبع، عالم بمجارى السياسة ونتائجها ، فلايغامر مغامرة كهذه غير عارف بمصائر الأمور»(١٥١).

١٥٠- ابن هشام ، التيجان فى ملوك حمير ص٣١٥، السيرة جـ١ ص٦٥؛ الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك جـ٢ ص١١٤ وما بعدها؛ المسعودى، مروج الذهب جـ٢ ص٨٠، ابن الأثير، الكامل فى التاريخ جـ١ ص٢٦٣ .

١٥١- محمد الأكوع الحوالى ، اليمن الخضراء ، ص٤١٩ .

لكن المسألة لاتبدو بهذه البساطة المفرطة التى يفترضها الباحث اليمنى، فليس من المنطقى أن يضيع الزعيم اليمنى وقته وينفق جهده عبثا ، من أجل أن يخفف من تأييد البيزنطيين للأحباش ، فى وقت كان فيه البيزنطيون لايملكون الرغبة وليس عندهم الاستعداد ، أن يقذفوا بجزء من جيوشهم العاملة على الحدود الطويلة، الساخنة أبدا ، إلى هذه الأراضى البعيدة بجغرافيتها الصعبة، وحملة آيليوس جاللوس ماثلة أمام ناظريهم كما أشرنا ، بالإضافة إلى أن إدارة الخارجية البيزنطية باتت مقتنعة تماما أن الأحباش فى اليمن أمسوا فى موقف لايحسدون عليه بعد هزيمة أبرهه عند مكة وموته ، وأن دورهم فى هذه المنطقة قد تقلص ولم تعد له قيمة تذكر .

وهذه النقطة الأخيرة بالذات هى التى تجعلنا نختلف فى الرأى تماما مع الباحث اليمنى صاحب هذا الرأى ، ونذهب مباشرة إلى القول بأن التجاء سيف بن ذى يزن إلى الإمبراطور البيزنطى ، جاء بوعى كامل لما يفعله ، وإدراك حقيقى لطبائع الأمور . فما دام التخلص من النفوذ الحبشى الاجنبى لن يتم - على الأقل فى تلك الظروف - إلا بالاستعانة بإحدى المعسكرين، ضمن لعبة الصراع بين القوى العظمى على مناطق النفوذ ، والتى لابد أن سيفا كان يدرك أبعادها تماما ، إذن فمن الأجدى ، بل ومن الطبيعى ، أن يستعين بصاحب المصلحة الحقيقية والمباشرة فى المنطقة ، أعنى البيزنطيين . وإذا كان للفرس اهتماماتهم الكبيرة بما يجرى ليس بعيدا عن حدودهم الجنوبية الغربية ، وما يمثله من أهمية اقتصادية تدعم سيادتهم الاحتكارية على طرق التجارة الذاهبة إلى بيزنطة ، إلا أن الإمبراطورية البيزنطية كانت تعتبر هذه المنطقة جزءاً حيويا وهاما جداً فى صراعها مع فارس ، سياسيا واقتصاديا ، لايقل أهمية عندها عن لازيقا أو ابيريا أو أرمينيا .

فاليمن - بغض النظر عن أهميتها فى حد ذاتها لبيزنطة ، إلا أنها فى الوقت نفسه مفتاح البحر الأحمر من ناحية الجنوب ، وصولا إلى مصر، أهم ولايات الإمبراطورية آنذاك من الناحيتين السياسية والعسكرية، ناهيك طبعا عن الناحية الاقتصادية ، إذ كانت «قبو الحنطة» أو «صومعة الغلال» بالنسبة للقسطنطينية (١٥٢)، وهى ليست عن طموحات الفرس ببعيد،

١٥٢- للوقوف على خطورة هذا الأمر فى السياسة البيزنطية عندئذ ، راجع رأفت عبد الحميد ، مصر والعرش البيزنطى ، بحث منشور ضمن كتاب مصر والبحر المتوسط ، القاهرة ١٩٨٥ .

ولن تفتأ فارس تسعى لضرب بيزنطة فيها ، حتى تحقق لها ذلك فى بدايات القرن السابع الميلادى، خلال السنوات الأولى من عهد الإمبراطور البيزنطى هرقل Heraclius (٦١٠-٦٤١). ومن ثم كانت المصالح البيزنطية في اليمن، لاتقف عند حد الأهمية الاقتصادية ، التجارية بصفة خاصة، أو امتداد النفوذ السياسى فى الصراع مع فارس ، بل لكونها كما ذكرنا توا ، مفتاح البحر الأحمر من الجنوب وصولا إلى «مخزن الغلال» فى شماله .

لهذا لم يكن غريبا أن يذهب سيف بن ذى يزن إلى الإمبراطور البيزنطى يرجو عونه فى طرد الأحباش ، فى مقابل أن يتعهد هو نفسه بحماية المصالح البيزنطية فى المنطقة . وهذا هو ما يقوله ابن هشام بالحرف الواحد ، حيث يذكر «أن سيف بن ذى يزن قدم إلى قيصر الروم يشكو إليه ظلم الأحباش ويعنيه بالسيادة على اليمن»(١٥٣) والعبارة الأخيرة لاتدع مجالا للشك فى أن سيفا فعل ذلك وهو يعلم تماما حقيقة المصالح البيزنطية فى المنطقة. ولعل هذا هو الذى يفسر طول مُكثه فى القسطنطينية ، والذى امتد قرابة سبع سنوات ، إذا صحت رواية المسعودى(١٥٤) مؤملا أن يستجيب الإمبراطور لمطلبه ، وليس من المستبعد أيضا أن تكون القسطنطينية نفسها هى التى تعمدت استبقاء الزعيم اليمنى مقيما فيها طيلة هذه السنوات، وذلك أسلوب شاع استخدامه كجزء أساسى من قواعد الدبلوماسية البيزنطية، مع زعماء الشعوب والدول والقبائل الذين يفدون إلى العاصمة البيزنطية يخطبون ودها. إلا أن الإمبراطور البيزنطى، رغم اقتناعه- كما نفترض - بوجهة نظر سيف بن ذى يزن، إلا أنه لم يشأ أن يمد له يد عونه، ليس كما يذهب البعض(١٥٥) بسبب العلاقات بين فارس وبيزنطة نتيجة توقيع معاهدة السلام الأخيرة ، لأن فارس نفسها لم تحترم هذه المعاهدات عندما تحول إليها سيف مستنجدا ، ولكن لما فصلناه سابقا من ظروف بيزنطة وسياستها .

وجد سيف بن ذى يزن نفسه مضطرا إذن أن يولى وجهه شطر القوة الكبرى الأخرى ، فارس(١٥٦)، وتمكن مؤخرا من الحصول على عون كسرى أنوشروان الذى أمده بقوة عسكرية

١٥٣- ابن هشام ، السيرة جـ١ ص٦٥ ؛ الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ٢ ص١١٥ .

١٥٤- المسعودى ، مروج الذهب جـ٢ ص٨٠ .

١٥٥- Sellassie, Ancient and Medieval Ethiopian history , p. 157 .

١٥٦- وقد جاء فى الحوار الذى دار بين سيف بن ذى يزن وكسرى أنوشروان، قول سيف : «... أيها=

قادها وهرز Wahriz ، تمكنت من هزيمة «مسروق» وقضت على قوة الأحباش باليمن . وكتب القائد الفارسى إلى سيده يخبره بذلك، فبعث إليه كسرى يأمره أن يملك سيف بن ذى يزن على اليمن وأرضها ، وفرض كسرى على سيف جزية سنوية وخرجا يؤديه إليه فى كل عام ، وكتب إلى وهرز أن ينصرف إليه [١٥٧]. ولاشك أن هذه السياسة التى اتبعها الفرس فى اليمن ، وعودة قائدهم بقواته إلى فارس ، تضيف دليلا قويا على صدق ما ذهبنا إليه الآن عن ذهاب سيف بن ذى يزن إلى إمبراطور بيزنطة أولا . فهو الآن أمسى تابعا لفارس يؤدى إليها جزية سنوية ، وكان على استعداد أن يلعب نفس الدور مع بيزنطة ، صاحبة المصلحة الحقيقية فى المنطقة ، من أجل التخلص من الاحتلال الحبشى. ولو لم تكن فارس على يقين بأن بيزنطة غير راغبة وغير مستعدة للتصدى لها عسكريا ، لفكرت كثيرا قبل أن تقدم على هذا العمل العسكرى ضد الأحباش حلفاء بيزنطة.

بل لقد ذهبت فارس إلى أبعد من ذلك عندما أقدمت على الاحتلال الفعلى لليمن وتوابعها وضمها إلى دائرة نفوذها وسلطانها تماما ، بعد مقتل سيف بن ذى يزن ومحاولة الأحباش استرداد نفوذهم ثانية[١٥٨]. ولم يأت الفرس هذه المرة بدعوة من أحد ، إنما جاءوا بدوافع مصالحهم السياسية والاقتصادية ، وليحققوا بذلك كسبا هاما فى هذه المنطقة الحيوية ، دون أن يلقوا مقاومة من جانب الإمبراطورية البيزنطية ، ولتظل لفارس السيادة هناك حتى ظهور الإسلام ، وقيام الدولة الإسلامية قوة جديدة من القوى العظمى فى عالم العصور الوسطى، ودخول اليمن ضمن شبه الجزيرة العربية كلها تحت السيادة الإسلامية .

= الملك: غلبتنا الأغربة على بلادنا ، فجئتك لتنصرنى عليهم، وتخرجهم عنى، ويكون ملك بلادى لك ، فأنت أحب إلينا منهم». أنظر الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك جـ٢ص١١٦ .

١٥٧- الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك جـ٢ ص١١٧ .

١٥٨- أقدم بقايا الأحباش على الانتقام من سيف بن ذى يزن ، باعتباره السبب فى القضاء على ملكهم هناك، ومن ثم دبروا أمرا اغتياله ، ونجحوا فى ذلك ، مما أدى إلى عودة القائد الفارسى وهرز ثانية إلى اليمن ومعه أربعة آلاف جندى، وكانت الأوامر الصادرة إليه تقضى بقتل كل الأحباش هناك حتى المولدين منهم. وقد أدى ذلك إلى هروب أعداد منهم إلى مكة حيث لعبوا دورا بارزا فى الحياة العسكرية والاجتماعية من بعد.

هكذا قدر لفارس أن تكسب الجولة قبل الأخيرة ، من جولات الصراع بينها وبين بيزنطة حول شبه الجزيرة العربية ، بعد استباق طويل بينهما للسيادة عليها اقتصاديا وسياسيا ، أخذ من القرن السادس الميلادى ما نيف على نصفه ، حتى إذا أدرك بيزنطة الضعف ، وبلغ منها الجهد مبلغا كبيرا بعد وفاة جوستنيان عام ٥٦٥ ، وبفعل سياسته ، إغتنمت فارس الفرصة المواتية ، واستولت عسكريا على كل ساحل الجنوب العربى، وبلاد العرب السعيدة، ولتمسى هذه المنطقة الهامة ، واقعة تحت السيادة الفارسية. إلا أن ذلك لم يقدر له أن يستمر طويلا بفضل الفتح الإسلامى لليمن. ولن تلبث القوة الإسلامية الناشئة أن تصطدم بالقوتين العظميتين فارس وبيزنطة ، وأن تقوض دعائم الإمبراطورية الفارسية ، وأن ترث بذلك العداء التقليدى - كقوة عظمى- تجاه الإمبراطورية البيزنطية .



الفصل الخامس

الثورة الشعبية فى القسطنطينية سنة ٥٣٢



منذ انتقلت روما من على ضفاف التيبر ، إلى شطآن البسفور، أخذت حادثات التاريخ ، على امتداد ثلاثة قرون من الرابع إلى السابع، تنبئ بالتحول إلى عصر جديد.. من عالم رومانى ، ثقافته اللاتينية ولسانه، إلى عالم رومانى اصطبغ بالصبغة اليونانية ، فكرا ولغة . بل أصبح منذ القرن السابع الميلادى وحتى الخامس عشر ، عالما رومانيا بلسان يونانى ! فقد بنيت روما الجديدة .. القسطنطينية .. فى قلب عالم اليونان ، وفيها امتزج وتفاعل تراث اليونان بخياله الواسع ، ومثيولوجياه، بمدارسه الفكرية وفلسفاته ، مع تراث الرومان بسماته العملية ونظمه ، بتشريعاته وقوانينه . هذا وذاك إلى جانب العقيدة الجديدة ، المسيحية ، والتى غدت فى أخريات سنى القرن الرابع الميلادى ، على يد الإمبراطور ثيودوسيوس، الدين الرسمى للإمبراطورية . ومن هذا التفاعل في بوتقة القسطنطينية ، وجدنا أنفسنا فى القرن السابع ، على أعتاب عصر جديد ، هو ما اصطلح المؤرخون على تسميته بـ «العصر البيزنطى» .

وحرص أباطرة الرومان فى القسطنطينية ، على أن لاتبدو حاضرتهم الجديدة ، أقل بهاء ورونقا ، من روما التيبر : فالسوق والساحة والحمامات والهيدروم ومجلس السناتو ، تم تشييدها ، وإن خلت روما الجديدة من البانثيون والكابيتول ، فقد تم الاستعاضة عن ذلك بكنائس القديسين والحكمة المقدسة «أيا صوفيا» ، إلى الحد الذى غدا بمقدور العابد ، على حد رواية واحد من المعاصرين ، أن يصلى كل يوم جديد ، على مدار السنة ، فى كنيسة غير التى صلى فيها بالأمس . وازدانت المدينة بالقصور الإمبراطورية الفخمة ، وبيوتات كبار النبلاء والمترفين، حتى بهرت ألباب القادمين إليها من وفود الدول الأجنبية ، والقبائل القاطنة على حدودها. واستغلت إدارة الخارجية البيزنطية هذه المظاهر البراقة فى العاصمة ، للتأثير على نفوس أولاء السفراء الساعين إلى بلاط القيصر الرومانى، للبحث عن معاهدة للسلام ، أو هدنة توقف حربا ، أو طمعا فى ألقاب التشريف، أو تطلعا إلى الخلع الثمينة والهدايا من الحلى والثياب ، التى تعتبرها أولئك الشعوب المحيطة بالإمبراطورية ، خاصة القبائل النازلة عند حدودها الشمالية والغربية ، نوعا من التكريم الرومانى ، يتنافس فيه المتنافسون[1].

١- بسط الإمبراطور قسطنطين السابع هذه الأمور بصورة واضحة فى كثير من فصول كتابه «عن الإدارة=

وإلى جانب هذا الثراء الذى يشع من جنبات الحى الشرقى فى القسطنطينية، كانت هناك الأحياء الفقيرة والحارات الضيقة ، التى يقيم فيها الأدنياء من سكان العاصمة ، من العبيد وأنصاف الأحرار ، والمتسولين والعمال المؤقتين ، وعمال اليومية وصغار الحرفيين . وإلى جوار هؤلاء وأولئك كان هناك أبناء الطبقة الوسطى من التجار وأصحاب المهن الحرة ، كالأطباء والمعلمين الخصوصيين الذين يقومون بالتعليم بدافع من أنفسهم ، والموثقين القانونيين ، وأصحاب السفن وأصحاب البيوت التجارية ، والمثقفين[٢].

ويصف بول ويلمان[٣] القسطنطينية فى القرن السادس فى عبارات بليغة بقوله: «.. تزدحم فيها البيوت المتلاصقة التى يسكنها خليط من الأجناس ، يتكلمون لغات مختلفة ، وغرباء يتحدثون بألسنة تختلط فيها اللاتينية باليونانية . أصحاب حوانيت ومتسولون، عاملون وعاطلون، أحرار وأرقاء ، شرفاء وأنذال ، مؤمنون وملحدون، كل يمضى لغرضه عبر الشوارع الواسعة أو الأزقة الضيقة، منهم من يعمل فى جهد ، ومن يجوب المدينة باحثا عن عمل !!

على أن الشئ الذى تجدر ملاحظته ، أن الفصل التعسفى الذى حاول الإمبراطور دقلديانوس Diocletianus (٢٨٤-٣٠٥) تأصيله بين الطبقات فى المجتمع الرومانى، إبان القرن الثالث الميلادى، وذلك بمنع الانتقال من طبقة اجتماعية إلى أخرى تعلوها ، لم يحقق الهدف الذى كان يرتجيه منه واضعه؛ فقد كان يسيرا على ابن الفلاح أن يصبح امبراطورا ، كما استطاعت إبنة حارس الدببة أن تقفز إلى العرش، بالزواج من ولى العهد. وكان بمقدور أى شاب ماهر مغامر

= الإمبراطورية» .. راجع الفصل الثالث ، وأنظر أيضا De Administrando Imperio,. 43-44 , 46 , 50-51 , 53 .

٢- راجع البحث القيم الذى نشره دكتور وسام عبد العزيز فرج ، تحت عنوان «أضواء على مجتمع القسطنطينية : دراسة فى التاريخ الاجتماعى لمدينة قسطنطين حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى» ، مجلة كلية الآداب- جامعة المنصورة ، العدد الخامس ، ص٨٣-٩١ ، ١٠١-١٠٧ .

٣- بول ويلمان : ثيودورا ، ص٦ . ويضيف «إنها تنبسط كما لو كانت مطوقة بأذرع ثلاث ... البسفور والدردنيل والقرن الذهبى، تتألق كأنها مرصعة بثروة العالم، متباهية فى كبرياء ، سفسطائية .. خلابة، وشعبها فى حركة دائمة ... وقورة محتشمة ، عابثة مستهترة ، رقيقة قاسية ، متحضرة متوحشة !! . ص٥ .

أن يشق طريقه إلى أعلى المناصب ، بل إلى العرش الإمبراطورى[٤]. بحيث يمكن القول مع الدكتور وسام عبد العزيز [٥]، إن طبقات مجتمع القسطنطينية لم تكن عبارة عن صناديق اجتماعية منغلقة على أبنائها ؛ فالصعود الاجتماعى أو الهبوط من وإلى طبقة أخرى، كان أمرا واردا؛ ذلك أن الطبقات الأفقية لمجتمع القسطنطينية كانت تتسم دائما بالقلق وعدم الاستقرار، وأحيانا ما كان الهرم الاجتماعى لهذه الطبقات يهتز بشدة ، بسبب اندفاع خط عمودى عكسى ، مما يعبر عن حالة الاضطراب وعدم الاستقرار فى المدينة ، التى تعكس الاضطراب فى الإمبراطورية كلها ». لقد كانت العاصمة تعد مركز الحياة الاجتماعية والسياسية لبيزنطة ، فالذى يمتلك القسطنطينية يسود الإمبراطورية[٦]. ذلك أن تلك المدينة الكبيرة ، كانت تعتبر من عدة نواح ، عالما مصغرا للإمبراطورية جميعها فى كل شئ ، حتى يمكن القول إنها ظلت لقرون عديدة ، تمثل سيادة الدولة ومكانتها وفخارها ، قوتها العسكرية وسمتها العالمى ، ثراءها وتقواها ، مجدها الأدبى وسمعتها الفنية[٧].

مدينة على هذا النحو ، تمثل عالم الإمبراطورية ، كان لابد أن تزخر بالوافدين إليها من كل أقاليم الإمبراطورية ، مدنها وقراها، بعضهم للتجارة ، وبعض ثان لمسائل قانونية ، وثالث للمتعة والسرور ، ورابع للمغامرة والبحث عن حظ لم يواته فى بلدته، وقد عبر عن هذه الحال، الإمبراطور جوستنيان Iustinianus (٥٢٧-٥٦٥) فى واحد من قوانينه بقوله : «خلت الولايات من ساكنيها بينما امتلأت مدينتنا بأضداد الخلائق »[٨]، تغص بهم الشوارع والميادين منذ مطلع الشمس إلى ما بعد مغربها . والمواطنون يرفلون فى ثيابهم الحريرية الموشاة بالذهب ، يمتطون صهوات جيادهم المطهمة ، يبدون فى زينتهم كما الأمراء ، ويتحركون وسط التجار القادمين من كل أنحاء العالم، وصقالبة مغامرون ، وصيادون من الأرمن

٤- هسى، العالم البيزنطى ، ترجمة رأفت عبد الحميد ، ص٣١٢ .

٥- أورد دكتور وسام عبد العزيز ثبتا بأسماء الأباطرة البيزنطيين ، الذى يعودون إلى أصول اجتماعية متواضعة أو غامضة . أنظر : مجتمع القسطنطينية، ص٧٤-٧٨ .

٦- هسى، العالم البيزنطى ، ص٣١٢ .

٧- Diehl, Byzantium , Greatness and Decline , p. 95 .

٨- IUS. Nov. LXXX .

والاسكندنافيين ، محظوظون ، وجنود فى بزاتهم العسكرية ، وحراس من الورنك Varangian والخزر والروس، ومرتزقة من اللاتين . ونساء يتبرجن فى أبهى زينة، ليعطى هذا كله المدينة زخرفها وحياتها(٩).

وقد ساعد على ذلك ، الموقع الممتاز الذى تقف عليه القسطنطينية، إذ تمثل حلقة الاتصال الحضارى والتجارى بين آسيا وأوربا. فعلى شطآنها يقع طريق التجارة البحرى الذى يربط البحر الأسود وما وراءه شمالا ، وبحر إيجة فى الجنوب وما يفضى إليه ، حيث البحر المتوسط وسوريا ومصر، وما خلفهما من تجارة الشرق الأقصى عبر البحر الأحمر والمحيط الهندى . وتحت أسوارها يمر الطريق البرى الهام الذى يصل بين آسيا الصغرى والصين عبر فارس وأوروبا ، والذى يمثل الشريان التجارى الحيوى للقسطنطينية بصفة خاصة ، إذ هو طريق الحرير القادم من الصين إلى العاصمة الإمبراطورية.

ومن الطبيعى والحالة هذه ، والعاصمة تموج بهذا الخليط من البشر، أن يصبح حفظ الأمن وضمان الهدوء فيها ، أمرا ليس باليسير ، خاصة بين جموع سريعة الهياج ، صخابة ، منقسمة على نفسها شيعا وأحزابا ، ما تلبث أن تنقلب– على حد قول شارل ديل Ch. Diehl من الإفراط فى البهجة والأمل، إلى التخبط والتيه ، ومن اللهو إلى الثورة ، ومن الشعور بالعظمة والفخار، إلى حائط اليأس والقنوط(١٠). ووسط هذه الجمهرة من العاطلين والمتنطعين ، يمسى الولع بكل ما يسبب الإثارة شيئا مرغوبا فيه، بل وقائما. ويجد المشا مون بالشائعات ، والقيل والقال، آذانا صاغية لدى جمهور متحفز ؛ عادة ما كان زعماؤهم يلتقون إبان القرن السادس تحت عقود الرواق الإمبراطورى، وفى محلات بائعى الكتب ، حيث تدور أحاديثهم حول مختلف الموضوعات ، فى الفلسفة والسياسة، فى الطب والعقيدة ، وبأسلوب الواثق المتعصب، مما يترك تأثيره البالغ فى نفوس سامعيه من العامة، الذى يبلغ بهم العجب مبلغه لهذا الذى

٩– Diehl , Byzantium, p. 109 ولمزيد من التفاصيل عن هذا الخليط العجيب من بنى البشر، الذى كانت تزخر به القسطنطينية، وطبائع هؤلاء الناس وطرائق حياتهم ونماذج تفكيرهم، راجع Downey , Con- stantinople in the age of Justinian, pp. 14-41 , وأيضا Manojlovic, Le Peuple de Con- stantinopl, (in Byzantion, XI, pp. 617-716) .

١٠– Byzantium, p. 109 .

يسمعون ، وللثقة الزائدة التى يعلن بها هؤلاء المتحدثون أخبارهم، ويعرضون من خلالها آراءهم[١١].

والقسطنطينية، شأن روما القديمة، والمدن الأخرى الكبيرة فى الإمبراطورية ، يحرص أهلوها دوما على الاستمتاع بما يجرى فى الهيدروم Hippodrom من سباق العربات والعروض المسرحية وألعاب السيرك وألوان الرقص والغناء ، وينقسم جمهور النظارة بطبيعة الحال على نفسه لتشجيع هذا الفريق أو ذاك من المتسابقين ، بكل الحماسة والهوس المتأصلين فى جماهير هذه المدن ، والذى عهدناه على مر التاريخ البيزنطى، ليس فى القسطنطينية وحدها ، بل فى مدن أخرى مثل أنطاكية والأسكندرية وسالونيك مثلا [١٢]. وكان سباق العربات أحب ألوان التسلية إلى قلوب جمهور النظارة فى القسطنطينية وغيرها من المدن الكبرى فى الإمبراطورية، وأكثرها متعة لهم وإثارة ، حتى أنه كان من الأمور الطبيعية التغاضى عن الجوانب اللاأخلاقية فى طبائع المتسابقين ، من أجل الاعجاب بهذا اللاعب أو ذاك، تشهد على ذلك حادثة سالونيك الشهيرة فى أخريات سنى القرن الرابع الميلادى[١٣].

١١- Id.

١٢- Cameron, Circus Factions, blues and greens at Rome and Byzantium , p. 230 وقد شهدت هذه المدن العديد من حوادث الشغب ، التى عادة ما كانت تبدأ بين أنصار الفرق المتسابقة ، ثم تمتد لتشمل المدينة كلها ، معبرة دائما عن سخط الأهالى هنا أو هناك ، غالبا على السياسة الاقتصادية أو العقيدية التى تتبعها الحكومة البيزنطية إزاءهم . وكان من أشهر ما جرى فى هذا الشأن ، ما شهدته كل من أنطاكية وسالونيك فى عهد الإمبراطور ثيودوسيوس (٣٧٨-٣٩٥) . وكان شغب سالونيك بصفة خاصة أخطرها على الإطلاق ، لما تبعه من وقوع المذبحة المروعة التى ذهب ضحيتها على أقل التقديرات عند المعاصرين ، سبعة آلاف شخص . عن هذه الأحداث .. راجع .SOZOM. hist. eccl VII 23-25 ; THOD hist. eccl. V 17 , 19 وراجع أيضا -Vryonis, Byzantine circus Factions and Islamic Futuwa Or ganiztions, pp. 49-51 حيث يعطينا أسماء كثير من المدن التى شهدت مثل هذا الشغب فى القرنين السادس وأوائل السابع، مثل مدن آسيا الصغرى والقدس وقيسارية فلسطين وأفاميا وأنطاكية والرها وطرسوس وسلوقية. راجع أيضا THEOPH. Chron. I, pp. 256-257 .

١٣- تعود أحداث سالونيك - كما تصورها المصادر- إلى وجود علاقة آثمة بين أحد المتسابقين وواحد من غلمان بوثريك Buthericus الحاكم الجرمانى للمدينة، والذى أمر بالقبض على اللاعب الداعر، إلا أن الجمهور طالب بالإفراج عن لاعبه الأثير ، بغض النظر عن أخلاقياته، فلما رفض بوثريك الاستجابة لمطالبهم، ذبحوه !! مما دفع الإمبراطور ثيودوسيوس إلى إنزال العقاب الصارم بأهالى المدينة. راجع تفاصيل هذه الأحداث ، =

ولما كان كل شوط من أشواط السباق الأربعة والعشرين يضم أربعة لاعبين ، فقد ميز كل منهم نفسه بلون معين ، تمثلت فى الأبيض والأحمر والأخضر والأزرق ، وبمرور الزمن واشتداد حمى التنافس بين هذه الفرق ، قفز إلى الصفوف الأولى فريقا الزرق والخضر ، وذاعت شهرتهما على فريقى البيض والحمر ، ولايعنى هذا اندثار الفريقين الأخيرين، أو تبعية أو اندماج الحمر فى الخضر ، والبيض فى الزرق ، كما يعتقد بعض المؤرخين[١٤] ، بل ظلت الألوان الأربعة تتنافس فى الهبدروم ، وإن كانت الشهرة قد أصبحت من نصيب فريقى الزرق والخضر. ومن ثم انقسم الناس فى العاصمة الإمبراطورية ، وكذا المدن الكبرى، بين هذين الفريقين ، وترك التنافس الذى كان قائما بين الزرق والخضر فى المضمار ، بصماته الواضحة على مواقف المشجعين وحماستهم داخل الهبدروم ، فى المدرجات التى خصصت لأنصار هذا الفريق أو ذاك على جانبى المقصورة الإمبراطورية [١٥]، بصورة اتسمت بالعصبية الكاملة التى وصلت إلى حد الهوس، وطبعت العلاقات بين هؤلاء وأولئك فى الحياة العامة، بقدر من العداء، الذى بلغ فى كثير من الأحيان حد الصراع والاقتتال فى الشوارع ، وهو ما تفيض به صفحات المصادر التاريخية المعاصرة[١٦]. ومن هنا يصبح من الضرورى ، عند الحديث عن وقائع الشغب

= والظروف التى أحاطت بها ، ومغزى موقف الإمبراطور منها ، وما ترتب على هذه الحادثة من صراع بين الدولة والكنيسة ، فى كتابنا الدولة والكنيسة ، الجزء الرابع، الفصل السادس .

١٤- Lindsay, Byzantium into Europe, p. 55 وللوقوف على نشأة هذه الفرق الرياضية، وانتماءاتها الطبقية ، واهتماماتها السياسية ، ونشاطاتها العسكرية ، واتجاهاتها العقيدية ، وصراعاتها ودورها الهام فى الحياة العامة فى الإمبراطورية، راجع الدراسة الممتازة التى أعدها A. Cameron تحت عنوان :

Circus Factions, blues and greens at Rome and Byzantium, Oxford 1976 .

١٥- لم تكن مقاعد مشجعى الزرق والخضر فى الهبدروم تتسم بالثبات على نحو دائم، بل كثيرا ما تعرضت للتغيير والتبديل على يد هذا الإمبراطور أو ذاك ، تبعا لميله لأحد الفريقين ، من ذلك ما أقدم عليه الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨-٤٥٠) من جعل الخضر يحتلون المقاعد الواقعة عن يسار المقصورة الإمبراطورية، بدلا من الزرق، تكريما للخضر الذين كان هوى الإمبراطور معهم. أنظر Lindsay, Byzantium, p. 118 .

١٦- أنظر IUS. Nov. XVII, 2.13.15; XXIV, 1 , 3 ; XXX, 5 .

وأيضا PROCOP. hist. arc. VII

وكذلك EVAG. hist. eccl. IV, 32 .

فى العاصمة أو غيرها من المدن ، التفرقة بين الفرق الرياضية المتسابقة فى المضمار ، ومشجعيهم الذين يقفون وراءهم يناصرونهم ويؤازرون [١٧]. ومن ثم فإن الحديث عن حزبى الزرق والخضر ، يعنى بصورة طبيعية أنصار هذا الفريق أو ذاك وزعماءهم .. أنصار الزرق Venetiani وأنصار الخضر Prasiniani .

وقد لعبت المصالح الاقتصادية لهؤلاء الزعماء ، والمتعارضة فى كثير من الأحيان ، إن لم يكن كلها ، دورا كبيرا فى التباعد بين الحزبين ، بحيث فرضت على هؤلاء وأولئك انتماء طبقيا معينا من الناحية الاجتماعية ؛ فالتجار والحرفيون والبحارة وأصحاب الحوانيت الكبيرة ، كانوا يشكلون الزعامة فى حزب الخضر ، بينما كان قادة حزب الزرق هم كبار ملاك الأراضى من الطبقة النبيلة أصحاب النفوذ والمناصب العليا فى الدولة. ولم يعد من المقبول الآن فى ضوء الدراسات الحديثة ، أن تذهب مع Monjlovic و Jarry فى تصنيف الحزبين إلى فقراء hu-miliores وأغنياء Potentiores [١٨]؛ ذلك أنه من الممكن أن نجد جماهير العامة فى الحزبين. أما الخلاف فيكمن أصلا فى الزعامتين[١٩] ومحاولة كل منهما أن يحظى بتأييد الحكومة لمصالحه الخاصة، وبشكل جوهرى فيما يتعلق بمسألة الضرائب .. هل تثقل بها الأراضى .. أم المدن والتجارة ؟!

ومما يلفت النظر أن عددا ليس بالقليل من الخبراء الماليين ، كانوا ينتمون إلى المناطق الشرقية ، بحكم تمرسهم فى النواحى التجارية، وباعتبار التجارة الشرقية بصفة رئيسية، تمثل عصب الحياة الاقتصادية للإمبراطورية البيزنطية. ولما كان زعماء الخضر من كبار التجار الذين ينتشرون فى الأقاليم الشرقية، فقد وجدوا عونا لهم فى كثير من الأحيان فى الإدارة المالية فى

١٧- راجع دكتور وسام عبد العزيز: مجتمع القسطنطينية ص١٠٨-١٠٩ وأيضا Cameron, Demes and Factions , pp. 74-91 وكذلك Manjlovic , Le peuple de Constantinople, pp. 617-716 .

١٨- راجع Manjlovic, Le Peuple de Constantinople, pp. 640-645 وأيضا Jarry, Heresies et Factions, p. 283.

١٩- دكتور وسام عبد العزيز : مجتمع القسطنطينية ، ص١١٤ وأيضا Lindsay, Byzantium, p. 55; Cameron, Demes and Factions, pp. 74-91 .

العاصمة بينما وجد الزرق تأييدا لهم فى النبالة الرومانية المتمثلة فى أعضاء مجلس السناتو[٢٠] .

ولما كانت الإمبراطورية قد غرقت حتى آذانها ، خلال القرون من الرابع إلى السابع ، فى ذلك «اللابرنت» العقيدى، على حد تعبير المؤرخ الكنسى سقراط Socrates بسبب الخلاف فى الرأى بين آباء الكنيسة حول طبيعة المسيح، وامتزاج الفلسفات اليونانية السائدة بالعقيدة المسيحية، بحيث امتلأت الشوارع والأزقة بالمتحدثين فى غوامض الكلم، كما يحدثنا اللاهوتى الكبادوكى الشهير ، جريجورى النيساوى Grejorius Nysaeus لا فرق فى ذلك بين الإمبراطور ورجل الشارع، مرورا بالمثقفين والجهاز الإدارى والجنود ، والملأ من القوم وعامتهم، كان طبيعيا إذن- والحالة هذه - أن نضيف إلى وميض الجمر بين الرماد، ضراما يؤجج نيران الخلافات الكامنة . ساعد على ذلك ، السياسة العقيدية التى انتهجتها حكومة القسطنطينية من اعتبار الأرثوذكسية الخلقيدونية ، الدين الصحيح، وما عداها زيغ وهرطقة يجب القضاء عليها. ولما كانت جل ، إن لم يكن كل هذه الآراء المعارضة قادمة من الولايات الشرقية، فقد أصبحت بالتالى معتقد التجار والحرفيين وأصحاب الحوانيت ، الذين يشكلون فى زعامتهم حزب الخضر.

على أن الأمر الذى تجدر الإشارة إليه، أن هذا لايعنى أن تكون الطبقة العليا والنبالة الرومانية فى القسطنطينية ، هى التى تمثل الأرثوذكسية الخلقيدونية ، وأن الطبقتين الوسطى والدنيا وحدهما تؤمنان بالمونوفيزية ، وأن أصحاب هذه العقيدة يمثلون دائما المعارضة الحقيقية للسلطة الإمبراطورية ؛ فالقسطنطينية كانت تمتلئ بالعمال والموظفين والتجار والحرفيين، الذى يعتمدون بصفة أساسية فى مصدر رزقهم ، على ما يمدون به القصر والكنيسة من منتجات معينة، ومن ثم لم يكن الخضر فى المدينة- على حد تعبير Lindsay- أقل تحمسا للمونوفيزية

٢٠- كان مارينوس السورى هو المستشار المالى الأول للإمبراطور أنسطاسيوس، كما كان يوحنا الكبادوكى هو وزير مالية جوستنيان ، ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا الصدد، أنه فى عام ٤٩٨، أقدم الإمبراطور أنسطاسيوس على إحراق السجلات الخاصة بالضرائب ، والتى كانت فى معظمها واقعة على رءوس التجار فى المناطق الشرقية. ويعطينا يوشع العمودى Joshua the Stylite وصفا رائعا لمظاهر الفرح والسرور التى عمت أهالى مدينة الرها، نتيجة لهذا الإجراء ، كمثال لما جرى فى كثير من مدن النصف الشرقى من الإمبراطورية . أنظر IOSH. Chron. p. 22 وأيضا MALALAS, Chron. p. 400

من الخضر فى أنطاكية مثلا(٢١). والذين ثاروا فى وجه الإمبراطور أنسطاسيوس ، المعروف بميوله المونوفيزية الواضحة ، وتأييده للخضر، كانوا هم الخضر والزرق معا !! ومع تحيز الإمبراطورة ثيودورا ، زوج جوستنيان ، للخضر ، إلا أن وقوفها إلى جانب الزرق أحيانا كان يبدو واضحا(٢٢) ، هذا إذا أخذنا بحديث المؤرخ بروكوبيوس دون مناقشة .

وفى دراسة رائعة أعدها A. Cameron (٢٣)، راح يناقش آراء المؤرخين التقليدية القائلة بأن الزرق هم الأرثوذكس وأن الخضر هم المنافزة . ويذكر أن الخلافات العقيدية لم تلعب أى دور فى المنافسة بين الفرق الرياضية المتسابقة فى المضمار، ويلقى باللوم على هذه الدراسات التى تؤكد بصورة قاطعة ، دون حساب أى عامل آخر، على التوافق الكامل عند الأباطرة ، بين الميول العقائدية والانتماءات الحزبية ، ويذكر أنه من بين خمسة عشر امبراطورا بين ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨-٤٥٠) ، وهرقل Heraclius (٦١٠-٦٤١) ، كان هناك أربعة يؤيدون الخضر هم ثيودوسيوس الثانى، وزينون Zeno (٤٧٤-٤٩١) وموريس Mauriceus (٥٨٢-٦٠٢) وهرقل . وثلاثة يناصرون الزرق ، هم مارقيان Marcianus (٤٥٠-٤٥٧) وجوستنيان Iustinianus (٥٢٧-٥٦٥) وفوقاس Phocas (٦٠٢-٦١٠) .

ليس هناك إذن ما يدعو إلى الإصرار على التصنيف الطبقى أو العقيدى فى تفسير حوادث الشغب التى كانت تجرى فى الهيدروم بين أنصار الزرقVenetiani وأنصار الخضرPrasiniani ما دامت جموع هؤلاء الأنصار كانت توجد على اتساع طبقة العامة، وأن الخلاف كان واضحا بين زعماء مؤيدى الفريقين. فإذا ما حدث واتحدت جماهير العامة، كما جرى فى ثورة نيقا Nika عام ٥٣٢ فى القسطنطينية، فإن هذا يعنى أن الأمر لم يعد بيد زعماء الحزبين، وأن الثورة لم تعد موجهة فقط ضد الحكومة ، بل ضد الطبقة الحاكمة نفسها (٢٤)، بل قد يكون ذلك ضد النظام القائم برمته .

٢١- Byzantium into Europe, p. 56

٢٢- PROCOP. hist. arc. X, 16-18 .

٢٣- Heresies and Factions, pp. 92-120 .

٢٤- دكتور وسام عبد العزيز ، مجتمع القسطنطينية ١١٤-١١٥ وأيضا Lindsay, Byzantium, p. 56; Cameron , Circus Factions, p. 278 .

والبيزنطى بما اشتهر عنه من ولع بالمناقشات العميقة ، حتى صارت هذه تضرب مثلا لكل جدل عقيم ، وجد متنفسا متسعا له فى الهبدروم ، ليس فقط فى مشاهدة السباق، المحبب إلى قلبه، أو العروض المسرحية ، أو ألعاب الحواة، أو ألوان الرقص والغناء- كما أسلفنا، بل فى المناقشات التى كانت قد أصبحت شيئا تقليديا فى الهبدروم ، الذى كان فى القسطنطينية لايقل شأنا عن القصر المقدس أو كنيسة الحكمة المقدسة، أيا صوفيا. لقد كان- حسب تعبير شارل ديل- بؤرة الحياة البيزنطية (٢٥)، بعد أن أصبح من الأمور العادية، منذ زمن أوغسطس Augustus ، بل من الأمور الشائعة ، أن يقدم الناس إلى الإمبراطور التماساتهم فى الهبدروم، وكان على الإمبراطور أن يجيب عليها. وما دامت المطالب تقدم بصورة عامة على هذا النحو، أمام جمهور النظارة الكبير، فلابد أن تكون مطالب سياسية، أو تتعلق بالنظام القائم . وهنا .. لايوجد أدنى شك فى أنه كان على الإمبراطور أن يواجه شعبه فى كل المسائل، كبيرة كانت أم صغيرة(٢٦).

ولاريب أن التحول السياسى الكبير الذى شهدته روما ، انتقالا من الجمهورية إلى الإمبراطورية ، قد ترك بصماته واضحة فى هذا المجال؛ ذلك أن المناقشات الرائعة التى شهدتها قاعة مجلس السناتو، خاصة خلال النصف الثانى من القرن الثانى، وعلى امتداد القرن الأول قبل الميلاد ، راحت تنحسر تدريجيا بمقتضى الألقاب التى خلعها السناتو على أوكتافيانوس Octavianus ، باعتباره منقذ الجمهورية الرومانية من أعدائها ، والتى جاءت نتاجا طبيعيا لانتهاك كبار القادة العسكريين الرومان لسياج روما وحرمها . ولما لم يكن خلفاء أوكتافيانوس أوغسطس بأقل منه حرصا على التمسك بهذه الألقاب وما ترتب عليها؛ فقد تولى السناتو إلى الظل ، وأمسى على حد قول مؤرخ القرن السادس، بروكوبيوس، مجرد «صورة معلقة على جدران الزمن!!(٢٧). وانتقلت اختصاصاته ، رغم أنف أعضائه ، وخاصة

٢٥- Byzantium, Greatness and Decline, p. 108 ويقول فازيليف نقلا عن أوسبنسكى : «كان المضمار هو المكان الوحيد للتعبير الحر عن الرأى العام، الذى كان يفرض نفسه أحيانا على الحكومة». أنظر

Vasiliev, history of the Byzantine Empire, I, p. 155 .

٢٦- Cameron, Circus Factions, p. 162 .

٢٧- PROCOP. hist. arc. XIV, 10 .

اختيار الإمبراطور إلى أيدى الجيش الذى أصبح يمثل مركز القوة الرئيسية فى الإمبراطورية(٢٨) وتجلى ذلك بصورة واضحة خلال أزمة القرن الثالث الميلادي، التى امتدت ما بين عامى ٢٣٥-٢٨٤ للميلاد(٢٩)، حيث فقد السناتو أهميته تماما ، ولم يعد له أى دور فى الحياة السياسية فى الإمبراطورية (٣٠)، وظل هذا حاله حتى النصف الثانى من القرن الخامس الميلادى، عندما حاول أن يصحو من سباته الطويل ، ليشارك بقدر معين فيما يجرى على خشبة المسرح السياسى الرومانى فى القسطنطينية.

ومن هنا وجد أهالى القسطنطينية فى الهبدروم ، بفرقة الرياضية، متنفسا طبيعيا يمارسون من خلاله مناقشاتهم ، ويعبرون عن آرائهم فى السياسة والاقتصاد ، أو بمعنى أكثر دقة ، الضرائب ، والعقيدة ، خاصة عندما راح دور الجيش فى اختيار الأباطرة يتقلص هو الآخر تدريجيا ، بتأثير النظام السياسى الذى وضعه الإمبراطور قسطنطين فى ثلاثينيات القرن الرابع الميلادى(٣١).

٢٨- كان هذا واضحا منذ عام ٦٩ للميلاد ، وهى السنة الشهيرة للأباطرة الأربعة ، التى أعقبت وفاة الإمبراطور نيرون Nero (٥٤-٦٨) ، وهى التى علمت الجيش أنه من الممكن أن يوجد الإمبراطور فى أى مكان خارج روما ، وإن كان العسكريون لحسن حظ الإمبراطورية، لم يستغلوا هذه الفرصة لمدة مائة عام تالية. حتى إذا كان عهد سبتميوس سفروس Septimius Severus تصح إبنه عندما حضرته الوفاة .. قائلا : «أجزل العطاء للجند ولاتلق بالا للآخرين». راجع . Jones, Constantine and the Conversion of Europep. 2

وراجع أيضا الفصل الأول من هذا الكتاب

٢٩- للمزيد من التفاصيل عن أحداث هذه الفترة ، راجع للباحث ، الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى ، الفصل الأول .

٣٠- راجع الفصل الممتاز الذى كتبه المؤرخ جونز A. II. M Jones عن السناتو فى القسطنطينية وذلك فى كتابه . Later Roman Empire , II, pp. 523-562

٣١- يذكر المؤرخ نورمان بينز N. Baynes أن اختيار الإمبراطور كان يمر بأربعة أدوار، الأول حين ينادى السناتو الرومانى، أو الجيش بوضع المرشح فى وضع «دستورى» يجعله فى مكان الإمبراطور المنتظر ، والثانى، موافقة الطرف الآخر وهو المرشح ، على ذلك الترشيح ، والثالث، التصديق على هذا الاختيار حين يهتف الشعب الرومانى (فى الهبدروم) بحياة الإمبراطور ، أما الرابع فهو تتويجه على يد بطريرك القسطنطينية ، باعتباره ممثلا للناخبين لا الكنيسة. وقد جرى التقليد بذلك وإن لم يكن شرطا أساسيا الالتزام بهذه الأدوار. راجع بينز : الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة دكتور حسين مؤنس ، ص٨٠ . وكان ليو الأول هو أول امبراطور يجرى تتويجه عام ٤٥٧ على يد بطريرك العاصمة .

ولاشك أن الممارسة العملية التى باشرها الرومان ، سواء فى روما القديمة ، أو سميتها الجديدة ، فى الهيدروم ، ابتداء بعصر أوغسطس، ومرورا بالأباطرة جايوس Gaius ونيرون Nero وكومودوس Commodus وغيرهم، وصولا إلى أنسطاسيوس Anastasius فى أوائل القرن السادس الميلادى، والتى تمثلت معظمها فى الاحتجاج الصارخ فى المضمار ، على التعسف فى تقدير الضرائب وجبايتها ، والمناداة بضرورة اتباع سياسة معتدلة بين الأحزاب السياسية ، حتى وصل الأمر إلى المطالبة بخلع الإمبراطور نفسه ، كما جرى لأنسطاسيوس وجوستنيان. كل هذا يعد دليلا على الأهمية البالغة التى يدركها الناس والأباطرة لما يجرى فى الهيدروم(٣٢).

فى ضوء هذه الأمور يمكن أن ندرك ما جرى فى عام٥٣٢ على عصر الإمبراطور جوستنيان. لكن مجريات الأحداث ووقائعها التى امتدت ثمانية أيام (١١-١٨ يناير) وما صحبها، وما لحق بها ، يجعلنا نرى فيها شيئا يختلف عما شهدته القسطنطينية من قبل ومن بعد .

ففى يوم الأحد .. الحادى عشر من يناير ، جرى السباق فى الهيدروم ، كما جرى التقليد بذلك، حتى إذا كانت الاستراحة التى أعقبت الشوط الثانى والعشرين. ، واقترب السباق من نهايته ، ولم يبق منه إلا شوطان ، ارتفع صوت من بين مقاعد الخضر يلتمس من الإمبراطور ، الذى كان يتخذ مجلسه فى المقصورة Kathisma ، رفع الظلم الذى أوقعه بهم واحد من رجاله يدعى كالوبوديوس Calopodius وأنكر المتحدث باسم الإمبراطور ذلك، بل أنكر أن يكون هناك أحد فى حاشية الإمبراطور يحمل هذا الإسم ! واتهم الخضر بأنهم لم يأتوا إلى الهيدروم لمشاهدة السباق ، بل للتطاول على سلطان الحكومة . وناداهم بأنهم يهود .. سامريون .. مانويون، ليزداد بذلك غضب الخضر ويزداد صياحهم ، فى أغرب حوار جرى بين حاكم ورعيته، سجله لنا بقلمه المؤرخ ثيوفانس(٣٣) Theophanes كاملا .. نقف منه على مدى ما يكنه

٣٢- يتضح هذا المعنى تماما فى عبارات المؤرخ اليهودى يوسفوس كما ينقلها عنه Cameron والتى يصف بها الأحداث التى وقعت فى يناير عام ٤١ للميلاد ، قبل مقتل الإمبراطور جايوس بأسابيع قليلة . وتبين لنا من تاريخها المبكر ، مدى الدور الذى لعبه الهيدروم بصورة مطردة فى الحياة السياسية فى الإمبراطورية. راجع . Cameron, Circus Factions, pp. 162-163

٣٣- THEOPH. Chron. I, pp. 282 .

الخضر للسلطة الحاكمة من كراهية ، وذلك نتيجة لاتخاذها جانب الزرق ، حتى «اعتبر هؤلاء أنفسهم - بتعبير بروكوبيوس - فوق القانون، واكتسبوا وضعا خاصا فوق الجموع بانتسابهم إلى العرش». ويضيف مؤرخنا بروكوبيوس فى عبارات قاطعة :«إن تأييد جوستنيان لحزب الزرق جعل الدولة الرومانية تجثو على ركبتيها لتخر راكعة كما لو كان قد هزها زلزال ، أو اجتاحها طوفان ! كما لو كانت كل مدينة من مدائنها قد سقطت فى يد العدو. لقد انقلب كل أمر إلى فوضى ، ولم يعد شئ على حاله ! لقد ديست القوانين ، ولم يعد للنظام أى وجود »(٣٤).

وقد بلغ الحنق بالخضر فى الهبدروم مبلغه ، عندما وقف زعيمهم يصيح قبالة المقصورة الإمبراطورية، : «ألا ليت ساباتيوس Sabbatius لم يولد أبدا »(٣٥) Utinam Sabbatius nusquam fuisset natus والعبارة على هذا النحو موجهة إلى الإمبراطور مباشرة؛ ذلك أن ساباتيوس هذا هو والد جوستنيان !! والابن .. هو بطرس ساباتيوس ، فلما قدم خاله جوستين Iustinus إلى العاصمة ، وترقى فى سلك المناصب حتى أصبح لدى الإمبراطور أنسطاسيوس ، مكين أمين، استدعى إليه ابن أخته بطرس هذا، وخلع عليه لقبه الذى عرف به فى التاريخ «جوستنيان» ، نسبة إلى الخال. وكانت هذه العبارة لطمة وجهت إلى الإمبراطور مباشرة، إذ يتمنى أصحابها من خلالها ، لو لم يأت جوستنيان إلى الحياة على الإطلاق!!

واستمر الحوار عنيفا بين المتحدث باسم الإمبراطور، وزعيم الخضر ، ليفصح عن مدى المعاناة والضجر الذى يستشعره الخضر من سياسة الحكومة تجاههم ، وتجاهلها لمطالبهم، ووقوفها بصورة سافرة إلى جانب منافسيهم ، أو بتعبير أدق أعدائهم الزرق . وقد اتضح هذا خلال الحوار، عندما شارك زعماء الزرق فيه ، مؤيدين المتحدث باسم الإمبراطور، منادين على خصومهم بالقاب تحمل طابع الامتهان والسخرية ، تصمهم بأنهم : «لصوص.. خونة.. يهود.. أعداء الله»(٣٦).

لم يجد الخضر بدا وقد أحيط بهم ، إلا أن يصيح زعيمهم، ميمما وجهه شطر المقصورة الإمبراطورية، سوف نصمت أيها الإمبراطور ، ما دمت تريد ذلك ، لكنه صمت الكارهين لا

٣٤- PROCOP. hist. arc. VII .

٣٥- THEOPH. Chron. I, p. 281 .

٣٦- Ibid. p. 282 .

المقتنعين، إننا نفضل أن نكون يهودا ، على أن نكون من الزرق !! وأسفاه على عدالة أمست ميتة ، يوارى جسدها التراب» !! ثم ولى الهيدروم دبره وغادره ، وتبعه على الفور جموع الخضر، وكان هذا التصرف فى حد ذاته ، صفعة قوية وجهت للإمبراطور، حيث تقضى التقاليد بألا يغادر أحد المضمار قبل انصراف الإمبراطور ، معلنا نهاية السابق فى هذا اليوم .

تملك الغضب على جوستنيان كل سبيل ، إزاء هذه الإهانة التى لحقت به، وانعكس هذا فى الإجراءات الصارمة التى أقدم عليها والى المدينة يودايمون Eudaemon ، حيث ألقى القبض على سبعة من مثيرى الشغب، وتم على الفور ودون إبطاء، قطع رءوس أربعة منهم ، وقضى على الثلاثة الآخرين بالإعدام شنقا ، واقتيدوا إلى ساحة الإعدام ، وعلقوا على المشانق .. لكن يبدو أن الحبال كانت قد بليت ، فسقط اثنان منهم على الأرض أحياء، وفشلت محاولة أخرى لتنفيذ حكم الإعدام من جديد . وكان هذا يعنى حسب التقاليد ، أن يحظى الرجلان بالعفو. ولم تفلح محاولات الوالى لإعادة تجربة الشنق من جديد ، إزاء الهياج العام من جانب الجموع التى اكتظت بهم الساحة ، وإزاء تدخل رهبان دير القديس كونون Conon الذين اقتحموا المكان واصطحبوا الرجلين إلى كنيسة سان لورنس St. Laurentius ، فلم يسع الوالى إلا أن يأمر جنوده بحصار الكنيسة (٣٧).

ويعتقد كثير من الباحثين الذين تصدوا لمعالجة هذه الأحداث، أن الصدفة وحدها لعبت دورا كبيرا فى أن يكون أحد الرجلين اللذين نجيا من الإعدام، منتميا إلى حزب الزرق والآخر إلى حزب الخضر، وأن والى المدينة الصارم يودايمون ، قد ألقى القبض على هؤلاء السبعة اعتباطا ، دون النظر إلى هوياتهم! وأن «الصدفة» هذه هى التى قربت بين الفريقين ، فأشعلا تلك الثورة المدمرة فى القسطنطينية، أو بتعبير أدق .. البدايات الأولى لثورة عارمة. غير أننا لايمكننا أن نقبل هكذا دور «الصدفة» وحدها ، وترتب عليها أحداثا جساما كتلك التى شهدتها المدينة ما بين الحادى عشر والثامن عشر من يناير عام ٥٣٢ ، وكادت تودى بالنظام الحاكم كله .

فالمؤرخ القيسارى بروكوبيوس ، الذى ذكر لنا فى «تاريخه السرى» أن الإمبراطور جوستنيان ، قد أخذ جانب الزرق ، وترك لهم الحبل على الغارب ، فعاثوا فى الإمبراطورية

٣٧- MALALAS. chron. pp. 473-474 .

فسادا [٣٨]«كما لو كان قد هزها الزلزال ، أو اجتاحها الطوفان» ، هو نفسه الذى يذكر ، وفى الموضع نفسه ، أن أنصار الزرق قد ميزوا أنفسهم بسحنة وأردية معينة ، بحيث أصبحوا يشبهون إلى حد كبير ، قبائل الهون Hunni الآسيوية ، التى اكتسحت الإمبراطورية فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين[٣٩] . ومن ثم فلا مجال هنا «للصدفة» فى القبض على رجل من الزرق، إلى جانب من تم القبض عليهم من الخضر . وبروكوبيوس نفسه أيضا، هو الذى نعرف من حديثه ، أن جوستنيان وزوجه ثيودورا، قد اتبعا سياسة وسطا بين الحزبين [٤٠]؛ ذلك أن الإمبراطور إذا كان قد اعتمد فى بداية عهده على مناصرة الزرق، ليضمن تأييدهم، فإن سياسته قد سارت من بعد ، كما تدلنا الأحداث ، على إقرار التوازن بين الزرق والخضر ، امتداداً للسياسة التى اتبعها من قبل خاله جوستين [٤١]. كما أن التشريعات التى أصدرها الإمبراطور خلال السنوات الخمس الأولى من عهده ، تعطينا فكرة واضحة عن السياسة التى سوف يتبعها جوستنيان ، فى إدارة شئون الإمبراطورية، والتى تهدف فى جوهرها ، إلى فرض قبضته القوية على الدولة. ولذا فإن ما فعله يوداimون لم يكن وليد «الصدفة» ، بل كان تنفيذا لرغبات الإمبراطور، وتمشيا مع السياسة العامة التى وضعها جوستنيان، وإلا فبم تفسر إنزال العقاب الصارم بالفريقين معا ؟! ورفض الإمبراطور ملتمس الزرق والخضر بالإفراج عن الرجلين والعفو عنهما؟! وقبل هذا وذاك .. كيف يمكن تفسير اتحاد الحزبين معا فى اليوم التالى مباشرة لهذه الواقعة ، واستمرار الوفاق بينهما حتى اليوم الأخير للثورة ؟! إلى الحد الذى دفع المؤرخ بيورى[٤٢] Bury ، إلى القول باحتمال وجود تنسيق مسبق بين زعماء الفريقين .

٣٨- لقى كاللينيكوس Callinicus حاكم كيليكيا حتفه ، لإقدامه على إعدام اثنين من القتلة ومثيرى الشغب فى إقليمه، ينتميان إلى حزب الزرق . أنظر PROCOP. hist. arc. XVII; EVAG. hist. eccl. IV 32 .

٣٩- PROCOP. hist. arc. VII 8-14 .

٤٠- Ibid. X, 16-18 .

٤١- THEOPH. chron. pp. 256-257 .

٤٢- Later Roman Empire, II, p. 40 .

انقضى يوم الاثنين ، الثانى عشر من يناير ، فى هدوء مشوب بالقلق ، كذلك الذى يسبق العاصفة ، ثم أعلن عن استئناف السباق فى اليوم التالى ، فى محاولة من جانب الإمبراطور ، لتهدئة الأمور ، وحتى تبدو وقائع اليوم الأول ، الأحد، أمرا عاديا ، كثيرا ما يحدث ، واتخذت الحكومة ، ممثلة فى والى المدينة يوداڤون ، الإجراءات الكفيلة بالتصدى لمثل هذا الشغب . ولم يكن الإمبراطور يدرى أن الأمور سوف تسير على هذا النحو . فالجنود يحاصرون كنيسة القديس لورانس ، وأنصار الفريقين فى المضمار يلحون على الإمبراطور فى مقصورته، أن يأمر بإخلاء سبيل الرجلين ، وجوستنيان يصم أذنيه عن هذه الصيحات .. ويتساءل «باكر» Baker وفى تساؤله جانب كبير من الصحة .. هل كان من السهل على الإمبراطور أن يفعل شيئا فى أمر رجلين نظر القضاء فى حالهما ؟ وهو يعلم أن استجابته لمطالب الجموع تعد اعتداء على العدالة وتدخلا فيها لغير سبب مقبول(٤٣). ولم يكن جوستنيان راغبا فى ذلك، بل هئ له أن الأمر قد أصبح بيديه، بعد القبض على رءوس الفتنة، وأنه بهذا الإجراء يؤدب الحزبين معا.

ومع اقتراب أشواط السباق من نهايتها صمت الناس عن توجيه أي شكايات للإمبراطور بشأن الرجلين ، بعد أن يئسوا من رحمته ، ولم يعد يسمع الهتاف التقليدى بحياة الامبراطور، بل ارتفع صوت الجموع يهتف بحياة «الزرق والخضر والرحماء» (٤٤) ، ليعلن بذلك عن مولد الاتحاد بين الحزبين Prasinovenetio وانفجار الثورة الشعبية فى القسطنطينية ، حيث اندفع أنصار الفريقين إلى المقر الرسمى لوالى المدينة ، وطالبوا من جديد بإطلاق سراح الرجلين. فلما لم يجدوا سميعا لهم ولامجيبا ، هاجموا المبنى وأخلوا سبيل من به من المسجونين ، وأشعلوا فيه النيران، ليلقى الموظفون بداخله مصرعهم ، ولتمتد النيران إلى المبانى الحكومية المجاورة(٤٥) ، ولتلتهم فى طريق سعيرها ، المدخل الرئيسى للقصر الإمبراطورى ، وحمامات زيوكسيوس Zeuxippus ومبنى مجلس السناتو وكنيسة أياصوفيا(٤٦). واتفق الثائرون على اتخاذ كلمة Nika «النصر» شعارا لهم، يتعارفون به فيما بينهم(٤٧).

٤٣- Baker, Justinian, p. 84 .

٤٤- MALALAS, Chron. p. 474 .

٤٥- PROCOP. Bel. Pers. XXIV.

٤٦- ZONAR. epit. XIV, 6 وأيضا Id .

٤٧- Id .

ومن الطريف أن الإمبراطور أمر باستئناف السباق فى اليوم التالى، الأربعاء الرابع عشر من يناير ! كأن شيئا لم يكن ، رغم أنه لم يكن بغافل عن خطورة الموقف فى العاصمة ، التى أكلت النيران أهم وأفخم مبانيها ولعل جوستنيان كان يريد أن يظل حتى آخر لحظة متمالكا لنفسه ، باديا أمام الجميع وكأن الأمور ما زالت ملك يمينه . وكان من الممكن أن ينجح جوستنيان فى تأكيد تصوره هذا ، لو أن مجريات الأحداث جاءت كما اعتادتها القسطنطينية من قبل مرارا ، وما شهدته من بعد على امتداد تاريخها . لكن الأمور أفلتت الآن من أيدى زعماء الحزبين الزرق والخضر ، ولم تعد الأحداث مجرد شغب فى المضمار تعداه إلى الشوارع بل أصبحت تمثل ثورة حقيقية ، تمثلت فى مطالب الثائرين الذين تقدموا للإمبراطور يطلبوا إليه عزل والى المدينة يودايمون، والنائب الإمبراطورى والمستشار المالى يوحنا الكبادوكى، والمحامى والفقيه تريبونيان .

وقد يكون من المنطقى مع الأحداث ، المطالبة بعزل يودايمون الوالى الصارم ، باعتباره السبب الرئيسى فى إثارة هياج الزرق وانضمامهم إلى أعدائهم الخضر ، وجريا على سياسة الزرق فى التخلص ممن يقفون حجر عثرة فى سبيل إطلاق أيديهم فى العبث بالأمن العام ، كما جرى مع كاللينيكوس Callinius حاكم كيليكيا [٤٨]. أما أن يضاف إليه يوحنا الكبادوكى وتريبونيان ، فهذا هو الذى يضع أمام الأذهان علامة استفهام كبيرة ، سوف نعود إلى بحثها ، بعد أن نعيش مع الثورة وقائعها .

تيقن لدى جوستنيان خطورة الموقف الآن تماما ، وتردى الأحوال فى العاصمة ، وعجز جهازيه الإدارى والأمنى عن مواجهة هذه الاضطرابات التى راحت تزداد تفاقما ، وأمل فى أن تجد استجابته لمطالب الثائرين ، منفذا للخروج من هذه الأزمة ، ولو إلى حين ، خاصة بعد أن جاءته التقارير التى كان حريصا على الاطلاع عليها بنفسه ، تفيد بأن المعتدلين الذين أبدوا تحفظهم إزاء هذه الأحداث حتى الآن، قد أظهروا عداءهم علانية تجاه الحكومة ، بينما آثر آخرون ممن كان يؤمل وقوفهم إلى جانبه ، الهروب بأنفسهم عبر البسفور إلى الشاطئ الآسيوى المقابل ، ووجهت الدعوة من جانب زعماء العامة لعقد اجتماع فى ساحة قسطنطين ، وأيدهم فى تلك الدعوة عدد من الشخصيات البارزة من النبلاء ورجال السناتو، حيث جرت مناقشة

٤٨- راجع حاشية رقم ٣٨ .

وتقييم للموقف ، وتمت الموافقة فى هذا الاجتماع على خلع الطاعة للحكومة، بل تطور الأمر إلى الاقتراح بعزل جوستنيان وإعلان بروبوس Probus أحد أبناء أخى أنسطاسيوس ، امبراطورا[٤٩] وقد وضع هذا الاقتراح على الفور موضع التنفيذ ، فاتجهت الجموع إلى دار بروبوس لرفعه مكانا عليا ، غير أن الرجل آثر السلامة ، وفضل المهرب على المنصب ، فجزاه العامة على ذلك بأن قدموا داره للنيران قربانا!

لم يتردد جوستنيان لحظة فى الإقدام على عزل الرجال الثلاثة، كى يهدئ من ثائرة الثائرين، غير أن ذلك كله لم يجد نفعا ، رغم أنه عين البطريق فوقاس Phocas نائبا امبراطوريا بدلا من يوحنا الكبادوكى، وباسيليدس Baslides فى منصب الكويستور ، ورغم أن الرجلين مشهود لهما بالكفاءة والاقتدار والنزاهة ، إلا أن هذا التعيين لم يغن – حسب تعبير بروكوبيوس – عن الإمبراطور شيئا[٥٠]؛ إذ يبدو أن الإمبراطور لم يفطن إلى محاولة الثائرين اعلان بروبوس امبراطورا، وأن التنازلات التى قدمها ، لابد أن تأتى بمزيد من التنازلات . لكن الذى لاشك فيه أن التحدى أصبح سافرا بين الحكومة والثائرين ، وراحت تتكشف رويدا رويدا نيات زعماء الثائرين الآن، والذين لم يعودوا هم زعماء حزبى الزرق والخضر ، بل غدوا من «الشخصيات البارزة من النبلاء ورجال السناتو» وآمن جوستنيان مؤخرا أن سبل السلام لم تعد تفلح مع أناس يطلبونه شخصيا ، ووضع الرجل كما يقول باكر[٥١] مشروعاته وطموحه فى كفة ، والثائرين فى كفة أخرى .. وراح يتساءل إن كانت هذه الآمال تستحق أن يحارب من أجلها ؟ هل تستحق أن يدافع عنها بالعنف والدماء ؟ هل كانت أهدافه خيرة إلى الحد الذى يمكن أن يسحق فى سبيلها العديد من الرجال ؟

مما لاريب فيه أن جوستنيان كان يعتقد اعتقادا جازما فى خيرية مشروعاته الطموحة ، لصالح دولته ، لذا صمم على إخماد الثورة بالقوة، فأصدر أوامره إلى قائده بليزاريوس Blisarius بالقضاء على الثائرين وأشرك معه أيضا القائد موندوس Mundus بقوات من القوط

٤٩- CHRON. PASCH. an. 532 .

٥٠- PROCOP. Bel . Pers. I, XXIV.

٥١- Baker, Justinian, p. 89 .

والهيروليين. وشهدت العاصمة خلال الأيام الثلاثة التالية، الخامش عشر والسادس عشر، والسابع عشر من يناير ، حربا أهلية طاحنة ، بين قوات بليزاريوس وموندوس من ناحية ، والثائرين من ناحية أخرى ، وازدادت الحرائق فى المدينة، فأتت على كنيسة القديسة ايرين ومستشفى سامبسون ، وفشلت المحاولات التى بذلها رجال الأكليروس للحيلولة دون اتساع نطاق هذه الحرب. وأيقن بليزاريوس أنه لن يستطيع الوصول إلى نتيجة حاسمة فى هذا الصراع، بعد أن أدرك أنه لايحارب أنصار الزرق والخضر فقط بل قوى عديدة مسلحة لم يكن يتوقع مواجهتها ، ومن ثم آثر الانسحاب من شوارع القسطنطينية ، والعودة ثانية للاحتماء بالقصر الإمبراطورى ، فأمست المدينة فى قبضة الثائرين [٥٢].

وأمام هذه الفوضى ، راح جوستنيان يراجع حساباته من جديد، وخاصة بعد أن خذله بعض فرق الحرس الإمبراطورى Excubitors وآثر أن يظل على الحياد[٥٣] ، وانتابت الإمبراطور حالة من الشك فيمن حوله، وقر لديه أن هناك مؤامرة تحاك خيوطها على نطاق واسع من جانب قوى متعددة تضمر له السوء [٥٤]، ولما كان القصر الإمبراطورى يحوى ضمن من لجأوا إليه هروبا من الفوضى ، عددا ليس بالقليل من أعضاء مجلس السناتو ، بالإضافة إلى هيباتيوس Hypatius وبومبى Pompeius ولدى أخ الإمبراطور الأسبق أنسطاسيوس ، فقد خشى جوستنيان أن يكون هناك اتفاق سرى بين هؤلاء جميعا ، وزعماء الثائرين فى العاصمة ، ولم لا ، وقد أقدم الثائرون منذ ثلاثة أيام فقط على محاولة إعلان بروبوس امبراطورا بديلا؟! ولذا فإنه فى مساء يوم السبت ، السابع عشر من يناير ، استدعى إليه الأميرين ورجال السناتو المحتمين به، وطلب إليهم مغادرة القصر الإمبراطورى على وجه السرعة[٥٥]. وذهبت سدى توسلات هيباتيوس وبومبى بالإبقاء عليهما إلى جوار الإمبراطور ، حتى لاينتهز الثائرون هذه الفرصة ، وأوضحا للإمبراطور خشيتهما من أن يكرههما العامة على اعتلاء أحدهما العرش،

٥٢- PROCOP. Bel . Pers. I, XXIV; MALALAS, Chron. p. 475 .

وأيضا ZONAR. epit. XIV, 6; CHRON PASCH. an 532.

٥٣- PROCOP. Bel. Pers. I, XXIV, 45 .

٥٤- MARC. COMES, an. 532 .

٥٥- PROCOP. Bel . Pers. I, XXIV , 19.

لكن هذه التوسلات ما زادت الإمبراطور إلا شكوكا وإيمانا بأنهما ضالعين فيما يجرى خارج القصر ، ومن ثم أصر على موقفه ، فامتثل الرجلان لأوامر الإمبراطور(٥٦).

بهذه الخطوة ألقى الإمبراطور جوستنيان فى أيدى أعدائه ، بورقة رابحة ، كان من الممكن أن تحقق لهم كسبا عظيما ، لو سارت الأمور كما خططوا لها ، فقد حدث ما تنبأ به الأميران. أما ما كان من أمر جوستنيان ، فقد ظهر فى الهيدروم مع مطلع صبيحة يوم الأحد الثامن عشر من يناير ، ليقدم للثائرين آخر محاولة فى جعبته لاسترضائهم ، فأعلن مسئوليته الكاملة عن كل ما حدث ، وأن عليه وحده تقع تبعة هذه الفوضى التى حلت بالعاصمة ، نتيجة لعدم استجابته فى البداية بالعفو عن الرجلين اللذين نجيا من المشنقة ، ثم أذاع فى الحضور أنه قد قرر عفوا عاما يشمل جميع من شاركوا فى هذه الاضطرابات(٥٧).

ويبدو أن جوستنيان كان يضع نصب عينيه، ما حدث قبل ذلك فى نفس المكان ، بسنوات قليلة ، بين الإمبراطور أنسطاسيوس وشعبه ، عندما وقف هذا الأخير فى المقصورة ، وخلع عباءته الأرجوانية، بعد أن ثار الناس ضد سياسته الاقتصادية ، وأعلن فى حركة مسرحية أنه على استعداد للتنحى عن العرش إذا ما طلب إليه الجموع ذلك ، فما كان من هؤلاء الجموع إلا أن هتفوا بحياة أنسطاسيوس(٥٨) غير أن ماحدث فى عام ٥١١ ضد أنسطاسيوس، كان يختلف جذريا- كما سنرى- عما يجرى سنة ٥٣٢ زمن جوستنيان. ومن ثم لم يهتف الناس فى الهيدروم بحياة جوستنيان كما فعلوا مع سلفه الأسبق، بل راحوا يقذفونه بالحجارة ، ويسبونه بأقذع الألفاظ «كذاب .. خائن .. حمار» !! فلم يجد أمامه إلا أن ينسحب عائدا إلى قصره!(٥٩).

وفى الوقت نفسه ، تناقل الثائرون خبر طرد هيباتيوس وبومبى من القصر الإمبراطورى، وعقد زعماء الثائرين من السناتو اجتماعا قرروا فيه مهاجمة الإمبراطور فى قصره ، ولم يقيموا وزنا لنصائح أحد أقطابهم ، أووريجن Origenes الذى دعاهم إلى التريث فى الأمر، وأن

٥٦- Ibid. 20-21 .

٥٧- CHRON. PASCH. an. 532 .

٥٨- MALALAS, Chron. p. 408 .

٥٩- CHRON. PASCH. an. 532 .

المسألة تحتاج إلى شئ من التعقل والحكمة ، وفى الوقت نفسه الصبر ، حتى يسقط القصر الإمبراطورى فى أيديهم طواعية ودون عناء ، لأنه «إذا ما واجهنا العدو بصورة سافرة ، أصبحت قضيتنا معلقة ، متأرجحة ، وسوف نكون بذلك قد أقدمنا على مخاطرة غير محسوبة، سوف يتقرر بمقتضاها كل شئ فى وقت قصير ، وعلينا عندئذ أن نخر راكعين أمام آلهة الحظ ، أو أن نلقى عليها اللوم ، فالأمور التى يصدر بشأنها قرارات سريعة غير مدروسة، يكون مآلها- كما هى القاعدة - الخضوع لضربات الحظ !!» (٦٠). لكن أحدا من أعضاء السناتو المتحمسين للحصول على نتيجة سريعة لعملهم طوال هذه الأيام الماضية ، لم يصغ لمشورة أوريجن . ويبدو أن أعضاء السناتو الذين أخرجوا من القصر الإمبراطورى فى الليلة السابقة ، قد نقلوا إلى زملائهم الحالة المتردية التى وصلت إليها الأمور داخل جدران القصر ، وحالة الهلع التى انتابت الجميع وعلى رأسهم الإمبراطور خاصة بعد فشل بليزاريوس فى إخماد الثورة ، ورفض الحرس الإمبراطورى المشاركة فى هذا الأمر .

وعلى الفور اتجه الزحوف وزعماؤهم إلى دار هيباتيوس ، واقتادوه إلى ساحة قسطنطين ، ومنها إلى الهيدروم ، حيث نادوا به امبراطورا ، وأجلسوه فى المقصورة . وعبرت زوجه عن هذه اللحظة برؤيه قانطة عبوس، ترجمتها فى كلمات نافذة قائلة : «إنهم يسوقونه إلى الموت لا إلى العرش !!» وذهبت صرخاتها بالإبقاء عليه فى داره بعيدا عن هذه الأحداث .. عبثا(٦١).

لم يكن هيباتيوس من ذلك النوع من الرجال ، الذى يمكن أن يغدو بطلا ، أو أن يركب هذه الموجة العالية. ومهما يكن شعور من بداخل القصر، فإن هيباتيوس كان يسيطر عليه دائما شعور الإخفاق واليأس . لقد كان من أولئك النوع من الرجال الذين يعتقدون أن فرصتهم الوحيدة فى النجاح ، تتلخص فى عدم الإفصاح عن موقفه ، حتى ولو كان النصر فى جانبه(٦٢). لقد عاش منذ وفاة عمه أنسطاسيوس ، فى كنف جوستين وجوستنيان ، راضيا قانعا بما قسمت له به عجلة المسرح السياسى فى العاصمة ، وظل حتى اللحظة الأخيرة محتميا بالإمبراطور داخل قصره ، ولم يخرج منه إلا مطرودا عندما توجس جوستنيان فى نفسه منه

٦٠- راجع نص خطاب أوريجن فى PROCOP. Bel. Pers. I, XXIV, 26-30

٦١- ZONAR. epit. XIV, 6 وأيضا Ibid. 22-24 .

٦٢- Baker. Justinian, p. 94 .

خيفه . ولذا كان أول ما أقدم عليه هيباتيوس وهو يحتل المقصورة الإمبراطورية، أن كتب رسالة إلى جوستنيان ، يوضح له فيها موقفه، ويطلب إليه سرعة مهاجمة الهيدروم ، ليأخذ الثائرين على غرة ، وهم فى نشوة النصر بتتويج الإمبراطور الجديد (٦٣).

غير أن هذه الرسالة لم يقدر لها أن تصل إلى جوستنيان أبدا ؛ ذلك أن إفرايم Ephraim أحد المقربين إلى هيباتيوس ، والذى حمل الرسالة ليسلمها إلى جوستنيان ، إلتقى فى طريقه عبر الدهليز الذى يصل بين القصر الإمبراطورى والمقصورة ، بتوماس Thomas الطبيب الخاص بجوستنيان ، فأخبره هذا أن الإمبراطور وحاشيته قد أطلقوا سيقانهم للريح مولين الأدبار(٦٤)، فعاد إفرايم مسرعا إلى سيده يحمل إليه هذه الأنباء ، التى لابد سوف تثلج صدره وتعطيه الأمان، باعتباره قد غدا امبراطورا حقا . ولم يكلف افرايم نفسه عناء التيقن من صحة هذا الخبر.

ويبدو أن توماس ، قد حضر الجانب الأول من الاجتماع الذى دعا إليه جوستنيان ليبحث الأمر ، بعد الاهانة التى لحقت به فى الهيدروم صبيحة هذا اليوم ، وبعد ما صك مسامعه من تتويج هيباتيوس امبراطورا ، وقد أيد الحاضرون جميعا وفى مقدمتهم يوحنا الكبادوكى، فكرة الهروب إلى الشاطئ الآسيوى للبسفور ، ليكونوا فى مأمن من الهجوم المتوقع على القصر، ولم يبد العسكريون وعلى رأسهم بليزاريوس اعتراضا على هذا الرأى، بعد أن ثبت فشل المواجهة العسكرية ، ولأن المشكلة الرئيسية كانت تتلخص فى عدم وجود قوات كافية للتصدى للثوار، حيث أن الجيش كان يرابط على الجبهة الفارسية. ولاشك أن توماس قد انسحب من الاجتماع عند هذا الحد، ونقل إلى إفرايم هذه الصورة ، قبل أن تخف ثيودورا إلى مكان المجلس ، لتدلى برأيها ، ولتقلب هذه الفكرة رأسا على عقب .

تفرست ثيودورا وجوه الحاضرين ، وقد تلبدت سماء الأمل بغيوم القنوط ، وراحت بكل الحزم تقول : «فى مثل هذه الأزمة التى نواجهها .. ليس لدينا الوقت لمناقشة ما إذا كان مكان المرأة الالتزام بالقاعدة القديمة التى تقضى بالصمت إذا ما تحدث الرجال.. أم لا .. وهل من الواجب أن تظل مطأطئة الرأس ، خانعة خجول فى حضور السادة.. أم لا ؟! علينا إذن أن

٦٣- CHRON. PASCH. an. 532 .

٦٤- Id .

نعمل بسرعة . وإنى لأرى أن هذا الوقت بالذات ليس مناسبا للفرار ، حتى لو كان فى ذلك الأمان كله.. فليس هناك شئ مضمون . وكلنا يعلم أن كل مولود ، لابد له من يوم يودع فيه دنياه، لكن ليس من اللائق على من غدا امبراطورا ، أن يمسى هاربا. إننى لن أتخلى أبدا عن هذه العباءة الأرجوانية، ولن أعيش ذلك اليوم الذى يخاطبنى فيه من يلقبنى بغير لقب الإمبراطورة .. والآن .. أى مليكى .. إذا شئت أن تنجو بنفسك ، فليس ذلك صعبا ، ولاشئ يمنعك . فالمال وفير، والبحر طيع وسيع ، والسفين على الشطآن كثير. أما أنا.. فإنى أوثر أن أستمسك بالقول القديم : الأرجوان خير الأكفان»[٦٥].

كان لهذه الكلمات فعل السحر فى نفوس الحاضرين جميعا وفى مقدمتهم جوستنيان ، الذى كان قد أسند ظهره بعد تجربة الصباح فى الهبدروم إلى جدار اليأس ، واستدعى إليه بمشورة زوجه ، الخصى نارسس Narses ودفع إليه مبلغا من المال، وأسر إليه آمرا أن يقصد زعماء الزرق ، مذكرا إياهم بما كان من موقف جوستنيان معهم منذ بداية عهده ، وأن يقدم إليهم هذه الأموال «رشوة» دليلا على حسن نيات الإمبراطور تجاههم، لقاء التخلى عن مناصرة الخضر ، ونقض هذا التحالف. ولقيت هذه المناورة استجابة من الزرق ، الذين انسحبوا من الهبدروم تاركين الخضر يواجهون المصير المحتوم وحدهم [٦٦].

وصدرت الأوامر إلى كل من بليزاريوس وموندوس ، بمهاجمة الثائرين فى الهبدروم ، وسط نشوتهم بفرحة الانتصار ، بإعلان هيابتيوس امبراطورا ، وقد حاول بليزاريوس الوصول مباشرة إلى المقصورة الإمبراطورية للقبض على هيباتيوس ، فيوقع الذعر فى نفوس الثائرين ، غير أن محاولته باءت بالفشل ، إزاء موقف الحرس الإمبراطورى المكلف بحراسة بوابات الدهليز الموصل بين القصر والمقصورة ، الذى رفض أن يسمح لبليزاريوس بالمرور [٦٧]. ومن ثم اضطر القائد أن يخرج من القصر بقواته لمهاجمة الهبدروم من الخارج . وقد نجحت قوات بليزاريوس وموندوس من القوط والهيروليين فى اقتحام الهبدروم ، بحيث أحيط بالثائرين فى داخله ، وجرت مذبحة مروعة ، أفاض المعاصرون فى وصف أحداثها ، وذهب ضحيتها على أقل

٦٥- PROCOP. Bel. Pers., I, XXIV, 32-37 .

٦٦- MALALAS. Chron. p. 476 .

٦٧- PROCOP. Bel. Pers. I, XXIV, 44 - 45 .

التقديرات ، ثلاثون ألف رجل (٦٨). وتم إلقاء القبض على كل من هيباتيوس وبومبى، حيث سيقا إلى الإمبراطور فى اليوم التالى لهذا اليوم الحزين. ويبدو أن الإمبراطور ، كما يظهر من حديث زكريا المتلينى، كان يميل إلى العفو عن الأخوين ، بعد أن تفهم حقيقة موقفهما (٦٩)، خاصة وأن بومبى لم يشارك فى هذه الأحداث على الإطلاق ، ولم يكن له أى دور فيها، بينما راح هيباتيوس يوضح لجوستنيان أن إرادته قد سلبت تماما أمام هياج الجموع الصاخبة التى رفعته إلى العرش دون رغبة منه، وأنه جئ به إلى الهيدروم قسرا ، ودلل على ذلك بأمر الرسالة التى بعث بها إليه وهو فى المقصورة الإمبراطورية (٧٠)، وهى التى لم تصل الإمبراطور كما علمنا . غير أن ثيودورا التى احتلت الآن مكانة مرموقة بعد وقفتها الشهيرة وكلماتها النافذة ، وبعد أن اتضح للجميع قوة عزيمتها وسداد الرأى لديها ، أقنعت زوجها بأن من الحكمة الخلاص من الرجلين ، حتى لايكونا دافعا لفتنة جديدة قد تطل برأسها ، ومن ثم اقتيد الرجلان إلى شاطئ البسفور ، حيث احتزت رأساهما، وألقى بجثتيهما فى البحر (٧١).

أما ما كان من أمر أعضاء مجلس السناتو الذين شاركوا فى هذه الثورة ، فقد ألقى القبض على ثمانية عشر عضوا منهم ، وصودرت ممتلكاتهم ، وإن كانت هذه المصادرة لم تستمر طويلا، بل تم إعلان العفو عنهم فيما بعد، وأعيدت إليهم الممتلكات التى تمت مصادرتها(٧٢) بعد أن قلمت أظافرهم ولم يعد يخشى بأسهم .

٦٨- PROCOP. Bel. Pers. I, XXIV, 54 وقد اختلفت تقديرات المؤرخين حول أعداد القتلى الذين راحوا ضحية هذه المذبحة ، فيقدروهم زكريا المتلينى بثمانين ألف رجل ، وهو عدد مبالغ فيه جدا، بينما زوناراس يراهم أربعين ألفا، ويحددهم يوحنا الليدى بخمسين ألف قتيل ، أما يوحنا مالالاس فيتحفظ فى القول عندما يذكر أنهم «تقريبا» خمسة وثلاثين ألفا. ومن ثم اعتمدنا على رأى بروكوبيوس ، أقربهم جميعا للأحداث ، وسكرتير بليزاريوس القائد الذى نجح فى سحق الثورة . راجع ZACH. Chron. IX, 14 وأيضا ZONAR. epit. XIV, 6 ; MALALAS, Chron. p. 477 ; IOAN. LYD. de magist. III 62 .

٦٩- ZACH. Chron. IX. 14 .

٧٠- PROCOP. Bel. Pers. XXIV, 55 -56 .

٧١- PROCOP. Bel. Pers. XXIV. 57 وقارن ZACH. Chron. IX, 14

٧٢- CHRON. PASCH. an. 532 .

PROCOP. Bel. Pers. I, XXIV, 57 وأيضا CHRON. PASCH. an. 532 .

هكذا قضى على أخطر ثورة شهدتها القسطنطينية طوال تاريخها، بجرأة ثيودورا ، على حد تعبير بيورى[٧٣] Bury وولاء بليزاريوس وشجاعته ، ومكن جوستنيان لنفسه فى الأرض، ليحكم بعد ذلك حكما مطلقا طيلة ثلاثة وثلاثين عاما آتية ، أقدم فيها على تنفيذ مشروعاته وآماله العريضة، دون أن يلقى من بعد معارضة . على أن هذه الثورة تمثل نقطة تحول بارزة فى مختلف نواحى الحياة فى الإمبراطورية البيزنطية ، ولنحاول الآن بهدوء ، بعد أن عايشنا حوادث العنف وتطوراتها ، أن نحلل وقائعها لندلل على صدق ما نذهب إليه، من اعتبارها حجر الزاوية فى تشبيت دعائم نظام سياسى بعينه فى الإمبراطورية، وما ترتب على ذلك من تغيرات واسعة شملت جوانب الحياة العامة .

فعندما وضع بروكوبيوس كتابه الأول «عن الحرب الفارسية» De Bello Perico وصف هذه الثورة بأنها «عصيان مسلح وغير متوقع بين العامة فى القسطنطينية، وإن كانت قد أثبتت أنها فى غاية الخطورة ، كما أنها انتهت بأضرار بالغة للعامة والسناتو»[٧٤]. وإن كان يعزو بداياتها الأولى التى وقعت فى الهبدروم، إلى «الروح المريضة» لدى أنصار فريقى الزرق والخضر[٧٥]. فلما دون بعد ذلك «مذكراته التى لم تنشر » أو ما اصطلح على تسميته بـ «التاريخ السرى» Historia Arcona ألقى بتبعة الأحداث كلها فوق رأس الإمبراطور جوستنيان، فكتب يقول : «عندما يكون الناس على ثقة بالمستقبل، فإنهم يصبحون على استعداد لتحمل آلام الحاضر، أما إذا ما وقعوا تحت طائلة العسف والجور على يد رجال الحكومة ، فإنهم يصبحون أكثر إحساسا بالكرب والضيق مما يعانون ، ويسقطون فريسة اليأس القاتل الذى ينبئ أنه لا أمل مطلقا فى العدالة. ولقد خدع جوستنيان رعاياه وضللهم ، ليس فقط برفضه الدائم مساعدة ضحايا هذه الأخطاء، بل لأنه كان على استعداد تام كى يضع نفسه حاميا لهذا الفريق أو ذاك من أنصاره ، ولأنه أنفق أموالاً طائلة على هؤلاء المتهورين الطائشين ، واحتفظ بعدد من هؤلاء بطانة له وحاشية، ورفع بعضهم إلى أعلى المناصب »[٧٦].

٧٣- Bury. Later Roman Empire, II, p. 48 .

٧٤- PROCOP. Bel. Pers. I, XXIV, I.

٧٥- Ibid. 6 .

٧٦- PROCOP. hist. arc. VII .

وبروكوبيوس يشير من طرف خفى، إلى ما أفصح عنه صراحة فى نفس الموضع من كتابه الأخير ، من تأييد جوستنيان لحزب الزرق ، و«عربدة» هؤلاء فى القسطنطينية والأقاليم الشرقية من الإمبراطورية، استنادا إلى تأييد الإمبراطور لهم، حتى «خرت الدولة على ركبتيها جاثية» بسوء فعالهم . ومع صدق ما يذهب إليه بروكوبيوس إلى حد كبير، فلا ننسى أن الرجل كان قيساريا ، وأن هواه لابد أن يكون مع الأقاليم الشرقية، التى أمست تحت سيادة جوستنيان ، تأتى فى المرتبة الثانية بعد ولايات الغرب الرومانى ، التى جعل الإمبراطور من استردادها مبلغ همه، على عكس ما كان قد غدا عليه النصف الشرقى للإمبراطورية منذ عهد دقلديانوس فى أخريات القرن الثالث الميلادى وأوائل الرابع (٧٧).

ويشير بروكوبيوس أيضا ، وإن كان بوضوح كامل ، إلى من رفعهم جوستنيان إلى «أعلى المناصب» ، قاصدا بذلك يوحنا الكبادوكى ، النائب الإمبراطوري والمستشار المالى لجوستنيان، إذ يعتبره بروكوبيوس آفة زمانه وكارثة عصره ، «بعيدا كل البعد عن الثقافة، لم يفقه شيئا مطلقا مما تعلمه فى مراحل تعليمه الأولى. لكنه على الرغم من ذلك أصبح الرجل القوى الذى نعرفه. لقد كان عظيم الاقتدار فى أن يقرر ما يريد ، وأن يجد المخرج والحل لكل صعب. استخدم مهاراته لتحقيق كل أغراضه ... لم يكن يقيم اعتبارا لله، ولا لأى إنسان مهما كانت منزلته ، بل كثيراً ما كان على استعداد أن يحطم العديد من الرجال من أجل كسب يحققه،

٧٧- كانت هذه الصورة واضحة جدا فى أذهان كتاب القرن الرابع، أعنى احتلال النصف الشرقى المرتبة الأولى، فعندما وضع دقليانوس نظام الحكومة الرباعية Tetrarchia ليكون بديلا عن الفوضى السياسية والعسكرية التى أهلكت الإمبراطورية، فيما عرف بأزمة القرن الثالث ، احتفظ لنفسه بالمكانة الأولى باعتباره أوغسطس الشرق والإمبراطور الأول ، ويأتى فى المرتبة الثانية أوغسطس الغرب، ويحتل المرتبة الثالثة قيصر الشرق ، بينما المرتبة الرابعة من تصيب قيصر الغرب. ولعل أروع وأصدق تعبير عن فهم المعاصرين وإدراكهم لهذه الحال ، ما كتبه البلاغى الأفريقى الشهير لاكتانتيوس ، يصف به الأوضاع ، عندما قبل قسطنطين التخلى عن منصب أوغسطس الغرب الذى رفعه الجنود إليه بعد موت أبيه ، وقبل منصب قيصر الغرب ، بناء على أوامر جاليريوس أوغسطس الشرق ، قال لاكتانتيوس : «لقد هبط قسطنطين بذلك من الدرجة الثانية إلى الدرجة الرابعة». أنظر LACT. mort. pers. 25 وللوقوف على تفاصيل هذه الأحداث ، راجع للباحث، الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى، الفصل الثانى.

ومن ثم فإنه خلال فترة وجيزة جدا، تمكن من أن يجمع حصيلة ضخمة من الأموال. لقد كان خراب كل المدن محور اهتمامه»(٧٨).

ويتفق المؤرخون جميعا فى خلع مثل هذه الصفات على يوحنا الكبادوكى، فهذا يوحنا الليدى Ioannes Lydus يذكر أنه استطاع أن يكسب جانب الإمبراطور عندما وضع أمامه عددا من المشروعات، تهدف كلها إلى زيادة حصيلة الضرائب، بحيث تتناسب مع الانفاق الضخم (٧٩). أما زكريا المتلينى فيصفه فى عبارات تكاد تتفق تماما مع ما يورده بروكوبيوس ويوحنا الليدى، ويقول: «إنه درج على تلفيق الاتهامات إلى الناس باستخدام أساليب الخداع، والمكر والدهاء، فى القسطنطينية وغيرها من المدن، وجمع أموالا ضخمة للخزانة الإمبراطورية من كل الطبقات دون تمييز، علية القوم والحرفيين على السواء. لقد كان مسموع الكلمة فى القصر، مخيفا لأى إنسان، ولم لا وقد كان من أشد المقربين والثقاة إلى الإمبراطور»(٨٠). ويعبر أحد المؤرخين الحديثين(٨١) عن شخصية يوحنا الكبادوكى، بعبارة بليغة يوجز فيها كل ما قاله السابقون، بقوله: «لقد كان همه أن يملأ بالأموال حفرة لا قاع لها !!».

ومما لاريب فيه أن هذه الاتهامات الموجهة إلى النائب الإمبراطورى، وباعتباره «أشد المقربين والثقاة إلى الإمبراطور»، تنسحب تلقائيا على شخص جوستنيان هو الآخر، الذى كان حسب تعبير بروكوبيوس «ينتهز أية فرصة ليغتصب ما بيد رعاياه من الأموال، بل كان على استعداد لأن يبيع القانون لقاء مبلغ من الذهب»! (٨٢). على حين يصفه إفاجريوس Evagrius بأنه كان فى حبه للمال نهما لايشبع، يشتهى كل ما تملكه رعيته، إلى الحد الذى باعهم فيه جملة واحدة لموظفيه وجباة الضرائب فى دولته(٨٣).

٧٨- PROCOP. Bel. Pers. I, XXIV, 12-13 ويضيف: «لقد اندفع بكل قوة فى حياة دنسة دنيئة لوغد مخمور، فعلى امتداد كل يوم حتى موعد الغذاء، تصبح مهمته سلب أموال وثروات الرعية، بينما يشغل بقية يومه فى الشراب والدعارة. ولم يكن قادراً بالمرة على كبح جماح نفسه، فهو يأكل حتى يتقيأ، وهو على استعداد دائما لسلب الأموال، وأكثر استعدادا للحصول عليها، وانفاقها» !! Ibid. 14-15.

٧٩- IOAN. LYD. de magist. III 57-58.

٨٠- ZACH. Chron. IX, 14.

٨١- Baker, Justinian, p. 79.

٨٢- PROCOP; hist. arc. XIV.

٨٣- EVAG. hist. eccl. IV 30.

والحقيقة أن جوستنيان وجد في يوحنا الكبادوكي ضالته التي ينشدها ؛ فالإمبراطور يضع نصب عينيه تحقيق عدد من المشروعات الضخمة، يأتي في مقدمتها استرداد ولايات الغرب الإمبراطوري التي ضاعت من جراء الغزو الجرماني ، وأمست ممالك جرمانية . وكان جوستنيان امبراطورا روماني القلب والقالب ، يؤمن إيمانا كاملا بالإمبراطورية الرومانية الواحدة، العالمية، ويوقن تماما أن روما البسفور لاتغني مطلقا عن روما التيبر، وأفصح عن ذلك في تشريعاته عندما راح يبدي حسرته الشديدة على تقلص مساحة الإمبراطورية، نتيجة السياسة الضعيفة التي انتهجها الأباطرة الأسلاف [٨٤]. وأعلن صراحة عن عزمه على استعادة ولايات الغرب الروماني الضائعة ، بقوله : «لدينا كبير أمل في الله بأن يأذن لنا في استرداد الأراضي الإمبراطورية الرومانية القديمة، التي من جراء التراخي ضاعت» [٨٥].

بناء على هذا الفكر لدى جوستنيان، عرض على مستشاريه الماليين والعسكريين ، في أخريات عام ٥٣١ مشروع القيام بحملة عسكرية إلى ولاية أفريقيا التي يحتلها الوندال. ورغم أن هذه الفكرة لقيت المعارضة الكاملة من جانب هؤلاء المستشارين، تأسيسا على الفشل الذي أصاب الحملة التي قادها باسيليسكوس Basiliscus على عهد الإمبراطور ليو الأول ضد الوندال عام ٤٦٨ . إلا أن جوستنيان أعرض عن آراء من جمعهم ليشاورهم في الأمر ، وصمم على إنفاذ هذه الحملة ، خاصة وأنه كان قد ضمن إقرار السلام ولو بهدنة مؤقتة عقدها مع الفرس ، قبل بمقتضاها أن يدفع مبلغا ضخما من الذهب ، لشراء سكوت فارس [٨٦]. إزاء هذه الجزية التي تقررت لفارس ، والأموال المطلوب توفيرها للإعداد للحملة الأفريقية ، كان على يوحنا الكبادوكي أن يوفر للإمبراطور كل ما يطلبه ، ولم يدخر الرجل في ذلك وسعا ، ولم يستثن من ذلك- كما يقول زكريا المتليني - كبار الملاك أو صغار الحرفيين .

وليس أصدق في التعبير عن شدة حاجة الإمبراطور إلى الأموال بصورة عامة، من التشريعات التي أصدرها جوستنيان نفسه، متعلقة بالضرائب . فها هو يوجه تعليماته إلى حكام الولايات ، «فلتكن جباية الضرائب هي شغلكم الشاغل قبل أي عمل آخر»، ثم يتوجه

٨٤- IUS. Nov. XXV, 2 ; Nov. XXX, 11 .

٨٥- IUS. Nov. XXX, 11 .

٨٦- PROCOP. Bel . Pers. I, XXII

بحديثه إلى رعيته : «ألا فلتعلموا أن مشروعاتنا الضخمة وآمالنا العراض، لن يتم انجازها دون الأموال ، ألا فلتدفعوا الضرائب إذن دون إبطاء»(٨٧). وتضمن القسم الذى كان يؤديه حاكم الإقليم النص على بذل كل الجهد لجباية الضرائب : « ... وأقسم أن أبذل قصارى جهدى فى متابعة تحصيل الضرائب ، وأن آخذ المتراخين فى السداد بكل شدة، وأن أكون معهم صارما، وأن لا أتردد فى استخدام القسوة إذا ما تطلب الأمر»(٨٩) بل إن جوستنيان ذهب أبعد من ذلك عندما حذر الممولين من تقديم شكاياتهم ضد حكام الولايات ، إذا ما اتبع هؤلاء معهم وسائل العنف عند تحصيل الضرائب(٨٩) وهددهم بأشد أنواع العقاب ، إذا ما انتهزوا المهلة المحددة له لرحيله عن الإقليم لإيقاع الأذى به (٩٠). وراح يلقى باللائمة على الأباطرة الأسلاف الذين تهاونوا فى حقوق الخزانة الإمبراطورية ، حتى انخفض دخل الدولة من الضرائب حسب تقديره إلى الثلث وربما الربع (٩١).

وكان طبيعيا أن يقدم جوستنيان فى سبيل زيادة دخل الخزانة، على فرض ضرائب جديدة ، منها على سبيل المثال تلك التى فرضت على أصحاب الحوانيت فى القسطنطينية ، والتى قدرت بحوالى خمسين فى المائة من صافى الأرباح السنوية لهذه الحوانيت ، وذلك فى مقابل إطلاق يد التجار فى عدم الالتزام بالتسعيرة الجبرية ، مما أدى إلى ارتفاع الأسعار إلى ثلاثة أمثال السعر العادى . وأوقع الأضرار بالكثيرين ، وأطلق يد موظفى الحكومة للعبث كيف شاءوا بهذه الحوانيت لتقدير قيمة «النصف» حسب هواهم (٩٢). كما ابتدعت الإدارة المالية تحت رشد يوحنا الكبادوكى ، ضريبة جديدة لم تكن موجودة من قبل ، حملت تسمية غريبة ، إذ عرفت بضريبة «الهواء» أو السماء» Aerikon من المحتمل أنها فرضت على الأبنية المرتفعة فى المدن الكبرى. وقد حققت هذه الضريبة المبتدعة ، دخلا كبيرا للخزانة بلغ ثلاثة

٨٧- IUS. Nov. VII, 8 , 10 ; Nov. XVIII, 1 ; Nov. XXX , 2 .

٨٨- IUS. Nov. VIII, 3 .

٨٩- IUS. Nov. VII, 10 , Nov. XXVIII, 5 .

٩٠- IUS. Nov. VIII, 10 .

٩١- IUS. Nov. VII praef.

٩٢- PROCOP. hist. arc. XX .

آلاف رطل من الذهب سنويا[٩٣]. ولم ينج أصحاب السفن التجارية أيضا من مثل هذه الأمور التى تدخل ضمن دائرة الابتزاز ، إذا كان عليهم دفع رسوم مالية كبيرة عند ارتحال سفنهم عن ميناء العاصمة، أكرههم عليها موظفو الإدارة المالية ابتغاء وجه الإمبراطور[٩٤]، بحيث أصبح شعار العاملين فى الإدارة الحكومية ، أو بتعبير بروكوبيوس نفسه ، أصبح طموحهم الوحيد، أن يقنعوا الإمبراطور بجدية ولائهم له، عن طريق المزيد من الأموال والمزيد»[٩٥].

وفى مقابل الجدية التى بلغت حد التعسف فى تقدير الضرائب وطرق جبايتها ، لم يتردد جوستنيان فى اتباع سياسة تقشفية ، لتوفير بعض الأموال التى تنفق فى وجوه عدها الإمبراطور إسرافا وإهدارا للأموال العامة. من ذلك إقدامه على إلغاء المنحة التى كانت تعطى للجنود مرة كل خمس سنوات ، على عهود من سبقه من الأباطرة ، ومقدارها خمسة صوليدى لكل جندى[٩٦]، كما أنه أبطل المكافأة التى كانت تصرف للعاملين فى الدولة عند نهاية الخدمة[٩٧]. وأوقف صرف الإعانات والمعاشات التى كانت تعطى فيما سبق لأطباء ومعلمى أبناء النبلاء[٩٨]، وحول جزءا مما كان يحصل عليه المحامون ليصب فى الخزانة الإمبراطورية ، وذلك بالسماح للمتقاضين برفع دعاواهم أمام المحاكم مباشرة دون اللجوء إلى المحامين[٩٩]. ومع التحفظ والحذر الشديدين اللذين لابد أن يضعهما الباحث فى اعتباره عند قراءة «التاريخ

٩٣- Ibid. XXI ويبدو أن هذه الضريبة قد ظهرت بعد ذلك فى عهود تالية متأخرة ، زمن ليو السادس الحكيم (٨٨٦-٩١٢) وألكسيوس كومننوس (١٠٨١-١١١٨) . وقد دارت حولها مناقشات عديدة . راجع Bury, Later Roman Empire , II. p. 350 , n . 4

٩٤- PROCOP. hist. arc. XXIV, XXV.

٩٥- Ibid. XXV .

٩٦- Ibid. XXIV ويتشكك جونز فى أقوال بروكوبيوس فى هذا الصدد ، ويذكر أنه لم يكن من السهل أن يمر هذا الإجراء دون معارضة شديدة من جانب الجنود . أنظر : Jones. Later Roman Empire, I, pp. 284-285 .

٩٧- PROCOP. hist. arc. XXIV .

٩٨- Ibid. XXVI .

٩٩- Ibid. XXV .

السرى» لبروكوبيوس [١٠٠]، إلا أنه بالمقارنة مع تشريعات جوستنيان نفسه، وما يذكره المؤرخون الآخرون أمثال يوحنا الليدى وإفاجريوس وزكريا المتلينى ويوشع العمودى ، وفى ضوء المشروعات العمرانية والتشريعية والحربية ، التى نفذها جوستنيان على امتداد عهده الطويل البالغ ثمانية وثلاثين عاما ، لانملك إلا القول إن الإمبراطور ووزيره الأثير يوحنا الكبادوكى ، قد سخرا كل طاقات الإدارة المالية وجهدها ، كى تمتلئ الخزانة بالأموال بأى وجه من الوجوه ، وكيفما كان الأسلوب .

ولعل هذا هو الذى يفسر نزوح أعداد هائلة من أهالى الأقاليم الشرقية إلى العاصمة ، بحثا عن المؤن ، حيث كانت حصة القمح المجانية لاتزال توزع فى القسطنطينية ، وحيث حياة الترف والبهجة والهيدروم ، وللبحث عن عمل ومصدر رزق أوسع أو حظ أوفر . وهكذا وفد على المدينة فلاحون وزوجاتهم ، وقساوسة ورهبان وراهبات ، وتجار ومحامون بلا عمل ، ومعظمهم متظلمون جاءوا يضعون شكاياتهم عند أقدام العرش [١٠١]، خاصة بعد أن أصبحت هذه الأقاليم تئن تحت وطأة الضرائب الباهظة وضغط الحرب الفارسية التى كانت قائمة على قدم وساق طوال سبع سنوات (٥٢٤-٥٣١) ، أى قبل أن يعتلى جوستنيان العرش [١٠٢]، وإن كانت الهدنة قد حلت مؤخرا. وقد أصبح نزوح هذه الجموع إلى العاصمة يشكل خطرا بالغا على احتياطات الأمن والتموين فى القسطنطينية . ولم تخف تشريعات جوستنيان هذه الحقيقة، عندما راح الإمبراطور يشكو فى إحداها - كما أسلفنا- من خلو الولايات من ساكنيها ، «بينما امتلأت مدينتنا بأضداد الخلائق» [١٠٣].

١٠٠- يستخدم بركوبيوس تعبيرا واحدا هو «ابتزاز الرعية» على امتداد صفحات كتاب «التاريخ السرى» ، يصف به جهد جوستنيان ويوحنا الكبادوكى للحصول على الأموال، للإنفاق على هذه المشروعات الكثيرة التى كان يطمح إلى تحقيقها جوستنيان . ويعطينا يوحنا الليدى تفصيلا دقيقا للضرائب الباهظة التى فرضت على الأهالى دون تمييز ، والتى بلغت فى جملتها قرابة العشرين ضريبة . راجع :

IOAN. LYD. de magist. III 69-70 .

١٠١- Ibid. 66 .

١٠٢- IUS. NOV. XVII, 2 , 3 ; XXIV, 1 , 3 , 13 , 15 ; XXX, 5 ; XXXII; XXXIII; XXXIV .

١٠٣- IUS. Nov . XXV, 3 ; XXX, 9 ; LXXX. وراجع أيضا ZACH. Chron. IX, 14 .

ولاشك أن الناس راحوا يتحسرون على الأيام الخوالى، التى عاشوها زمن الإمبراطور الأسبق أنسطاسيوس ، حيث ألغى عددا من الضرائب كان الهدف منها تخفيف الأعباء الاقتصادية الثقيلة على الأهالى ، وعوض النقص الذى أصاب الخزانة من جراء ذلك ، بدخل الضياع الإمبراطورية التى يبدو أنها زادت آنذاك إلى حد كبير ، بالإضافة إلى مصادرة ممتلكات الإمبراطور السابق زينون وجماعته من الأيزوريين ، وإلغاء الإعانة التى كانت مخصصة لهؤلاء الأخيرين [١٠٤]. يضاف إلى ذلك إشرافه الكامل على إخضاع المواد الغذائية للتسعيرة الجبرية المخفضة التى تحددها الدولة ، حتى يحول دون جشع كبار التجار [١٠٥].

وقد تمكن أنسطاسيوس ، بما عرف عنه من حرص شديد بلغ حد التقتير ، من معالجة الأزمة الاقتصادية التى نتجت عن التكاليف الباهظة التى تطلبتها الحملة الفاشلة على أفريقيا عام ٤٦٨ بقيادة باسيليسكوس ، وما تبع ذلك من فوضى داخلية بسبب الصراع على العرش ، وما أحدثه الأيزوريون من اضطرابات فى العاصمة وخارجها ، وقد ترك أنسطاسيوس خزانة عامرة بالأموال [١٠٦]. ورغم الأموال الطائلة التى جمعها جوستنيان خلال فترة حكم خاله جوستين عبر تسع سنوات ، والتى فاقت حسب رواية بروكوبيوس ما ادخره أنسطاسيوس على عهده البالغ سبعة وعشرين عاما ، إلا أنه يبدو أن الحرب الفارسية والجزية المالية الضخمة التى قبل جوستنيان أن يدفعها للفرس ، وما أنفق على المشروعات المعمارية، واللجان الفقهية التى وكل إليها إعداد مجموعة قوانين جوستنيان الشهيرة، كل هذا قد استنفذ هذه الأموال الطائلة[١٠٧].

من هنا كان السخط عاما لدى جميع الطبقات بلا استثناء ، عندما اندلعت الثورة فى القسطنطينية ، بسبب هذه السياسة المالية التى اتبعها النائب الإمبراطورى والمستشار المالى

١٠٤- MALALAS, Chron. p. 398 .

وأيضا EVAG. hist. eccl. III, 42 وراجع كذلك Bury, Later Roman Empire, I. p. 442 .

١٠٥- Stein, Bas- Empire, II pp. 200-201 .

١٠٦- IOAN. LYD. de magist. III 51 .

وأيضا PROCOP. hist. arc. XIX .

١٠٧- Id. وراجع أيضا Hodgkin, Italy and her Invaders, III , p.

وباركها جوستنيان. ومن هنا نستطيع أيضا أن نتفهم حقيقة الدوافع التى حدت بالثائرين إلى المطالبة بعزل يوحنا الكبادوكى من منصبه ، ليس فقط من جانب الفقراء الذين اعتصرتهم إجراءات يوحنا ، بل أيضا كبار الملاك الذين كانوا قد كونوا لأنفسهم قوات خاصة يقفون بها فى وجه السلطة الحكومة(١٠٨).

ولم يكن هذا السخط ناجما فقط عن السياسة الضرائبية التى فرضها جوستنيان على شعبه، من أجل تحقيق آماله ، بل إن سياسته العقيدية أيضا والتى كانت تسير فى ركاب الجيش ، كانت هى الأخرى عاملا هاما من العوامل التى ساهمت بدور ليس باليسير فى استفحال أمر الثورة الشعبية التى شهدتها القسطنطينية عام ٥٣٢ على النحو الذى رأينا . فبغض النظر عن المراسيم التى أصدرها جوستنيان ضد السامريين والمانويين والوثنيين واليهود ومختلف الطوائف الأخرى، الذين «لايستحقون إلا كل الإزدراء لأنهم لايدينون بمذهب الدولة» أى الأرثوذكسية الخلقيدونية(١٠٩) التى حاول جاهدا أن يجعل لها مكان الصدارة فى الإمبراطورية (١١٠)، إلا أنه حاول فى عام ٥٢٩ ، استرضاء أهالى الولايات الشرقية الذين يدينون بالطبيعة الواحدة ، وذلك عن طريق إجراء حوار بينهم وبين الخلقيدونيين ، كما سمح بإعادة الرهبان المنفيين من المونوفيزيتيين (١١١). ولاشك أن الحرب الفارسية الدائرة هى التى دفعته إلى مثل هذه السياسة لضمان هدوء المناطق الشرقية ، إلا أن الحوار الذى دار بين أصحاب الطبيعة الواحدة وأصحاب الصبيعتين ، لم يسفر عن شئ حاسم ، بل لم يتعرض الإمبراطور لشئ مطلقا فى البيان الختامى لهذه المحاورات ، لمسألة الخلاف الجوهرى بين المنافزة والخلقيدونية ، أعنى مسألة الطبيعة والطبيعتين (١١٢).

١٠٨- Baker, Justinian, p. 88 .

١٠٩- CODEX IUS. Lib. I, Tit. V 11 ; Nov. VIII, 4 ; Nov. XLV .

١١٠- THEOPH. Chron. p. 276 .

وأيضا MALALAS, Chron. p. 449 .

١١١- ZACH. Chron. IX, 15 .

١١٢- Jones. Later Roman Empire, I, pp. 285-287 .

وأيضا Ure, Justinian and his Age, p. 112 .

إلا أن هذا لم يكن يعنى للمنافزة سوى المزيد من سياسة التجاهل ثم العداء ، خاصة وأنهم قد عاشوا فترة آمنة على عهدى زينون وأنسطاسيوس ، وأن جوستنيان أبدى منذ فترة تواجده إلى جوار خاله جوستين ، وخلال السنوات الأولى من عهده هو، إنحيازا صريحا إلى جانب الأرثوذكسية الحكومية ، الخلقيدونية . ولكم كان يدور بخلد جوستنيان أن يصبح سيد الكنيسة المطلق ، إنطلاقا من الفكر السياسى الرومانى القائم على عدم السماح بوجود كيان مستقل أو دولة داخل الدولة ، ومن ثم حرص على الاستحواز على الإدارة الداخلية للكنيسة(١١٣). بل أقدم على اتخاذ خطوة لها خطورتها البالغة عندما أصدر قانونا نص على أن لقوانين المجامع المسكونية الأربعة الأولى ، نيقية والقسطنطينية وإفسوس وخلقيدونية ، قوة القوانين الإمبراطورية (١١٤). وكان هذا يعنى وضع الكنيسة تحت السيادة المدنية للإمبراطور مباشرة ، باعتباره نائب المسيح على الأرض . وقد أفصح عن ذلك عندما اعتبر أن السلطتين ، الإمبراطورية Imperium والكهنوتية Sacerdotium تنبثقان من مصدر واحد، وتمثل ذلك فى ديباجة إحدى تشريعاته حيث قال : « إن أعظم الهبات التى من الله بها من علٍ على بنى البشر، بحب الإنسانية Philanthropia هى الكنيسة والإمبراطورية ، الأولى ترعى ما يختص بالله ، والأخرى تعمل الفكر فيما يتعلق بحياة بنى الإنسان» (١١٥). وبناء على هذا المعتقد ، كان يؤمن تماما أن من حقه إقرار عقيدة بعينها لرعاياه ، إذ الناس عنده على دين ملوكهم(١١٦).

ولما كان جوستنيان إمبراطورا رومانى القلب والقالب ، يؤمن بعظمة الرومان وخلود روما، فقد اعتبر الكرسى الرسولى فى روما رأس الكراسى الأسقفية الكبرى فى الإمبراطورية دون منازع Caput Omnium Sanctorum ecclesiarum ووضع كرسى القسطنطينية فى المرتبة الثانية بعد روما (١١٧). ولاشك أن هذا كان يعنى احترام منصب الأسقف الرومانى ومخاطبته

١١٣- Nov. VI praef. , 1 , 5 , 42 ; CXXIII, 1 .

١١٤- IUS. Nov. CXXXI, 1 .

١١٥- IUS. Nov. VI praef .

١١٦- Vasiliev, history of the Byzantine Empire I, p. 148 .

١١٧- IUS. Nov. CXXI .

إياه فى رسائله بـ «البابا » و «الأب الرسولى » (١١٨). ولما كان وقوف بابا روما إلى جوار الإمبراطور أثناء حروبه الاستردادية فى أفريقيا وإيطاليا ، أمراً لا مندوحة عنه لنجاح هذا المشروع ، أضحى طبيعيا أن يكون ذلك على حساب أصحاب الطبيعة الواحدة فى الأقاليم الشرقية والقسطنطينية ، الذين ازداد سخطهم بصورة واضحة ، وكان هذا عاملا هاما أيضا من العوامل التى لعبت دورها الفعال فى ثورة «نيقا » عام ٥٣٢ .

ولأن الخضر ، الذين يلقون التأييد من جانب أنصارهم فى الأقاليم الشرقية، هم الذين أطلقوا الشرارة الأولى لثورة القسطنطينية ، عندما أعلنوا سخطهم وتبرمهم أمام الإمبراطور فى يوم الأحد، الحادى عشر من يناير ، فى الهيدروم، فقد اتخذ بعض المؤرخين من ذلك ذريعة لاعتبار هذه الثورة ثورة مونوفيزيتية بكل المعايير ، وفى مقدمة هؤلاء يأتى المؤرخ «باكر» Baker الذى يقول إن الثورة قامت بتحريض من المنافزة ، ويذكر أن جوستنيان كان يرى أن حزب الخضر كله من أصحاب الطبيعة الواحدة ، الذين يشكلون عدوا رسميا لسياسة الوحدة العقيدية فى الإمبراطورية ، وأنهم أنصار الإمبراطور الأسبق أنسطاسيوس . ثم يكتب بعد القضاء عليها ، «الآن تم سحق الثورة التى عرفت مؤخرا باسم «فتنة النصر» ، ثورة الخضر والزرق » وإن كان من المفضل تسميتها ثورة المونوفيزيتيين» (١١٩).

ومع عدم إغفال مظاهر السخط الدينى على السياسة العقيدية التى اتبعها جوستنيان ، إلا أن ذلك لايعنى التركيز على جانب واحد فقط ، ووصف هذه الثورة بأنها ثورة «دينية مذهبية» إن صح التعبير ، خاصة وأن فرقا عديدة أخرى غير المونوفيزيتيين ، مثل المانويين والآريوسيين والسامريين وطوائف يهودية ومسيحية أخرى، قد أضيرت بصورة واضحة من جراء التشريعات التى أصدرها ضدهم جوستنيان ، والتى تمتد من التضييق عليهم فى ممارسة طقوسهم، إلى الطرد من الوظائف العامة، إلى المصادرة والتدخل فى حق الوصية ، إلى الإعدام، نقول .. إن وصفها على هذا النحو يعد نوعا من المبالغة وإغفالا لحقائق هامة أخرى كان لها دورها الكبير فى ثورة القسطنطينية .

١١٨- لم يمنع هذا جوستنيان من الوقوف موقفا متشددا من بابا روما فيجيليوس Vigilius عندما شعر أن الأسقف الرومانى يحاول الخروج على رأى الإمبراطور فى المسألة العقيدية . راجع تفاصيل ذلك فى

Jones, Later Roman Empire, I, pp. 296-298 .

١١٩- Baker, Justinian , pp. 82 , 88 , 98 .

بل إن معاناة الوثنيين كانت أشد وأنكى ، فقد استخدم جوستنيان، برواية المعاصرين ، أسلوبا عنيفا ضد الشخصيات الكبرى من الوثنيين الذين يشغلون عددا من المناصب الهامة فى الدولة ، فأقصاهم عن وظائفهم، وصادر ممتلكاتهم ، وقاد بعضهم إلى القتل [١٢٠]. على أن الصفعة القوية التى وجهت إليهم ، خاصة مثقفيهم وذوى الفكر فيهم ، هو القرار الذى أصدره فى عام ٥٢٩ بإغلاق جامعة أثينا ، وحرم على الأساتذة الوثنيين الاشتغال بالتدريس [١٢١] ، ولم يجد هؤلاء أمامهم من سبيل سوى الهروب إلى فارس، والاحتماء بكسراها الذى رحب بهم. ومع أن هذا القرار قد جاء تمشيا مع السياسة العامة التى يتبعها جوستنيان لإقرار السيادة الأرثوذكسية الحكومية الخلقيدونية ، إلا أنه يمكن القول إنه قد اتخذ لصالح جامعة القسطنطينية ، التى كان قد صدر قرار إنشائها فى عام ٤٢٥ على عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى .

ومع مرور قرن على إنشاء جامعة القسطنطينية ، إلا أن الشهرة الفكرية ظلت لجامعة أثينا الوثنية ، وظل كثير حتى من آباء اللاهوت المسيحى فى الإمبراطورية ، يتلقون تعليمهم فى أثينا . ومن ثم أيقن جوستنيان أن جامعة القسطنطينية «الوليدة» لن يكتب لها النجاح والذيوع ما دامت جامعة أثينا قائمة ، فقضى بذلك على قلعة من أهم قلاع الفكر الفلسفى فى الإمبراطورية ، مما ترك آثاره وبصماته الواضحة على منطقة جنوبى شرقى أوروبا ، متواكبا مع ما سبق من الغزو الجرمانى ، وهطول غزوات جديدة صقلبية وتركية على منطقة البلقان . فإذا أضفنا إلى هذا أن جامعة القسطنطينية بمقتضى القرار الصادر من ثيودوسيوس الثانى بانشائها ، كانت تابعة تبعية مباشرة للسلطة الإمبراطورية ، وأن جامعة أثينا كانت بعيدة عن مثل هذه السيادة ، أدركنا المخاوف الحقيقية التى كان جوستنيان يضعها فى حساباته باعتباره حاكما مطلق السلطان ، ومن ثم أضاف جوستنيان بقراره هذا إلى قائمة خصومه، خصوما آخرين من رجال الفكر وخاصة المثقفين .

هذه الناحية ، أعنى فكرة السيادة المطلقة ، تلمسها فى اختيار جوستنيان لمعاونيه ، فقد كان حريصا على اختيار عناصر تعود إلى أصول غير معروفة ، ودون النظر إلى طبقاتها

١٢٠- PROCOP. hist. arc. XI .

وأيضا MALALAS, chron. p. 449.

١٢١- MALALAS, chron. p. 448 .

الاجتماعية [١٢٢] حتى يضمن ولاءهم الكامل وعدم معارضتهم له الرأى ، من ذلك مثلا إقدامه على عزل ديموستنيز Demosthenes النائب الإمبراطورى العجوز ، والذى كان فيما يبدو زعيما لجماعة المحافظين من رجال السناتو ، والذين ساهموا بدور ملموس فى اختيار جوستنيان للعرش ، وعين بدلا منه يوحنا الكبادوكى [١٢٣]. وقد جلبت عليه هذه السياسة غضب كثير من العناصر النبيلة خاصة الطبقة السناتورية ، التى رأت فيه خصما عنيدا وتهديدا خطيرا لمصالحها ، بعد أن تأكد لديها بصورة لاتقبل المناقشة عزم جوستنيان على تحطيمها تماما ، وهى التى كانت قد نفضت عن نفسها منذ ثلاثة أرباع القرن تقريبا ، غبار القرون الطويلة التى أريد لها خلالها أن تظل بعيدة عن المسرح السياسى فى الإمبراطورية .

ولم يكن من السهل أن يلتقى أبدا فكر جوستنيان عن السلطة المطلقة المستمدة من الله، وتطلعات «الشيوخ» للقيام بدور فعال فى الحياة السياسية . وكان يبدو واضحا منذ النصف الثانى من القرن الخامس، أن الأباطرة- فى مواجهة ازدياد النفوذ الجرمانى فى بلاط العاصمة، رأوا تشجيع النبالة الرومانية لتكوين جبهة مناوئة لهذه العناصر الجرمانية، بل إن هذه الناحية تعود إلى أوائل ذلك القرن، على عهد الإمبراطور أركاديوس Arcadius (٣٩٥-٤٠٨) عندما تزعم أحد الشيوخ ويدعى أوريليان Aurelianus زعامة هذه الجبهة فى مواجهة القائد الجرمانى جايناس Gainas فى العاصمة. وظل هذا المد يعلو بشكل ملحوظ حتى ظهر بدور عملى فى الأحداث التى أعقبت وفاة الإمبراطور ليو الأول عام ٤٧٤، وترك سميه وحفيده لإبنته ، طفلا صغيرا يتولى الوصاية عليه أبوه الأيزورى زينون ، غير أنه لم يلبث أن مات بعد شهور قليلة ، لينتقل العرش إلى أبيه، الذى تعرض فى أول عهده للطرد من العاصمة ، إلا أن السناتو نجح بالفعل فى إعادة العرش إليه ثانية ، بعد اغتصاب باسيليسكوس لهذا العرش فترة امتدت عشرين شهرا .

لكن السناتو وجد فى زينون وجماعته من الأيزوريين، خطراً لايقل عن الجرمان من قبل ، ولذا سعى جهده للتخلص من هذا النفوذ الأيزورى، ونجح فى النهاية فى تفويت الفرصة على لونجينوس Longinus شقيق زينون فى الاستيلاء على السلطة ، وتم اختيار مرشح آخر هو أنسطاسيوس امبراطورا .

١٢٢- Holmes, Justinian and Theodora, II p. 442 .

١٢٣- PROCOP. hist. arc. XI .

على أن السناتو واتته الفرصة الذهبية بعد موت أنسطاسيوس ، دون أن يعقب ولدا ، ومع أنه كان له أبناء أخ ثلاثة ، بروبوس وبومبى وهيباتيوس ، إلا أن النية بيتت على تجاهلهم من جانب الجيش والسناتو على السواء. وأقدم أمانتيوس Amantius كبير الأمناء في البلاط ، على دفع مبلغ كبير من المال إلى جوستين Iustinus الذى كان رئيسا للديادبة Excubitors إحدى فرق الحرس الإمبراطورى ، ليقدمه رشوة للجنود لاختيار شخص مغمور للعرش يدعى ثيوكريتوس Theocritus . وفي صبيحة التاسع من يوليو عام ٥١٨ ، شهد الهيدروم - كما يجرى دائما في مثل هذه الظروف- تجمعا ضخما لأهالى القسطنطينية ، الذين راحوا يخلعون على السناتو آيات التبجيل والاحترام ، ويهتفون مطالبين مجلس الشيوخ باختيار الإمبراطور الجديد. وشهدت أروقة القصر وقاعاته اجتماعات عاجلة ، شارك فيها كبار الموظفين وأعضاء السناتو والبطريرك ، وانتهت الآراء إلى ضرورة انتهاز هذه الفرصة حتى لايسبقهم الجيش والغوغاء إلى اختيار مرشح للعرش، هذا في الوقت الذى لعبت فيه النقود التى فى حوزة جوستين دورها لصالحه ، وليس من أجل ثيوكريتوس . وهكذا أقدم السناتو على إعلان جوستين امبراطورا ، وقدموه للجموع في الهيدروم ، حيث هتفوا بحياته ، وتم تتويجه على يد بطريرك القسطنطينية (١٢٤).

وقد أقر جوستين بدور السناتو فى وثيقة رسمية بعد أيام قليلة من اعتلائه العرش، وهى الرسالة التى بعث بها إلى البابا فى روما ، وجاء فيها : «بنعمة الثالوث الأقدس ، واختيار كبار رجال قصرنا المقدس، ومجلس السناتو ، ثم مباركة الجيش وتأييده ، توليت قياد الإمبراطورية (١٢٥). وهئ للشيوخ على هذا النحو ، أنهم فى طريقهم إلى أن يعود بهم الزمن ثانية إلى القرنين الأخيرين من العصر الجمهورى الرومانى ، ووصلوا حبالهم بجوستنيان ابن أخت جوستين وولى عهده ، حتى يجعلوا منه مستقبلا رجلهم. وأفاد هذا من تطلعاتهم ، فأوحى إليهم أن يطلبوا إلى الإمبراطور، أن يشرك معه ابن أخته ، بصورة رسمية ، فى إدارة شئون الدولة. غير أن جوستين رفض المحاولة ، وحذرهم من تسليم مقاليد الأمور فى الدولة

١٢٤- راجع تفاصيل هذه الأحداث MALALAS, Chron. pp.410- 411 وأيضا Bury, Later Roman Empire, II, pp. 16-18 وكذلك Jones, Later Roman Empire, I, pp. 266-267

١٢٥- Bury, op. cit. p. 18 .

إلى شباب غرير [١٢٦]. لكن السناتو جدد المحاولة ثانية حتى تمكن عام ٥٢٥ من إقناع جوستين بمنح ابن أخته لقب القيصر . ولم يمض على ذلك عامان حتى جرت مراسم تتويج جوستنيان امبراطورا شريكا وخاله على فراش الموت، وشهد ذلك أعضاء مجلس الشيوخ وكبار الموظفين وقادة الحرس الإمبراطورى[١٢٧]. وهكذا أصبح لدى السناتو كبير أمل فى أن يشارك عمليا فى صنع السياسة الإمبراطورية ، بعد هذه الممارسة التى تصورها واقعا حقيقيا، لاختيار أربعة أباطرة على التوالى [١٢٨]، واعتقدوا أن اختيار شاب يافع فى الأربعينيات من عمره ، كان الإمبراطور العجوز جوستين قد حذرهم من مثله آنفا ، سوف يجعله أداة طيعة فى أيديهم، وأن الإمبراطور الجديد لن يعدو أن يكون رجلهم.

غير أن السناتو أصيب بخيبة أمل بالغة بعد سنوات قلائل من إعلان جوستنيان امبراطورا ، وتبين لهم أن «رجلهم» هذا ليس إلا امبراطورا رومانيا حريصا على تراث الأسلاف فيما يتعلق بالسلطة الإمبراطورية ، يعد نفسه خليفة القياصرة الرومان[١٢٩]، يرفع شعارا لا مواربة فيه، مؤداه .. دولة واحدة وقانون واحد وكنيسة واحدة، وهو السيد الأعلى فى هذه الدولة والمشرع الأول ونائب المسيح ، وقد تضمنت تشريعاته ومراسيمه عزفا متواصلا على هذه النغمة التى لابد أن يعيها الجميع . وحمل جوستنيان كل الألقاب التى حملها من قبل الإمبراطوران أوغسطس وتراجان ، وزاد عليها ، مثل «الإمبراطور. القيصر . قاهر الألمان والقوط والفرنجة والجرمان والوندال والأفريقيين. التقى . المبتهج . الشهير . المنتصر . المظفر . الأوغسطس على الدوام[١٣٠].

وجاء فى ديباجة الأمر الصادر إلى الفقيه تريبونيان، بشأن القيام بجمع الفتاوى وأحكام المحاكم وآراء الفقهاء والمشرعين، وغربلتها، وتقديمها بصورة ينتفع بها، فيما عرف باسم الدايجستا Digesta جاء فى هذه الديباجة عن سلطة الإمبراطور : «إننا نحكم امبراطوريتنا

١٢٦- ZONAR. epit. XIV, 5 .

١٢٧- EVAG. hist. eccl. IV, 9 .

١٢٨- نعنى بذلك الأباطرة : زينون وأنسطاسيوس وجوستين وجوستنيان .

١٢٩- Diehl, Byzantium, p. 30 .

١٣٠- Id .

بتفويض من الله ، وهو فى عليائه قد تفضل بها علينا ، وبكل قلوبنا نرفع إلى السماء أكف الضراعة، سائلين عون الإله فى أن يبارك خطونا ، فى إعادة بناء دولتنا . إن ثقتنا من ثم لانضعها فى جيشنا ، القادة والجنود ، ولا فى مقدرتنا ، بل نضعها كاملة فى السماء ، فى الثالوث المقدس وحده»[١٣١].

ولم يمل الإمبراطور جوستنيان من ترديد هذا المفهوم وتأكيده فى كل مناسبة تعن له، وحملت تشريعاته صورة واضحة عن فكره حول سلطة الإمبراطور : «إن الله قد أناب السلطة الإمبراطورية لرعاية شئون العالم»: «إن الله هو الذى وضع على رأسنا التاج، وهو الذى خلع علينا العباءة الأرجوانية ، وهو الذى فضلنا على كثير من السابقين» [١٣٢]. بل إن الفنان البيزنطى قد استوحى هذه الصورة عندما أبدع الفسيفساء الشهيرة التى تزدان بها كنيسة سان فيتالى St. Vitale فى رافنا Ravenna بإيطاليا ، والتى تصور جوستنيان وقد علته هالة ، مشيرا بذلك إلى الملك الكاهن على رتبة «ملكى صادق» Mechisedech [١٣٣].

وكان جوستنيان يدرك جيدا ما يصبو إليه السناتو ، ولم يكن هو بالتالى- فى ضوء هذه الأفكار- يريد مجلسا للسناتو على هذا النحو من التأثير فى الأحداث ، بل يريد «سناتو» يعبر عنه بروكوبيوس أصدق تعبير، ليس فقط كما يريد الإمبراطور ، بل ما أراد له علا بعد ثورة عام ٥٣٢ ، مجرد «صورة معلقة على جدران الزمن ، مجردا من كل سلطان ، لايملك إصدار قرار أو يمتلك أية بادرة طيبة ، يجتمع فقط من أجل استكمال الشكل العام، لايسمح لأى من أعضائه أن ينبس ببنت شفة ... يصدق فى النهاية على كل ما يراه الإمبراطور»[١٣٤].

من هنا كان لابد أن يقع الصدام بين فكرين يقفان على طرفى نقيض ، ومن هنا أيضا نستطيع أن نفسر أحداث الثورة ، وأن نرتب أدوارها ، فالمطالبة بالعفو عن الرجلين اللذين نجيا من الإعدام ، ثم بعزل والى المدينة يوداپمون ، كان يتفق وطبيعة سير الأحداث ، من القبض على الرجلين اللذين ينتميان إلى حزبى الزرق والخضر ، ورفض الإمبراطور إجابة الحزبين إلى

١٣١- IUS. Digesta, I, praef .

١٣٢- IUS. Nov. VI, praef; Nov. XXX, 11 .

١٣٣- هسى ، العالم البيزنطى ، ص٢٣٩ .

١٣٤- PROCOP. hist. arc. XIV, 15 .

ملتمسهم بإطلاق سراح الرجلين ، أما إشراك يوحنا الكبادوكى وتريبونيان الفقيه والمحامى الذائع الصيت ، فلم يكن يعنى ، بتعبير زكريا المتلينى- إلا اشتراك عناصر أخرى فى الأحداث وتسييرها لدفتها[١٣٥]. وقد علمنا من قبل الدور الذى اضطلع به يوحنا الكبادوكى فى السياسة المالية والضرائبية التى أثارت سخط جميع الطبقات وفى مقدمتها كبار ملاك الأراضى ، وهم يشكلون فى معظمهم الطبقة السناتورية النبيلة . أما تريبونيان فقد كان دور رجال السناتو فى المطالبة باقصائه عن منصب الكويستور، واضحا؛ فهو الذى أحاط السلطة الإمبراطورية المطلقة التى أرادها جوستنيان بسياج قانونى، ووضع لها الضمانات الكافية التى تجعل من الإمبراطور السيد المطلق، البانتوقراطور Pantocrator ، حتى جرى على ألسنة الجميع آنذاك ، إن كل ما يشاء الإمبراطور، له قوة القانون[١٣٦] Quod principi placuit, legis habet vigorem وقد عد تريبونيان مسئولا مسئولية كاملة عن كل ما يتصل بالناحية التشريعية ، أو بتعبير آخر عن تقنين السلطة الإمبراطورية المطلقة[١٣٧].

على هذا النحو يمكننا القول ، إن الأمور خلال اليومين الأولين للثورة، ١١ و ١٣ يناير ، كانت بيد زعماء حزبى الزرق والخضر ، وكانت مطالبهم تنحصر فقط فى التماس العفو عن الرجلين الناجيين من المشنقة ، وإن كان يعنيهم ما حدث من بعد من المطالبة بعزل يودايمون والى المدينة . ولم يخرج ما حدث خلال هذين اليومين فى الهيدروم ، عن غيره مما كان يحدث من اضطرابات تشهدها العاصمة من قبل ومن بعد . حتى إذا كان اليوم الثالث للثورة ، الأربعاء ١٤ يناير، وطالب الثائرون بعزل يودايمون ويوحنا الكبادوكى وتريبونيان ، أمسى واضحا أن القيادة أفلتت من يد زعماء الحزبين، وانتقلت إلى «أفراد معينين» بقول زكريا المتلينى ، كما أسلفنا . ولم يكن هؤلاء الأفراد المعينون سوى رجال السناتو ، الذين أفصحوا عن نياتهم

١٣٥- ZACH. Chron. IX, 14 .

١٣٦- Kolbert, The Digest of Roman Law, p. 17 .

١٣٧- لم يسلم تريبونيان من قلم بركوبيوس اللاذع ، حيث وصفه بالجشع والنهم الشديد لجمع الأموال ، شأنه فى ذلك شأن يوحنا الكبادوكى «حتى أنه كان على استعداد لتغيير القوانين وتبديلها وبيعها لمن يشاء» ولكن بروكوبيوس لم يستطع إنكار ثقافة تريبونيان العريضة التى لايدانيه فيها أحد من معاصريه ، حسب تعبيره . أنظر PROCOP. Bel. Pers. I, XXIV, 16 .

الحقيقية وكشفوا عن وجوههم ، منتهزين فرصة هذه الاضطرابات ، ليضربوا ضربتهم والحديدة محماة. وتمثل ذلك على الفور فى تحريض الجموع الذين امتلأت بهم العاصمة ، على الذهاب مباشرة إلى دار «بروبوس» ابن أخ أنسطاسيوس ، للمناداة به امبراطورا، وكان هذا فى اليوم الثالث للثورة ، أو بتعبير أدق ، فى اليوم الأول للثورة الحقيقية، بعد أن أصبح واضحا أن الهدف ليس فقط عزل الوزراء الثلاثة ، بل اختيار امبراطور جديد. ومن ثم يمكن أن يعزى إلى رجال السناتو ، كما يقول بيورى Bury فشل سياسة الترضية التى اتبعها جوستنيان ، عندما رضخ لمطالب الثائرين وعزل وزراءه الثلاثة . ولم يحل دون تحقيق رغبة السناتو ، سوى رفض «بروبوس» ووجود الأخوين «بومبى» و «هيباتيوس» داخل القصر الإمبراطورى . فإذا ما أمرهم جوستنيان بمغادرة القصر احتيلوا الفرصة ، وأكرهوا هيباتيوس على ما أخفقوا فيه مع بروبوس .

بل لقد ذهبت بهم الحماسة مبلغها ، عندما عقدوا اجتماعهم الخطير الذى حدثنا عنه باستفاضة بروكوبيوس ، وقرروا قيادة هجوم الثائرين على القصر الإمبراطورى ، بعد أن نقل إليهم من كانوا بداخله ، حالة التردى والضعف الذى كان عليه القصر . ولم يصغ هؤلاء المتحمسون لصوت العقل والتروى الذى خاطبهم به أحد زعمائهم، أوريجن ، بترك الأمور تجرى فى مجراها الطبيعى، حتى يسقط القصر بمن فيه دون عناء : «إننا إذا ما عالجنا هذه الحالة بترو ، أصبحنا قادرين على أن نأخذ جوستنيان فى قصره ، لكنه لاشك سوف يكون أكثر وأسرع شكرا، لو سمح له بالفرار !! ذلك أن السلطة التى يتم تجاهلها تفقد سلطانها ، وينحسر يوما بعد يوم عنفوانها»(١٣٩). لكن المؤتمرين ضربوا عرض الحائط بحديث أوريجن ، واعتقدوا- كما يقول- بروكوبيوس بالحرف الواحد : «إن هذه هى الفرصة المناسبة لتحقيق أهدافهم(١٤٠)». ولعل القرار الذى اتخذه جوستنيان بعد القضاء على الثورة ، بالقبض على ثمانية عشر عضوا من أعضاء مجلس السناتو ، ومصادرة ممتلكاتهم ، ليعد دليلا عمليا على السياسة التى أعلن الإمبراطور ، بهذا التصرف، عن أتباعها فى المستقبل إزاء أعضاء مجلس الشيوخ ، وفى الوقت نفسه على دورهم فى هذه الثورة .

١٣٩- PROCOP. Bel. Pers. II, XXIV, 29 .

١٤٠- Ibid. 31 .

ولم يكن تأثير الحرس الإمبراطورى ، القوة الضاربة فى الجيش، فى أحداث هذه الثورة، يقل شيئا عن تأثير السناتو، إن لم يكن يفوقه !! على الرغم من أن دور كل منهما كان يختلف اختلافا جذريا عن الآخر ، وإن بدا متمما له لابتغائها شيئا واحدا فى النهاية . فبينما كان موقف السناتو إيجابيا تماما، كان دور الحرس الإمبراطورى يمثل السلبية بعينها ، لكنها السلبية المدمرة ، حتى إننا لانستبعد حدوث تنسيق بين كل من الطرفين ، دليلنا على ذلك تطور الأحداث خلال أيام الثورة ، وما كتبه مؤرخ معاصر قريب من الأحداث ، كان يرويها من داخل القصر الإمبراطورى ، هو بروكوبيوس ، رغم أنه لم يقف عند بعض التفصيلات .

فقد كان الحرس الإمبراطورى يتولى تأمين الاتصال بين القصر والمقصورة الإمبراطورية بالهيدروم ، عبر الدهليز الموصل بينهما ، فلما تقرر مهاجمة الثائرين فى المضمار ، بعد الخطاب الذى ألقته ثيودورا خلال اجتماع «اليأس» الذى عقد بالقصر ، صبيحة الأحد الثامن عشر من يناير ، كان على «موندوس» أن يفاجئ الهيدروم من أحد بواباته الخارجية ، بينما يقوم «بليزاريوس» بالوصول مباشرة من داخل القصر إلى المقصورة ، وتوجيه ضربة مؤثرة للثائرين، وذلك بمباغتتهم على هذا النحو والقبض على هيباتيوس ، لحرمانهم من ثمرة انتصارهم . ولاشك أن هذه الخطة كانت كفيلة بتحقيق نجاح يكاد يكون مؤكدا ، بدلا من المغامرة غير المضمونة التى قام بها بليزاريوس مؤخرا ، بمهاجمة الهيدروم من خارج القصر ، كما فعل موندوس . لكن قوات الحرس الإمبراطورى تصدت لبليزاريوس وقواته ، ورفضت السماح لهم بالمروق إلى المقصورة مباشرة.

ولم يكن هذا الموقف جديدا على هذه «القوات النظامية» ، فخلال حرب الأيام الثلاثة (١٥-١٧يناير) التى دارت فى شوارع العاصمة ، بين بليزاريوس والثائرين ، لم يبد الجنود أى استعداد للمشاركة فى هذه الحرب إلى جانب الإمبراطور، مما أدى إلى فشل بليزاريوس بقواته القليلة المكونة من القوط ، والتى كان قد عاد بها مؤخرا من الجبهة الفارسية ، فى حسم هذه المعركة لصالح الإمبراطور . ولعل هذا هو الذى دفع جوستنيان إلى الإقدام فى مساء السابع عشر من يناير ، على طرد كل من بومبى وهيباتيوس من القصر ، كما طرد أيضا رجال السناتو القابعين بداخله ، ولاريب أن الشكوك قد ساورته فى احتمال أن تكون هناك مؤامرة ، قد تم تدبيرها بين كل من رجال السناتو داخل القصر وقوات الحرس الإمبراطورى ، لإعلان أى من الأخوين امبراطورا بعد القبض على جوستنيان أو اغتياله ، بعد أن انتهت الحرب الأهلية

دون أى نتيجة حاسمة فى جانب الحكومة . ويقول بركوبيوس بالحرف الواحد : «لقد كان الجنود جميعهم، حتى أولئك الذين فى بلاط الإمبراطور ، غير راغبين فى مساعدته ، أو اتخاذ أي إجراء فعلى من أجل مقاومة الثورة ، بل كانوا ينتظرون ما تسفر عنه الأحداث فى المستقبل!!! »[١٤١].

وقد يؤكد هذه الناحية، ما كان معروفا من أن الفرقة القديمة فى الحرس الإمبراطورى ، الـ Schola كانت على صلة وثيقة بالسناتو ، بينما الفرقة الأخرى، الـ Excubitors كانت تميل بين الحين والآخر إلى جانب الخضر، وبولاتها للإمبراطورين ليو الأول وزينون ، اللذين كانا لهما الفضل فى تقويتها وتدعيمها[١٤٢]، وأن هذه الفرقة الأخيرة التى كان جوستين يتولى قيادتها قبل اعتلائه العرش، قد حنقت على الإمبراطورين جوستين وجوستنيان، ميلهما إلى الزرق . ومن ثم ليس من الصعب تفسير الموقف الذى اتخذه الحرس الإمبراطورى .

على أن الدافع الحقيقى الذى حدا بالحرس الإمبراطورى إلى اتخاذ هذا السبيل ، كان أبعد من ذلك بكثير . فالآمال التى كانت تداعب خيال السناتو ، بعصر يعود له فيه عرشه القديم فى ظل النظام الجمهورى الرومانى، كانت هى الأخرى تتراقص أمام عينى الحرس الإمبراطورى. فقد أدرك هو الآخر أن جوستنيان يرسى قواعد ثابتة لنظام حكم مستقر، تصبح كلمة الإمبراطور فيه هى العليا. وراح يترحم على أيام خلت كان للجيش فيها القول الفصل فى اختيار الجالس على عرش الإمبراطورية! وإذا كانت المسائل تقاس بالمصالح الخاصة، فإن عصر الجيش الزاهر، بمقاييسه طبعا ، فى ممارسة لعبة السياسة ، وإجادة فنونها ، وإن جرى على حساب النظام العسكرى ، كان هو الفترة الممتدة إلى نصف قرن ، بين عامى ٢٣٥-٢٨٤ ، وهى التى اصطلح المؤرخون على تسميتها بأزمة القرن الثالث . فقد قام الجيش خلالها باختيار ستة وعشرين امبراطورا ، وقام أيضا بانهاء حياة خمسة وعشرين منهم قتلا !! واضعا أمام ناظريه عبارة سبتميوس سفروس لولده، «أجزل العطاء للجند ولاتلق بالا للآخرين». بل إن غالة وحدها شهدت بين سنتى ٢٥٧-٢٧٣ خمسة أباطرة ! وحتى عندما حاول دقلديانوس

١٤١- PROCOP. Bel. Pers. I, XXIV, 39 .

١٤٢- Lindsay, Byzantium, p. 55 .

Diocletianus (٢٨٤-٣٠٥) إعادة الهيبة إلى المنصب الإمبراطورى ، وإيجاد نظام بديل عن هذه الفوضى فى إطار إصلاحاته السياسية ، وأقدم على اتخاذ النظام الرباعى لإدارة الإمبراطورية، لم يلبث هذا النظام أن لقى حتفه بعد اعتزال دقلديانوس عام ٣٠٥ بسنة واحدة، وعادت الفوضى من جديد لتشهد الإمبراطورية على عرشها فى عام ٣٠٨ ستة أباطرة ! وكان لابد أن ينهار النظام الرباعى ، لأنه اعتمد أساسا على شخص واضعه ، ولم يرتكز على قاعدة سياسية معينة . وعادت الحرب الأهلية من جديد تشغل قادة الفيالق الرومانية طوال ثمانية عشر عاما (٣٠٦-٣٢٣) حتى انتهى الأمر بانفراد قسطنطين بالسلطة [١٤٣].

وحتى قسطنطين نفسه ، كان اختياره للعرش عام ٣٠٦ على يد الفيلق الرومانى فى بريطانيا ، فى السنة التى أعلن فيها الحرس الإمبراطورى اختيار ماكسنتيوس امبراطورا فى روما . غير أن قسطنطين بذكائه السياسى نجح فيما فشل فيه أسلافه ، من إقرار نظام ثابت لاعتلاء العرش الرومانى ، وهو ما كانت تفتقر إليه الإمبراطورية منذ سنى عمرها الأولى ، أى منذ جرد السناتو عمدا من ممارسة اختصاصاته فى هذا السبيل، وانتقل الأمر إلى الجيش ، وأمست الحال إلى فوضى . وعلى الرغم من أن الإمبراطورية كانت تحكم منذ عصر أوغسطس أوكتافيانوس حكما استبداديا ، الإمبراطور فيه صاحب السلطة المطلقة ، حتى وإن كان هذا الاستبداد مقننا زمن أوغسطس بمقتضى السلطات الاستثنائية التى خلعها عليه مجلس الشيوخ ، إلا أن أحدا من الأباطرة لم يكن قادرا على المجاهرة بالتخلى عن التقاليد الجمهورية القديمة ، حتى وإن استطاع بعضهم ذلك ، لكنه لم يكن القاعدة ، أعنى بذلك مبدأ وراثة العرش . ومع أنه كان مرفوضا باعتباره خروجا على التقاليد الجمهورية الرومانية ، إلا أننا نجده قائما مثلا فى أسرة سفروس وأسرة الأنطونيين . وإن لم يمثل ذلك قاعدة معترفا بها، حتى أن دقلديانوس نفسه ، عندما أقدم على إقرار النظام الرباعى ، ابتعد عن مسألة الوراثة تماما [١٤٤].

١٤٣- للمزيد من التفاصيل عن أحداث هذه الفترة ، ودور الجيش فيها ، راجع كتابنا ، الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى ، الفصل الأول .

١٤٤- فى إطار هذا النظام كان دقلديانوس يعتبر الإمبراطور أو السيد الأول، وقد اختار عام ٢٨٦ ماكسيمانوس زميلا له فى النصف الغربى، وحمل كل منهما لقب أوغسطس . وفى عام ٢٩٣ إكتمل هيكل الحكومة الرباعية ، عندما عين دقلديانوس مساعدين، أحدهما فى الشرق هو جاليريوس ، وثانيهما فى =

لذا أقدم قسطنطين وقد تمثل له كل هذا ، على إقرار مبدأ وراثة العرش الرومانى ، طريقا لاختيار الإمبراطور الجديد ، وسبيلا لإيجاد الاستقرار السياسى فى الإمبراطورية ، وإن ظل مبدأ اختيار الإمبراطور قائما من الناحية النظرية تقليدا رومانيا . ومن ثم فإنه عمد قبل وفاته إلى إعلان أبنائه الثلاثة قياصرة ، وقسم فيما بينهم إدارة الحكم فى الإمبراطورية ، وتدعم هذا أيضا بأتباع الإمبراطور ثيودوسيوس الأول له (٣٧٨-٣٩٥) ، عندما عهد إلى ولديه أركاديوس Arcadius وهونوريوس Honorius بإدارة شئون الحكم فى الإمبراطورية من بعده.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أضفى قسطنطين على منصب الإمبراطور نوعا من القداسة ، إذ لم يعد مقبولا فى ظل تحول الإمبراطورية إلى المسيحية ، أن يظل الإمبراطور مؤلها ، ولا أن يحمل لقب الكاهن الأعظم Pontifex Maximus ومن ثم فليحل «الأسقف الأعلى» محل الأخير[١٤٥] ومع أن هذا اللقب- أعنى «الأسقف الأعلى» ليس موجودا من الناحية الرسمية ، إلا أن الإمبراطور راح يمارس سلطات كل هذا اللقب فوق أساقفة الكنيسة ، التى غدت فى بيزنطة دائرة من دوائر الحكومة ، وغدا قسطنطين بقلم يوسيبيوس القيسارى ، مؤرخ الكنيسة ومداح الإمبراطور ، الحوارى الثالث عشر للمسيح ، بعد أن خلع هو على نفسه صفة «مبعوث العناية الإلهية» [١٤٦]، ولقيت النظرية اليوسابية ، التى بشرت بإمبراطورية

= الغرب هو قسطنطيوس وخلع على كل منهما لقب قيصر . فلما كان عام ٣٠٥ وأعلن دقلديانوس وزميله اعتزالهما ، وارتقى القيصران إلى مرتبة الأوغسطسية، تم اختيار قيصرين جديدين هما ماكسيمين دايا فى النصف الشرقى ، وسفروس فى النصف الغربى. وغض الطرف تماما عن ماكسنتيوس بن ماكسيميانوس وقسطنطين ابن قسطنطيوس ، اللذين نادت بهما الجنود بعد ذلك امبراطورين. راجع للباحث ، الدولة والكنيسة، الجزء الثانى ، الفصل الثانى .

١٤٥- من المعروف أن لقب الكاهن الأعظم ظل الأباطرة يحملونه رغم تحولهم إلى المسيحية صراحة ابتداء بأبناء قسطنطين ، إلى أن تخلى عنه الإمبراطور جراتيان Gratianus فى سبعينيات القرن الرابع .

١٤٦- يكفى أن نطالع رسائل قسطنطين إلى الأساقفة ، ورسالته إلى ملك فارس ، وهى مبسوطة كلها فى كتاب «حياة قسطنطين Vita Constantini » الذى وضعه يوسيبيوس فى مدح الإمبراطور ، ورفع فيه قدر قسطنطين إلى عليين. وقد بسطت هذه الآراء تفصيلا فى الأجزاء الثلاثة ، الثانى والثالث والرابع، التى صدرت من كتابنا : الدولة والكنيسة .

مسيحية ، نجاحا زمن قسطنطين ، رواجا على عهد خلفائه ، بحيث أضحت «القيصرية البابوية» Caesaropapism عنوانا على السلطة الإمبراطورية فى بيزنطة ، وليمسى الإمبراطور بكل المعايير «نائب المسيح» على الأرض. وهى القاعدة التى حاول جوستنيان إرساءها بكل قواها ، وراح يركز عليها دائما فى معظم تشريعاته التى صاغها له الفقيه ورجل القانون الشهير تريبونيان.

كان هذا كله ماثلا فى ذهن الحرس الإمبراطورى ، كما كان ماثلا فى ذهنه أيضا أن الإمبراطورية قد شهدت بمقتضى نظام قسطنطين السياسى وحتى الآن، أسرتين فقط ، هما أسرة قسطنطين وأسرة ثيودوسيوس ، وأنها منذ وفاة ثيودوسيوس الثانى عام ٤٥٠ وحتى سنة ٥١٨ ، أى قرابة ثلاثة أرباع قرن إلا قليلا ، وهى تحكم بأفراد لاينتمون إلى أسرات بعينها ، وليس لهم أصول اجتماعية مرموقة ، ولم يكون أحدهم أسرة تتوارث العرش (١٤٧). ولم يغب عن ذهن العسكريين أنهم ساهموا بدور ما فى صنع هذه الأحداث خلال هذه الثمانى والستين سنة ، وأملوا أن يعود إليهم دورهم القديم قبل أن يضع قسطنطين قاعدة وراثة العرش الإمبراطورى . وقبل أن يقدم جوستنيان على أن يمكن لهذا النظام فى الأرض بشكل قانونى . لهذا كان طبيعيا أن يقف الجنود هذا الموقف المتسم بالسلبية الكاملة إزاء ما يجرى لإمبراطورهم «انتظاراً لما تسفر عنه الأحداث فى المستقبل»، حسب تعبير بروكوبيوس ، لأنهم بتعبيره أيضا «كانوا قد عزموا على عدم الانحياز لأى من الطرفين ، حتى يتبين بصورة واضحة رجحان كفة أى منهما »(١٤٨).

ويجب أن لايغيب عن أذهاننا فى خضم هذا العرض للدوافع والظروف التى قادت إلى ثورة القسطنطينية هذه، العامل الشخصى أحيانا ضمن هذه الدوافع . فالسناتو لم ينس مطلقا أن جوستنيان وهو بعد وليا للعهد ، راود خاله جوستين عن القانون الذى يحرم زواج لاعبات المسرح من أعضاء مجلس الشيوخ ، وما زال يراوده حتى ألغاه ، ليتسنى له الاقتران بأشهر لاعبة للمسرح فى بيزنطة ، ثيودورا . ولم يلق جوستنيان بالا لكل ما قيل عن امرأة لاكت

١٤٧- هؤلاء الأباطرة على التوالى هم : مارقيان ، ليو الأول، زينون، باسيلسكوس ، ثم زينون مرة أخرى، فأنسطاسيوس ، ثم جوستين.

١٤٨- PROCOP. Bel. Pers. I, XXIV, 45 .

الألسن سيرتها حتى اضطرتها إلى هجران دنيا العاصمة، إلى الشرق ثم إلى ليبيا ، ثم لتعود إلى القسطنطينية ، تعكف على مغزلها ، وصمم على أن يجعل من ثيودورا إمبراطورة متوجة، ليس فقط إمبراطورة شريكة بل إمبراطورة فعلية تجلس على عرش العالم الروماني . هكذا ارتقت ثيودورا ، الممثلة المتوجة ، بتعبير شارل ديل ، من كواليس المسرح إلى عرش القياصرة[١٤٩]. فقد تدله جوستنيان بحب ثيودورا ، حتى ملكت عليه كل سبيل ، لقد كان بحق كمن عرف الهوى منذ عرف هواها، وأغلق قلبه عمن سواها ، وذلك شئ تقف عليه مما يرويه المؤرخون المعاصرون ، الذين يجمعون أنه ظل مخلصا لها حتى بعد وفاته فقد سبقته إلى الموت بسنوات طويلة حين رحلت عن الدنيا عام ٥٤٨ وبقى هو يحكم الإمبراطورية حتى عام ٥٦٥ . ولاشك أن السنوات التى أمضتها ثيودورا على العرش إلى جوار جوستنيان كانت من أزهى سنوات عهده ، فقد قدمت له خبرتها الكاملة بشئون السياسة والحكم من خلال معرفتها السابقة بهوى ونفوس علية القوم الذين كانوا يحرصون على تمضية الساعات الطويلة أمام خشبة المسرح الذى تعتليه قبل أن تعتلى المسرح السياسى امبراطورة متوجة !

كان على جميع الطبقات وفى مقدمتهم رجال السناتو ، بل والاكليروس، أن يحنوا هاماتهم أمام هذه «الممثلة المتوجة» . أما الجموع التى كانت تلتهب بالتصفيق أكفها لرقصات مبتذلة خليعة كانت ثيودورا تؤديها من قبل على المسرح ، كان عليها الآن أن تهتف باسمها بكل الولاء والتبجيل ، وتمد أيديها ترجو عفوها ورعايتها ، أليست مقدسة !! بل كان على رجال الأكليروس أن يخروا أمامها ركعا ، ويدعونها «السيدة .. صاحبة العصمة– صاحبة الجلالة» . وليس هناك كاهن مسيحى واحد– كما يقول Hodgkin – أبدى احتجاجه على هذا التملق المخزى[١٥٠].

ولعل ما أقدم عليه رهبان دير كونون من استخلاص الرجلين من يد الجلاد ، بعد نجاتهما من عملية الشنق ، وحمايتهم لهما فى كنيسة سان لورانس، ورفض تسليمهما لجنود والى المدينة يوداءِمون ، الذين فرضوا حصارهم على الكنيسة ، لعل هذا التصرف يعد تعبيرا عن حالة الامتعاض من جانب الرهبان، خاصة إذا علمنا أن الإمبراطور جوستنيان كان قد تدخل بصورة

١٤٩- Diehl, Theodora, Empress of Byzantium, p. 1 .

١٥٠- Hodgkin, Italy and her Invaders, III, p. 545 .

سافرة فى تنظيم حركة الرهبنة ، ونشاطات الأديرة ، وطرق إنشائها وتنظيمها ، وأصدر فى ذلك عددا من التشريعات المتعلقة بصميم الحركة الديرانية . وعلى الرغم من أن هدف جوستنيان كان انتشال الأديرة من الفساد الذى تردت فيه ، إلا أن ذلك لم يشفع له عند الرهبان الذين عدوا قراراته تدخلا سافرا فى شئونهم [١٥١].

ولم يكن نساء الطبقة الراقية فى العاصمة ، أقل حقدا من أزواجهن وحسدا ، على السيدة الأولى فى الإمبراطورية ، التى ارتفعت من أزقة القسطنطينية ، والتى لم تكن سوى ابنة حارس الدببة فى الهيدروم ، إلى عرش القياصرة . وكان عليهن الآن أن ينحنين أمامها فى حفلات الاستقبال الرسمية . لذا لانعجب إذا رأينا المؤرخين المعاصرين يحدثوننا عن اشتراك بعض نسوة هذه الطبقة الراقية فى الثورة ، خاصة إبان الأيام الثلاثة للحرب الأهلية [١٥٢].

هكذا تجمعت كل هذه العوامل الاقتصادية والعقيدية والسياسية لدى السناتو والجيش ، وكذا الشخصية ، لتصنع ثورة القسطنطينية عام ٥٣٢ . لم تكن مجرد مؤامرة دبرها الإخوة الثلاثة أبناء أخ أنسطاسيوس ، بروبوس وبومبى وهيباتيوس، وقدموا الرشوة للثائرين، كما يصورها المؤرخ المعاصر القومس ماركللينوس[١٥٣] Marcellinus Comes والذى كان ينتمى بولائه للقصر ، متعاطفا مع النظام القائم، ولم تكن فقط مجرد احتجاج على جشع وسوء إدارة يوحنا الكبادوكى المالية كما يجمع بروكوبيوس ويوحنا الليدى وزكريا المتلينى ، على النحو الذى أوضحنا من قبل . ولم تكن «ثورة مونوفيزيتية» فحسب كما صورها «باكر» [١٥٤] Baker ، ولم يكن هدفها الوحيد فقط هو جوستنيان أو تغيير الأسرة الحاكمة كما يذهب

١٥١- IUS. Nov. CXXXIII .

١٥٢- ZONAR. epit. XIV, 6 ; PROCOP. Bel . Pers. I, XXIV, 6 .

١٥٣- أعد بيورى دراسة قيمة تحت عنوان The Nika Riot لم يناقش فيها الثورة وملابساتها ودوافعها ، لكنه اهتم بمقارنة كتابات المؤرخين المعاصرين عنها ، ومدى التشابه والاختلاف بين كل منهم. راجع هذا المقال القيم (JHS. 17, 1897, pp. 92-119) .

١٥٤- Baker, Justinian, p. 87 .

بيورى(١٥٥) لأن الإطاحة بجوستنيان جاءت نتيجة طبيعية لفشله فى علاج الأمور، وليس سببا فى قيام الثورة نفسها (١٥٦).

وليس أصدق فى وصف هذه الثورة مما لخصه المؤرخ المعاصر يوحنا الليدى بقوله : «لقد نظمت هذه الثورة بيد كل العناصر الساخطة التى كانت تموج بها العاصمة»(١٥٧)؛ كبار الملاك والفلاحون ، كبار التجار والحرفيون ، المثقفون والمحامون ، اليهود والوثنيون ، المانويون والسامريون ، المونوفيزيتيون والآريوسيون ، السناتو والحرس الإمبراطورى ، والنساء. ومن هنا جاءت تسميتى لها منذ البداية بـ «الثورة الشعبية» . ولم أعن بها ما قد يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى، عامة الشعب وجموع رجل الشارع ، بل قصدت عمدا جميع فئات الشعب التى احتوتها القسطنطينية ، على النحو الذى شكا منه جوستنيان فى إحدى تشريعاته .

لم تكن الثورة تستهدف الجالس على العرش ، بل كانت تستهدف العرش نفسه، لم تكن تبغى الإطاحة بحكومة جوستنيان ، بل كانت تود القضاء على نظام الحكم نفسه ، ذلك النظام الذى وضعه قسطنطين فى ثلاثينيات القرن الرابع ويمكن له الآن فى الأرض، بقوة القانون وسلطان القداسة ، «نيابة عن المسيح» ، جوستنيان ، دون اعتبار للسناتو والجيش . ألم يعلن ذلك صراحة فى قوانينه، بأنه يستمد سلطانه من الله وحده ، وليس من السناتو أو الجيش ؟ لقد كانت الإمبراطورية تمر بفترة انتقال وتحول من عصر رومانى إلى عصر بيزنطى ، على امتداد القرون من الرابع إلى السابع ، تختلط الأفكار وتموج الآراء وتتصارع النظم ، بين تراث يونانى رومانى قديم ، ومبادئ عقيدة مسيحية وفلسفات يونانية سائدة ، وتأثيرات شرقية ونظام سياسى فى محك التجربة . ولم يكن من السهل على كبار الملاك أن يتنازلوا عن سلطانهم الذى حققوه خلال فترات القرنين الثالث والرابع ، عندما أصبحت الملكيات الكبيرة عصب النظام الاقتصادى الرومانى. ولم يكن من اليسير على الجيش أن يتخلى طواعية عن ادعاء بحق مارس به لعبة السياسة زمنا ليس قصيرا . ولم يكن مقبولا لدى السناتو أن يرى عرش سلطانه يهتز وإلى الأبد ، ليصبح مجرد صورة معلقة على جدران الزمن ، دون أن يصارع من أجل البقاء .

١٥٥- Bury, Later Roman Empire, II, p. 42 .

١٥٦- Cameron, Circus Factions, p. 280 .

١٥٧- IOAN. LYD. de magist. III, 72 .

لقد كانت الثورة بكل عناصرها الساخطة التى شاركت فيها، تعبيرا عن الصراع الذى يعتمل بين هذه التيارات جميعها ، فى مرحلة التحول من العصر الرومانى إلى العصر البيزنطى، بكل مفاهيمه ونظمه السياسية والاقتصادية والعسكرية والعقيدية والثقافية ، ومحاولة أخيرة لم تشهدها الإمبراطورية من بعد على امتداد تاريخها ، لأن كل ما حدث من تمرد ضد السلطة الإمبراطورية من بعد، على امتداد تاريخ الإمبرطورية، كان موجها ضد الجالس على العرش فقط ، ولكن فى ظل النظام القائم.. ولم يكن هدفه الإطاحة بالنظام كله، كما كان الطابع المميز والفريد للثورة الشعبية فى القسطنطينية عام ٥٣٢ . لقد استهدفت هذه الثورة العرش ونظام الحكم نفسه ، وليس فقط الجالس على العرش .

الفصل السادس

ميخيائيل بسللوس من خلال كتابه «التاريخ الزمنى»



ميخائيل بسللوس من خلال كتابه
«التاريخ الزمنى»

كتب نيقتاس الخونياتى[1] Nicetas Choniates يقول : «يعد التاريخ أعظم إبداع خلفه الإغريق»، وإذا كان هذا القول يصدق حقيقة على المؤرخين الكلاسيك وعلى رأسهم هرودوت Herodotus وثوكيديدس Thucydides واكسنوفون Xenophon وغيرهم، فإنه ينسحب أيضا دون ريب على العصر البيزنطى نتيجة أمرين رئيسين : فالمؤرخون البيزنطيون حاولوا جهد فكرهم أن يحاكوا تماما كتابات أولئك المؤرخين الإغريق ، وإذا كانوا لم يحققوا فى ذلك النجاح كله، إلا أنهم في الوقت ذاته تركوا عددا من الأعمال يرقى إلى الدرجة الأولى بين الكتابات التاريخيه، تدل دلالة واضحة على مجتمع بلغ مرتبة عالية من الثقافة والرقى الفكرى. الأمر الثانى ، أن الله – حسب التصور الكنسى- عندما ارتضى أن يظهر نفسه متجسدا فى الزمان والمكان ، قدس مسرى التاريخ، واستطاع العالم المسيحى أن يصبح انعكاسا على أرض «مدينة السماء»[2] Civitas Caelestis ومن هذا المفهوم ، ولما كان البيزنطيون على معرفة تامة بماضيهم البعيد، وتأثر تفكيرهم بهذه المعرفة عن الاستمرار التاريخى ، فقد برعوا دون جدال فى ميدان الكتابة التاريخية، ومن ثم فإنه خلال الامتداد الطويل للعصر البيزنطى المتقدم (من الرابع إلى السابع) لايكاد يخلو قرن من هذه القرون من

١- هو نيقتاس أكوميناتس N. Acominatus عرف باسم الخونياتى نسبة إلى مدينة خوناى Chonae فى فريجيا Phrygia بآسيا الصغرى، وهو يحتل مكانة مرموقة بين مؤرخى القرنين الثانى عشر والثالث عشر. وضع مؤلفا باسم «التاريخ» Historia فى عشرين كتابا يتناول الفترة الممتدة من اعتلاء يوحنا كومننوس العرش حتى الأيام الأول للإمبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية (١١١٨-١٢٠٦) . ويعتبر «تاريخ» نيقتاس عملا فريدا لايدانيه آخر فى المعلومات التى يقدمها عن عهدى مانويل وأندرونيكوس وأسرة الجلوس والحملة الصليبية الرابعة واحتلال القسطنطينية . وقد مات فى مدينة نيقية سنة ١٢١٠ . انظر العالم البيزنطى». تأليف ج . م هسى ، ترجمة الباحث ، حاشية ٢ ص١٩٠-١٩١ .

٢- انظر العالم البيزنطى ص٣٨١ .

واحد أو أكثر من المؤرخين أو كتاب التاريخ الزمنى، الذين دونوا أحداث هذه الحقبة التاريخية بقدر كبير من الدقة والموضوعية (٣). واتساقا مع الأمر الثانى ، نجد أن عددا ليس بالقليل من المؤرخين البيزنطيين، كانوا إما من بين رجال الدين أو الرهبان . وقد اصطبغت كتابات بعضهم إلى حد ما ، خاصة فى الفترة الأولى بالصبغة الدينية فى معالجة الأمور السياسية (٤)، وإن كان الآخرون وبمرور الزمن قد راحوا يعالجون مادتهم التاريخية بمنهاج موضوعى جاد.

٣- من أشهر هؤلاء المؤرخين وكتاب المزمنات : يوسيبيوس Eusebius القيسارى، والمؤرخ الوثنى أميانوس ماركللينوس A. Marcellinus فى القرن الرابع، وسقراط Socrates وسوزومين Sozmenos وثيودوريت Theodoretus والمؤرخ الوثنى زوسيموس Zosimus فى القرن الخامس . بينما يشهد القرن السادس مؤرخين أمثال بروكوبيوس Procopius القيسارى وأجاثياس Agathias ومناندر Menander . ثم نجد ثيوفيلاكت Theophylact فى أواخر القرن السادس وأوائل السابع وكذا إفاجريوس Evagrius السورى ويوحنا مالالاس John Malalas ويوحنا الافسوسى. وفى القرن السابع كان هناك جورج البيسيدى ويوحنا الأنطاكى. على حين نجد جورج سينكللوس George Syncellus وثيوفانس Theophanes خلال الفترة اللايقونية زمن الأيزوريين والعموريين (٧١٧-٨٦٧) .أما على عهد المقدونيين فقد ظهر يواصف جنسيوس Joseph Genesius وقسطنطين الرودسى وقسطنطين كفالاس C. Kephalas وليو الشماس وليو النحوى وثيودوسيوس المليتينى . بينما سُجلت أحداث الفترة الواقعة بين وفاة باسل الثانى سنة ١٠٢٥ وقبيل اعتلاء الكسيوس كومننوس العرش سنة ١٠٨١ ، على يدالمؤرخ ميخائيل بسللوس M. Psellus . وفى القرن الثانى عشر تميزت أنا كومننا Anna Comnena وزوجها نيقفور بريانيوس N. Bryennius ويوحنا كيناموس J. Cinnamus ونيقتاس الخونياتى . وحتى الفترة التى شهدت قيام الإمبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية (١٢٠٤-١٢٦١) لم تعدم بيزنطة مؤرخها ، فظهر فى القرن الثالث عشر جورج القبرصى. وفى امبراطورية نيقية ذاع صيت نقفور بلميدس N. Blemmydes أما الفترة الأخيرة من عمر الإمبراطورية وهى التى شغلتها أسرة باليولوجوس Palaeologi dynasty فقد حظيت الإمبراطورية بعدد من المؤرخين مثل باخيمرس Pa-chymers ونيقفور كالليستوس N. Kallistus ونيقفور جريجورى ويوحنا كانتاكوزينوس J. Cantacuzenus وفرانتزس Phrantzes ودوكاس Ducas ولاونيكوس Laonikos .

٤- من أوضح الأمثلة على ذلك ما كتبه لاكتانتيوس Lactantius فى رسالته «عن موت المضطهدين» De mortibus persecutorum ويوسيبيوس أسقف قيسارية فلسطين فى كتابيه «التاريخ الكنسى» Histor-ia Ecclesiastica و «حياة قسطنطين» Vita Constantini . وعلى الرغم من أن المؤرخ سوزمين اشتغل بالمحاماة إلا أن دراسته للقانون لم تمنعه من اضفاء الصبغة الدينية والتأثر بالأساطير والرؤى والمعجزات فى كتابه «التاريخ الكنسى» Historia Ecclesiastica . انظر : - =

ولعله مما يثير الانتباه أن فترات الانحلال السياسى والتآكل التى كانت تتعرض لها الإمبراطورية، لم يكن يصحبها بالضرورة فى الوقت ذاته انحطاط ثقافى ، بل ربما على العكس من ذلك كانت هذه الفترات تشهد إلى حد ليس بالقليل نهضات ثقافية فى مجالى الفكر والأدب. ويتمثل هذا بصورة جلية خلال الأزمة الطاحنة التى أحدقت بالإمبراطورية بعد أن اجتاحتها جيوش الفرس والآفار من الشرق والغرب فى أخريات القرن السادس وأوليات السابع ، ولم يبق من الإمبراطورية إلا القسطنطينية فقط. وحدث هذا أيضا خلال نصف القرن الذى اعقب وفاة باسل الثانى عام ١٠٢٥ . بل إن الكارثة التى حلت بالإمبراطورية سنة ١٢٠٤ لم تحل دون قيام مثل هذه النهضة الثقافية فى امبراطورية نيقية . على يد أسرة لاسكاريس Lascarids وقد عبر ثيودور الثانى لاسكاريس عن ذلك قائلا : «مهما تكن متطلبات الحرب والدفاع ، فإنه من الأمور الحيوية أن نجد الوقت لنغرس بذور بستان العلم». ويعود هذا فى المقام الأول إلى اعتزاز البيزنطيين بتراثهم اليونانى – الرومانى، وإلى إدراكهم الواعى للدور الحضارى الذى يؤدونه فى عالم البحر المتوسط ، بالإضافة إلى أنهم يجدون فى الإبداع الفكرى والأدبى عوضا عن الضياع السياسى الذى يعانونه إبان تلك الفترات . فجامعة القسطنطينية أعيد تنظيمها ثانية عام ١٠٥٤ على يد قسطنطين التاسع مونوماخوس Constantinus IX Monomachos ، بينما حرصت أسرة لاسكاريس على أن تجذب إلى نيقية ، التى أضحت عاصمة أقوى «الممالك البيزنطية الثلاث»[٥] بعد سنة ١٢٠٤ ، أكبر عدد من العلماء والدارسين فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية .

= Ante Nicene Fathers, ed. by A. Roberts & J . Donaldson VII 301-322 .

وأيضا Eusebius, historia Ecclesiatica, Nicene Fathers, I, 2 , 73-387.

وكذلك Vita Constantini, Nicene Fathers, I, 2 , 473 - 580.

و Sozomenos: historia Ecclesiastica, Nicene Fathers, II 2 , 239-427.

٥- بسقوط القسطنطينية سنة ١٢٠٤ انقسمت الإمبراطورية إلى مملكتين هما ابيروس Epirus فى الشمال الغربى من بلاد اليونان ويحكمها أحد أفراد أسرة أنجلوس ، ومملكة نيقية فى الشمال الغربى من آسيا الصغرى وعلى عرشها ثيودور لاسكاريس ، هذا بالإضافة إلى مملكة طرابيزون Trebizoned على الشواطئ الجنوبية الشرقية للبحر الأسود تحت سيادة أحد فروع أسرة كومنين. ومن الجدير بالذكر أن هذه المملكة الأخيرة قد قامت بمساعدة جورجيا قبل سقوط القسطنطينية .

ولقد تركت كل واحدة من هذه الفترات التى سقناها ، أثرها الواضح والمباشر على كتابات بل وشخصيات من أرخوا لها ، فجورج البيسيدى الذى عاش أوائل القرن السابع ، وكان من أشهر شعراء عصره ، جاءت كتاباته التاريخية كلها قصيدا نظم فى مدح الإمبراطور هرقل Heraclius الذى استطاع أن يعيد إلى الإمبراطورية أقاليمها بعد ضياع(٦) . أما جورج القبرصى ونيقفور بلميدس اللذان عايشا تفكك الإمبراطورية بعد سقوط القسطنطينية عام ١٢٠٤ ، فقد رفعا مملكة نيقية إلى عليين ، وجعلا منها «أثينا الجديدة» و «مدينة العلم»(٧). وإذا كانت أزمة نهاية القرن السادس وأوائل السابع قد هزت أركان الإمبراطورية وهى بعد فى عنفوان قوتها وشبابها ، وإذا كانت جحافل اللاتين ، جند الحملة الصليبية الرابعة، قد أطاحوا بها فى أوائل القرن الثالث عشر وهى فى طريق هرمها ، فإن الفترة التى تمتد إلى نصف قرن وينيف بين عامى ١٠٢٥-١٠٨١ تمثل منعطفا خطيرا فى تاريخ الإمبراطورية، إذ كانت خاتمة عهد طويل زاهر فى جملته امتد حوالى سبعة قرون ، وبداية النهاية فى طريق انحلال وسقوط استمر أربعة قرون ، إذا استثنينا تلك الفترة التى حكمت خلالها الأسرة الكومننية (١٠٨١-١١٨٥) .

فقبل عام ١٠٢٥ ولمدة تقترب من مائة وخمسين عاما ، كانت الإمبرطورية البيزنطية تعيش أزهى عصورها ، أو ما عرف بالعصر الذهبى ، تحت سيادة الأسرة المقدونية ، فامتدت حدودها شمالا لتضم جزءا كبيرا من الأراضى القوقازية وأرمينية ، ووصلت جيوشها فى الجنوب إلى تخوم بيت المقدس، وأخضعت لسلطانها فى الغرب المملكة البلغارية لتجعل منها ولاية بيزنطية، وتدعمت باستمرار سلطات الإمبراطور السياسية ، وإزدادت كفاءة الجهاز الإدارى ، ولعبت الدبلوماسية البيزنطية دورها كاملا بمهارة فائقة ، ونشطت الحركة الفكرية والأدبية والفنون خاصة فى بداية عهد هذه الأسرة ، وساهم بعض أباطرتها فى هذا الميدان مثل ليو السادس Leo VI الحكيم وقسطنطين السابع Constantinus VII واستمر الاهتمام بالناحية التشريعية وازدهر الاقتصاد البيزنطى واستقرت قيمة العملة الذهبية النوميزما والبيزنط ، وحطمت سطوة كبار الملاك خاصة فى منطقة آسيا الصغرى، وأضحت الإمبراطورية مرهوبة الجانب عند كل الجيران .

---

٦ ، ٧ – انظر - Vasiliev, A history of the Byzantine Empire, I, pp. 230 -231 ; II, 512 , 548 - 551 .

غير أنه بوفاة باسل الثانى ، تبدلت الأمور فجأة فى الإمبراطورية ، إذ اعتلى عرشها بين عامى ١٠٢٥-١٠٨١ أربعة عشر امبراطورا، افتقدوا فيما بينهم المقدرة العسكرية والكفاية الإدارية وقوة الشخصية التى تمتع بها أباطرة المقدونيين أو الايزوريين من قبل ، وحرمت الإمبراطورية من القادة العسكريين الأكفاء الذين حكموا كأباطرة شركاء أغلب فترات العصر المقدونى ، فأهمل الجيش واستنزفت الخزانة وخفضت قيمة العملة، فاهتزت الثقة فى الاقتصاد ، وأقفرت الولايات من سكانها ، وانتهز الأعداء المحيطون بها فرصة هذا الضعف المفاجئ ، فراح النورمان يهددونها من الغرب ، والغز Usez والكومان Cumans والبشناق Patzinaks من الشمال ، والأتراك السلاجقة من الشرق، وعادت من جديد إلى ازدياد سطوة الملاك الكبار، وقوى نفوذ البيروقراطية المدنية فى العاصمة . خلاصة القول كما يعبر عنه بدقة سوتر E. R. A. Sewter : «إن عددا كبيرا من مواطنى الإمبراطورية لم يكونوا يدركون ما الذى يحدث بالفعل، بل لم يكونوا يعلمون أن القرن الحادى عشر يمثل نقطة تحول خطيرة فى تاريخهم الطويل. ولكن من بين هؤلاء جميعا كان هناك رجل واحد استطاع أن يدرك بصورة جزئية قسمات الانحلال فى قدر الإمبراطورية ، ذلكم هو ميخائيل بسللوس»(٨).

من هنا ندرك الأهمية الحقيقية لهذه الفترة فى تاريخ الإمبراطورية، فمنذ وفاة باسل الثانى لم تستطع بيزنطة أن تعود ثانية إلى سابق قوتها وازدهارها ، ورغم أن الأسرة الكومنينية قد أعادت إليها شيئا من حياة ، إلا أن ذلك كان بريقا خادعا سرعان ما راحت الإمبراطورية بعده تستحث الخطى كارهة إلى الانحلال والسقوط. وكانت الأحداث التى وقعت على امتداد نصف القرن هذا ، وظاهرة الضعف العام الذى تردى فيه الأباطرة آنذاك إرهاصا طبيعيا بما حدث عام ١٢٠٤ ثم عام ١٤٥٣ . ومن ثم أيضا ندرك الأهمية الكبيرة لهذا الكتاب الذى بين أيدينا الآن وهو «التاريخ الزمنى» Chronographia فهو يتناول أحداث هذه الفترة فيما يتعلق بالناحية الداخلية بصفة خاصة بالتفصيل الدقيق .

ويضاعف من هذه الأهمية أن مؤلفه وهو ميخائيل بسللوس Michael Psellus قد عايش هذه الأحداث بنفسه منذ بدايتها تقريبا، ويعترف هو بذلك فى قوله : «إن باسل الثانى مات فى الوقت الذى كنت فيه طفلا (سبع سنوات) ، بينما أنهى قسطنطين الثامن حياته (١٠٢٨)

٨- أنظر Fourteen Byzantine rulers, introd. p. 12 .

بعد أن بدأت دراستى الأولية مباشرة ... وقد رأيت رومانوس (الثالث) Romanus III فى آخر أيامه (١٠٣٤) وكنت حينئذ فى السادسة عشرة من عمرى »[٩]. بل إن بسللوس قد شارك بنفسه فى صنع الكثير من أحداث هذه الفترة؛ فقد كان على مقربة من القصر منذ حداثة سنه، وعمل فى خدمة تسعة من الأباطرة الذين عاصرهم ابتداء بميخائيل الخامس وحتى ميخائيل السابع ، وترقى فى المناصب حتى أصبح الوزير الأول المسئول فى الإمبراطورية[١٠].

ومما لاشك فيه أن استمرار بسللوس فى ممارسة العمل الإدارى والسياسى قرابة أربعين سنة، باستثناء تلك الفترة القصيرة جدا التى حاول أن يسلك فيها درب الرهبانية ، وسط الأخطار التى كانت تتهدد الدولة فى الداخل والخارج، ومع اختلاف الأهواء وتضارب المصالح وتنافر الطبائع لدى هذا العدد من الأباطرة الذين عمل فى خدمتهم ، والذين يمتلكون السلطة الكاملة فى ظل المونارخية البيزنطية ، ليدل دلالة واضحة على شخصية بسللوس ، وتفهمه لطبيعة العصر الذى يعيشه ، وإدراكه الواعى لمدى امكانيات وقدرات هؤلاء الحكام ، وفى الوقت ذاته يفصح عن ذكائه وفطنته . لقد راح يصف نفسه قائلا : « ... إذا كان النيل يهب المصريين

٩- Chron. III 1 , 25 . وقد ولد بسللوس عام ١٠١٨ .

١٠- يذكر بسللوس أنه شاهد بنفسه مراسم الدفن الخاصة برومانوس الثالث (١٠٣٤)، ويقول إن وجه رومانوس كان شاحبا تماما يشبه إلى حد كبير أولئك الذين يتجرعون السم Chron. IV 4 رغم أنه يؤكد قبل ذلك أنه لايستطيع الجزم بصدق الشائعات التى كانت ذائعة آنذاك والقائلة بأن الإمبراطورة زوى Zeo إبنة قسطنطين الثامن وزوج رومانوس قد دست له السم ليخلو لها الجو مع عشيقها وزوجها المقبل ميخائيل الرابع Chron . III 26 . ثم نجد بسللوس يدافع دفاعا مجيدا عن ميخائيل الرابع هذا ويقول إنه لاسبيل إلى الشك فيما يقول : «لأنى رأيت بعينى رأسى وسمعت بأذنى »، وهذا يدل على صلته بالبلاط ولما يتجاوز العشرين من عمره. وليس ببعيد أن يكون بسللوس قد ارتبط بصورة ما بالقصر قبل أن يصبح سكرتيرا لميخائيل الخامس Chron. V 27 وهذا نقف عليه من وصفه الرائع للثورة العارمة التى اندلعت فى القسطنطينية عندما علم أهلوها بنبأ نفى زوى على يد ابنها بالتبنى الإمبراطور ميخائيل الخامس (١٠٤١-١٠٤٢)، ويذكر أنه امتطى صهوة جواده وقصد إلى قلب العاصمة ليشهد هذه الأحداث عن كثب Chron. V 28-30 ، ثم صحب أحد القادة العسكريين إلى حيث يختبئ ميخائيل وعمه فى دير ستوديوس بعد أن اضطرهما العامة إلى الفرار ونصبوا ثيودورا الإبنة الثانية لقسطنطين الثامن امبراطورة ، وكيف أنه (بسللوس) راح يؤنب الإمبراطور وعمه على مسلكهما تجاه زوى Chron V 40-43 ثم يؤكد عند حديثه عن العهد المشترك لزوى وثيودورا أن روايته سوف تكون مصدرية تماما ونتيجة لمعرفة شخصية جدا .Chron. VI 10

الحياة فإن لسانى للأرواح غذاء، فهناك من يدعونى «ضياء الحكمة» وآخر يرى فىّ «الكوكب الدرى» وثالث يخلع علىّ أسمى آيات التمجيد والفخار» !! .

كان بسللوس يعيش فترة من التقلب والاضطراب والانحلال فى الإمبراطورية، مصحوبة بتغيرات واضحة وجوهرية فى العرش ، كانت تعنى بالضرورة تغييرا فى السياسة البيزنطية. وقد نجح بسللوس فى أن يظهر مقدرة فائقة فى تكييف نفسه لتساير هذه الأحداث «ولم يتردد فى استخدام أساليب المداهنة والتملق والرشوة فى سبيل الحفاظ على مركزه وسلطانه ، ومن ثم فإنه ليس بمقدورنا القول إنه كان صاحب خلق لاتشوبه شائبة ، وإن كان فى ذلك لايختلف عن كثيرين من أبناء عصره ذاك المضطرب »(١١). ويكاد بسللوس يعفينا من إقامة الحجة عليه، فيقدم الدليل على ذلك مبررا سلوك الأباطرة المتقلب مدافعا بذلك عن نفسه ضمنا بقوله :

«إن الكثيرين ممن نذروا أنفسهم لتدوين تاريخ الأباطرة قد وقفوا مشدوهين أمام تلك الظاهرة القائلة بأن أحدا من الأباطرة لم يحاول أن يحافظ على سمعته فى كل الأمور من أن تعتريها شائبة. فقد كسب بعضهم الكثير من الثناء لحسن مسلكهم فى بواكير حياتهم، وآخرون نالوا ذلك فى أخريات سنى عمرهم ، وبينما آثر نفر منهم حياة الدعة والنعيم، أقحم غيرهم نفسه على الفلسفة ، وحتى يتلمسوا فقط مبادئها ، فقد اختاروا أن يحيوا وأن يموتوا مشوشى الفكر مضطربى العقل. أما أنا فلا أجد فى هذا التقلب ما يدعو للغرابة أو يسترعى الانتباه ، بل على العكس من ذلك فإنه لاشك يبدو شيئا نُكرا أن يظل إنسان ما على وتيرة واحدة ، ربما نعثر على إنسان يتبع طيلة حياته دربا واحدا لايتغير منذ ولادته وحتى يدركه الموت ، وإن كان عسيرا أن نجد الكثير على هذا النحو ... أرأيت إلى البحر كم هى قصيرة لحظات السكينة التى تظلل صفحة وجهه ، سرعات ما تضربها الأمواج فتلهب ظهرها ، شأن رياح الشمال أو أية ريح صرصر عاتية تبدد ذلك السكون . هذى أشياء اعتادتها مرارا عيناى »(١٢).

والحقيقة أن أية قراءة «للتاريخ الزمنى» حتى ولو كانت سريعة تعطينا صورة واضحة عن شخصية بسللوس السياسية ودوره فى الحياة العامة وفى تسيير أمور الدولة إلى حد التدخل

١١- Vasiliev, Byzantine empire, I, p. 368 .

١٢- Chron. VI . 27 .

فى بعض الأحيان فى اختيار الأباطرة أو إقصاء آخرين عن العرش ، أو تدبير المؤمرات السياسية ضد نفر ثالث .. وهكذا .

فهو قد عمل سكرتيرا للإمبراطور ميخائيل الخامس وأمه بالتبنى الإمبراطورة زوى Zoe ، ثم سرعان ما انقلب عليه عندما ثارت القسطنطينية ضده حال سماعها بنبأ نفى زوى ، ولايبعد أن يكون بسللوس قد شارك الجموع سخطها وثورتها بعد أن أيقن أن الأمور قد أفلتت من يدى ميخائيل ، خاصة وأنه يتهمه بالتسلط والاستبداد والانصراف عن شئون الدولة إلى الاهتمام بالتخلص من زوى(١٣) ، وبعد أن رأى الإمبراطور وعمه يهربان إلى دير ستوديوس للاحتماء به، حرص على أن يحتفظ بمكانته لدى الحاكم الجديد، ولهذا فإنه بدلا من الاستجابة لتوسلات ميخائيل وعمه لانقاذهما من أيدى الجموع الغاضبة ، راح أمام هؤلاء الثائرين يؤنبهما على مسلكهما تجاه زوى ، وكيف أنهما تآمرا سويا لإقصائها. وقد صدقت توقعاته وحظى بالرضا من جانب الأختين زوى وثيودورا بعد أن اعتليتا العرش سنة ١٠٤٢ امبراطورتين شريكتين (١١٤).

ولم يكن هذا الموقف من جانب جماهير القسطنطينية على اختلاف طبقاتها، والداعى إلى الابقاء على زوى امبراطورة، نابعا من احترام لشخصيتها أو تقدير لأعمالها. فمسلكها كان فى أعين الجميع ممجوجا ، وبسللوس نفسه يحدثنا فى كتابه عن كثير من جوانب هذه الشخصية المستهترة العابثة المزواجة ، لكن هذه الغضبة كانت ناجمة عن تقدير الجميع للأسرة المقدونية لما تحقق على أيدى أباطرتها من نجاح فى الداخل والخارج على السواء حتى عدت فترة حكم المقدونيين هى العصر الذهبى للإمبراطورية البيزنطية ، ولم يكن قد بقى من أفراد هذه الأسرة إلا زوى وأختها ثيودورا ، ومن ثم كان التعلق ببقائهما يبعث الأمل فى نفوس الجميع بوجود امبراطور شريك إلى جوارهما قد يبعث الحياة من جديد فى نهار بدأ يمسى . ولاينفى هذا أن الإسراف والبذخ اللذين كانت ترفل فيهما زوى كانا يدخلان البهجة على جموع القسطنطينية المحبة لمثل هذه الحياة !

١٣- Chron. V 17 , 21-22 .

١٤- راجع حاشية ١٠ . وقد تحدث بسللوس فى وصف دقيق يفيض بالتشفى عن النهاية المفجعة التى آل إليها كل من ميخائيل الخامس وعمه ، حيث أطبقت عليهما الجموع وراحت تسخر منهما وتهزأ بعد اخراجهما من الدير ، وكيف أقدم الثائرون على فقء عينى كل منهما . انظر . Chron . V. 38-50

وقد وقف بسللوس الجزء الأكبر من مؤلفه وهو الكتاب السادس للحديث عن «إمبراطوره المفضل» و «بطل تاريخه» قسطنطين التاسع[١٥]، وخلع عليه آيات التمجيد والإطراء بشكل لم ينله إمبراطور ممن أدوا للإمبراطورية خدمات تنكسف إلى جوارها شمس مونوماخوس هذا، فهو كما يحدث عنه «الإمبراطور الوحيد بين خلفاء باسل الذى حكم فترة طويلة (١٠٤٢-١٠٥٥) . ولأن هناك الكثير فعلا مما يستحق أن يحكى عنه ... كان من الطبيعى أن تحدونى الرغبة فى أن يكون إمبراطورى المفضل أنموذجا يحتذى حتى ولو كان مثل هذا المديح والثناء مستحيلا بالنسبة للآخرين جميعهم »[١٦]. ويمضى بسللوس فى التدله بامبراطوره إلى حد القول الصريح : -

«لم تكن رغبتى فى البداية أن اكتب تاريخا، ولا أن اكتسب سمعة الصدق فى هذا الميدان، كل ما كنت أريده فقط هو أن أنظم مديحا على شرف هذا الحاكم ، ولاريب فأنا أستطيع أن أقدم العديد من الأسباب التى تدفعنى إلى ذلك ، فلقد قدم الإمبراطور الكثير، والمادح- كما نعلم- يتغاضى فيمن يمتدحه عن كل نقيصة ، ويظهر للعيان فضائله ، فإذا كانت حياة الممتدح غاية فى السوء ، بحث مادحه عن فضيلة واحدة فقط أقدم عليها ليقرض فيها قصيده ، بل إن كل مذمة فى يد الكاتب الحاذق يمكن أن تؤول بصورة ما لتصبح تبريرا لهذا المديح»[١٧]. وبعد أن يؤكد ما يجب أن يكون عليه المؤرخ من نزاهة القاضى يتساءل : « ... هل هناك من هو أحق منى بامتداح الإمبراطور بالذات؟ إن الصعوبة التى تواجهنى فى كتابتى الآن هى كيف يمكن أن أعرض للتاريخ الحق ، وأعطيه (قسطنطين) فى ذات الوقت فضله الذى يستحقه ؟ إذا لم أكن منصفا فى كتابة الحقيقة التاريخية ، فإنى قد حفظت على الأقل سمعته فى جانب واحد؛ ذلك أنى إذا ما سعيت جاهدا ومحصت بدقة أعماله، حتى وإنْ كان ظاهر بعضها السوء، وإذا كنا ما زلنا نرى ضوء فضله ينعكس على أعماله الطيبة، وإذا ما وجدنا أن أعماله الخيرة ترجح كفة سئ الأعمال ، فإن قسطنطين بالتالى يصبح بكل تأكيد إنسانا عظيما يفوق كل أولئك الأباطرة الذين يتطرق الشك إلى كل ما قيل فى مدحهم، ذلك المديح الذى يغرك

١٥- Chron. VI 28, 71.

١٦- Ibid. 14, 28, 30, 190.

١٧- Ibid. VI 161.

ظاهره وحقيقته جوفاء . ترى .. هل هناك إنسان فاق الجميع ، أو ترى هل هناك امبراطور وضع على رأسه تاج الثناء على كل أعماله دون نقيصة واحدة [١٨]. إننا إذا ما نظرنا إلى العظماء من الرجال الذين ذاع صيتهم فى مجال الكلمة أو العمل، مثل الاسكندر المقدونى ويوليوس قيصر وأوكتافيانوس وبيروس Pyrrhus الابيروسى[١٩] وإبا مينونداس Epam-inondas الطيبى[٢٠] وأجسيلاوس Ageslaus الاسبرطى، ولن نتحدث عن أولئك الذين حققوا شهرة ضئيلة خلعها عليهم المعجبون بهم . عندما ننظر إلى هؤلاء فإننا لانجد فى حياتهم توازنا بين الفضيلة والرذيلة كما نعلم من ترجماتهم ، ولكنهم فى مجموعهم انحدروا بعض الشئ نحو الأسوأ . ماذا يمكن أن يقال إذن عن أولئك الذين يحاكونهم إذا ما بدوا أدنى منهم؟ لا أعنى فى كل مفاهيم الفضيلة ، بل تلك الخلال والنواحى التى فاق فيها هؤلاء العظماء أقرانهم»[٢١].

ثم يتحدث بسللوس من بعد عن قسطنطين ويقارن بينه وبينهم ويرفعه مكاناعليا ، ويتفوق به عليهم جميعا فى كثير من النواحى، وإن كان لايستطيع انكار أنه كان أقل منهم شجاعة، وهو فى هذه المقارنة يتحدث عن صفاته الخاصة دون الحديث عن منجزات له، ويتغنى بجماله ويصفه بأنه يشبه فى الجمال آخيل Achilles، بل إن جمال آخيل «كان شيئا أضفته عليه

١٨- Chron. 162 .

١٩- هو ملك ابيروس (٣١٩-٢٧٢ ق. م) جرت انتصاراته العسكرية مجرى الأمثال بحيث شاع ما يعرف باسم «النصر البيروى» Pyrrhic Victory. ترك عددا من المذكرات والمؤلفات عن فن الحرب والخطط العسكرية كانت مصدرا للكثيرين من بعده ومن بينهم شبشرون نفسه .

٢٠- إبامينونداس هو أحد قادة طيبة العسكريين (٤١٨-٣٦٢ق.م) كان لخططه العسكرية أثرها الكبير فى انتصار طيبة على جيرانها فى موقعة ليوكترا Leuctra عام ٣٧١ ق . م . تدور شهرته أساسا حول براعته فى وضع الخطط العسكرية بالإضافة إلى ثقافته الواسعة.

أما أجسيلاوس الثانى فهو ملك إسبرطه (٣٩٩-٣٦٠ق . م) ، تمكن بالتحالف مع الفرس من إجبار الآثينيين والطيبيين على التخلى عن المدن اليونانية فى الأناضول لتقع تحت السيادة الفارسية بمقتضى معاهدة ٣٨٦ ق .م ، غير أنه لم يلبث أن قاد إسبرطه إلى الهزيمة فى ليوكترا سنة ٣٧١ ق . م على يد الطيبيين بزعامة إبامينونداس .

٢١- Chron. VI , 163 .

الأسطورة، أما جمال قسطنطين فهو ما حبته به الطبيعة حقا حتى وصلت به حد الكمال !!» ويطنب فى تبيان رقته ودماثة خلقه وكرمه وعذب حديثه وسماحته إزاء أعدائه وحلمه مع خصومه[٢٢]، ويغض الطرف تماما عن معالجة أمور الدولة ، «ذلك أنه فيما يتعلق بالشئون العامة فإنى سوف أتركها لكثير من الكُتاب الذين يرغبون فى تدوين هذه الأعمال!!»[٢٣].

ولكن ما الذى يقوله التاريخ حقا عن قسطنطين التاسع ؟

لقد تمكن فى أوائل عهده من أن يضم للإمبراطورية ما تبقى من أرمينية بما فيها عاصمتها آنى Ani لكن الإمبراطورية سرعان ما فقدتها على يد الأتراك السلاجقة عندما أقدم قسطنطين على سحب قواته منها ليواجه بها الثورة التى أشعلها ضده ليو التورنيقى[٢٤] Leo Tor-nikios بينما سمح لعناصر البشناق Patzinaks بالاستقرار فى بعض الأراضى البلغارية ، وتنازل لهم عن ثلاث قلاع حربية على شاطئ الدانوب فى مقابل تعهدهم بالدفاع عن هذه المناطق ضد هجمات الأمراء الروس. غير أن البشناق أخذوا يتدفقون إلى الداخل دون مقاومة حتى نزلوا بالقرب من أدرنة Hadrianopolis بينما وصل بعض منهم إلى أسوار العاصمة . وإذا كان قسطنطين قد تمكن فى البداية من إنزال بعض الضربات القوية بهم ، إلا أنهم أوقعوا بجيشه مذبحة مروعة فيما بعد ، اضطر الإمبراطور إزاءها أن يبتاع السلام منهم بثمن باهظ ، وكان لهباته التى أغدقها عليهم والتى تفوق حد الوصف أثرها فى تعهدهم بحفظ السلام فى أقاليمهم التى يقيمون فيها شمالى البلقان[٢٥]. وليس أدل على ما وصلت إليه أمور الدولة فى الخارج من التردى مما يذكره مؤرخنا من أن الإمبراطور أرسل إلى ملوك وحكام الدول المجاورة رسائل «تفيض وتنضح بالخضوع والتدنى بصورة لايمكن أن تليق بامبراطور، قاصدا بذلك كسب ودهم ، وكان من بين هؤلاء خليفة مصر، وقد أمرنى بالكتابة إليه لما يعلمه عنى من حب للوطن والرومان، وأوعز إلىّ أن أضفى عليه (قسطنطين) صفات الاتضاع وأن أخلع على المصريين سمات المجد والرفعة»[٢٦].

٢٢- Chron. VI 164-176 , 126 .

٢٣- Ibid. 167 .

٢٤- Ibid. 98-124 .

٢٥- Vasiliev, Byzantine empire, I, pp. 325-326 .

٢٦- Chron . VI 189-190 .

أما فى الداخل فقد أخذت الأمور تسير من سئ إلى أسوأ ، فقد راح قسطنطين وزوجه زوى يستنزفان الخزانة العامة بإسراف بالغ بلغ حد السفه ، ولعل أوضح الأمثلة على ذلك ما حدث عند بناء كنيسة سان جورج ثم هدمها وإعادة بنائها مرة ثانية[٢٧]. وبسللوس يبدى من هذا استياءه معلنا «إن أحمق تطرف أقدم عليه الإمبراطور هو بناء كنيسة سان جورج الشهيد . لقد كان الذهب يتدفق من الخزانة العامة كتيار جارف هادر من منابع لاينضب لها معين»[٢٨]. بل إنه يستفتح تأريخه لقسطنطين بقوله : «إنه لم يكن يعصى لزوى أمرا وكذا ثيودورا ، كان يعطيهما من الأموال كل ما تطلبانه ، حتى أصبح الانفاق والبذخ أمرا عاديا »[٢٩]. ولايخفى حسرته فيكتب بكل الألم «لقد أصبحت الثروة الطائلة التى خلفها باسل الثانى ألعوبة فى أيدى هؤلاء النسوة ... وهكذا فإن ثروتنا كلها قد تبددت وبعثرت هباء ، بعضها داخل أسوار المدينة، وبعضها حمل إلى البرابرة ... لقد كانت السفن الرومانية تلقى بأى ميناء مراسيها ثم تعود محملة بالثروات التى تذهب بالألباب ، حتى أصبحت الإمبراطورية الرومانية موضع حسد من الجميع ومحط أنظارهم، أما الآن فيا حسرتا بعد أن ضاعت أراضينا والثروات»[٣٠]. ويصف الإمبراطورية فى أوائل عهد قسطنطين بأنها «كانت مشرفة على الموت وإن كانت أنفاسها ما زالت تتردد ، وقد ترك الداء حتى استفحل واستشرى، ولم يشغل الإمبراطور نفسه كثيرا بهذه المسألة ، بل أخذ يبحث عن إعادة احياء الإمبراطورية بالإغراق فى المسرات . لقد كان يعد جسم الإمبراطورية لآلاف الأمراض التى كان حتما مقضيا أن تفتك بها فى سنوات آتية»[٣١].

٢٧- يذكر بسللوس أن قسطنطين أقدم على هدم البناء الأصلى لكنيسة سان جورج وأقام على أطلاله أخرى جديدة، ويضيف أنه سيطر عليه جنون العظمة والطموح فى أن يقيم بناء يفوق كل الأبنية التى سبقت عهده بحيث لايمكن لأى منها أن يدانيه، ويحدثنا عن عظمة البناء وروعة الزينة وما أنفق فى سبيل ذلك من أموال طائلة . غير أن الأمر لم يقف عند هذا الحد، فقد أمر قسطنطين بتسوية هذا البناء الفخم بالأرض لأنه وجده لايتفق مع ما كان يطمع إليه، ومن ثم أعيد البناء مرة أخرى من جديد. ويعود بسللوس إلى وصف هذا البناء الأخير فى صورة تذهب بالألباب. انظر :. Chron. VI 185-187

٢٨- Chron. VI 185 .

٢٩- Ibid. 49 .

٣٠- Ibid. 63 , 153-154 .

٣١- Ibid. 48 .

وتمشيا مع هذه السياسة الخرقاء ، وفى محاولة لعلاج الأمور ، وجه قسطنطين ضربة قاصمة للاقتصاد البيزنطى عندما أقدم على تخفيض قيمة العملة «النوميزما» بصورة واضحة ، وذلك لمواجهة العجز المالى الكبير الناجم عن بذخ البلاط المتزايد والانفاق الحكومى، بالإضافة إلى نقص إيرادات الضرائب بسبب ضعف سلطان الحكومة المركزية وازدياد سطوة كبار الملاك. ولاشك إن إجراء على هذه الشاكلة كان كفيلا بتخريب الاقتصاد البيزنطى، فقد كان من الأمور المعروفة أن المركز المرموق الذى بلغته القسطنطينية فى عالم التجارة الدولية يعود فى الدرجة الأولى إلى الثقة فى قيمة عملتها الذهبية [٣٢].

لم يكن أى من هذه الأمور على بسللوس بخاف ، هذا على حد تعبيره[٣٣]، ولكنه ظل حريصا على اكتساب رضا الإمبراطور والفوز بثقته ، وقد سجل ذلك صراحة ودون مواربة بقوله : «حرصت بكل عناية على أن أكيف نفسى حسب مزاجه فى كل حين ، فلقد كان رجلا سريع التقلب ولايستقر على أمر!»[٣٤]. ورغم النقد اللاذع الذى يوجهه بسللوس للإمبراطور قسطنطين ، فإنه لابد للمرء أن يتساءل عن الدوافع التى حدت بمؤرخنا إلى سلوك هذا السبيل التقريظى تجاه قسطنطين .

الذى لامراء فيه أن بسللوس كان يدين لقسطنطين التاسع بفضل رفعه مكانا عليا ، حقيقة أنه كان لديه من الأسباب ما يؤهله كى يتبوأ هذه المكانة المرموقة ، خاصة مقدرته البلاغية وفصاحته ورجاحة عقله ، وهذه أمور سوف نتناولها فى حينها ، ولكن هذا لايمنع أن يعزى إلى قسطنطين فضل السماح لهذه المواهب الكثيرة أن تصقل وأن تصل بصاحبها إلى ما يبتغى . وبسللوس يقر هذه الحقيقة، «لقد التحقت بخدمة الإمبراطور فور اعتلائه العرش ، وعملت معه طيلة عهده ، ورقيت إلى مرتبة السناتور ، وعهد إلىّ بمعظم الأعمال ذات الأهمية الخاصة، وهكذا فليس هناك شئ لم أعرفه ، ولم يخف علىّ عمل علنى أو دبلوماسية سرية»[٣٥]. فإذا أضفنا إلى هذا أن بسللوس كان ينتمى لأب من بين التجار متوسطى الحال، وإن كان يعود

٣٢- أنظر هسى ، العالم البيزنطى ، ترجمة رأفت عبد الحميد ، ص١٧٠-١٧١ .

٣٣- Chron. VI 14 , 46 .

٣٤- Ibid . 197 .

٣٥- Ibid . 14.

فى أصله لجذور نبيلة يحمل بعض أفراد منها مرتبة القنصلية ولقب البطريق ، ويعيش حياة ميسورة معتدلة، وإن كان يسارها محدودا لدرجة لم تتح له أن يسير فى خطى التعلم بصورة منتظمة ، وأنه أفاد من موت أخته التى تكبره حيث استخدم صداقها فى الاتفاق على دراسته، ولما كان هذا المبلغ ضئيلا إلى حد كبير ، فقد اضطر أن يعمل لبعض الوقت قاضيا إكليروسيا فى آسيا الصغرى . ونتيجة لذلك كله كان محتملا أن يقتفى الإبن أثر أبيه فى التجارة ، حيث كان من الممكن أن تذرى مواهبه الرياح . إلا أن أمه التى تنتمى فى نفس الوقت لأصل متواضع ، بذلت فى سبيل مواصلة تعليمه كل ما تملك من جهد ومال [٣٦]، إذا وضعنا هذا كله فى اعتبارنا أدركنا إلى أى حد كان تقريب قسطنطين له وإيثاره إياه وضمه إلى بلاطه ، معروفا أسداه إليه ولم يكن من العسير عليه أن ينكره ، فقد كتب يقول : «لسوف تؤرقنى النفس اللوامة إذا لم أنتهز أية فرصة لامتداحه ، ولسوف أصبح للجميل منكرا وغير متوازن مع نفسى ، إذا لم أحدث ولو قليلا عن نعمه التى أسبغها علىّ ظاهرة وباطنة . فقد مد يد العون لى فتحسنت منى الأحوال»[٣٧]. وبمقدورنا أن ندرك فى الوقت ذاته المغزى الحقيقى وراء الاحترام والتقدير الذى يخلعه بسللوس فى كتابه على الأباطرة الذين ينتمون لأصول نبيلة والاحتقار والازدراء الذى يسم به من هم فى الأصل دونهم[٣٨].

على أنه من أهم الأمور التى أقدم عليها قسطنطين التاسع فى عهده هو إعادة تنظيم جامعة القسطنطينية فى عام ١٠٥٤ ، وكانت قد أدت دورها بكفاءة عالية منذ صدر قرار تنظيمها فى عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى Theodosius II عام ٤٢٥ ، وإن كانت قد تعرضت لفترات من الاهتزاز الثقافى خاصة عندما كانت الإمبراطورية تولى جهودها كلها شطر الاستعدادات العسكرية لمواجهة الأخطار الخارجية ، مما دفع بارداس Bardas خال الإمبراطور ميخائيل الثالث (٨٤٢-٨٦٧) إلى محاولة تنظيمها ثانية [٣٩]. وإذا كانت الجامعة قد

٣٦- أنظر Fourteen Byzantine rulers, introd. p. 13 وأيضا C. M. H. IV 2 , p. 85

وكذلك Rice (T.) Everyday life in Byzantium, pp. 158-192 .

٣٧- Chron. VI 23 .

٣٨- Ibid. IV 9 , 26 , 27 ; V 26 ; VI 15 ; VII 79 ; VII, Const. X, 6 ; VII , Roman . IV, 1.

٣٩- أنظر Baynes & Moss, Byzantium, pp. 216-217 .

أضحت فى عهد المقدونيين الأوائل مركزا جذب إليه خيرة العقول آنذاك [٤٠]، إلا أن الفترة التى تسلط فيها العسكريون مثل نيقفور فوقاس Nicephorus II Phocas ويوحنا تزيمسكس John Tzimisces أودت بالثقافة إلى الدرك الأدنى[٤١] ، فلما جاء باسل الثانى إلى السلطة أبدى ازدراءه للثقافة والمثقفين، وصرف اهتمامه إلى النواحى الحربية والإدارية، ولكن هذا لم يمنع وجود نشاط علمى خافت تمثل فى جهود فردية قام بها بعض الدارسين آنئذ[٤٢]. ولهذا فإن قسطنطين التاسع، رغبة منه فى أن يضم بلاطه مجموعة من المساعدين الأذكياء ، قرر إعادة تنظيم جامعة القسطنطينية . ومما تجدر الإشارة إليه أن بسللوس انتهز فرصة قربه للإمبراطور وإعجاب هذا به ، فسعى لديه جاهدا من أجل الإقدام على ذلك العمل، ولم يكن بسللوس وحده فى هذا بل شاركه صديقه يوحنا إكسيفيلينوس John Xiphilinus ومن ثم فإن الجامعة شهدت نهضة فكرية جديدة تمثلت فى كليتين للقانون والفلسفة والدراسات الإنسانية ، ترأس الأولى إكسيفيلينوس واختير بسللوس للثانية رئيسا .

هذه ناحية أخرى من أيادى قسطنطين البيضاء على بسللوس ، كان لابد أن يعدها مَكرمة لها أثرها ، خاصة وأنه كان يفضل دائما أن يعرف بين الجميع بأنه «الفيلسوف» أو «الحكيم» ولكن الذى يدعو للدهشة حقا ، أنه خلال هذا الجزء الكبير من مؤلفه والذى وقفه على «إمبراطوره المفضل» لم يشر بكلمة واحدة إلى مسألة إعادة تنظيم الجامعة واختياره أستاذا لكرسى الفلسفة بها. وقد يكون ذلك مقبولا لو أنه لم يتحدث عن نفسه [٤٤]، وكل ما ذكره عن ذلك لايتعدى السطور الثلاثة التى تقول : «على الرغم من أن قسطنطين لم يظهر فى يوم ما تقدما فى دراسة الأدب، ولم يكن أبدا خطيبا مفوها، إلا أنه مع ذلك أظهر إعجابا كبيرا بذوى الفصاحة والبلاغة والذين كان جلهم قد بلغ من الكبر عتيا ، وأرسل يستقدمهم إلى البلاط من جميع أنحاء الإمبراطورية»[٤٥]. والذى يزيد الأمر حيرة أن مؤلف بسللوس هذا

٤٠- أنظر Vasiliev, Byzantine empire. I, p. 296 .

٤١- أنظر Baynes & Moss, Byzantium 217 .

٤٢- Chron. I, 29 .

٤٣- Ibid. VI 197 ; VII , Michael, 26-81 .

٤٤- Ibid. VII 36-46 .

٤٥- Ibid. VI . 35 .

يكاد يقتصر فقط على معالجة السياسة الداخلية والأمور الخاصة «جدا» بالبلاط ، ولايعرج على الشئون الخارجية إلا فيما ندر، ولهذا كان متوقعا أن يمدنا بسللوس بوثيقة تاريخية تعد على جانب كبير من الأهمية وهى قرار إعادة تنظيم الجامعة ، خاصة كلية الفلسفة التى كان رئيسا لها(٤٦). وقد يكون ذلك راجعا إلى أنه كان يريد دائما أن يحتفظ لنفسه فقط، ودون الآخرين ، بفضل علو هامته الثقافية ومكانته الفكرية ، فى الوقت الذى لم يكن من السهل عليه إخفاء دور الأباطرة وفضلهم عليه فى الترقى فى مناصب الدولة الإدارية والسياسية . ومن ثم فإنه عندما يتعلق الأمر بثقافته وعلمه فإنه لم يكن متواضعا أبدا، وهو يعبر عن ذلك بقوله : «لقد رضى الإمبراطور (رومانوس الرابع) أن يكون تابعا لى فى الأمور المتعلقة بالأدب، أما فيما يختص بالاستراتيجية العسكرية فقد كان طموحه يدفعه كى يتفوق علىّ »، ويضيف «... لقد أكسبتنى ثقافتى مكانة مرموقة بين رجال العلم بغض النظر عن أية اعتبارات أخرى»(٤٧).

ومع اعتلال صحة قسطنطين وقرب النهاية ، بدأ بسللوس يضع نصب عينيه تأمين مستقبله السياسى ، بعد أن بلغ هذه «المكانة المرموقة» فى كنف الإمبراطور ، وبعد أن «توطدت أواصر الصداقة بينهما إلى حد كبير جدا ، وانفتح له قلب الإمبراطور على مصراعيه»(٤٨)، وفى سبيل ذلك ابتكر أسلوبا «هلع له فؤاد الإمبراطور وارتاعت من هوله نفسه»(٤٩)؛ ذلك أنه اتفق وصديقه يوحنا اكسيفيلينوس على ادعاء المرض والتظاهر بدنو الأجل والرغبة فى أن يختتما حياتهما بصالح الأعمال، فيطلقا إلى غير رجعة دنيا الناس بحثا عن دنيا الله، متمثلة فى سلوكهما درب الرهبانية حياة. وكان على اكسيفيلينوس ، الذى كان يبدو صادقا مع نفسه ، أن يخطو الخطوة الأولى فى هذا السبيل، وقد فعل ، والتمس من الإمبراطور إعفاءه من رئاسة كلية القانون ، فسمح له قسطنطين بذلك، وإن كان «قد تملكه الحزن لفقدان هذا الرجل صاحب المواهب المقتدرة والكفاءة العالية»(٥٠).

٤٦- هسى ، العالم البيزنطى ، ص٣٤٠ - ٣٤١ .

٤٧- Chron. VII Roman. IV 7 ; VI 37 .

٤٨- Ibid. VI 46 .

٤٩- Ibid. 197 .

٥٠- Ibid . 195 .

وجاء دور بسللوس ليحذو حذو صديقه ، فلزم فراش التمارض وأرسل يستأذن الإمبراطور فى السماح له بأن يقضى بقية عمره زاهدا !! ولعل قسطنطين أدرك أن الصديقين قد اتفقا فيما بينهما على اتخاذ هذا القرار ، ولابد أن يؤدى غيابهما عن الجامعة مرة واحدة إلى ضياع جهوده التى بذلها فى سبيل إعادة تنظيمها ، بالإضافة إلى أنه كان يضع فى بسللوس ثقته وعليه كل اعتماده فى تصريف الأمور السياسية ذات الأهمية ، خاصة وأن بسللوس كان بمثابة رئيس لديوان الإنشاء لدى الإمبراطور ، ومن ثم حرص بادئ الأمر على أن يبقى عليه ، فكتب له مبينا أنه سوف يهئ له الوسائل الناجعة ليبرأ من مرضه ، ثم أرسل إليه مندوبين يستحثونه على العدول عن قراره . غير أن بسللوس إزداد تيها إذ وجد الإمبراطور يمعن فى استرضائه «ويمنيه بمستقبل عريض ويدعوه : «ياقرة العين» .. «يا مهجة الروح» .. «يا قلبى وضياء حياتى» .. أتوسل إليك أن لاتدعنى اتخبط وسط دياجير الظلماء!! »[٥١].

ويبدو أن بسللوس قد أعجبته نغمة الرجاء هذه من جانب الإمبراطور ، فإزداد صلفا وإصرارا على عزمه ، معلنا بينه وبين نفسه أن «صديقه الذى سبقه إلى الدير يعنى لديه أكثر بكثير مما تعنيه رسائل قسطنطين ومندوبوه». عندها أدرك الإمبراطور أن تآمرا حقيقيا يجرى ضده متواطئا مع مرضه، ولابد أنه قد لام نفسه على هذا الدرك الذى تدنى إليه فى استعطافه لبسللوس، فأقدم- حسب تعبير مؤرخنا- على «وضع الثعلب فى عرين الأسد، وأنذر بشر مستطير، فأقسم على أن يلقى بى وزملائى المتآمرين معى إلى النار، وأن الضر لن يصيبنى وحدى بل سيمتد إلى كل أفراد أسرتى»[٥٢]. غير أن بسللوس تمادى فى عناده وتلقى هذه التهديدات- على حد قوله- برباطة جأش معتبرا إياها بشيرا بأن يجد المأوى فى حماية الكنيسة ، وأقدم على حلق شعر رأسه وارتداء لباس الرهبانية ، وحمل اسم ميخائيل وهو الإسم الرهبانى الذى عرف به فى التاريخ ، والذى توارى إلى جواره اسمه الحقيقى قسطنطين .

ولما كان الإمبراطور قد دخل المرحلة الأخيرة من حياته، وأصبح عاجزا عن تنفيذ وعيده وكفت يداه عن التدخل الفعلى فى تصريف أمور الدولة، خاصة بعد أن سيطرت الإمبراطورة ثيودورا ، آخر سلالة البيت المقدونى ، على القصر بمساعدة خاصتها ، وظهر سلطانها بشكل واضح عندما أقدمت على اعتقال حاكم بلغاريا الذى كان قسطنطين قد رشحه ليكون خليفة له

٥١- Chron . 198 .

٥٢- Ibid. 198 .

على عرش الإمبراطورية، فقد تلقى بسللوس رسالة من الإمبراطور ، والذى كان على فراش الموت «أشبه شئ بثور خامد يوشك أن يقدّم للرب ذبيحة»، تعلن عفوه عن بسللوس ورضاه عن مسلكه وتهنئته له باختيار هذا السبيل(٥٣). ولايبعد أن يكون دافع قسطنطين إلى ذلك أيضا أنه توهم صدق بسللوس فى عزمه، فتراجع عن تنفيذ تهديده له، مفضلا بذلك إبعاده عن التدخل من بعده فى أمور الدولة، خاصة وأن الإمبراطور كان قد وقف على عدة أمور أتاها بسللوس تعطيه الحق فى التخلص منه، وكان من بينها أن بسللوس يتصرف فى بعض الشئون فيما يتعلق بسياسة الدولة دون الرجوع إلى الإمبراطور ، بل وعصيانا لرأيه فى بعض الأحيان(٥٤). ولاشك أن هذا كان كافيا لجعل الإمبراطور يفقد الثقة فى رجله الأثير!

وبسللوس فى معرض حديثه عن الأسباب التى دفعته إلى إعلان عزمه على سلوك حياة الرهبانية يقول إن ذلك يعود إلى رغبة دفينة فى نفسه لممارسة هذه الحياة ، ولإنطواء نفسه على الحب العميق للتأمل(٥٥). غير أنه ليس صادقا فى ذلك تماما، فهو لم يطق صبرا على هذه الحياة الخشنة بعد أن اعتاد حياة الدعة والنعيم أو الحياة «الرغدة» كما يصفها ، لهذا لم يلبث أن عاد إلى دنيا الناس والحياة العامة فور وفاة قسطنطين ، فى الوقت الذى ظل فيه زميله يوحنا اكسيفيلينوس راهبا حتى اختير أسقفا للقسطنطينية كارها (١٠٦٣-١٠٧٥)

٥٣- Chron. 199 , 202 .

٥٤- يذكر بسللوس أن قسطنطين كلفه بكتابة رسالة إلى الخليفة الفاطمى فى مصر، وأوعز إليه أن يضفى عليه (قسطنطين) صفات الاتضاع وأن يخلع على المصريين سمات المجد، ولكن بسللوس حسب قوله لم يفعل ذلك، «بل نفذت المظهر العكسى تماما فى تورية ماكرة ، وكان ما كتبته يحمل معنى معينا لقسطنطين ومعنى آخر لخليفة مصر، وحططت من شأن الأخير دون أن أفصح عن ذلك ». ويبرر بسللوس تصرفه هذا بحبه للرومان والوطن . ثم يضيف : «وكان هذه هو السبب الذى دفع الإمبراطور إلى أن يتولى بنفسه بعد ذلك كتابة الرسائل الموجهة إلى مصر». أنظر Chron. VI 190 وهذه العبارة التى يسجلها مؤرخنا بقلمه على نفسه ، هى اعتراف صريح بالخروج عن الخط السياسى الذى كان قسطنطين التاسع قد رسمه فى محاولة منه لإنقاذ سمعة الإمبراطورية مما باتت تتردى فيه ، ولايشفع لبسللوس مطلقا تبرير ذلك بالحفاظ على «سمعة الرومان ومكانتهم» ، ولاحتى شفع له عند الإمبراطور الذى رأى فى ذهابه إلى الدير ما يخدم المصالح السياسية والإمبراطورية .

٥٥- Chron . VI 191 .

حيث كان يفضل البقاء فى الدير . ولم يستطع بسللوس إخفاء الأسباب الحقيقية التى قادته إلى ادعاء ذلك وهو فيها يلقى اللوم صراحة على الإمبراطور ، حيث كان «تقلب الإمبراطور هو ما دفعنى إلى اختيار الحياة الرهبانية . لقد كنا نخاف نزواته ومن أجل هذا فضلنا الرهبانية على حياة الدونية فى البلاط ، وآثرنا هدوء الكنيسة التام على الاضطراب والفوضى داخل القصر ... لقد كان الإمبراطور يقود بنفسه عربة الدولة، ومعظم الذين ركبوها معه ألقى بهم فى الطريق تحت عجلاتها ، وكان هناك أكثر من سبب يدفعنا إلى الخوف من أن تهتز بنا العربة، وعندها سوف يقذف بنا إلى الأرض كغيرنا ، ذلك أننا لم نكن قد ثبتنا أقدامنا تماما... لقد كانت المسألة كلها فى جوهرها مجرد مقامرة!!»[٥٦].

وهكذا يعترف بسللوس صراحة بأن هناك أسبابا كثيرة تدعوه للخوف من أن يلفظه الإمبراطور خارج القصر والجامعة : فقسطنطين يعلم جيدا موقفه من ميخائيل الخامس، ويضع تحت يديه الدليل الكافى لإدانته عند الضرورة، وذلك فى مخالفته لأوامره فيما يتعلق برسائل الإمبراطور إلى الخليفة الفاطمى فى مصر[٥٧]، ولايغيب عن ذهنه صلفه وعناده أمام «توسلاته» له بأن يهجر ما اعتزم الإقدام عليه من الانقطاع للحياة الديرانية. من أجل هذا حسب بسللوس بدقة كاملة حساباته ، واختار الوقت المناسب لتنفيذ ما انتواه .

٥٦- Chron. VI 190 , 193 , 200 ويضرب المثل بما كان من أمر صديقه قسطنطين ليخودس ، الذى اختاره الإمبراطور لذكائه وفصاحته وخبرته للإدارة المدنية، ويحدثنا عن تحمسه للبيان ، وكيف كان خطيبا مفوها يجيد الحديث بلهجة آتيكية خالصة ، ويتمتع ببديهة حاضرة وشخصية جذابة . وكان عمق نبرات صوته مساعدا له على رقى مكانته ، ولشد ما كان إعجاب الإمبراطور بهذا الصوت وهو يذيع المراسيم الإمبراطورية من شرفة القصر. ويقول بسللوس : «وسرعان ما حقق ليخودس مكانة راقية حيث كان يلعب الدور القيادى فى الإدارة المدنية ، ولكن ذلك كان دافعا لغيرة الإمبراطور منه وحقده عليه. لقد كان الإمبراطور غير قادر على تقبل انتقال السلطة من يديه لشخص آخر، كان يرغب فى السيطرة على الأمور بنفسه لا من أجل أن تدار عجلة الإمبراطورية بكفاءة ، بل ليفعل هو ما يشاء . إن الإمبراطور لا يعدو فى بعض الأحيان مجرد تمثال. لقد حاول دائما أن يتبع سنة أسلافه ، ولكم أغاظه تفوق وزيره !! Chron . VI 179 ويضيف أنه كثيرا ما حذر ليخودس مما يدور فى نفس الإمبراطور ، وانتهى الأمر بعزله ، وإن كان قد رد إليه اعتباره بعد ذلك على يد الإمبراطور اسحق كومننوس سنة ١٠٥٩ حيث اختير أسقفا للقسطنطينية. أنظر Chron . VI 180-181

٥٧- راجع حاشية ٥٤ .

لكن آمال بسللوس سرعان ما تحققت بموت قسطنطين فى ١١ يناير ١٠٥٥ ، إذ تلقى وهو فى الدير دعوة عاجلة من الإمبراطورة ثيودورا ترجوه أن يطرح من رأسه فكرة الرهبانية ، وأن يكون إلى جوارها فى هذه الآونة . وعلى الفور أسرع بسللوس يحقق للإمبراطورة «رجاءها» ومنذ هذه اللحظة ولمدة ربع قرن آت ، خطا بسللوس خطوات واسعة على سلم الترقى فى المناصب السياسية ، ونجح فى ذلك نجاحا يشهد له بالكفاءة والمقدرة والذكاء ، مستخدما نفس أسلوبه ومزيدا من دهاء . لقد أصبح المستشار الأول لثيودورا التى كانت لاتصدر عن رأى إلا بعد استشارته ، كما عهدت إليه «بكتابة رسائلها التى تعد على جانب كبير من الأهمية والسرية حتى وقسطنطين بعد حى»[٥٨]. ورغم هذه الثقة الكاملة التى أولتها ثيودورا إياه ، ولما كان يدرك أنها إلى الفناء تصير ، حيث كانت تناهز الآن السادسة والسبعين من عمرها ، فإنه راح ينهج نفس النهج الذى وطن نفسه عليه، فأدلى إلى خاصته وأصدقائه المقربين بما يفيد عدم رضائه عن سياستها ، وتخبط سيرها فى تصريف أمور الدولة[٥٩]، حتى يضمن لنفسه فى بلاط الحاكم الجديد مكانا !!

استقر رأى أصدقاء ثيودورا والمقربين على اختيار ميخائيل (السادس) (١٠٥٦-١٠٥٧) ذلك الشيخ الفانى ليكون خليفة لها، فقد رأوا فيه أفضل من يحقق لهم مصالحهم، وكان بسللوس أحد حاضرى الاجتماع ، وشاهد بعينى رأسه وسمع بأذنيه كل ما دار»[٦٠]، ولم يذكر أنه أبدى اعتراضه أو موافقته وإنما آثر الصمت التام، ولكنه برز فجأة ليصبح على رأس خاصة الإمبراطور «الذى كان ينظر إليه كما لو كان إبنا متبنى، ويعتبره منذ زمن طويل أخلص ندمائه»[٦١]، إذ ما لبث الإمبراطور أن عقد مؤتمرا ضم مستشاريه لبحث أمر الثورة التى أشعلها إسحق كومننوس فى آسيا الصغرى مطالبا بالعرش، وراح كل يعرض آراءه، ولكن ميخائيل السادس لم يلتفت لأحد منهم، ثم قام بسللوس من بينهم ليسدى للإمبراطور النصح الذى يتلخص فى التصدى لأسقف القسطنطينية العنيد ميخائيل كريولاريوس Michael

---

٥٨- Chron . VI Theod. 13 .

٥٩- Ibid. 16 .

٦٠- Ibid. 19-21 .

٦١- Ibid . VII 9.

Cerularius حتى يتفادى نفوذه القوى ، وإرسال سفارة إلى خصمه للوقوف على قوته ومحاولة مد أجل المفاوضات حتى يمكن تحقيق الاقتراح الثالث الذى يتضمن إنشاء قوة عسكرية ضخمة [٦٢]. ولما كان الإمبراطور لايجرؤ على المساس بسلطان بطريرك القسطنطينية، فقد رفض الشق الأول من الاقتراح وارتضى الشقين الآخرين ، ويعلق بسللوس على ذلك بقوله : «إن هذا كان كفيلا بالإطاحة بعرشه»[٦٣].

وحدث ما لم يكن يتوقعه بسللوس ، فقد وقع اختيار ميخائيل السادس عليه ليكون على رأس وفد المفاوضات إلى اسحق كومننوس ، لما يعرفه عنه من «فصاحة وقدرة على المناقشة يمكنه بها استمالة ذلك الثائر وإعلان ولائه للإمبراطور». وهنا أدرك بسللوس أنه أوقع نفسه فى مأزق كان لابد أن يتخلص منه، فهو قد وطن نفسه على أن يمسك العصا من وسطها ، فإذا ما نجح ميخائيل فى القضاء على خصمه ، فلابد أن الإمبراطور سوف يحفظ له فضل نصحه ، وإذا ما تغلب إسحق ، فقد حفظ لنفسه خط الرجعة عندما أدلى برأيه فى اختيار أسلوب المفاوضات بدلا من الحرب بين ميخائيل واسحق والتى أشار بها بعض خاصة ميخائيل . ويبدو لنا أن بسللوس لم يكن صادقا فى نصحه للإمبراطور مع كل هذا ، فقد أصدر عليه حكمه منذ اللحظة التى تم اختياره فيها للعرش بقوله : «إن أقل ما يمكن أن يقال عنه أنه لايصلح للحكم بقدر ما هو صالح لأن يكون محكوما !»[٦٤]. ثم هو يقدر تماما أن النصر لن يكون من نصيب ميخائيل ، ويعلن ذلك فى وجهه ودون مواربة : «ما الذى يمكن أن تجديه الفصاحة والقدرة على المناقشة مع شخص يشعر أنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من أن يضحى حاكما للإمبراطورية ؟! وكيف يقبل إنسان أمسى النصر فى جيبه أن يكون مرءوسا للإمبراطور؟!»[٦٥].

وها هى الأحداث تعيد نفسها من جديد ، فقد أخذ ميخائيل السادس يخاطب بسللوس قائلا: «كان الغرض الأساسى من دراساتك المستمرة أن تحقق النجاح فى البيان والبلاغة المقنعة

٦٢- Chron. VII 10 .

٦٣- Ibid. 11 .

٦٤- Ibid. VI Theod. 20 .

٦٥- Ibid. VII 15 , 17 .

غير أنه فى حالة صديق لك يعانى سوء الحظ، أو بالأحرى سيدك [٦٦]، فإنك لاتبدى حراكا فى مساعدتنا ، وعندما أصبحت امبراطورا مضت علاقتى معك دون تغيير ، ورحت أتحدث إليك كما تعودت دائما، ولقد رحبت بك وتمثلتك أمامى دائما ، وكنت أظن أن تبادلنى نفس الشعور، غير أنك لم تقدم لى أى تقدير كرجل نبيل يعفو عن خصمه فى حالة هزيمته . ولكن على أية حال فلسوف أسير طريقى الذى رسمته لى المقادير، ولكن تأكد أن اليوم الذى تلام فيه لاريب آت ، سوف تلقى على تنكرك لسيدك وصديقك ما تستأهل من جزاء»[٦٧].

لم يجد بسللوس مفرا من الامتثال لأمر خلقه بنفسه لنفسه ، ولم تجد محاولاته المتكررة للتخلص من هذا «الشرف» الذى خلعه عليه الإمبراطور ، ولما لم يجد بدا من الانصياع لرغائب ميخائيل ، عمل على أن يحتفظ لنفسه بالأمان عند كل من المعسكرين، فبين لميخائيل أنه لم يتردد فى قبول «شرف» هذه المهمة إلا خشية الحقد الذى سوف يعتمل فى صدور الكثيرين ، والغيرة التى ستتملك عليهم نفوسهم ، وأعلن استعداده للقيام بالمهمة الملقاة على عاتقه إذا ما صحبه أحد أعضاء السناتو ، وحتى يسد عليه الإمبراطور كل منافذ التملص ترك له حرية الاختيار ، فاصطحب معه ثيودور ألوبس Theodorus Alopus وصديقه الحميم قسطنطين ليخودس[٦٨] Constantinus Lichudes

وقد لعب بسللوس فى هذه الأحداث دورا خطيرا لا نبالغ إذا قلنا أنه بلغ حد التآمر ضد الجالس على العرش ؛ فقد اتفق مع زميله على أن يقترحوا على إسحق كومننوس أن يضع على رأسه التاج ويستخدم الأشعرة الإمبراطورية ، على أن يدين بالولاء لميخائيل السادس. ويصور بسللوس مدى فرحة إسحق بهذا الاقتراح!! ومدى إعجابه بشخصيته لأنه هو الذى تحدث نيابة عن زميليه باعتباره «فيلسوفا وحكيما» وكيف أن إسحق شيعهم بالاحترام والتقدير ، وخصه دونهم بأسمى آيات التكريم[٦٩]. فلما حمل الوفد لميخائيل هذه الأنباء حمد لهم صنيعهم وإن

٦٦- يعترض بسللوس على استخدام كلمة «سيدك» ويقول : «ألا فليغفر الله لى استخدام هذه الكلمة».
Chron. VII 16

٦٧- Chron . VII 16 .

٦٨- Ibid. 17-19 وراجع حاشية ٥٦ .

٦٩- Ibid. 19-26 , 13-32 .

كان قد أمرهم بالعودة إلى إسحق كى يطلبوا إليه أن لايعلن هذا الاتفاق مخافة إثارة غضب السناتو وهياج الشعب(٧٠) . وبينما هم فى معسكر إسحق فى نيقوميديا للمرة الثانية إذ جاءتهم الأنباء تترى بأن الثورة قد اندلعت فى العاصمة ، وأن السناتو قد أجبر ميخائيل السادس على الاعتزال واضطره أن يقضى بقية عمره راهبا ، وأنه (السناتو) قد أعلن اختيار اسحق كومننوس خليفة له على العرش وأرسل فى استدعائه ، وأن المدينة قد أخذت زخرفها وازينت انتظارا لمقدم العاهل الجديد(٧١).

غير أنه لايمكن قبول هذه الرواية على علاتها هكذا ودون مناقشة ؛ إذ كيف يمكن لبسللوس أن يقترح على إسحق أن يظل مواطنا عاديا تابعا للإمبراطور مع الاحتفاظ بالتاج والأشعرة الإمبراطورية، فى الوقت الذى يصرح فيه أن «فصاحته لن تجدى نفعا مع شخص يعتبر نفسه قاب قوسين أو أدنى من العرش وأن النصر بات فى جانبه ؟! وكيف نقبل هذه السذاجة التى يفترضها بسللوس فى قارئه بقوله هذا عن وجود امبراطورين على العرش ، يحمل كل منهما التاج على رأسه والعباءة الأرجوانية على كتفيه، دون أن يكون أحدهما قاصرا حتى يغدو الآخر شريكا ، كما ساد الحال أيام الأسرة المقدونية ؟ ومن الذى يمكن أن يصدق أن ميخائيل السادس قد وافق على ذلك ، أو أن اسحق كومننوس رضى بأن يكون إمبراطورا فى الظل؟! بل كيف يمكن أن يسبغ إسحق على الوفد نعمه ظاهرة ، وقد جاءوا يجردونه من منصب كان يعتبره حقا له وأنه قد أصبح فى قبضة يده ؟! والذى نميل إليه أن بسللوس لابد وأن يكون قد دبر مع زميليه مؤامرة حيكت خيوطها بدقة للإطاحة بميخائيل وإعلان اسحق امبراطورا. ودليلنا على ذلك نستقيه مما كتبه قلم بسللوس .

فهو يخلع على إسحق لقب «الإمبراطور» ويناديه بذلك فى زيارتيه الأولى والثانية لمعسكره وقبل أن يصبح إسحق امبراطورا شرعيا ، وهو قد اتفق مع زميليه - حسب روايته- أن يعلنوا مبايعتهم له على أن ينقلوا لميخائيل صورة التراضى أو «الحل الوسط» عند عودتهم حتى يمكنهم استكمال خيوط المؤامرة. فلما ألمح لهم ميخائيل بخوفه من السناتو والجماهير ، كان ذلك إشارة البدء لهم لإنهاء مهمتهم ، خاصة وأن أحد ثلاثتهم وهو ثيودور ألويس عضو

٧٠- Chron. 35 .

٧١- Ibid . 33-37 .

السناتو ، وحتى يبعدوا أنفسهم عن مسرح الأحداث فقد ارتضوا العودة «بأسرع ما يمكن» إلى اسحق ، وتم عزل ميخائيل أثناء غيابهم فى معسكر إسحق وبعد رحيلهم عن القسطنطينية بيوم واحد !! ولقد كتب بسللوس يقول عندما أتتهم أنباء الثورة وهم فى كنف إسحق ، إن من قدم إليهم يحمل هذا النبأ أكد أنه ليس مجرد شائعات ، وأنه من الواضح أن بعض العناصر ، وذكر أسماءهم- وهنا يقول بسللوس ما نصه : «وهؤلاء نحن نعرفهم جيدا »- قد اتفقوا مع السناتو على تنفيذ مخططهم (٧٢). ثم إن السناتو والمتمردين قد وقع اختيارهم على إسحق كومننوس بالذات دون غيره، ولايبرر ذلك تمرده على الإمبراطور ، وكان يمكن إعلان أحد رجال السناتو ، أو أحد قادة الجيش ، أو أحد زعماء الثائرين إمبراطورا ، ولكن اختيار إسحق بالذات هو فى حد ذاته دليل واضح يؤكد ما تذهب إليه. يضاف إلى هذا أن بسللوس ورفيقيه ظلوا فى «رعاية» إسحق حتى دخل بهم العاصمة. وفوق هذا وذاك فإن إسحق قد جزاهم على حسن صنيعهم معه خير الجزاء ؛ فما ان اعتلى العرش حتى راح يخاطب بسللوس بقوله : «إنى أحمل لحديثكم كل الإعجاب والتقدير ، وإنى لأعتبرك حقا أقرب أصدقائى إلى قلبى، وحتى أثبت لك صدق قولى، فلسوف تحمل من الآن لقب «رئيس مجلس السناتو» (٧٣). أما صديقه قسطنطين ليخودس فقد أنعم عليه إسحق من بعد ببطريركية القسطنطينية(٧٤). ولعل بسللوس كان يعرف أن ما أقدم عليه لابد وأن يعرفه الجميع يوما ما، لهذا خط قلمه ما جرى على لسانه وهو يحاور ميخائيل السادس فى البدء عندما طلب إليه رئاسة سفارته: «... لاشك أن الحاقدين وهم كثيرون سوف يتهموننى بالخيانة إذا ما فشلت مهمتى ، وهى لامحالة فاشلة!!» (٧٥)، والحكم بفشل المحاولة قبل أن تبدأ إرهاص بما كان يعتمل فى نفس صاحبنا .

هكذا ارتقى بسللوس مرتبة سامية، وحظى بلقب رئيس شرف مجلس السناتو ، وأصبح من أشد المستشارين قربا للإمبراطور والإمبراطورة التى كانت تلجأ إليه دائما فى أدق المسائل وأكثرها تعقيدا ، خاصة بعد أن دهم المرض زوجها ، ولم تخف احترامها له وتقديرها إياه

٧٢- Chron . 36 .

٧٣- Ibid. 42 .

٧٤- Ibid. VI 181 ; VII 66 .

٧٥- Ibid . 17 .

باعتباره «فيلسوفا وحكيما»(٧٦) حتى عن أقرب مستشاريها، ولم يجد بسللوس صعوبة في مصادقة رئيس مجلس السناتو الذى وقع عليه اختيار إسحق ليكون خليفة له(٧٧)، وهو الذى اعتلى العرش باسم قسطنطين العاشر (١٠٥٩-١٠٦٧) .

ولم يتخل بسللوس عن دوره القيادى في رفع قسطنطين إلى العرش : فإسحق كومننوس حسب رواية بسللوس ، رفض ترشيح أخيه يوحنا الذى يعده مؤرخنا «أعظم نبيل لقيه طيلة عمره»(٧٨)، أو ابنته أو زوجه كاترين Catherine البلغارية (٧٩). فلما اختار قسطنطين خلفا له ، لم يجرؤ أحد من المستشارين- والرواية هنا لبسللوس - أو كبار القادة العسكريين أو رجال السناتو على تأييد هذا الاقتراح أو شجبه ، وأحجموا عن اتخاذ الإجراءات اللازمة لوضع هذا الإجراء موضع التنفيذ . وعلى الفور أقدم بسللوس على التحدث بصراحة مباركا وجهة النظر الإمبراطورية مثنيا عليها مبينا فضائل قسطنطين ، وتقدم إليه آخذا بيده «وأجلسه على العرش واضعا على كتفه العباءة الأرجوانية و«الصندل» الرومانى في قدميه ، عند ذلك أبدى السناتو بالإجماع رضاه وموافقته. ساعتها لم يتمالك قسطنطين نفسه ، فنهض من فوق العرش ، والدموع تملأ عينيه معانقا بسللوس وعهد إليه لثقته التى لا حد لها فيه بالقاء خطبة العرش(٨٠).

٧٦- Chron . 81 .

٧٧- Ibid, 89 ويعلق فازيليف على اعتزال إسحق كومننوس العرش بعد فترة قصيرة من الحكم (١٠٥٧-١٠٥٩) بقوله إنه ليس هناك أسباب واضحة لذلك اللهم إلا القول بأنه كان ضحية مؤامرة واسعة دبرها كبار ملاك الأراضى ، حيث عرف عن إسحق اهتمامه بزيادة دخل الخزانة العامة بأية وسيلة، ولهذا وضع يده بصورة شرعية على ممتلكات كبار الملاك من العلمانيين. بالإضافة إلى مساحات واسعة مما تسيطر عليه الكنيسة ، مما أثار سخط العلمانيين والإكليروس على السواء. ومن المحتمل أن يكون لدى بسللوس من الأسباب ما دفعه إلى الاشتراك في هذه المؤامرة Vasiliev, Byzantine empire, I , p. 352 وقد يتفق هذا القول إلى حد كبير مع ما يذكره بسللوس من أن اسحق أقدم على إلغاء كثير من المشروعات التى كان بدأها الأسلاف وراح ينفذ مشروعاته بشكل استفزازى أثار ضده كراهية الجموع وعددا ليس بالقليل من العسكريين الذين ساهم تجريدهم من أملاكهم وثرواتهم . قارن Chron . VII 60-65.

٧٨- Chron. VII 71 .

٧٩- Ibid . 89 .

٨٠- Ibid. VII Const. X 11-12 .

من أجل هذا أضحى بسللوس لصيقا لقسطنطين، وكيف لا وقد كتب أن «هذا الرجل استطاع أن ينال ثنائي وهو بعد مواطن عادى ، وأن يحظى بإعجابى وهو امبراطورا . إنه أحد القلائل الذين لم أزدريهم مطلقا . لقد حصلت فى كنفه بعد اعتلائه العرش على أعلى المراتب، وكنت دائما أتجاذب وإياه أطراف الحديث ... وأصبحنا على هذا النحو قريبين إلى بعضنا البعض إلى حد تبادل الزيارات . إن أحدا من الأباطرة الذين عاصرتهم لم يحفظ لى المكانة المرموقة التى أنا بها جدير كما أهوى، مثلما فعل قسطنطين »[٨١]. «لقد وجد الإمبراطور فى صحبتى سعادة غامرة ، ولم يكن لأحد غيرى عليه مثل هذا التأثير المريح، وإذا ما حالت الظروف ذات يوم أن ألتقى به أكثر من مرة ، أبدى من ذلك تبرمه وشكا !! لقد كان يجلبنى أكثر من أى إنسان آخر !! »[٨٢].

وحق لبسللوس أن يقول ذلك صادقا ، فقسطنطين العاشر كان رجلا تقدم به العمر، واهنا ، خائر العزيمة ، جاءه العرش يسعى من حيث لايحتسب ، ولم يكن مؤهلا مطلقا لشغل هذا الكرسى بعد امبراطور قوى الشخصية مثل اسحق كومننوس ، وكان مؤرخنا هو الذى ألبس ذلك الشيخ الهرم «نعليه» ووضع «الأرجوان» على كتفيه ، ومن خلال هذه الشخصية الواهنة للإمبراطور مارس بسللوس سلطة واسعة وشارك دون مواربة فى تسيير دفة الأمور فى الإمبراطورية، وكان ما سجله بقلمه على نفسه عند وفاة قسطنطين العاشر ، واختيار رومانوس ديوجينس خلفا له خير دليل على شخصية صاحبنا هذا .

ويكاد بسللوس «يجزم» بأنه هناك إمبراطور عاش حياة مجيدة أكثر منه، ولامات أشد سرورا منه، فقد انقضت حياته فى هدوء تام، وخلف وراءه على العرش إبنا كان صورة حية لأبيه فى صفاته وأخلاقه[٨٣]. وعبارة بسللوس القائلة «بانقضاء حياته فى هدوء تام» تعبر عن الحقيقة التى لم يقصدها هو بالطبع ؛ فقد جاء اعتلاء قسطنطين العاشر العرش انتصارا للإدارة المدنية البيروقراطية فى العاصمة ، ضد الأرستقراطية العسكرية والولايات والتى كانت ممثلة من قبل فى إسحق كومننوس ، من أجل هذا صرف الرجل همه فى محاولة إعادة تنظيم

٨١- Chron . VII Const . X 11-12 .

٨٢- Ibid . 25 .

٨٣- Ibid . 28 .

الشئون المدنية والتشريعية، واتساقا مع قدرته أهمل الجيش إهمالا تاما، وتلقت الإمبراطورية نتيجة لذلك اللطمات من جانب السلاجقة فى الشرق ، والغز والبشناق من الشمال. وقد صدق بسللوس فيما ذكره عن ذرية قسطنطين باعتبارهم تجسيدا حيا لأبيهم ؛ فقد كان ميخائيل السابع دوكاس حقا مثلا سيئا للحاكم البيزنطى، وتلميذا «غبيا»(٨٤) فى الوقت ذاته لأستاذه الذى كان بسللوس نفسه !!

فلما توفى قسطنطين الموت وخلفته لفترة قصيرة جدا زوجه يودوسيا Eudocia كان لديها مقربا أثيرا كما كان بالنسبة للإمبراطور الراحل. غير أن العسكريين أرغموها على الزواج من أحد رجالهم وهو رومانوس الرابع ديوجينس Romanus IV Diogenes وإعلانه إمبراطورا. وقد وقع هذا على رأس بسللوس كالصاعقة عندما أنبأته الإمبراطورة به وهى تحاوره للوقوف على رأيه، وليس أصدق على التعبير عن حال بسللوس آنئذ إلا ماسجله قلمه : «لقد ملأت هذه الكلمات نفسى بالرعب والهلع ، ولم أكن فى حال تسمح لى بتصور ما سوف يحل بى!!»(٨٥). وأخذ يحاول المراوغة فى إبداء رأيه طالبا التأجيل إلى اليوم التالى حتى يتمكن من التوصل إلى رأى يرتاح إليه فؤاده ، غير أن يودوسيا لم تدع له إلى ذلك سبيلا . فلما لم يجد بدا من الإدلاء برأيه أمام حصار الإمبراطورة له راح يسفه لها هذا الرأى ، ويزين لها المناداة بابنها ميخائيل إمبراطورا حتى تقطع السبيل أمام هؤلاء المعارضين من الحزب العسكرى ، وقد شكرت له يودوسيا بخبث ولماحية شعوره تجاه ولدها الذى فوجئ به بسللوس من بعد «يعانق رومانوس الرابع ديوجينس ويغدو أخلص أصدقائه»(٨٦).

وأمام هذا السلوك من جانب الإمبراطورة يودوسيا وميخائيل ، تلميذه ، وقبلهما العسكريون ، كان على بسللوس أن يعود سيرته الأولى فى ممارسة سياسة الدهاء والمراوغة التى يجيد فنونها بصورة تبعث على الدهشة ، وأن يتراجع عن موقفه بسرعة وذكاء حتى لايكتسب عداء رومانوس ، الذى يبدو أنه لم يغفر هذه السقطة لبسللوس ، ولولا قربه من يودوسيا واعتزاز هذه به ، لقضى عليه. أما ما يرويه مؤرخنا عن أياديه البيضاء على

٨٤- هسى ، العالم البيزنطى ص١٧١ .

٨٥- Chron . VII Eud. 7 .

٨٦- Id .

الإمبراطور قبل اعتلائه العرش ، ومحاولته التقرب إليه بكل مظاهر «المذلة والتدنى» ، فيمكن اعتباره شيئا أراد به بسللوس أن يحفظ ماء وجهه ، خاصة وأن الإمبراطور قد غل يده عن التدخل فى شئون الدولة ، وهذا واضح فى قوله: «إن الإمبراطور كان يرغب فى إدارة دفة الأمور فى الإمبراطورية منفردا ودون تدخل من جانب أى إنسان »[٨٧].وهذا دون شك يثير حفيظة مؤرخنا وغيظه بعد ما كان له من نفوذ واسع على عهد قسطنطين العاشر، ويبدو أن وجود بسللوس فى القصر كان مرتبطا فقط ببقائه أستاذا لميخائيل دوكاس .

ولاشك أن مجرى الأمور على هذا النحو كان له أثره البالغ على نفس مؤرخنا وبالتالى كتاباته ، ومن ثم لم يتعرض أى إمبراطور من هذا الثبت الطويل الذين عايشهم بسللوس لسخريته اللاذعة أو نقده القدحى أو تهكمه البالغ ، كما عانى رومانوس الرابع ، رغم أنه كان يعد من أقدر أباطرة هذه الفترة باستثناء إسحق كومننوس ، ولايعدو الجزء الذى أوقفه بسللوس على رومانوس الرابع فى تاريخه هذا ، كونه قصيدة هجاء نظمها فى التعريض بهذا الإمبراطور، وإن كان قد بدا له مستحيلا فى الوقت ذاته إنكار شجاعته العسكرية فى حروبه ضد الأتراك السلاجقة [٨٨].

وطوال أربع سنوات (١٠٦٧-١٠٧١) حكمها رومانوس الرابع ديوجينس لم يأل بسللوس جهدا فى سبيل الخلاص منه أو إضمار الشر له ، حتى لاحت له الفرصة فى الهزيمة المنكرة التى منهى بها الإمبراطور سنة ١٠٧١ . وكان رومانوس قد عهد إلى بسللوس «بمهمة صغيرة» فى الحملة التى قادها ضد الأتراك سنة ١٠٦٩، ولم يحدثنا مؤرخنا بشئ عن طبيعة هذه المهمة، وإن كان يذكر أنه قبلها كارها أمام إصرار الإمبراطور[٨٩]. حتى إذا كانت سنة ١٠٧١ ولقى الإمبراطور هذه الهزيمة الساحقة عند منزكرت فى آسيا الصغرى على يد الأتراك السلاجقة بزعامة سلطانهم ألب أرسلان ، ذهب عن بسللوس الروع وجاءته البشرى بأن رومانوس قد وقع أسيرا فى أيديهم، فراح يجادل مع المستشارين الذين اجتمعوا ليروا فى هذه الأزمة رأيهم ، وانقسم الحاضرون، بعضهم يرى أن ينفرد ميخائيل بإدارة دفة الحكم ، وآخرون يفضلون أن تتركز السلطة فى يد يودوسيا دون ولدها . أما بسللوس فقد آثر كعادته دائما الطريق الوسط

٨٧- Chron . Rom . IV 2 .

٨٨- Ibid. 2-12 .

٨٩- Ibid . 6 .

بين هؤلاء وأولئك ، فاقترح أن يشترك ميخائيل وأمه فى الحكم ، ومن الطريف أنه يرمى الفريقين بأن كلا منهما كان يسعى من وراء اقتراحه هذا إلى تحقيق مصلحة معينة(٩٠) !!

ولكن الأحداث تتابعت من بعد سراعا بحيث تقطعت من جرائها أنفاس بسللوس ، فلقد تلقى القصر أنباء تفيد أن السلاجقة أطلقوا سراح رومانوس ، وأنه الآن فى نفر ليس بالقليل من أنصاره فى طريقهم إلى القسطنطينية . فارتجت الأمور على الجميع عند سماعهم بهذا النبأ ، وأصيب القصر بحالة من الهلع ، وشخص بسللوس إلى هناك وسط هذه الفوضى ، وأحيط به من الجميع يسأله الرأى ونصحه ، «واشترك محبوبى الإمبراطور (ميخائيل) مع الآخرين فى الإلحاح علىّ للإدلاء برأيى ، فأعلنت بلا تردد أن زمن رومانوس قد ولى ، وأنه لم تعد هناك فرصة أو ضرورة لاستقباله ، بل يجب أن ينظر إليه من الآن باعتباره طريدا ، ولابد من أن ترسل التعليمات إلى الولايات تخبرها بانقضاء عهده ، وقد استصوب المعتدلون ذلك ، بينما تبنى المتطرفون رأيا مغايرا»(٩١).

وليس من الصعب تمثل العوامل التى حدت ببسللوس إلى اتخاذ هذا القرار ، فهو يعلم يقينا أن عودة رومانوس للعرش تعنى القضاء على آماله وطموحاته إن لم يكن حياته ، ومن ثم لم يتردد فى إعلان رأيه صراحة ، بل إنه يذكر بعد اعلان رأيه على هذا النحو ، أن ميخائيل انفرد بالسلطة دون أمه معتمدا فى ذلك على تأييد ابنى عمه أندرونيكوس وقسطنطين دوكاس والحرس الإمبراطورى الخاص الذى كان يعرف آنذاك بـ «الورنك»(٩٢) Varangians وجماعة

٩٠- Chron . 15 .

٩١- Ibid. 18 .

٩٢- اعتمد الأباطرة البيزنطيون خاصة فى القرن الحادى عشر على العناصر الأجنبية الأوروبية فى تكوين الجيش البيزنطى وبصفة خاصة بعد أن فقدت بيزنطة آسيا الصغرى على يد الأتراك السلاجقة ، وكانت هذه العناصر تتكون فى مجموعها من الاسكندنافيين ثم الأنجلوسكسون من بعد ، وقد جعل منهم الأباطرة البيزنطيون فى القرن الثانى عشر حرسا خاصا لهم وشاعت تسميتهم باسم الورنك Varangians . للمزيد من التفاصيل. راجع A Short history of U . S . S. R. I, pp. 34-38 وأيضا Brooke, Europe in the Central Middle Ages, pp. 45-46 . وكذلك Thompson & Johnson, An introduction to Medieval Europe, pp . 172-182 و Runciman, A history of the Crusades, III p. 118

وانظر هسى ، العالم البيزنطى ، ص١٥٢ حاشية ١ .

المتحمسين له (٩٣)، ولايشير إلى قيامه بأى دور فى هذه الإجراءات ، بل على العكس من ذلك تماما يذكر أنه والإمبراطورة والمقربين إليها سارعوا بالاختفاء فى الدروب السرية للقصر ، حالة انفراد ميخائيل بالسلطة ، «بينما تملكه هو الخوف والجزع على حياته ولم يدر أى مصير ينتظره، إلى أن أنقذه من هذا الضياع تذكر(!!) الإمبراطور له عرفانا بالجميل ؛ ذلك أن ميخائيل دوكاس بث رسله وأعوانه للبحث عنه وإحضاره إليه على الفور ، فلما أدركه حرس الإمبراطور حملوه على أعناقهم وجاءوا به إلى سيدهم ، وقدموه كما لو كان هدية قيمة ... (لقد كنت أول إنسان تذكره الإمبراطور) !!»(٩٤).

وبسللوس يبدو هنا فى حديثه غير مقنع على الإطلاق ، بل يظهر واضحا الإضطراب وعدم اتساق السياق . إذ لماذا يخشى الإمبراطور على حياته وهو أقرب الناس إليه ، بل وأول من «تذكرهم» الإمبراطور وبعث فى طلبهم بعد انفراده بالعرش مباشرة ؟! وأى «جميل» يعرفه له ميخائيل إلا أن يكون بسللوس نفسه هو صاحب فكرة انفراد ميخائيل بالسلطة ، وعلى رأس المتحمسين لها ، محاجا بأن الأمور تستدعى الآن وجود رجل فرد على العرش فى مواجهة الخطر الذى يتهددهم جميعا ممثلا فى قرب عودة رومانوس ديوجينس الذى يعد من الناحية القانونية الإمبراطور الشرعى وزوجا ليودوسيا ؟! وكيف ينسى ميخائيل موقف بسللوس الجرئ عندما عارض عودة رومانوس وطالب باعتباره خارجا على القانون؟! بل كيف يتفق هذا مع ما يذكره بقلمه بعد ما قدمه الجنود إلى الإمبراطور «كهدية ثمينة» ؟! فقد كتب ما نصه : «ما إن وقعت علىّ عين الإمبراطور حتى تنفس الصعداء ، وعهد إلىّ على الفور باتخاذ كافة القرارات التى أرى أنها ضرورية »(٩٥). ومن العجيب أنه كان فى مقدمة هذه القرارات إبعاد يودوسيا عن القصر، وقد أصدر بسللوس ، الذى أصبح الوزير الأول فى الإمبراطورية، أوامره بترحيلها إلى الدير الذى كانت قد أقامته باسم العذراء لتقضى فيه بقية عمرها ، وتم تنفيذ ذلك على الفور رغم رفض ميخائيل التصديق على القرار(٩٦).

٩٣- Chron. VII Rom . IV 19-20 .

٩٤- Id .

٩٥- Ibid. 20 .

٩٦- Ibid . 21 .

وهل يمكن أن نصدق بسللوس فى هذا الذى يذهب إليه من «الهلع والجزع» وهو الذى كتب يقول فى معرض حديثه عن علاقة ميخائيل السابع به : «إن أحدا من إخوته لم يحظ بثقته كما حظيت ، ولا النبلاء نالوها ولاحتى رجال الدين . لقد تدفقت علىّ الهبات والعطايا وتنزلت علىّ النعم واحدة فى إثر الأخرى ، وزادت ثروتى التى كنت بالفعل أمتلكها. حقيقة لقد فعل الكثيرون قبله ذلك تجاهى ، لكن ما يميزه عنهم هو عمق إحساسه نحوى، لقد بدا سعيدا فى صحبتى مؤمنا بشموخ هامتى فى العلم . لقد كنت أضرع إلى الله فى صلاتى أن لاتعرف الغيرة أو الحقد إلى هذه المودة سبيلا»[٩٧].

والواضح تمامًا أن بسللوس بحديثه هذا يظهر نفسه بعيدا عن الأحداث الخاصة بتقلبات السياسة ونزوات الحكم ، وهو هنا يعيد نفس الدور الذى رسمه لنفسه من قبل عند الثورة على الإمبراطور ميخائيل السادس ، وهو يقر هذه الحقيقة عندما يذكر أنه فى مثل هذه الأمور «نرى التاريخ يعيد نفسه، فالأحداث تكاد تكون واحدة والأقوال نفسها لاتختلف»[٩٨].

على أن أخطر القرارات التى كان على بسللوس أن يتخذها الآن هو التخلص من رومانوس ديوجينس ، فهو ما زال على قيد الحياة ، ووجوده يشكل خطرا بالغا على بسللوس بصفة خاصة ، وقد ألمح إليه عندما ذكر أنه لايستبعد احتمال تنازل ميخائيل عن العرش «لزوج أمه»، لقد كان هذا دون ريب هو الذى دفعه إلى اكراه يودوسيا على ارتداء زى الرهبنة والابتعاد عن الحياة السياسية تماما ، بل وعن دنيا الناس ، حتى لايتخذ رومانوس الرابع من وجودها ذريعة للمطالبة بحقه الشرعى فى العرش ، وهذا هو ما جعله يقدم على الأمر بذلك ووضعه موضع التنفيذ على الفور رغم أنف ابنها الإمبراطور ميخائيل السابع، وهذا يوضح بجلاء أيضا مدى السلطة التى تمتع بها بسللوس على عهد هذا الإمبراطور الغرّ والتى فاقت ما كان له على عهد أبيه قسطنطين العاشر . ولاشك أن بسللوس كان أكثر الناس معرفة بجوانب شخصية تلميذه وسمات الضعف الكامنة فيه، ومن ثم فقد جردت الحملات المتتالية لقتال

٩٧- Chron. VII Michael VII 8 .

٩٨- يشير هنا إلى ما كان من موقف ميخائيل الخامس إزاء أمه بالتبنى الإمبراطورة زوى وما انتهى إليه أمر الإمبراطورة الأم يودوسيا Chron . VII Rom . IV 22

رومانوس فى آسيا الصغرى حتى انتهى الأمر بالقبض عليه وسمل عينيه[٩٩]. ولاشك أن سعادة بسللوس عندئذ كانت غامرة ، فحتى منذ لقى رومانوس أول هزيمة له أمام قوات ميخائيل وقبل أن يقع فى قبضتهم كتب يقول : «للمرة الأولى نشعر الآن بالثقة فى المستقبل !!»[١٠٠].

هكذا حقق بسللوس طموحه كله والآمال ، فهو أستاذ الإمبراطور الجالس على العرش ، ووزيره الأول ، بيده مقاليد الأمور كلها ، ولهذا لم يكن غريبا أن يكون الجزء الأخير من كتابه مظاهرة امتداح لميخائيل السابع الذى «بز كل من سبقوه على العرش فكرا ، بل فاق مؤرخه الذى يكتب عنه الآن. وباختصار ، لقد كان ميخائيل معجزة هذا الجيل !!»[١٠١]. لكن الذى يعرفه التاريخ عن ميخائيل السابع دوكاس غير هذا تماما ، وليس أدل على ذلك مما يرويه أحد كتاب «التاريخ الزمنى» آنذاك وهو يوحنا سكيلتزس John Scylitzes بقوله : «كان الإمبراطور يقضى وقته ويبدد طاقته فى أمور تافهة ، فقاد امبراطورية بالتالى إلى الدمار ، ولقد أضله مستشاره وناصحه بسللوس . وبينما كان هذا يركز السلطة كلها فى يديه ، وجد ميخائيل السابع لديه من الوقت ما يكفى لممارسة الألعاب الصبيانية التافهة . لقد جعله بسللوس رجلا لايصلح مطلقا لهذا المنصب الذى يشغله »[١٠٢]. بل إن بسللوس نفسه لم يستطع أن ينكر حقيقة هذه الأوضاع المتردية فذكر أن «الأمور فى الشرق والغرب على السواء قد وصلت إلى الدرك الأسفل من الحضيض »[١٠٣]. وكان لابد إزاء هذا الضعف العام الذى ألم بالحكومة

٩٩- يتحدث بسللوس بالتفصيل عن الحملات التى جردت ضد رومانوس الرابع والمعارك التى دارت ، وما كان من أمر القبض عليه وسمل عينيه ودخوله الدير ليقضى فى الظلام بقية حياته التى لم تستمر بعد ذلك طويلا ، وينفى عن ميخائيل السابع معرفته بما وقع لرومانوس من فقء عينيه ، ويؤكد أن ذلك تم دون علمه . Chron. VII Rom . IV 23-34 ولاعجب فى ذلك ، فإذا كان بسللوس قد أدخل يودوسيا الدير رغم أنف ابنها ، فليس من الصعب إذن سمل عينى رومانوس الرابع دون علم الإمبراطور، وكان هذا تتمة طبيعية لدخول يودوسيا الدير ، وحتى لايصبح له بمقتضى عملية السمل هذه المطالبة بأى حق فى العرش !!

١٠٠- Chron. VII Rom . VI 24 .

١٠١- Ibid . Michael VII 4 .

١٠٢- Fourteen Byzantine rulers, pp. 369-370 , n . 1 .

١٠٣- Chron. VII Michael VII 7 .

الإمبراطورية والإمبراطورية أن تنشب الثورة ضد الجالس على العرش سنة ١٠٧٨ ، وقد تزعمها نيقفور بوتانياتس Nicephorus Botantiates الذى نودى به امبراطورا فى آسيا الصغرى [١٠٤]، وأكره ميخائيل السابع على الاعتزال والانسحاب إلى أحد الأديرة ليبقى فيه ما بقى له من عمر .

عند هذا الحد يتوقف التاريخ ببسللوس ولانسمع له من بعد ذكرا ، ويبدو أن الإمبراطور نيقفور الثالث (١٠٧٨-١٠٨١) ، والذى يمثل عهده آخر سنى فترة الانحلال هذه، قد ألقى به خارج دائرة الضوء الذى ظل يمثل بؤرته طيلة ما يقرب من أربعين عاما. وكانت الأقدار رحيمة به فقد رحل عن الدنيا فى العام نفسه (١٠٧٨) عن ستين سنة ، فلم يشهد إلا لبضع شهور تقلب الدنيا به وانصراف الدهر عنه .

ويذهب سوتر E . R . A . Sewter فى تقديمه لمؤلف بسللوس «التاريخ الزمنى» إلى أن ميخائيل السابع دوكاس «الذى تدرب بمهارة وعناية كى يصبح ملكا فيلسوفا ، قد أقدم على طرد أستاذه بسللوس من منصبه ووضع يوحنا الإيطالى John Italus بدلا منه »، ويقول فى موضع آخر « ... غير أنه فجأة وعلى نحو غامض فقد الكثير من مكانته على يد ميخائيل الذى تنكر له ولما أسداه إليه من معروف»[١٠٥]. وقد نتفق مع سوتر فى الشق الأول مما يذهب إليه وهو وضع يوحنا الإيطالى، وهو من أخلص تلاميذ بسللوس وأقدرهم ، مكانه فى منصب أستاذ الفلسفة بجامعة القسطنطينية ، وربما يعود ذلك إلى أن مؤرخنا كان قد أصبح شيخا قد تقدم به العمر، أو لأنه أراد أن يتخفف من الأعباء الملقاة على عاتقه بعد أن أصبح أستاذا لميخائيل دوكاس ووزيره الأول الذى يمسك بيديه دفة الأمور فى الدولة ، ويؤيد هذا ما أسلفناه من قول المؤرخ المعاصر يوحنا سكيلتزس .

أما ما يذهب إليه سوتر من القول بتنكر ميخائيل لأستاذه ، فهذا مالاتؤيده الأحداث ولاحتى كتابات بسللوس ؛ فمؤلفه «التاريخ الزمنى» ينتهى فجأة ودون توقع عند أحداث الثورة التى قام بها نيقفور بوتانياتس عام ١٠٧٨ ، وهى السنة التى مات فيها بسللوس ، والرسالة التى بعث بها ميخائيل إلى نيقفور فى محاولة منه لإثنائه عن بغيته فى الوثوب على

١٠٤- Chron . 18 -20 .

١٠٥- Fourteen Byzantine rulers, introd. pp. 14 , 17 .

العرش . بل إنه قبل ذلك مباشرة يتحدث عن قسطنطين ، الطفل الرضيع لميخائيل «الذى لم ير فى حياته على وجه الأرض جمالا فى مثل جماله ». ولو أن ميخائيل كان قد غدر بأستاذه بسللوس ، لما تردد هذا فى أن يصب عليه غضب قلمه كما فعل مع كثيرين غيره من الأباطرة الذين سبقوه ، ولو حتى بالتلميح الذكى والتورية الساخرة التى يتميز بها كتابه. وفوق هذا وذاك فإن الكتاب بهذه الصورة المبتورة يعد دليلا قاطعا على أن بسللوس لم يتمكن من إتمامه لأحداث فجائية تعرض لها، وهذا فى حد ذاته يشير إلى بقائه فى السلطة حتى الاعتزال القهرى لميخائيل السابع .

ولعلنا بعد هذه الرحلة الطويلة التى أمضيناها مع بسللوس السياسى، وما شهدناه من علاقاته المتعددة مع كل الأباطرة الذين عايشهم وعمل مستشارا لهم، وبدراسة متأنية وعميقة لكتابه «التاريخ الزمنى» ، ندرك تماما أن مؤرخنا كان يحاول فى كثير من الأحيان الاستخفاف بشخصياته السياسية التى يتحدث عنها، ويقدمها فى صورة تافهة ، مفسراً سلوك بعضهم بما كانت عليه أخلاقهم من «التهريج» أو «التبجح» أو «الشبق» أحيانا !! وهو هنا يختلف تماما عن خلفه «نيقتاس الخونياتى» ، الذى كان يشيد بأبطال كتابه «التاريخ»، ويضفى عليهم الكثير من الانفعالات والمشاعر الطيبة التى تتميز بها نفوسهم [١٠٦]. وقد يكون كلاهما محقًا فيما يذهب إليه ، فبينما تمثل أسرة كومنين، الكسيوس ويوحنا ومانويل ، جوهر كتاب نيقتاس، وكل من هؤلاء الثلاثة حاول جهده للخروج بالإمبراطورية من الأزمات التى حاقت بها فى الداخل والخارج ، ونجحوا فى ذلك إلى حد ليس بالقليل ، وامتدت عهودهم إلى قرن من الزمان، نجد أباطرة بسللوس الثلاثة عشر، بعد باسيل الثانى، يشغلون خمسين عاما، وهم يمثلون على هذا النحو فترة من الفوضى والانحلال السياسى، ومن ثم لانعجب إذا رأينا مؤرخنا، وهو السياسى الداهية ، يخبرنا أنهم أدمنوا الإطراء والمديح والنفاق ، ولايسمحون البتة بحرية الكلمة أو الصراحة ، ولم يكن هدفهم أبدا الصالح العام للدولة ، بل المصالح الشخصية وحدها ، وليس هناك إمبراطور صالح على طول الخط. وإذا كان السوء أو الشر كامن عند بعض منهم فى أخلاقياتهم ، نرى هذا الشر ينمو ويتضخم عند آخرين بفعل من حولهم من المستشارين الذين يتسمون أصلا بسوء الخلق .

١٠٦- Kazhdan & Epstein , Byzantine Culture, pp. 164 , 225 .

هذه هى حياة بسللوس السياسية على امتداد أربعين سنة إلا قليلا، أداها بالأسلوب الذى يتفق ومتاهات السياسية ودروبها فى الفترة التى عاش فيها ، «فلم يكن باستطاعته أن يقف بعيدا موقف المتفرج ، والعاصفة تتجمع أمام ناظريه لتذرى بكل شئ . كان عليه أن يحمى نفسه ، وفى بيزنطة فإن أحسن وسائل الدفاع الهجوم ، ولكن بأسلوب تمويهى. ولكى يتصدى للدعاية الماكرة التى أطلقها أعداؤه ، كان لزاما عليه أن يلجأ إلى استخدام كل دهاء الساسة الذين لايرعون إلا ولاذمة»[١٠٧]. وقد نجح بسللوس فى ذلك نجاحا بالغا، ولخص حياته السياسية هذه كلها فى عبارة بليغة .. «لست من ذلك الصنف من الرجال الذين إذا ما بدأ النزال ولوه دبرهم». ولاشك أنه كان يمتلك من الكفاءات المتعددة الجوانب الشئ الكثير، إلى جانب ذكائه ولماحيته وحسن استقرائه وتقديره للأمور .

وبموت بسللوس اختفى ذلك النموذج البيزنطى للسياسى المثقف ، وإذا كان قد انحط إلى الدرك الأسفل من بين قرنائه جميعا فى التزلف والمداهنة فيما يتعلق بفنون السياسة ودهاليزها ، فإنه قد بز هؤلاء القرناء جميعا وفاقهم فى عمق دراساته وسعة ثقافته ، لقد كان كما يقول «باركر»[١٠٨] رجلا متملقا ، مراوغا ، مداورا، أصدق ما يمكن أن يوصف به باعتباره رجل دولة ، أنه يعرف جيدا » من أين تؤكل الكتف » infelix opportunitate Vitae عاش كما أراد فى فترة من أشد الفترات اضطرابا وفوضى فى تاريخ بيزنطة . ولقد كان فى الوقت نفسه يمتلك عينا عاشقة للملاحظة ، فتح حدقتيها على عالم المعرفة الفسيح ، وقلما رشيقا نابها، سجل به فى براعة كل ما وقعت عليه عيناه فى صورة جعلته بحق أنموذج عصره.

لقد كان بسللوس عالما موسوعيا جمع فى عقله بوعى الكثير من فروع المعرفة الإنسانية، مثقفا واسع الثقافة ، قرأ لهوميروس وهزيود وهرودوت وثوكيديدس وديموستنيز وليزياس وثيوفراتس وبلوتارك ، وفلاسفة الرواقية ، وآباء المسيحية خاصة جريجورى النازيانزى وبروفيرى وإيا مبليخوس وبروكلوس ، وفلاسفة الإغريق خاصة أرسطو ، وفوق هؤلاء جميعا

١٠٧- أنظر . Fourteen Byzantine rulerus, introd . p. 16

١٠٨- Barker (E.) Social and political thought in Byzantium , p. 131 .

محبوبه أفلاطون (١٠٩). وأنجز الكثير إبان حياته ، وترك العديد من المؤلفات في اللاهوت والفلسفة والعلوم الطبيعية وفقه اللغة والتاريخ والقانون، ونظم عددا من القصائد ، وكتب مجموعة من الخطب ، وخلف قدرا من الرسائل (١١٠) بحيث يمكن تشبيهه إلى حد كبير بفوطيوس Photius بطريرك القسطنطينية الأشهر في القرن التاسع في سعة إطلاعه وتعدد اهتماماته الفكرية(١١١). واتسعت مداركه أيضا لدراسة الطب بل وممارسته في بعض الأحيان(١١٢) ، والفلك والتنجيم (١١٣) ، والبلاغة والهندسة والموسيقى (١١٤). وإلى جانب هذا

١٠٩- Chron. IV 36 ; 61 , 150 , 169 , 175 ; VI Theod. 9 ; VII 12 ; VII Rom . IV 3 ; VI 24 , 37-38 .

وفي مرثيته التي بث فيها أحزانه لوفاة أمه ، يضيف إلى هؤلاء آخرين أمثال مناندر ، وأرخيلاوس وأورفيوس ، والفيلسوفة السكندرية هيباشيا راجع Kazhdan , Epstein , Change in byzantine Culture in the eleventh and welth Centunics , p. 123 .

١١٠- انظر Vasiliev, Byzantine empire, I , p. 368 .

وأيضا Baynes & Moss, Byzantium, p. 237 .

١١١- أنظر C. M. H. IV 2 , pp. 218-219 . ويضعه مؤرخو الأدب البيزنطي في مصاف ألبرت العظيم Albertus magnus (١٢٠٠-١٢٨٠) العالم واللاهوتي الفيلسوف ، وروجر بيكون Roger Bacon (١٢٢٠-١٢٩٢) ، بينما يقارن آخرون بينه وبين الفيلسوف الفرنسي الساخر ڤولتير Voltaire (١٦٩٤-١٧٧٨) ، وذلك في سعة علمه واتساع ثقافته . انظر Barker, Social and Political thought, p. 131 .

وقارن Vasiliev, Byzantine . empire, I , p. 368 .

١١٢- يتحدث بسللوس عن دراسته للطب ومعرفته الوثيقة بأسرار هذا العلم وممارسته له عندما راح يجادل الطبيب المختص بعلاج الإمبراطور اسحق كومننوس في نوع الحمى التي أصابت الإمبراطور . أنظر Chron. VII 74 وراجع حاشية ١٠ من هذا الفصل .

١١٣- يقول بسللوس : «إني لأعترف حقيقة أني قد ثابرت على دراسة ذلك «العلم» بكل مفاهيمه، ولم يكن أي من هذه الدراسة محرما من الكنيسة ما دام لايستخدم بصورة سيئة . ولكني مع هذا لم أكن أعتقد مطلقا بأن أوضاع النجوم ومساراتها لها أي تأثير على ما يحدث في عالمنا . أنظر Chron . VI Theod . 11

١١٤- Chron . VI 39 .

كله العلوم العسكرية والخطط الحربية(١١٥). ويعترف بنغمة تخلو من ذلك التواضع الذى اتسمت به العصور الوسطى أن تلاميذه استدرجوه إلى نواح من العلم متعددة ، بعد أن عشقوا حلاوة لسانه وخفة روحه ، اللذين كانت معرفتهما بكل شئ تفوق جميع من عداه من الدارسين!! ويقر أنه لم يكن يعجزه الإجابة عن أى سؤال يوجه إليه، بعد أن فتح للجميع أبواب المعرفة الإنسانية فى العلوم والآداب . لقد وضع نفسه فوق كل أولئك الذين زينوا القسطنطينية بالمعرفة ، وأشرق بأقلامهم وعقولهم مجد الثقافة فى أنحاء البسيطة !! وفى قول بليغ يصف بسللوس نفسه قائلا: «الحقيقة إن ثقافتى عريضة ، والأسئلة التى توجه إلىّ عديدة ومتنوعة ، بحيث يمكننى القول إنه ليس هناك علم من العلوم لم أجد عندى الرغبة فى دراسته»(١١٦).

على أن أحب هذه الميادين جميعها إلى قلب بسللوس كانت الفلسفة ، فقد كان يفخر دائما بلقب الفيلسوف(١١٧) وبعمله باعتباره أستاذ الفلسفة بجامعة القسطنطينية ، ووقف على دراستها حياته جلها(١١٨). ولندع القلم الآن لبسللوس ، فليس هناك من هو أصدق منه حديثا

١١٥- يذكر بسللوس أنه كان على دراية واسعة ومعرفة كاملة بفنون القتال وعلوم الحرب، وقد توصل إلى ذلك من خلال دراسته فى هذا الميدان، ويتضح هذا من مواقفه المتعددة مع الإمبراطور رومانوس الرابع حيث يصفه بأنه كان «جاهلا» بالعلوم العسكرية. ويبدى بالتفصيل اعتراضاته دائما على خططه العسكرية فى حملاته التى قادها ضد السلاجقة فى آسيا الصغرى ، ويقول : «لقد اعتدت دائما أن أوجه النصيحة الصادقة والمفيدة إلى الأباطرة ، وحاولت ذلك معه مبينا ضرورة مناقشة الأمور العسكرية وإجراء الاستعدادات اللازمة قبل إعلان الحرب ، غير أن الثرثارين الذين دأبوا على معارضة كل ما أقول ، قادوا الإمبراطورية إلى الهلاك». ويصف تصرف الإمبراطور فى إحدى معاركه ضد السلاجقة بأنه يدل على «منتهى الحماقة» . ويقول فى موضع آخر : «كانت خبرتى الفائقة ومعرفتى المتفوقة فيما يتعلق بالعلوم العسكرية والخطط الحربية شيئا يفوق الوصف ، فلقد درست بعناية تامة كل ما يتصل بالتشكيلات العسكرية وبناء القلاع وحصار المدن وكل ماله أهمية خاصة لدى أى عسكرى . كل هذه المعرفة حركت فيه (رومانوس) ليس بواعث الإعجاب بى، بل كوامن الحسد لى، ومن ثم فقد دأب على معارضتى فى كل شئ ، محاولا التفوق علىّ فى كل نقاش. ولسوف يعلم الكثيرون ممن شاركوا فى هذه الحملة أنى لست مبالغا فيما أذكره الآن». للمزيد من التفاصيل عن إلمامه بالعلوم العسكرية كما يقول وعداوته للامبراطور رومانوس الرابع ديوجينس، أنظر : Chron . VII Rom. 3-7, 11-12.

١١٦- Chron . VI Theod . 11 وقارن Kazhdan , Epstein, Byzantine Culture, p. 124 .

١١٧- Chron. VI 26 ; VII 81 .

١١٨- Ibid. VI 197 .

عن نفسه . يقول : « ... كنت آنذاك فى الخامسة والعشرين من عمرى عندما شغلت بالكثير من الدراسات الجادة ، وكانت جهودى مركزة فى ناحيتين رئيسيتين : أولاهما أن أدرب لسانى على الفصاحة حتى أغدو خطيبا مفوها ، والثانية أن أزكى بدراسة الفلسفة عقلى، فلم ألبث أن امتلكت ناصية البلاغة حتى أصبحت قادرا على أن أصل إلى جوهر الموضوع دون عناء ، وأن أعلق عليه منطقيا بأفكارى الرئيسية والنقاط التى يستدعيها المقام، وقد علمنى ذلك أن لا أقف موقف الرهبة أو المرتعد إزاء أى فن من الفنون، ولا أن أتبع كل وصاياه فى كل ناحية شأن الأطفال ، فحققت لنفسى سمعة عريضة وأنا بعد غض غرير، ووطنت نفسى على دراسة الفلسفة، ولما أيقنت أنى أصبحت على قدر كبير من المعرفة بفن الجدال بشقيه الاستدلالى والاستقرائى ، وليت وجهى بعد ذلك شطر العلوم الطبيعية ، وقادنى طموحى إلى معرفة المبادئ الأساسية للفلسفة من خلال الرياضيات .

«وإذا لم يجدنى القارئ - خلال استطرادى هذا- ثقيل الظل، وإذا ما سمح لى بالمضى فى حديثى فسوف أضيف إلى معلوماته شيئا عن نشاطاتى . هذه الحقيقة التى على وشك أن أقدمها أكسبتنى مكانة مرموقة بين رجال العلم بغض النظر عن أية اعتبارات أخرى[١١٩]، وأنت أيها القارئ سوف تستشعر الصدق فى كل كلمة من كلماتى . فالفلسفة عندما بدأت فى دراستها كانت على شفا جرف هار تحتضر ، على عكس ما كان أساتذتها يؤملون ، وقد أعدت إليها أنا وحدى الحياة دون أن أتتلمذ على أحد يستحق الذكر ... ولقد قيل إن اليونان حازوا شهرة واسعة فى هذا المجال، وأنهم عبروا عنها فى كلمات وقضايا مبسطة ، وبقى عملهم فى هذا الميدان مقياسا للمستقبل ومعيارا. وإذا كان هناك من يهاجم بساطة اليونان، فإنى رحت أتحرى المسألة ، وألتقى بالعالمين ببواطن هذا الأمر ، فأشاروا على بمتابعة دراستى بأسلوب منهجى ، ومن ثم قادنى واحد إلى آخر، ومن بصيص ضوء أبصرت النور الباهر ، ومن هذا إلى ذاك حتى انتهيت إلى أرسطو وأفلاطون. ومما لاشك فيه أن من سبقونى كانوا قانعين تماما باحتلال المرتبة الثانية بعد هذين الفيلسوفين .

«وابتداء بهذين المصدرين أكملت رحلتى نزولا إلى أفلوطين Plotinus وبروفيرى Pro- phyrius وإيا مبليخوس Iamblichus وأدخلت ضمن مسيرتى ذلك الرجل الذى يستحق التقدير والإعجاب بروكلوس Proclus ، ومنه زاد عزمى على المزيد من الدراسة لما وراء

١١٩- يشير هنا إلى مركزه السياسى وقربه من البلاط .

الطبيعة مع مقدمة عن العلم التجريدى . ومن ثم فقد بدأت بدراسة المفاهيم المجردة للرياضيات، وهى التى تتوسط الطريق بين العلوم ذات الصبغة التجريبية والمسائل الذهنية موضوع الفكر الخالص(١٢٠).

«... أقول هذا بكل الصدق والإخلاص دون خيلاء ... فأنا لست ممن يخدع بانطباع زائف عن أهميتى الخاصة، ولست جاهلا بمدى قدراتى ، وإن مقدرتى لتتضاءل جدا إذا ما قورنت بكفاءة أولاء الفلاسفة وأساتذة البيان الذين يفوقوننى. غير أنه إذا ما أراد أحد أن يثنى على جهدى ، فليكن ذلك بالأحرى راجعا إلى أنى استلهمت معايير الحكمة من ينابيع طمرت مع الزمن ؛ ذلك أن المصادر التى اكتشفتها كان قد نضب معينها ، وكان علىّ أن أجلو بنفسى ما علق بها ، بل إن مياهها كانت فى الأعماق قد غاضت ، ولم تطف إلى السطح من جديد إلا بعد أن نتحتها بالجهد كل الجهد .

«واليوم .. فإن أثينا ونيقوميديا والاسكندرية وفينيقيا ، بل وحتى روما القديمة وسميتها الجديدة (القسطنطينية) لم يعد لأى منها أن تتباهى بشئ من الأعمال الأدبية ؛ ذلك أن ما تم إبداعه فى العصور الذهبية والفضية الماضية قد توقف وأصبح بعيد المنال، ولذا فإن المصادر الأصلية التى لم أستطع الحصول عليها أو التوصل إليها ، دفعتنى إلى الإستعاضة عنها بالنسخ غير الأصلية التى تحاكيها ، والتهم عقلى بنهم كل ما وقع تحت يدى، ومنها جمعت كل معلوماتى ، ولم أحقد على أحد مشاركته لى فيما وصلت إليه فى هذه الرحلة الشاقة . لقد كنت أرحب دوما بكل من يريد أن يتعلم عنى، ولم أطلب من أحد أبدا أن يدفع لى أجرا عن محاضراتى، بل كنت على استعداد لمد يد العون إلى الطلاب الحريصين على تحصيل العلم من جيبى الخاص . لقد كانت أزاهير حياتى تشير إلى مستقبل باهر حتى قبل أن تصبح قطوفها دانية»(١٢١).

ويبدو بسللوس فى حديثه على قدر كبير من الثقة بالنفس والاعتزاز بها والتعالى فى بعض الأحيان ، وقد نلتمس له العذر حقا فيما يذهب إليه؛ ذلك أن الفلسفة بعد الإزدهار المتزايد الذى حققته بمرور سنى القرون الثمانية الأولى للميلاد ، أخذت تتولى إلى الظل بصفة عامة خلال القرنين التاسع والعاشر فى بيزنطة . ولعل هذا يعود فى الدرجة الأولى إلى أن هذين القرنين وبداية القرن الحادى عشر شهدت اهتمام الإمبراطورية ، تحت سيادة الأباطرة

١٢٠- Chron . VI 36-39 .

١٢١- Ibid . VI 42 - 43 , 44 .

العسكرين، بمجابهة التحديات الخارجية على الجبهات الشمالية والشرقية والغربية ممثلة فى العناصر الصقلبية وجماعات البشناق والمسلمين والبلغار ، بينما راح النشاط الثقافى يأخذ طريقه رويدا نحو الاضمحلال . وقد لاحظت ذلك كاتبة القرن الثانى عشر أنا كومننا Anna Comnena ابنة الإمبراطور ألكسيوس كومننوس ، عندما ذكرت أن التعليم قد أهمل من جانب الغالبية العظمى من الناس ، وإن لم يصل إلى الحضيض[١٢٢] . هذا من ناحية ، ومن الأخرى فإن التدهور الفكرى يرجع أيضا إلى استقرار الفكر الأرثوذكسى بعد الصراع حول الإيقونات خلال القرن الثامن وأوائل التاسع[١٢٣] ، وزيادة الحركة الرهبانية وروح الديرانية التى كانت تنظر إلى الفلسفة الوثنية باعتبارها شرا محضا وعملا يوسوس به الشيطان !! حيث كانت الفلسفة الوحيدة الحقيقية فى نظر الرهبان آنذاك هى «طلاق العالم» . بل إن إعادة تنظيم جامعة القسطنطينية على يد القيصر بارداس Bardas فى القرن التاسع ، وصاحب العقلية المتحررة ، والبطريرك فوطيوس، لم يؤد إلى إعادة إحياء الفلسفة مرة ثانية، ولم يتيسر ذلك إلا فى أوائل النصف الثانى من القرن الحادى عشر عندما أعيد تنظيم الجامعة على عهد قسطنطين التاسع ، وكان الفضل الأول فى ذلك يعود إلى بسللوس[١٢٤].

على أن تولى الفلسفة إلى الظل آنذاك ، ينبغى ألا يصرفنا عن الحقيقة القائمة خلال القرنين التاسع والعاشر، أعنى النشاط الأدبى المتمثل بصفة خاصة فى الأباطرة المقدونيين الأدباء وعلى رأسهم ليو السادس الحكيم وابنه قسطنطين السابع، وقد خلّفَ الأخير بالذات تراثا فكريا ضخما تمثل فى كتبه عن «الإدارة الإمبراطورية» و «الثيمات» و«المراسم الإمبراطورية».

١٢٢- Baynes & Moss, Byzantium, p. 217 .

١٢٣- للمزيد من التفاصيل عن الحركة اللاأيقونية، راجع البحث القيم الذى كتبه دكتور أسد رستم تحت عنوان «حرب فى الكنائس» ونشر فى بيروت سنة ١٩٥٨ . وانظر أيضا :

Hefele , A history of Councils of the church, vol . V .

وكذلك Percival, The Seven Ecumenical Councils of the undivided Church (in , Nicene and post Nicene Fathers of the Christian Church , vol . XIV pp. 523-583) .

١٢٤-انظر C. M. H. IV 2 , p. 245 وكانت الفلسفة قد حظيت بكرسى لها منذ صدر قرار تنظيم الجامعة سنة ٤٢٥ .

غير أن هناك- كما يقول بسللوس- «نوعا جديدا من الفلسفة تقوم أساسا على الغموض الذى يكتنف العقيدة المسيحية ، وهذه الفلسفة تتخطى ما عرف من قبل. وهذا الغموض يشتمل على مفهومين : الأول فى الطبيعة ، أعنى الناسوتية واللاهوتية ، والثانى فى الزمن أعنى النهائية والسرمدية . وهذه هى الفلسفة التى أصبحت موضع دراستى الخاصة دون بقية الفلسفات الأخرى»(١٢٥).

والحقيقة أن الفلسفة حظيت بنصيب كبير من الدراسة والاهتمام فى بيزنطة باعتبارها سندا وتدعيما للمسيحية فى مقاومتها لأعدائها من الفلاسفة الوثنيين. وكان كلمنت Clemens (١٥٠-٢١٥) رئيس مدرسة الاسكندرية اللاهوتية فى أخريات القرن الثانى يعتمد الجدل فى مواجهة ميثولوجيا الإغريق(١٢٦)، ولما كان شأن الفيلسوف سقراط يعتبر الجهل أكثر إثما من الرذيلة ، فقد تحمس لدراسة الفلسفة جنبا إلى جنب اللاهوت(١٢٧)، وراح يهاجم أولئك الخصوم الذين يخافون الفلسفة خوف الطفل من القناع ، ولم يدخر وسعا فى سبيل تبيان ضرورة دراسة الفلسفة باعتبارها سلاح آباء الكنيسة للرد على فلاسفة الوثنية وسبيلهم إلى تقديم المسيحية فى ثوب علمى(١٢٨). ولم يكن هذا بالغريب على كلمنت فهو ينتمى إلى أصل آثينى، وعايش فلسفات اليونان ثم جاء إلى الاسكندرية يحمل معه الكثير من الأفكار والآداب والفلسفات اليونانية(١٢٩).

وخلال القرون الستة الأولى للميلاد كانت الفلسفات الأفلاطونية والأرسطية والرواقية تلقى ذيوعا وانتشارا ، وأحرزت كل من الاسكندرية وأنطاكية قصب السباق فى هذا الميدان ، وإن اختلف طريق كل منهما عن الأخرى . فقد أرسى أوريجن Origenes (١٨٥-٢٥٤) السكندرى قواعد الفكر والمنهج واللاهوت الأفلاطونى فى مدرسة الإسكندرية بعد أن درس الفلسفة على يد فيلسوف الإسكندرية الأشهر أمونيوس ساكاس Ammonius Saccas أبى

١٢٥- Chron. VI 42 .

١٢٦- Burkitt, The Christian Church in the East (C. A. H. vol . XII p. 480)

١٢٧- Atiya, A history of Eastern Christianity, p. 34

١٢٨- Neander , History of Christian dogmas, vol . I, p. 63 .

١٢٩- Creed, Egypt and the Christian Church (Legacy of Egypt, p. 302) .

الأفلاطونية المحدثة، وأصبح علما على مدرسة الإسكندرية المجازية الصوفية فى تفسير الكتاب المقدس ، وصاحب عقيدة الإيمان المزدوج [١٣٠]. على حين سار لوقيانوس Lucianus فى أواخر القرن الثالث، بالمدرسة الأنطاكية نهجا أرسطيا عقلانيا محضا فى تفسير الكتاب المقدس، وازدهرت على يد رجلها المقتدر يوحنا ذهبى الفم Iohannes Chrysostomos (٣٤٥-٤٠٧) الذى كان تلميذا للفيلسوف الأنطاكى ليبانيوس Libanius (٣١٤-٣٩٣) ، وامتد أثرها بصورة واضحة إلى آسيا الصغرى وبلاد اليونان .

وحتى القرن السادس كانت الأفلاطونية والأرسطية تستبقان ، وإن كانت الأفلاطونية قد لاقت رواجا كبيرا حتى أوائل القرن الخامس تقريبا ، وصبغت اللاهوت المسيحى بصورة واضحة، ووجدت سبيلها أيضا بين بعض الرهبان الذين كانوا يسمون أنفسهم «فلاسفة»[١٣١]،

١٣٠- أنظر Cantor, Medieval history, p. 72 وكان أوريجن يعتقد أن فهم الكتاب المقدس يرتبط بالإنسان نفسه ، إذ أن وراء آياته معنيين: أحدهما المعنى الظاهرى أو التفسير الحرفى، والآخر هو المعنى العميق الروحى الذى لايصل إليه إلا الخاصة، ، وقد أثارت آراؤه هذه خاصة فكره عن الله، جدلا كثيرا حتى القرن السادس الميلادى. فالله عنده خالق منذ الأزل وليس فى زمان بعينه وإلا عد ذلك تغيرا فى ذات الله، والتغير ليس من صفاته . والله الأزلى خلق أو ولد كلمته «اللوجوس» الإبن ، الذى على الرغم من كونه ليس إلها حقا ، إلا أنه يشارك فى جوهر الآب. والإبن فى رأيه هو العقل المنظم للعالم، خلقه الله وجعله له تاليا ، وكذلك الروح القدس يأتى فى مرتبة تالية شأن الإبن . ولاشك أن اللاهوت الأفلاطونى واضح كل الوضوح فى هذه الأفكار ، وهى نفس الأسس التى بنى عليها- آريوس السكندرى معتقداته فى القرن الرابع الميلادى، راجع للمؤلف ، الدولة والكنيسة ، الجزء الثالث ، الفصل الأول.

١٣١- أنظر C. M. H. IV 2 , p. 195 ورغم إغراق بسللوس نفسه فى الحياة «الرغيدة» كما كان يحلو له أن يسميها ، ويعنى بها حياة البلاط ، إلا أنه كان ذا نزعة تصوفية فى بعض الأحيان، وعلى الرغم من أنه لم يستطع مع الرهبانية صبرا عندما حاول أن يسلك دربها لأسباب سياسية ، إلا أنه كان يبدو معجبا بهذه الحياة، وبتعبير أدق «من بعيد» . ولعل هذا يصدق تماما فى بواكير حياته وقبل أن يجرفه تيار «الرغد السياسى» إذا صح هذا التعبير. ونلمس ذلك فى حديثه عن الفلسفة وأصحابها وقبل أن يصبح أستاذا لكرسيها فى جامعة القسطنطينية ، يقول : «إنى على يقين من أن الرجل (ميخائيل الرابع) كان أنموذجا يحتذى فى التقوى بعد اعتلائه العرش ، ليس فقط بسبب اقدامه على إقامة كنيسة ، ولكن لأنه أعطى اهتماما خاصا للفلاسفة ، ولا أعنى بالفلاسفة أولئك الذين يحاولون التوصل إلى معرفة حقائق الكون ويهملون مبادئ خلاصهم، ولا أولاء الذين يعملون فكرهم فى ماهية الكون ، ولكنى أعنى هؤلاء الذين يحتقرون العالم ويعيشون مع الكائنات فوق هذه الدنيا» . أنظر . Chron. IV 34

ثم راحت تتوارى لتحتل الأرسطية مكانة عالية، ولعل ذلك يعود من ناحية إلى الهجوم الذى شنه آباء الكنيسة على الفكر الأوريجنى السكندرى الأفلاطونى بصورة مستمرة وعنيفة طوال القرنين الخامس والسادس، ومن ناحية أخرى إلى دخول الإسكندرية تحت السيادة الإسلامية فى القرن السابع ، مما أتاح الفرصة للفكر الأرسطى للذيوع خلال القرون التالية ، وتمثل بصورة خاصة فى أعمال ماكسيموس المعترف ويوحنا الدمشقى .

لاشك إذن فى أن المسيحية فى أصولها وتاريخها الباكر كانت على علاقة وثيقة ببلاد اليونان. ولما كان ما يعرف بعالم المسيحية لفترة تزيد على الألف سنة، منذ مال قسطنطين إلى تأييد المسيحية فى أوائل القرن الرابع ، مجتمعا يتكون بصفة خاصة من شعوب تستمد نظمها الثقافية وتقاليدها الفكرية ، سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، من الثقافة اليونانية- الرومانية للعالم القديم، فإنه ليس من المبالغة فى شئ القول بأن فلسفة العالم المسيحى فى تلك القرون قد تشربت بعمق نظم وأفكار العقل اليونانى ، والمعتقدات غير المسيحية خاصة أفكار الفلاسفة الوثنيين، بحيث يمكن اعتبارها بصفة مؤكدة امتداداً طبيعيا للفلسفات القديمة[١٣٢]. بحيث يمكن القول أيضا بأنها تبلورت بشكل واضح لتصبح «فلسفة مسيحية» فى القرن الثالث عشر على يد توماس الأكوينى Thomas Aquinas ، أما فى القرون السابقة على هذا القرن فمن المفضل أن نطلق عليها «مسيحية مفلسفة» .

ورغم أن الأفلاطونية الأوريجنية قد لقيت العنت كثيراً ، إلا أن الفكر الأفلاطونى فى صورته الكلاسيكية، أو بنمطه الجديد فى الأفلاطونية المحدثة كان له مريدوه. ومرد ذلك إلى أن أفلاطون كان قد أصبح بالنسبة لكل الأجيال التالية المصدر والأنموذج لأولئك الذين يتوقون إلى الحقيقة المطلقة التى يمكن أن يعزى إليها كل شئ[١٣٣] . ومن ناحية أخرى فإن أفلاطون هو ذلك المثالى الذى صاغ هذه الحياة ونظمها فى «مدينة فاضلة» . بينما أرسى أرسطو ، الواقعى، بقدمه الراسخة على الأرض فى دولة المدينة اليونانية ، خطوط الحياة السعيدة المثمرة فوق هذه الأرض. وأفلاطون كان واحدا من أعظم المفكرين الذين ينشدون الفضيلة، فكثير من

١٣٢- Knowles , The evolution of Medieval thought, p. 3 وراجع أيضا: موس : ميلاد العصور الوسطى، ترجمة عبد العزيز جاويد، ص٣١-٣٣ .

١٣٣- Knowles, Medieval thought , p. 5

كتاباته يتعلق بهذه الناحية . ولقد كانت الحياة بالنسبة له تمثل صراعا بين الخير والشر، ومن ثم كان لابد أن يتقبل - باعتباره فيلسوفا - القول بأن من يكسب العالم ويخسر الروح ، فقد خسر خسرانا مبينا. أما أرسطو فقد كان نصيب العقيدة عنده أقل ، والله أقل أهمية من المسلمات الميتافيزيقية[١٣٤].

ولقد اقترب أفلاطون كثيرا فيما يتعلق بالنظرة العامة للحياة والقدر الإنسانى مما هو موجود فى المزامير العبرية أو النسك المسيحى، ، وليس غريبا أن تعد محاوراته عن خلود الروح شيئا أساسيا بالنسبة للآباء المسيحيين المدافعين عن العقيدة، بل ليس غريبا أيضا اعتباره من جانب بعض آباء الكنيسة الأول ، مسيحيا قبل المسيحية ، أو اعتباره واحدا ممن أخذوا جزءا من آرائهم اللاهوتية عن العهد القديم. بل لقد بدا للبعض فى معتقده عن العقل الإلهى أنه يرمز إلى المعتقد المسيحى عن «اللوجوس» أو «الكلمة الابن»[١٣٥]. وقد كتب يوحنا موروبوس John Mauropous أستاذ بسللوس وصديقه ، مقطعا شعريا يتوسل فيه إلى المسيح أن ينظر بعين العطف إلى كل من من أفلاطون وبلوتارك، حيث كانت عقيدتهما قريبة جدا إلى تعاليم الإنجيل[١٣٦].

من هنا كان اهتمام بسللوس بأفلاطون وفكره والأفلاطونية المحدثة، ومن ثم راحت هذه فى زمانه تتحدى سيطرة الفلسفة الأرسطية. لقد كان ينظر إلى أرسطو على أنه مجرد بداية أساسية لدراسة المنطق والطبيعة، ولكنه جعل اهتمامه الأساسى بالأفلاطونية لأنها فى رأيه تعد الدليل الحقيقى لدراسة الميتافيزيقا التى تعتبر قمة الدراسات الفلسفية ، والتى لابد أن تقود بالضرورة فى نهاية الأمر إلى المعرفة اللاهوتية ، ومن ثم فإنه لايختلف عن أسلافه الذين درسوا الفلسفة كمقدمة لابد منها لتعميق الفكر والجدل اللاهوتى ، ولهذا فإنه لما تحدث عنه صديقه يوحنا اكسيفيلينوس فى نغمة تحمل طابع النقد حول تعلقه «بأفلاطونه» إلى حد كبير جدا ، كان بسللوس على استعداد للاعتراف بأن الفلسفة التى هى التاج الذى يزين مفرق الدراسات العلمانية ، لايمكن أن تعد فى ذاتها شيئا ذا بال ، ولكنها مجرد إعداد للدراسات

١٣٤- Ibid. pp. 5 , 6 .

١٣٥- Ibid. p. 11 .

١٣٦- C. M. H. IV 2 , p. 196 .

اللاهوتية . ولاريب أن هذا الاتجاه كانت له آثاره البعيدة من حيث إحباط التفكير الفلسفي الخالص في كثير من الأحيان[١٣٧].

وهكذا نجد أن الأفلاطونية راحت تستعيد مكانتها بخطى واثقة على يد بسللوس الذي راح يقدم الأفلاطونية في محاضراته ، ويحاول بكل طاقاته أن يرسي دعائم الفكر الفلسفي الأفلاطوني أو الأفلاطونية المحدثة ، ساعيا في الوقت نفسه إلى تفسير محاورات أفلاطون بنفس الطريقة التي حاول بها شرح أسفار هوميروس وكذا نبوءات ورؤى اللاهوت المسيحي. وليس من المبالغة في شئ القول مع «باركر» E. Barker إن بسللوس مهد الطريق أمام الأفلاطونية في إيطاليا إبان عصر النهضة ، وساهم بنصيب ليس بالقليل في إحياء جزء من التراث اليوناني الذي ظل لفترة طويلة خلال العصور الوسطى لايحظى بأي اهتمام ، وأصبحت الهللينية بعد بسللوس وما خلفه من أعمال تحتل قيمة كبيرة في الغرب الأوروبي .

والحقيقة أن بسللوس كان أفلاطونيا محدثا متطرفا ، وهذا يبدو واضحا في إحدى محاوراته مع الإمبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس ، عندما راح يحدثه عن «العلة الأولى، عن الخير المطلق وعن الفضيلة ، عن الروح ، ويبرهن له كيف أن الروح يمكن أن ترى في الجسد، وكيف يمكن أن تهفو خارجه وإن كانت في الوقت ذاته متصلة به»[١٣٨]. وقد ترك هذا أثره دون شك على معالجته للاهوت المسيحي حين يذكر أنه «إذا كنت أتفق مع آباء الكنيسة الأول في بعض المسائل المتعلقة بقانون الإيمان ، فإني من ناحية أخرى توصلت بفكري إلى بعض الآراء المغايرة فيما يتعلق بالتجسد ». وقد أدى ذلك إلى اتهام بسللوس أحيانا بعدم قوامة إيمانه ، أو بتعبير آخر، بعده في بعض الأمور عن العقيدة الأرثوذكسية ، واعتباره واحدا من أتباع المذهب العقلي الذي يعارض الإيمان بالقوى الخفية والسحر والدجل والشعوذة والتنجيم والتنبؤ ، وأنه كثيراً ما أذاع أن العقل قادر على إدراك الحق من خلال الفكر أو الإلهام ، وقد قام بسللوس في محاورة مع بطريرك القسطنطينية ميخائيل كريولاريوس بالدفاع عن البحث العلمي فيما يتعلق بالكون، ومع كل ذلك فقد كان يتوخى الحذر في القول بأن المنطق يعد ضرورة لحيوية المناقشات اللاهوتية حتى لايثير حوله شكوك رجال الاكليروس[١٣٩].

١٣٧- هسي ، العالم البيزنطي ص٣٤٣-٣٤٤ ؛ وأيضا C. M. H. IV 2, p. 245 وقارن Chron. III 3

١٣٨- Chron . VI 197 .

١٣٩- Kazhdan, Epstein , Byzantine Culture, p. 158 وقارن Ibid. 42

ولم يكن بسللوس راضيا عن ذلك الاتجاه الدينى المتطرف الذى يقوم عليه آباء الكنيسة والرهبان من ذوى الفكر المنغلق ، متمثلا فى الإصرار على سمو الأمور العقيدية باعتبارها مسلمات ، على العقل الإنسانى. ويقول : «لقد سمعت عن فلاسفة مبرزين قولهم إن هناك حكمة أو معرفة عليا تسمو على كل الأدلة ، وهذه يمكن إدراكها فقط بعقل رجل فطن فى لحظة من لحظات الإلهام»(١٤٠). ويظهر سخطه هذا أيضا فى عدم اصطباره على حياة الرهبانية، مع إدخال العوامل الأخرى التى ذكرناها آنفا فى الاعتبار ، بينما وجد صديقه اكسيفيلينوس نفسه فى حياة التأمل ، وأبدى امتعاضه لانتزاعه من الدير ليعتلى عرش القسطنطينية الأسقفى سنة ١٠٦٣ . وقد أدى موقف بسللوس هذا وآراؤه العقيدية إلى اتهامه بالهرطقة كما أشرنا توا، غير أنه تمكن من التخلص من هذا الاتهام باعتراف سطحى تلفيقى بالأرثوذكسية قبلته منه الكنيسة(١٤١) . بينما فشل تلميذه وخلفه على كرسى الفلسفة فى الجامعة ، يوحنا الإيطالى، فى تدبيج مثل هذا الاعتراف ، مما أدى إلى دخوله فى صراع مع السلطات الكنسية والزمنية فى القسطنطينية ، وانتهى الأمر بإدانته وحرمانه على عهد الإمبراطور الكسيوس كومننوس (١٠٨١-١١١٨) . والحقيقة أنه رغم الشهرة العريضة التى حققها بسللوس فى النواحى الفكرية ، إلا أنه لم يسمع به خارج الدوائر الثقافية البيزنطية فى زمانه، وهذا هو شأن فلاسفة الأفلاطونية البيزنطيين بصفة عامة(١٤٢).

وإلى جانب هذا الدهاء السياسى الذى عرفنا به بسللوس ، وسعة ثقافته وتنوع معارفه وتعددها ، وولعه بالفلسفة وحبه لأستاذه أفلاطون الآثينى وأنموذجه أفلوطين السكندرى ، اشتهر صاحبنا بالفصاحة والبلاغة وروعة البيان ؛ فقد كان يهتم اهتماما بالغا باختيار كلماته وتنميق عباراته حتى فى كتاباته الفلسفية ، إلى الحد الذى لم يكن يفصل فيه بين الموضوع الفلسفى والمقال البيانى، وينحى باللائمة على أولئك الذين يدرسون البيان بينما يحتقرون الفلسفة ، فهذه فى نظره ليست أقل اهتماما بتدبيج الكلمات من البيان. ومن ثم فإنه حسب قوله عندما يعد خطبة فإنه يقدم البراهين والأدلة العلمية مع الكياسة المقبولة. وقد تعرض للنقد

١٤٠- Chron. 40 .

١٤١- C. M. H. IV 2 , pp. 82 , 245 وأيضا ، هسى ، العالم البيزنطى ص٢٦٧-٢٦٨ .

١٤٢- C . M. H . IV 2 , p. 373 .

واللوم من جانب البعض الذين يكرهون الطريقة التى يبدع بها المقال الفلسفى بفن البلاغة الرقيق ، ولكنه يدفع عن نفسه هذا النقد مبينا أن هدفه الأساسى من وراء ذلك هو مساعدة القارئ عندما يجد من الصعب عليه استيعاب الأفكار الفلسفية العميقة ، وحتى لايفقد سياق الحوار الفلسفى[١٤٣].

وبسللوس يعتز بفصاحته وبلاغته وحسن بيانه ، اعتزازه بثقافته وسعة اطلاعه وفلسفته. فعندما وجد من الإمبراطور قسطنطين التاسع إعراضا عن حديث الفلسفة، «وأحسست رغبته فى تغيير موضوع المناقشة ، كان علىّ أن أتحول إلى البلاغة عروس الشعر والأدب ، وأن أقدم له جانبا آخر من جوانب تفوقي، مدخلا على نفسه البهجة بكلمات إيقاعية»[١٤٤]. ويستطرد: «إن أهم ما يميز لغتى رقتها والعذوبة ، ورغم أنى لا ألهث من أجل وقع كلماتى على سامعيها ، فإن حديثى به رنة جمال طبيعى، وهذا شئ لم أكتشفه فى نفسى بل قاله لى كثيرون وأنا أحاورهم ، ذلك أن أحدا منهم لم يكن يصغى إلىّ بفكر شارد ، وكيفما كان الأمر فإن تلك الصفات كانت أول ما قربنى من الإمبراطور ، وكانت طلاقة لسانى تعطيه إحساسا بما هو فى أعماق نفسى كامن ... لقد تملك قسطنطين عند لقائى الأول معه شعور غريب بالبهجة على نحو مبهم غامض شأن منطوق الوحى الإلهى، يخرج من بين شفتى رجال احتوتهم غيبوبة التجلى، وقد وضح تأثير كلماتى عليه مباشرة ، فما إن سمع صوتى حتى كان قاب قوسين أو أدنى من عناقى... إن عينى قسطنطين لم تقع علىّ قبل اعتلائه العرش ، ولكنه ما إن رآنى حتى أخذ بفصاحتى وبدا كما لو كانت أذناه قد علقت بشفتى»[١٤٥].

ولم يقف حد الإعجاب ببسللوس عند قسطنطين التاسع وحده ، بل تعداه إلى جملة الأباطرة الذين خلفوه : فميخائيل السادس «تذوق العسل ينساب من بين شفتيه»[١٤٦]، وإسحق كومننوس «يحمل لحديثه كل الإعجاب والتقدير»[١٤٧]، وتعلق به قلب قسطنطين العاشر لفرط

١٤٣- Chron. VI 41 .

١٤٤- Ibid. 197 .

١٤٥- Ibid. 45-46 , 161 .

١٤٦- Ibid. VII 16 .

١٤٧- Ibid. 42 .

ولعه بالبيان «وارتوى من نبعه حتى سكر، وكانت كلماته له هى ماء الحياة أو شراب الآلهة»(١٤٨)، أما يودوسيا فكانت تنظر إليه نظرتها إلى إله»(١٤٩).

ومن الجدير بالذكر أن لغة بسللوس فى الحديث أو الكتابة ، كانت تأخذ بالأسماع والألباب، فهو يختار عباراته بدقة موفقة ، ويستخدم التورية الذكية . وكان من بين الكتاب البيزنطيين القلائل الذين كتبوا باليونانية الكلاسيكية ، ولغته تعد لغة حية طبيعية وغير مصطنعة على العكس من تلك الكاتبة التى أعجبت به فيما بعد ، الأميرة المتحذلقة أنا كومننا التى كانت تتعمد الصنعة اللفظية فى كتابتها(١٥٠). ومما لاشك فيه أن سحر بيانه وفصاحته وذكاء ولماحيته ، أدت كلها دورها بمهارة عالية وكفاءة فطنة فيما ذهب به بسللوس من قدرة على البقاء فى كنف البلاط الإمبراطورى المتقلب قرابة الأربعين عاما.

وإذا كنا قد تناولنا حتى الآن بالحديث بسللوس السياسى الأريب ، والبيانى المفوه، والفيلسوف، فإن بسللوس المؤرخ لايقل عن هؤلاء جميعا شهرة واقتدارا ، بل ربما فاق تأريخه تفلسفه ، إذ يكاد يكون هناك شبه إجماع بين الدارسين البيزنطيين على أن «التاريخ الزمنى» Chronographia الذى وضعه بسللوس يحتل مكانا مرموقا وسط الكتابات التاريخية فى العصور الوسطى. وبغض النظر عن قيمته الحقيقية فى حد ذاته باعتباره مذكرات شاهد عيان على قدر كبير من الثقة والذكاء، فإنه لايمكن أن ننكر كونه عملا فنيا رائعا(١٥١). ونستطيع للوهلة الأولى ومن المقارنة الظاهرية فقط بين «التاريخ» Historia الذى وضعه سلفه ليو الشماس و«الألكسياد» Alexiad الذى كتبته خلفه أنا كومننا ، من ناحية، و«التاريخ الزمنى» مؤلف بسللوس من ناحية ثانية، أن نتبين طبيعة هذا العمل التاريخى وخصائصه . فالأول تحدث عن مرحلة من مراحل الحرب البلغارية على عهدى نقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس وهى الفترة الواقعة بين عامى ٩٥٩-٩٧٥ . وتعود أهميته إلى أنه يكاد يكون المصدر اليونانى

١٤٨- Chron. VII Const. X 7 , 25 .

١٤٩- Ibid. VII Eud. 1-9 .

١٥٠- C. M. H . IV 2 , p. 235 . وأيضا Baynes & Moss, Byzantium, p. 256

وكذلك Fourteen Byzantine rulers, introd. p. 18

١٥١- Fourteen Byzantine rulers, introd. p. 15 .

الوحيد عن أحداث هذه الحرب . والثانى يتناول عهد الإمبراطور ألكسيوس كومننوس (١٠٨١-١١١٨) . أما عمل بسللوس فيتناول بين الإطناب والإيجاز عهود أربعة عشر إمبراطورا يمتد حكمهم إلى قرن كامل (١٥٢). فإذا علمنا أن باسل الثانى وحده يحتل من هذا القرن نصفه (٩٧٦-١٠٢٥) أدركنا على الفور أهمية الفترة التاريخية التى يعالجها المؤلف ، وبالتالى قيمة الكتاب، خاصة وأن هذه الفترة- كما ذكرنا- تمثل منعطفا خطيرا فى عمر الإمبراطورية البيزنطية، ويزيد من هذه الأهمية مشاركة بسللوس- على النحو الذى رأينا- فى الحياة السياسية ومعايشته للبلاط البيزنطى على عهود تسعة من أباطرة هذه الفترة. والكتاب من ناحية أخرى يمثل استكمالا طبيعيا لـ «تاريخ» ليو الشماس دون انقطاع ، ومدخلا تلقائيا لـ «ألكسياد » أنا كومننا .

قسم بسللوس تاريخه الزمنى إلى كتب سبعة، اختصت الستة الأولى منها بالأباطرة الأخيرين للأسرة المقدونية ، ابتداء بباسل الثانى منذ توليه العرش عام ٩٧٦ ، وانتهاء بثيودورا الإبنة المسنة لقسطنطين الثامن، وآخر سلالة البيت المقدونى، والتى بموتها ينتهى الكتاب السادس ، مرورا بالأباطرة الذين انتموا لهذه الأسرة وهم أزواج زوى الثلاثة ، رومانوس الثالث وميخائيل الرابع وقسطنطين التاسع، وابنها بالتبنى ميخائيل الخامس. والكتاب السادس وحده يمثل الجزء الرئيسى فى هذا المؤلف بصفة عامة، إذ يحتل وحده ثلث صفحات الكتاب ، بينما يشغل الكتاب السابع والأخير الثلث الثانى الذى يعد أباطرته مرحلة انتقال بين البيت المقدونى والأسرة الكومننية. و«التاريخ الزمنى» لبسللوس بصورته هذه يختلف تماما عما جرت العادة باتباعه فى كتابة التواريخ الزمنية ، فقد جرى مؤلفوها على كتابة «تواريخهم» هذه ببداية الخليقة أو على الأقل بميلاد المسيح ، مستمدين معلوماتهم عن

١٥٢- هؤلاء الأباطرة هم باسل الثانى (٩٧٦-١٠٢٥) ثم قسطنطين الثامن (١٠٢٥-١٠٢٨) فرومانوس الثالث (١٠٢٨-١٠٣٤) فميخائيل الرابع البافلاجونى (١٠٣٤-١٠٤١) فميخائيل الخامس (١٠٤١-١٠٤٢) فالعهد المشترك لثيودورا وزوى (١٠٤٢) فقسطنطين التاسع مونوماخوس (١٠٤٢-١٠٥٥) فثيودورا منفردة (١٠٥٥-١٠٥٦) فميخائيل السادس ستراتيوتيكوس (١٠٥٦-١٠٥٧) فاسحق كومننوس (١٠٥٧-١٠٥٩) فقسطنطين العاشر دوكاس (١٠٥٩-١٠٦٧) فيودوسيا (١٠٦٧) فرومانوس الرابع ديوجينس (١٠٦٨-١٠٧١) ثم ميخائيل السابع دوكاس ١٠٧١-١٠٧٨) .

ذلك الزمن السحيق من الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد. أما بسللوس فقد خرج عن هذه القاعدة وإن لم يكن أول من أقدم على ذلك .

وباستقرار تاريخ بسللوس يتضح أن الكتب الستة الأولى والفصلين الأولين من الكتاب السابع ، كانت هى «التاريخ الزمنى» فى صورته الأصلية ، أو بتعبير آخر ، حسبما خطط له صاحبه . فهو يذكر فى الفصل الثانى من الكتاب السابع ، وقد خص به اسحق كومننوس ، أنه سيعرض لسياسة الإمبراطور ومحاولاته العديدة للقضاء على الفساد الإدارى والمالى فى الدولة، وكيف منيت هذه الجهود كلها بالفشل ، ويقول : «وعندما أتم ذلك فسوف أضيف تقريرا عن نهاية عهده ثم أنهى تاريخى»(١٥٣). ويتبع هذا فعلا باستعراض ملخص وسريع لكل الأباطرة الذين تناولهم بالحديث سابقا ابتداء بباسل الثانى وخلفائه جميعا وانتهاء باسحق، وكأنها خاتمة يوجز فيها ما فصله على صفحات مؤلفه من قبل ، وليقارن بين جهودهم وأعمال الإمبراطور اسحق فى تقريره النهائى الذى وضعه عن سياسته(١٥٤). ولما كان هذا الجزء من المؤلف يتسم فى جملته إلى حد كبير بالموضوعية ودقة الملاحظة والنقد الجاد أحيانا، فمن المحتمل أن يكون قد وضع فى عهد قسطنطين العاشر دوكاس (١٠٥٩-١٠٦٧) . ويعود هذا الاحتمال إلى أن الأمور كانت قد استقرت بالنسبة لبسللوس وصفا له الجو تماما ، فالإمبراطور صديقه الحميم «وقد حصل فى كنفه على مرتبة سامية»، وهو أحد زملاء الدراسة لدى أستاذهما يوحنا موروبوس، وصديقه قسطنطين ليخودس هو أسقف العاصمة ، ومن ثم فقد وجد بسللوس لديه الفرصة السانحة لكتابة تاريخه هذا بأناة وروية (١٥٥).

أما الجزء الثانى وهو الذى يتضمن الفصول الأربعة الأخيرة من الكتاب السابع ، والذى جاء آخره مبتورا ، فيبدو أنه كتبه على عهد تلميذه ميخائيل السابع، فهو يطلب إلى قرائه أن يثقوا فى صدق حديثه وأن لايتطرق الشك إلى عقولهم فى كلماته هذه لأنها كتبت على عهد الإمبراطور، «ذلك أن السبب الرئيسى الذى دفعنى إلى أن آخذ على عاتقى مهمة كتابة هذا

١٥٣- Chron . VII 51 .

١٥٤- Chron. VII , 52-66 .

١٥٥- يميل سوتر Sewter فى تقديمه لترجمة «التاريخ الزمنى» إلى تحديد عام ١٠٦٣ زمنا لتأليف هذا العمل أنظر Fourteen Byzantiune rulers, introd. p. 15 .

التاريخ هو أن هذا الإنسان يفوق كل من عرفناهم من قبل»[١٥٦]. ويبدو أيضا أن هذا الجزء كتب على عجالة وعلى سبيل التذييل على الكتاب الأصلى، حيث نجد بسللوس فى كل فصل من فصوله يذكر أنه سوف يتحدث عن هذا الإمبراطور- أو ذاك «بصورة مختصرة» أو «حسبما تسمح المساحة» وهكذا ، وهو يختلف أيضا عن بقية المؤلف فى كونه يعد تقريظا مستمرا للأباطرة الذين شغلوا هذه الفترة ، باستثناء رومانوس الرابع، ولهذا فهو يبتعد عن الموضوعية بصورة واضحة عنه فى الجزء الأول .

ويمكننا أيضا من خلال هذا الاستقراء أن نقسم «التاريخ الزمنى» إلى أقسام ثلاثة من حيث القيمة المصدرية . فهو يفتتح الكتاب الثالث بالتصريح بأن روايته منذ الآن سوف تكون أكثر دقة من ذى قبل ، ويعلل ذلك بأنه كان فى السابعة من عمره عندما مات باسل الثانى ، بينما أنهى قسطنطين الثامن حياته وهو فى العاشرة ، ويقول : «ولم تتح لى فرصة رؤيتهما مطلقا ولم أسمع لحديثهما أبدا، وحتى ولو كنت قد رأيتهما فإنى لا أملك المقدرة على الحديث عنهما، فقد كنت صغيرا إلى الحد الذى لا أستطيع معه أن أذكر شيئا عنهما ، غير أنى رأيت رومانوس الثالث وتحدثت إليه ذات مرة، ولهذا كان طبيعيا أن تكون ملاحظاتى وتعليقاتى على الإمبراطورين الأولين مستمدة من الآخرين ، بينما روايتى عن رومانوس صادرة عنى مباشرة»[١٥٧].

ولكنه يذكر فى موضع آخر فى معرض حديثه عن العلاقة بين رومانوس الثالث وزوجه زوى وعشيقها ميخائيل (الرابع فيما بعد) أنه استقى معلوماته هذه من أحد الرجال المقربين لدى القصر، والذى كان يعرف الكثير من أسراره . ويضيف أن لديه رواية أخرى عن هذه الأحداث[١٥٨]. وهذا يدل على أن بسللوس لم يكن قد أصبح بعد «مقربا» للقصر. وقد علمنا أنه بدأ عمله فى البلاط سكرتيرا لميخائيل الخامس من بعد ، وعليه يمكن القول بأن بسللوس استمد مادته التاريخية للكتب الأربعة الأولى من المعمرين ورجالات البلاط وأصدقائه السياسيين، ومن ثم جاءت معلوماته خلالها سطحية وغير مكتملة إذا ما قورنت بالكتابين السادس والسابع، ولعل أوضح الأمثلة على ذلك أن عهد باسل الثانى الذى استغرق من الزمن

١٥٦- Chron. VII Michael VII ,1 .

١٥٧- Ibid. III, 1 .

١٥٨- Ibid. 23 .

نصف الفترة الزمنية لتاريخ بسللوس ، أعنى خمسين عاما ، لم يكن حظه من صفحات هذا العمل يزيد عن نصيب ميخائيل السادس الذى لم ينعم من العرش إلا بسنة واحدة، وبينما كان باسل الثانى واحدا من أعظم أباطرة الأسرة المقدونية والإمبراطورية على الإطلاق سواء فى النواحى المدنية أو العسكرية ، فإن ميخائيل السادس لم يخلف للتاريخ إلا اسمه !!

أما القسم الثانى فيشمل الكتب الثلاثة من الخامس إلى السابع فيما عدا الفصل الأخير ، وفيها كانت معلوماته ضافية وتعليقاته واضحة وتحليله على جانب كبير من الدقة والموضوعية. فقد غدا بسللوس أحد أقطاب العمل السياسى فى الإمبراطورية ، وهو يذكر فى أوائل الكتاب السادس «إن حديثه عن الأحداث التالية سوف يكون مصدريا تماما لأنه نتيجة معرفة شخصية جدا»[(١٥٩)]. ولايكاد يخلو فصل من فصول هذا القسم من عباراته الشهيرة «رأيت ذلك بنفسى وعاينتة بشخصى» أو أنه وحده «الذى يعرف ذلك دون الآخرين» أو أن «مصدرى فى هذه الرواية لايرقى إليه الشك»[(١٦٠)] ، وهو يعتبر الجزء الرئيسى فى تاريخ بسللوس . أما الفصل الأخير من الكتاب السابع وهو الذى يمثل القسم الثالث ، فقد أضاف بسللوس إلى اعتماده المطلق على شخصه فى رواية الأحداث التاريخية باعتبار نفسه المصدر الرئيسى لها ، تقريرا أو بتعبير أدق مذكرات وضعها ميخائيل السابع دوكاس عن نفسه ؛ ذلك أن الإمبراطور ما إن علم بأن بسللوس على وشك كتابة ترجمة عن حياته ، حتى طلب إليه أن لايفعل ذلك حتى يزوده بتصور عام عن شخصيته ، ثم إن السكرتير الخاص للإمبراطور راح يقرأ على بسللوس ما أملاه عليه ميخائيل السابع[(١٦١)]. ومن ثما فان هذا القسم جاء قصيدة نظمها بسللوس والإمبراطور معا لمدح الجالس على العرش وهو ميخائيل السابع دوكاس نفسه !!

وأصدق ما يمكن أن يطلق على عمل بسللوس هذا هو «تاريخ البلاط» ؛ فبسللوس وقد مكنته مناصبه من ذلك ، يتحدث فى تفصيل دقيق فى كثير من الأحيان عما يجرى خلف أستار القصر الإمبراطورى، ورغم أنه صرح ذات مرة بأنه سوف يتحدث عن «الجيوش

١٥٩- Chron. IV , 10 .

١٦٠- Ibid . IV 4 , 12 , 25 , 27 , 38 , 50 ; V 3 , 10 , 22 , 25 , 26 , 27 ; VI 10 , 77 , 93 , 100; VI Theod. 19 ; VII 46 , 71 . .

١٦١- Chron . VII 11 .

والمعسكرات والمناوشات والمعارك وكل صغيرة وكبيرة اعتاد المؤرخون الثقات ذكرها»(١٦٢)، وأضاف أنه «ليس من سمات المؤرخ أن يضيع وقتا فى الحديث عن الصفات الدقيقة التى تتعلق بأمور شخصية بحتة ، بل يجب أن تكون مهمته الرئيسية هى تركيز فكره وكتابته حول الموضوع الذى يعالجه ، وأن يتناول الأمور الأخرى بشئ من التحفظ»(١٦٣)، إلا أنه عاد بعد ذلك ليقول إنه «فيما يتعلق بالشئون العامة للدولة فإنى سوف أتركها لكثير من الكتاب الآخرين الذين يرغبون فى تدوين مثل هذه الأمور»(١٦٤). وقد التزم بسللوس فعلا بقوله الأخير هذا ؛ فقد أعرض عن ذكر الحرب البلغارية التى شغلت من عهد باسل الثانى قرابة ربع القرن، وهو لايذكر شيئا عن هزائم قسطنطين التاسع أمام البشناق وابتياع السلم منهم بثمن باهظ ، أما الحملات التى قادها رومانوس الرابع ديوجينس ضد الأتراك السلاجقة فلا يحدد لها زمانا ولامكانا ، ولايذكرها إلا من قبيل السخرية بجهل الإمبراطور فى الشئون العسكرية والتندر على خططه الحربية ، ويعلق سوتر على ذلك بقوله إن جغرافية كتابه كانت غامضة (١٦٥).

وحتى الشئون الداخلية فإنه قد تركها وشأنها فلم يحدثنا بشئ عن الإجراءات الاقتصادية والتشريعية التى اتخذها باسل الثانى فيما يتعلق بأملاك الكنيسة والأديرة ،ولا الإجراءات النقدية التى أدت إلى تخريب الاقتصاد البيزنطى على عهد قسطنطين التاسع، ولاجهود هذا فى إعادة تنظيم الجامعة ، وأخفق أيضا فى تسجيل أخبار الأوبئة والمجاعات والزلازل التى أولاها غيره جزءاً من اهتمامهم (١٦٦). ولكن هذا لاينفى أنه ذكر بتفصيل دقيق حركات التمرد أو الثورات التى قامت فى داخل الإمبراطورية ضد هذا الإمبراطور أو ذاك (١٦٧)، أو أنه أفاض بأسلوب فنان فى وصف الكنائس الفخمة التى أقيمت على عهد رومانوس الثالث وميخائيل

١٦٢- Chron. VI ,73 .

١٦٣- Ibid . 70 .

١٦٤- Ibid. 167 .

١٦٥- Fourteen Byzantine rulers, introd. p. 13

١٦٦- Id .

١٦٧- Chron. I, 10-18 , 23-29 ; V 28 -30 , 45-50 ; VI 76-86 , 98-124 ; VII 4-43 .

الرابع وقسطنطين التاسع [١٦٨]. والحقيقة التى لامراء فيها أنه إذا اعتبرنا الكتاب فعلا تاريخا للبلاط بكل أسراره ومتاهاته وخباياه ، فإنه يعد من هذه الناحية عملا فنيا وأدبيا رائعا يتفوق على الكثير من أمثاله فى هذا الميدان .

ولنترك القلم الآن لبسللوس ليكتب بنفسه الدوافع التى حدت به إلى تأليف كتابه هذا، والظروف التى أحاطت به، ورأيه فيما يذهب إليه معاصروه ، ونظرته للتأليف التاريخى :

«وجدت نفسى فى مناسبات عديدة وقد أحاط بى الكثيرون وراحوا يستحثوننى كى أكتب تاريخا لهذه الأحداث ، ولم يكن بين هؤلاء رجال الدولة وأعضاء السناتو فحسب ، بل أيضا عدد كبير من دارسى اللاهوت الذين نذروا أنفسهم لتفسير ما غمض من الكتاب المقدس فهمه، وغير هؤلاء كثير من ذوى الطهارة والقداسة ، وبتوالى السنين كان طبيعيا أن تصبح الأدلة التاريخية غير متوفرة لكتابة سجل دقيق للأحداث ، ومن الخطورة بمكان أن تتوارى مع الماضى أحداثه ، ومع هذا الأمر تصبح معلوماتنا عن سالف الزمان غير مؤكدة . من أجل هذا طلب إلىّ هؤلاء الصفوة أن أفعل ما وسعنى الجهد لعلاج هذا القصور، وأضافوا قولهم إنه من غير المعقول أن تغيب حادثات التاريخ التى نعيشها وتظل غامضة مبهمة ، بينما ما جرى قبلنا تم تدوينه على يد الأجيال المتتالية. تلكم هى الضغوط والدوافع التى استحثونى بها للاقدام على تنفيذ هذه المهمة الجسيمة . غير أنى لم أكن متحمسا على الإطلاق للإقدام على ذلك ، ولم يكن هذا راجعا إلى تكاسل من جانبى، بل لأنى كنت أضع فى اعتبارى دوما أمرين لايمكن بأى صورة التغاضى عن أى منهما؛ فربما تجاوزت - لأسباب سأوضحها فيما بعد- أشياء وقعت بين أفراد معينين، أو شوهت أو حرفت روايتى عنهم ، ومن ثم فإنى سوف أدان لا لأنى كتبت عنهم تاريخا، بل فقط لمجرد التلفيق أو الاختلاق، كما لو كنت أؤلف رواية ، وربما بلغ بى التطرف فى تقصى الحقيقة مداه ، فأصبح بالتالى أضحوكة النقاد، ذلك أنهم سوف يعتبروننى عندئذ لست محبا للتاريخ بل مروجا للفضائح .

«من أجل هذا لم أكن شغوفا بتدوين تاريخنا المعاصر ، خاصة وأنى أعلم علم اليقين أننى سوف أختلف فى الرأى مع الإمبراطور قسطنطين (التاسع) فى كثير من الأمور، ومن ثم فإننى لابد وأن ألوم نفسى إذا لم أنتهز أية فرصة لامتداحه... ولسوف يكون أمرا مخجلا حقا إذا

١٦٨- Chron. III 14 ; VI 185-187 .

لم أحفظ المعروف لصاحبه. لذا، وبسبب هذا الرجل بالذات كنت أرفض دوما كتابة تاريخ هذه الفترة. لشد ما كان يؤرقني أن أعرض عن أي لوم يمكن أن يوجه إليه، كما كنت راغبا عن أن تفصح كلماتي عن أعمال ليست في جانبه وعن أشياء من المفضل أن تظل في غيابة الكتمان. لقد كانت نفسي تعاف أن أضع أمام العامة قصة غير صادقة ، كما أني في الوقت ذاته كنت كارها أن زفتري على بطل كان محل تقريظي وامتداحي، وفي رأيي أنه من الخطأ استعراض المواهب الأدبية ، وهي التي اكتمل نضوجها لدي بسبب تشجيعه، في إلحاق الضرر به».

ويضيف محاجا البعض معرضا عن مناقشاتهم وآرائهم : « ... ومهما يكن من أمر فإنه لايمكنني أن أتخذ من مثل هذه المناقشات مبررا لنكران الجميل أو الجحود ، خاصة مع إنسان كرمني أكثر مما أستحق ورفع فوق كل الأقران قدري، لهذا فإن كل ما أبتغيه إما أن أخلد ذكراه بالثناء والتقريظ ، وإما أن أمر مر الكرام على تلك الأعمال التي وقعت في عهده ولم تكن صادرة عن نية صادقة ، فإذا ما طرحت جانبا ، وقد شرعت بالفعل في امتداح مسلكه ، تلك الموضوعات التي تعد شيئا رئيسيا للمديح ، وأعطيت انطباعا بأني قد جمعت معا كل ما يوجب التعنيف والتقريع ، فإني سوف أصبح بذلك أسوأ وغد على وجه الأرض متمثلا في ذلك ابن ليكسس Lyxes الذي تخير لتاريخه أقبح الأعمال التي اقترفها الإغريق (١٦٩).

«ومن ناحية أخرى ، هب أني تركت هذه الخطة جانبا بعض الوقت ، وأخذت على عاتقي كتابة تاريخ لحياة الأباطرة ، كيف يمكنني أن أتعامل مع تلك الأمور التي تعتبر موضوعا لمديحي إذا ما أهملت المادة التي تتصل اتصالا وثيقا بكتابة التاريخ؟ إن الأمر سوف يبدو وكأني قد ضللت طريقي ونسيت هدفي، أو كأني مسخت أو شوهت فن كتابة التاريخ وذلك بفشلي في تمييز المادة التاريخية الحقة ، أو الخلط بين قاعدة كل من شكلي الأدب اللذين تختلف أغراضهما تمام الاختلاف كل عن الآخر. والواقع أني كتبت كثيرا في مديح قسطنطين

١٦٩- تذكر بعض الروايات أن هرودوت هو ابن ليكسس ودريو Dryo وأنه ولد في هاليكارناسوس Halicarnassus في عام ٤٨٤ ق . م . وقد تعرض للهجوم من جانب العديد من كتاب الإغريق بدعوى أنه كان متحيزا في كتاباته لبني وطنه من الفرس . غير أنه بالاحتكام إلى كتاب De Malignitate Herodoti الذي ينسب عادة إلى بلوتارك Plutarch يمكن القول ان مناقشات المؤرخين والكتاب حول هذا الرأي عبث لا غناء فيه . أنظر : Fourteen Byzantine rulers, p. 167 n . i .

قبل أن أقدم على تنفيذ هذا العمل[١٧٠] ، وذلك باستحسان الجميع . وكان مديحى البالغ الذى خلعته عليه عن جدارة واستحقاق ، وإن كان الآخرون قد أخفقوا فى فهم منهاجى الذى بنيت عليه قصيدى . والحقيقة التى لا مراء فيها أن أعمال الأباطرة تتضمن السئ والحسن ، وهنا يجد الكتاب أنفسهم غير قادرين على الإدانة دون تحفظ أو الثناء بنية صادقة : ذلك لأنهم قد طبعوا على الجمع بين الصفات المتنافرة .

«أما الآن وقد رأيت لزاما علىّ أن أكتب تاريخا ، فإن هذا المنهج يعد أمرا مستحيلا ؛ ذلك أنه لايمكننى أن أضع نفسى فى موقف من يشوه الحقائق التاريخية ، فى الوقت الذى يجب أن تكون فيه الحقيقة أكثر أهمية من أى شئ آخر ، حتى ألجو بذلك من تعنيف أو لوم معاصرىّ، وإن كنت أفضل أن أغض الطرف عن أى اتهام. إن ما أكتبه الآن ليس اتهاما لأحد، ولامادة لإقامة الدعوى ضد أحد، ولكنه تاريخ حق ... وليس هناك على وجه الأرض إنسان بلا خطيئة ، ونحن نحكم على الإنسان بمقتضى ميزة خاصة تميزه أساسا عن غيره . لهذا فإنى لن أشعر بالخجل ، وأنا أعلن صراحة ما يمكن أن يكون قد اقترفه ذلك الإنسان (قسطنطين) من عسف أو طيش[١٧١].

«ولقد كان طبيعيا أن تحدونى الرغبة فى أن يكون إمبراطورى المفضل أنموذجا يحتذى، حتى ولو كان مثل هذا المديح والثناء مستحيلا بالنسبة للآخرين جميعهم . غير أن أحداث التاريخ لايمكن أن تخضع نفسها لرغباتنا أو تتوافق وميولنا . إذن .. فلتسامحنى هذه الروح السماوية (يعنى قسطنطين) وإذا ما جاء حديثى فى بعض الأحيان وأنا أصف عهده بعيدا عن الاعتدال ، وإذا لم أحاول إخفاء شئ وذكرت الحقيقة كما وقعت ، فليغفر لى ذلك ، وليكن على يقين أن أيا من أعماله النبيلة لن تمر هكذا دون ذكر ، بل سوف تنشر كلها، وبالمثل أيضا كل ما قد يصدر عن غير هذه الروح النبيلة، سوف يكون واضحا فى تاريخى هذا جليا»[١٧٢].

١٧٠- نظم بسللوس عددا من قصائد المديح ، وترك حوالى خمسمائة رسالة ما تزال باقية وسبع مرات من بينها واحدة لأمه ثيودوتا Theodote تكشف عن مدى حبه لها وامتنانه من أجل ما قدمته له لاستكمال دراسته . انظر . Fourteen Byzantine rulers, introd . p. 15

١٧١- Chron . VI 22-26 .

١٧٢- Ibid . 28 .

لو طبقنا ما جاء فى هذا التقرير الذى قدمه بسللوس على المعايير الحديثة لعلم التاريخ، لتبين لنا أن بسللوس قد وضع هذه المعايير أو جلها فى كتابته التاريخية إلى درجة لا بأس بها أمام ناظريه ؛ فهو بادئ ذى بدء يفرق بين العمل الأدبى الخالص الذى قد تداخله المبالغة أو الخيال ، والكتابة التاريخية التى تعتمد المنهج العقلى والتحليل المنطقى. فإذا كان قد رفع إلى عليين قدر «امبراطوره المفضل» فى أدبياته، إلا أنه يخضعه للتمحيص ويضعه تحت منظار النقد التاريخى، وإن كان يستمحيه عذرا فى ذلك . وهو يظهر تردده فى البداية وإحجامه عن تحمل مسئولية كتابة «تاريخ معاصر» للأحداث لحرصه الكامل على أن يسجل الوقائع التاريخية وأسبابها وملابساتها ونتائجها بدقة متناهية، وخشية أن يتهم لذلك بالتطرف المنهجى .

وهو لايريد أن يحيد عن الموضوعية الكاملة التى يشترطها البحث التاريخى الجاد، ولا أن يصبح كاتبا مأجورا يخط ما تمليه عليه أهواء الإمبراطور جزاء الإحسان ، بل يبتغى كتابة «تاريخ حق»[١٧٣] ، «لأن من يتصدى لكتابة التاريخ يصبح أقرب الناس شبها بالقاضى لايداهن ولايرتشى ، يتناول الأحداث دون ميل لهذا الجانب أو ذاك ، يتبنى فى كتابته سياسة الاعتدال والإنصاف ولايقدم فى بداية عرضه مناقشات أو قضايا خادعة من أجل التوصل إلى حكم مسبق بالصواب أو الخطأ ، بل يعرض لما حدث فى بساطة ونزاهة حتى وإن كان قد أصابه ممن يؤرخ لهم ضر أو نفع»[١٧٤]. ولاريب أن هذا القول يتفق كل الاتفاق ومعايير علم التاريخ، وهو من أجل هذا يضع أمامنا تصوره للمنهاج الذى يجد المؤرخ الموضوعى نفسه ملزما باتباعه، وفى الوقت ذاته خطوات البحث التاريخى، ويضيف ، «... إن منهاجى الذى أتبعه دائما لايقوم على أساس فحص الحادثة فى حد ذاتها بمعزل عن الأحداث الأخرى، سواء بدا ذلك حسنا أم شرا مستطيرا، ولكن تقصى الأسباب واستقراء النتائج المحتملة خاصة إذا كان من ينقلون المعلومات يهتمون بالمناقشات الافتراضية ، وقد برهنت التجربة على أن هذه المعالجة المنظمة أفضل ربما بكثير مما يتفق عليه خلفائى[١٧٥]. إن تاريخى لابد أن يكتب بطريقة

١٧٣- Chron. 161 .

١٧٤- Ibid . 161

١٧٥- Ibid . 30 .

منهجية ؛ فآتى فى المقدمة بمصادرى الرئيسية ، وأثنى بغربلة وتمحيص رواياتى ، وفى النهاية أورد الأحداث متتابعة. وأستطيع أن أؤكد الآن أن أدلتى وحججى سوف تبتعد عن كل ما هو زائف ، وكل مالم يفصح عنه سوف يظل سرا خفيا ، ولكن لن تكون هناك واقعة واحدة مما أسوقها يمكن أن يتطرق إليها الشك»[١٧٦].

ويمكن القول بأن بسللوس قد صدق وعده إلى حد كبير والتزم منهجه فى الكتابين الخامس والسادس والفصلين الأولين من الكتاب السابع، فهو يركز دائما على القول بأنه رأى بعينى رأسه باعتبار نفسه المصدر الرئيسى لكتابته ، وهو يعرض أحداثه وينتقد ويدلى برأيه ويقدم أدلته والبراهين . أما الكتب الأربعة الأولى ، فلأنه لم يكن شاهد عيان لأحداث زمانها فقد حاول جاهدا أن يلتزم بما فرضه على نفسه وإن لم يكن نجاحه فى ذلك كبيرا ، على حين أصبح المنهاج التاريخى فى بقية الكتاب السابع، خاصة فصله الأخير ، نسيا منسيا !!

ولما كان «التاريخ الزمنى» كما بينا يتناول تاريخ أربعة عشر إمبراطورا ، ولما كان قسطنطين التاسع «بطل» هذا التاريخ يحتل وحده ثلث مساحة المؤلف كله ، كان لابد أن يجئ الحديث عن الأباطرة الآخرين مختصرا . وبسللوس نفسه يعترف بذلك موجها حديثه إلى صديقه الحميم ليخودس ، الذى يبدو أنه كان على رأس الذين استحثوه لكتابة هذا التاريخ ، ويبين له فى الوقت ذاته النمط التسجيلى الذى ارتآه مفضلا إياه على غيره فى كتابته : «إن رغبتك الواضحة أن أقدم تاريخا مختصرا أكثر منه مؤلفا متقنا ، وحتى ألتقى مع رغباتك فقد تجاوزت فى تاريخى هذا عن كثير من الحقائق التاريخية الجديرة بالذكر ، ولم أحسب السنين تبعا للأولمبياد ، ولم أقسمها إلى فصول كما فعل ثوكيديديس ، ولكنى صرفت انتباهى إلى أهم الحقائق التاريخية وكل الوقائع التى استطعت إعادة تجميعها عند كتابة هذا التاريخ، وكما قلت فإنى لم أبذل أى محاولة لتمحيص وفحص الظروف الخاصة المحيطة بكل حادثة على حدة. إن خطتى بالأحرى هى أن أنتهج لنفسى طريقا وسطا بين أولئك الذين سجلوا الأعمال الإمبراطورية لروما القديمة من ناحية ، ومؤرخينا المعاصرين من ناحية أخرى، ولم أبتغ الإطناب

١٧٦- Chron. 46 ويقول إنه قبل أن يضع ثقته فيما يسمع ، فإنه يجعل دائما كل الروايات تحت الاختبار الدقيق. انظر Chron. IV 33

١٧٧- Chron . VI, 71 .

كما فعل الأولون، ولاسعيت إلى محاكاة المتأخرين فى الاختصار المخل ، وذلك خشية أن يصبح مؤلفا بالأحداث يزدحم ، ومخافة أن يسقط مالابد أن يذكر»(١٧٨).

ولقد سقط من بسللوس الكثير فعلا من الأحداث التاريخية ، وسقط منه أيضا الكثير من أسماء الشخصيات البارزة التى كان لها أثرها الكبير فى النواحى السياسية أو بصفة خاصة فى الميادين الثقافية في عصره ، وقد بينا ذلك فى مواضع كثيرة من قبل ، وربما يغفر له ذلك اعتبار عمله «تاريخا للبلاط» كما أسلفنا .

ويوقفنا كتاب بسللوس على عدد من الحقائق التاريخية التى كانت قد أصبحت فى بيزنطة أمرا مستقرا : فالامبراطور البيزنطى كان التقليد قد جرى باعتباره نائب المسيح على الأرض، وإذا كان الأباطرة الرومان والإمبراطورية بعد وثنية قد حملوا لقب الكاهن الأعظم Pontifex Maximus بل وظل أحد ألقابهم الرسمية حتى تخلى عنه جراتيان Gratianus(٣٧٥-٣٨٣) فإن الإمبراطور قد غدا بعد تحول الدولة إلى المسيحية الأسقف الأعلى ورأس الكنيسة ، وأضحى منصبه على قدر كبير من القداسة (١٧٩)، وهو يختار من قبل الله ليكون ممثلا له على الأرض ، وتضمن ذلك ديباجة المجموعة القانونية التى صدرت على عهد الأسرة الإيزورية باسم الإمبراطورين ليو الثالث وقسطنطين الخامس والمعروفة باسم «المختار» Ecloga : «إن الله قد عهد إلينا بحكم الإمبراطورية وقضت بذلك مشيئته ... ». وتأكد بصورة واضحة فى كتاب «المراسم» الذى وضعه الإمبراطور قسطنطين السابع فى القرن العاشر، حيث يتضح مدى الارتباط الكامل بين الإمبراطور والمسيح. وبسللوس يدعم هذه الحقيقة على صفحات تاريخه . ففى معرض حديثه عن المنصب الإمبراطورى ودفاعه عن مسلك الأباطرة المتقلب بصفة عامة دون تحديد لإمبراطور بعينه ، وإن كان يرمى من وراء ذلك إلى الدفاع عن قسطنطين مونوماخوس ، يقول : «... لكن الإمبراطور ، ذلك الرجل الذى ورث عن الله السلطة

١٧٨- Chron . VI 73 .

١٧٩- للمزيد من التفاصيل عن مركز الإمبراطور البيزنطى انظر الفصل الرائع الذى كتبته J . M. Hussey فى كتابها The Byzantine world تحت عنوان «الكنيسة والدولة : الحكومة الإمبراطورية ». وقد ترجم الباحث هذا الكتاب إلى العربية : «العالم البيزنطى» ص٢٣١-٢٥٢، وقارن موس : ميلاد العصور الوسطى، ص٥٠-٥١ .

العليا ...»(١٨٠). ثم يقول عند ارتقاء قسطنطين العاشر العرش: «إن هذا الإمبراطور - والحق يقال- قد اختير من قبل الله»(١٨١).

وهذه الحقيقة تبدت واضحة تماما حتى فى تصميم قاعة العرش البيزنطى، حيث كان يوجد كرسيان ، يحتل الإمبراطور أحدهما ويبقى الآخر الموجود إلى يساره شاغرا ، على اعتبار أن المسيح نفسه يشغله والإمبراطور يجلس عن يمينه ، باعتباره «نائب المسيح» Vicarius Christi على الأرض، بل إن الإمبراطور كان يشغل كرسى المسيح نفسه فى بعض المناسبات الرسمية واستقبال سفراء الدول الأجنبية (١٨٢).

ويرتبط بهذه الناحية مسألة أخرى على جانب كبير من الأهمية ، وهى الارتباط التام والوثيق بين الدولة والكنيسة ، مذ قبل قسطنطين الأول فى القرن الرابع باغتباط أن يتدخل فى أمور الكنيسة المسيحية والمسيحية ، ومن ثم سار الخطان الدينى والدنيوى متوازيين ، بل أصبحا خطا واحدا كما يعبر عن ذلك سقراط Socrates المؤرخ الكنسى فى القرن الخامس ، ولانكاد نجد امبراطورا واحدا منذ قسطنطين الأول حتى سميه الحادى عشر على امتداد ألف ومائة عام وينيف ، إلا وقد تدخل فى شئون الكنيسة والعقيدة وأدلى بدلوه فيها ، سواء علم من أمر اللاهوت شيئا أو لم يعلم . وارتضت الكنيسة البيزنطية قانعة هذه العلاقة الوطيدة بينها وبين الدولة، وكانت هذه الوحدة عاملا رئيسيا ومباشرا، ضمن عوامل أخرى عديدة ، من أسباب امتداد العمر بالإمبراطورية البيزنطية، ولم يحدث طوال سبعة قرون أن رفعت الكنيسة رأسها معارضة الإمبراطور إلا فى النذر اليسير. غير أن الأمور تبدلت من بعد على استحياء ؛ ذلك أن الكنيسة لما آنست من جانب الدولة ضعفا متمثلا فى شخص الإمبراطور وأجهزته الإدارية والعسكرية، حاولت أن تزيح عن نفسها ولو قليلا ثقل الوطأة الطويلة ، وزاد عنادها فى أواخر القرن الرابع عشر والنصف الأول من القرن الخامس عشر، عندما راح الأباطرة ، فى محاولة يائسة لإنقاذ الإمبراطورية ، يتخلون عن معتقدهم الأرثوذكسى وعدائهم التقليدى لكنيسة روما، ويرتمى بعضهم فى أحضان البابوية معلنا اعتناقه الكاثوليكية .

١٨٠- Chron. VI 27.

١٨١- Ibid. VII Const. X , 2 .

١٨٢- هسى ، العالم البيزنطى ، ص٢٣٠ .

وبسللوس يبدو فى تاريخه حريصا على التأكيد على هذه العلاقة الطويلة الوطيدة بين الدولة والكنيسة فى موقفين متتاليين له إزاء أسقف القسطنطينية المتعالى ميخائيل كريولاريوس ؛ الذى ذهب بشهرة ذائعة فى التاريخ بسبب الشقاق الأعظم الذى حدث فى عهده بين كنيستى روما والقسطنطينية عام ١٠٥٤ إبان حكم قسطنطين التاسع ، ذلك أنه ما إن اعتلى ميخائيل السادس العرش عام ١٠٥٦ وجمع حوله مستشاريه وعلى رأسهم بسللوس لبحث أمر الاضطرابات التى آثارها اسحق كومننوس فى آسيا الصغرى ، حتى كانت أولى المقترحات التى طرحها بسللوس على الإمبراطور لإقرار الأمور وتقوية قبضته ، التوصل إلى حل معين مع أسقف العاصمة الذى كان مغاضبا لميخائيل، ويبرر بسللوس ذلك بأن يالأسقف يمثل الآن فى هذه الظروف مركز قوة لايستهان بها » (١٨٣)، فلما أهمل ميخائيل هذا الاقتراح بل ورفضه تماما، كان هذا كما يقول بسللوس «كافيا للإطاحة به»(١٨٤).

ويبدو أن بسللوس كان مصمما على التخلص من كريولاريوس لغطرسته فى مواجهة الأباطرة، وربما خشية منه على سلطانه ، ولاشك أن مرد هذه الخيلاء من جانب الأسقف يعود إلى شعوره بوهن السلطة الإمبراطورية، ويدل على ذلك ما يذكره مؤرخنا عن «الصفاقة والصلف» اللذين كان يتحدث بها كريولاريوس إلى الإمبراطور اسحق كومننوس ، وقد تطورت الأمور بينهما إلى حد محاولة عزل البطريرك ونفيه عام ١٠٥٨ وتعيين قسطنطين ليخودس ، صديق بسللوس الحميم خلفا لكريولاريوس ، ويعلق مؤرخنا على ذلك بقوله : «إنه لن يروى قصة هذا الصراع بين الرجلين لأنها ملحمة طويلة» ويضيف قائلا «لو أن أحدا حاول جاهدا أن يتقصى ذلك الخلاف بينهما لأدان أحدهما لفتحه باب الصراع وأدان الثانى للنهاية التى انتهى إليها »(١٨٥).

والحقيقة أن إسحق كان يشعر بالامتنان تجاه بطريرك القسطنطينية لموقفه المؤيد له أثناء ثورته ضد ميخائيل السادس وعند اعتلائه العرش ، وفى مقابل ذلك تغاضى الإمبراطور عن

١٨٣- Chron. VII . 10 .

١٨٤- Ibid. 11 .

١٨٥- Ibid . 65 .

بعض حقوقه التقليدية تجاه الكنيسة ، فانتهز كريولاريوس الفرصة لزيادة نفوذه وسلطانه ، وتطاول على الإمبراطور ، «وانتعل فى الوقت ذاته الحذاء الأرجوانى الطويل» الذى كان يعتبر قصرا على الأباطرة وحدهم ، مما أثار بالتالي غيظ إسحق وحنقه ، فأصدر أوامره فى نوفمبر ١٠٥٨ بالقبض عليه ونفيه ، غير أن الأسقف رفض الامتثال لأوامر الإمبراطور ، وبناء على ذلك أوعز إسحق إلى بسللوس بإقامة الدعوى ضده، وسرعان ما دبج بسللوس مجموعة من الاتهامات ضد الأسقف تعد وثيقة على جانب كبير من الأهمية ، تنعت كريولاريوس بالهرطقة والخيانة مدعمة بالأدلة التفصيلية ، إلا أن بطريرك العاصمة مات عام ١٠٥٩ قبل أن تجرى محاكمته(١٨٦).

ومن الجدير بالذكر أن مثل هذه العلاقة الوطيدة بين الدولة والكنيسة التى جرى التقليد بها فى الإمبراطورية البيزنطية ، بحيث أمست الكنيسة دائرة من دوائر الحكومة، والأسقف موظفا كبيرا لدى الإمبراطور فى هذه الدائرة ، هذه السمة لم توجد فى الغرب الأوربى طيلة العصور الوسطى، بل على العكس من ذلك نشب صراع رهيب بين البابوية والإمبراطورية حول السيادة العالمية ، وقدمت الأدلة من فقهاء كل من الطرفين ، بل وزيفت النظريات لخدمة أغراض كل طرف منهما ، وقد ذهب الإذلال الذى منيت به الإمبراطورية سنة ١٠٧٧ فى إحدى جولات الصراع بينهما بشهرة واسعة فى التاريخ حيث عرف بإذلال كانوسا . وإن كان الأمر قد ظل سادرا طيلة قرنين تاليين (١٨٧).

١٨٦- Fourteen Byzantine rulers, p. 315 , n . i .

١٨٧- للمزيد من التفاصيل عن هذا الصراع الطويل بين البابوية والإمبراطورية، انظر:

Tierney , The Crisis of Church and State , 1050-1300 , with selected Documents; Baraclough , The Medieval Papacy , pp. 13-138 .

Thompson & Johnson , An introduction to Medieval Europe 300-1500 ;

Ullman , A history of the Papacy in the Middle Ages, pp. 4-200 ;

Corbett, The Making of the Middle Ages, pp. 115-149 ;

Hughes, A history of the Church , pp. 209-238 ;

وراجع للمؤلف ، «السمو البابوى بين النظرية والتطبيق » ، مجلة ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، المجلد الثالث، القاهرة ١٩٨٥ ، ص١٥٧-٢٢٦ .

حقيقة أخرى يؤكدها بسللوس فى كتابه هى اعتزاز البيزنطيين برومانيتهم؛ فالبيزنطيون الأباطرة والناس يعتبرون أنفسهم امتداداً طبيعيا للرومان الأسلاف ، فسلسلة الأباطرة الرومان لم تنقطع منذ أوكتافيانوس أوغسطس حتى قسطنطين الحادى عشر ، ولم يكن الانتقال من روما إلى القسطنطينية - فى نظرهم - إلا تغييرا للعاصمة الإمبراطورية فقط . وقد قامت النظرية السياسية الرومانية التى تبنتها الإمبراطورية البيزنطية على فكرة الإمبراطورية الواحدة، ورغم ضياع النصف الغربى من الإمبراطورية فى القرن الخامس ، واستيلاء الجرمان على روما عام ٤٧٦ ، إلا أن أباطرة القسطنطينية لم يعترفوا مطلقا من الناحية النظرية بضياع السيادة الرومانية على هذه الأقاليم، ولم تعترف بيزنطة بشارلمان «امبراطورا روماتيا» كما أرادته البابوية فى القرن التاسع، ولا بأوتو والإمبراطورية الرومانية المقدسة من بعد(١٨٨)، معتبرة نفسها الإمبراطورية الرومانية الوحيدة الحقة. وقد كتب الإمبراطور الألمانى فردريك الأول بارباروسا فى سنة ١١٧٦ رسالة إلى الإمبراطور البيزنطى مانويل كومننوس تقطر احتقارا بمناسبة الهزيمة التى منى بها مانويل فى آسيا الصغرى فى موقعة ميركيفاليوم سنة ١١٧٦ ، يصفه فيها بأنه «ملك اليونان» Rex Grecorum ويخلع على نفسه لقب «الإمبراطور الرومانى» ويعلن وراثته للأباطرة الرومان وادعاء السيطرة على «المملكة اليونانية» regnum Greciae يعنى الإمبراطورية البيزنطية . لكن هذا كله لم يفقد البيزنطى اعتزازه برومانيته باعتباره الوريث الشرعى أو بتعبير آخر الإمتداد الطبيعى التقليدى للرومان.

١٨٨- كان هناك اعتراف واهن بلقب الإمبراطور فقط من جانب الإمبراطور البيزنطى ميخائيل رانجابيه سنة ٨١٢ لظروف سياسية وعسكرية سيئة أحاطت به، ولكنه لم يكن له أى تأثير على التقليد السياسى البيزنطى فيما بعد ، ولم يعترف به خلفاؤه . للمزيد من التفاصيل عن امبراطورية شارلمان والإمبراطورية الرومانية المقدسة وعلاقتهما بالإمبراطورية البيزنطية وموقف هذه منهما، انظر : -

Einhard, The life of Charlemagne , pp. 80-81 ;

Bryce, The holy Roman Empire ;

Stephenson, Mediaeval history , p. 153 .

وانظر أيضا دكتور جوزيف نسيم يوسف : الدولة والإمبراطورية فى العصور الوسطى ، ص١٨٣-١٨٩ .
وكذلك : ديفز : شارلمان ، ترجمة دكتور السيد الباز العرينى ، ص١٧٢-١٨٧ .

ويسللوس يعبر عن إيمانه العميق بذلك فى أكثر من موضع فى تاريخه ؛ فهو يبدى أسفه وحسرته على الأيام الخوالى للإمبراطورية عندما كان البحر المتوسط بحيرة رومانية[١٨٩]، «أما الآن فلكم يتملكنى الغم والضيق ؛ ذلك أن أحدا لم يته بالرومان عجبا مثلى ، ولاحبا لوطنه كنفسى »[١٩٠]. ويذكر أن قسطنطين التاسع كان يعهد إليه بكتابة الرسائل الهامة إلى حكام الدول الأجنبية لثقته فيه، «ولما يعلمه عني من حب للوطن واعتزاز برومانيتى»[١٩١] . وتظهر هذه النعرة بصورة واضحة فى التعبير الذى يطلقه بسللوس فى صفحات كتابه على أعداء الدولة فى الشرق والغرب على السواء ، فهو يستخدم نفس التعبير اليونانى- الرومانى الذى جرى استخدامه فى العصور القديمة للحط من شأن الشعوب الخارجة عن نطاق اليونان الأقدمين والرومان من بعدهم ، حضارة وسيادة ، أعنى كلمة «البرابرة»[١٩٢].وقد بدا ذلك واضحا كما أسلفنا عندما أمره الإمبراطور قسطنطين التاسع أن يكتب إلى الخليفة الفاطمى المستنصر بالله، فلم يلتزم برغبة الإمبراطور فى الاعلاء من شأن خليفة المسلمين ، بل حرص فى رسالته على خلع صفات العظمة والفخار على الرومان. وفي حديثه عن الروس وما أحدثه تجارهم في القسطنطينية من شغب عام ١٠٤٣ ، وما كان من أمر قيامهم بحملة ضد القسطنطينية على عهد أميرهم ياروسلاف Iaroslav تحت قيادة إبنه الأكبر فلاديمير Vladimir ، وما انتهى إليه أمرها بالفشل ، وانتهت بها حملات الروس على العاصمة الإمبراطورية فى العصور الوسطى ، نقول إنه فى حديثه هذا ينسب ذلك الشغب إلى الضغينة والحقد اللذين يعتملان فى نفس أولئك «البرابرة» ضد «السيادة» الرومانية[١٩٣]. ويعلق «أوبولنسكى» Obolensky[١٩٤] على ذلك بقوله إنه بالرغم من أن المؤرخين فسروا الكلمة اليونانية hegemonia على أنها

١٨٩- Chron . VI , 153-154 .

١٩٠- Ibid . 154 .

١٩١- Ibid . 190 .

١٩٢- Ibid . I , 32 ; III 9-10 ; IV 40-41 ; VI 75 , 90-91 , 95 , 153 ; VII 45 , 63 ; 97 -70 ; VII Eud . 6 ; VII Rom IV 4 , 11 .

١٩٣- Ibid . VI , 90-95 .

١٩٤- The Byzantine Commonwelth , p. 225 .

تعنى «الإمبراطورية» ، إلا أن بسللوس وحده كان يصر على أنها تعنى «السيادة» أو «العظمة» الرومانية .

ورغم الثقافة العريضة التى أدركها بسللوس وتعدد قراءاته ودراساته فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية ، ورغم تهكمه من هذا «الهوس» الدينى الذى أصاب البيزنطيين فى كل شئون حياتهم ، والذى عبر عنه جريجورى أسقف نيسا Gregorius Nyssaeus فى آسيا الصغرى فى القرن الرابع الميلادى أروع تعبير [١٩٥]، إلا أن بسللوس كبيزنطى يعيش هذا المناخ لم تستطع ثقافته العريضة أن تمحو من نفسه ما أصبح فى بيزنطة ضرورة حياة ، ومن ثم نراه فى تاريخه يفعل ما اطمأنت إليه أفئدة الجموع : فهو يعزو الكثير من الأحداث إلى الغيبيات ويؤمن بالمعجزات ويدعم بها فى بعض الأحيان رواياته التاريخية . ولعل هذا مما ينتقص شيئا ما من قيمة كتابته فى هذه المواضع ، وهو يقول: «من عادتى أن أنسب إلى العناية الإلهية التحكم فى الأحداث الكبرى، أو بالأحرى فأنا أعتبر كل ما يحدث صادرا عن السماء»[١٩٦] . وهو يطبق ذلك على الإمبراطور ميخائيل الخامس الذى اعتلى العرش بتدبير الله «الذى يعلم علم اليقين أن هذا القيصر سوف يقود أسرته إلى حتفها» ويتحدث عن دور

١٩٥- شهد القرن الرابع جدلا فكريا رهيبا بين آباء الكنيسة حول المسيح ، وظل هذا الجدل الدينى سمة الفكر البيزنطى طوال تاريخ الإمبراطورية ، حتى أصبحت «المناقشات البيزنطية» تعبيرا عن كل جدل فكرى عقيم ، خاصة وقد شارك فى هذا الصراع كل الطوائف دون تمييز ، من الإمبراطور إلى رجل الشارع . وقد وصف اللاهوتى الكبادوكى الشهير جريجورى أسقف نيسا هذه الحال فى القرن الرابع فى القسطنطينية بقوله : «لقد امتلأ كل شئ بأولئك الذين يتحدثون بغوامض الكلم، وازدحمت بهم الطرقات والأسواق والأزقة . فإذا ما سألت عما يجب أن أدفعه ثمنا لشئ فلسفوا إلى الإجابة حول المولود والمخلوق ، وإذا ما رغبت فى الوقوف على ثمن الخبز ، أجابنى البائع بأن الأب أعظم من الابن ، وإذا ما بحثت عما إذا كان حمامى قد أعد ، جاءتنى الإجابة تقول إن الابن خلق من العدم !!» . ولقد ثار الجيش ذات مرة وطلب إلى الإمبراطور قسطنطين الرابع (٦٦٨-٦٨٠) أن يشرك معه فى الحكم أخويه هرقل وتيبريوس ، ولما سألهم الإمبراطور لم يريدون ذلك، أجابوه : «لأننا نؤمن بالثالوث فلنتوج أباطرة ثلاثة!!». وقد ظلت هذه الصورة ديدن البيزنطيين طيلة عصر الإمبراطورية البيزنطية .

١٩٦- Chron . IV 30 ; VII 98 .

السماء فيما وقع لأسرة ميخائيل الخامس (١٩٧)، وما كان من أمر إنقاذ جيوش قسطنطين العاشر بمعجزة من السماء ،ويشبه هذه المعجزة بما حدث لموسى النبي ويقول : «لو قدر لى أن أنظم قصيدة فى امتداح قسطنطين وليس تاريخا دقيقا ، لوجدت فى هذه المعجزة مادة كافية لمديحى تفوق كل تصور»(١٩٨).

بل إن الأسطورة الذائعة التى أحاطت بأيقونة العذراء على امتداد التاريخ البيزنطى ، وجدت لها صدى فى تاريخ بسللوس : فقد جرى إيمان الجموع بوضع أيقونة العذراء فوق أى اعتبار للخطط العسكرية أو المهارات القتالية أو الاستعدادات اللازمة للحرب ، فهى باعتبارها حامية القسطنطينية أنقذت المدينة من السقوط فى أيدى الفرس والأفار سنة ٦٢٦ بينما كانت جيوش هرقل خارج المدينة، فقد ألقت الرعب والفزع فى قلوب هؤلاء وأولئك فور ظهورها على أسوار القسطنطينية، وتناسى الناس مهارة هرقل العسكرية وخططه الحربية فى حربه الطويلة ضد الفرس، وعزوا نصره عليهم إلى حمله أيقونة العذراء معه ! ويكرر ميخائيل بسللوس نفس الصورة بحرفيتها عند حديثه عن الحملة التى قادها الإمبراطور رومانوس الثالث سنة ١٠٣٠ حيث لقى هزيمة مروعة على يد المسلمين بالقرب من حلب ، وتفرق عنه جنوده ولم يستطع أن يجمع شتات نفسه وفلول جيشه إلا بعد العثور على إيقونة العذراء!!(١٩٩).

١٩٧- Chron. V . 24 .

١٩٨- Ibid . VII Const. X , 23-24 .

١٩٩- يصف بسللوس فى مشهد روائى رائع ما كان من أمر العثور على إيقونة العذراء وتأثيرها على نفس الإمبراطور وجيشه : فبعد تأكد الجنود الفارين من بقاء الإمبراطور حيا يقول بسللوس: «وأهم من ذلك أن واحدا من الجند قدم بأيقونة العذراء ، تلك الصورة التى اعتاد الأباطرة الرومان حملها معهم فى كل حملاتهم كدليل لهم وحارس يقيهم شر أعدائهم ، وكانت هى الوحيدة التى لم يستول عليها الأعداء عند مهاجمتهم لخيمة الإمبراطور، وعندما وقع بصر الإمبراطور عليها تنفس الصعداء، وأطبق عليها بكلتا يديه ، وليس بمقدورى أن أجد الكلمات التى يمكن أن أعبر بها عن كيفية احتضان الإمبراطور لها وكيف بللها بدموعه ، وكيف راح ينشد رحمتها وعونها كما حدث فى الماضى وأنقذت قوى الرومان من أزمات محققة . ومنذ تلك اللحظة امتلأ قلبه بكل الشجاعة » . Chron . III 10-11

ولقد صاغ بسللوس أحداث تاريخه بأسلوب جذل فخيم ، يصعب على الترجمة كما يقول سوتر ، وإن كان يتميز فى الوقت ذاته بسخرية لاذعة خاصة عندما يتصل الأمر بنقده لتصرفات هذا الحاكم أو ذاك ، مما أضفى على الكتاب طابعا مميزا لايبعث فى نفس قارئه أى ملل أو سأم، ولايعيب انسياب الأسلوب واتساق العرض، إلا ما كان يقدم عليه بسللوس فى كثير من المواضع من قطع سياق الحديث عن الوقائع التاريخية ليتناول موضوعات شخصية بحتة تتصل به نفسه أو تتعلق بأمور تدور خلف أستار القصر الإمبراطورى لا صلة لها بما يرويه، وهذا ظاهر بصفة خاصة ابتداء من الكتاب الرابع أى منذ أصبح بسللوس قريبا من القصر[٢٠٠] .

ومن أطرف المواقف الساخرة التى يقصها بسللوس ، ذلك المشهد الذى يصف فيه صورة الإمبراطور قسطنطين التاسع وقد جلس هو ومعشوقته سكلرنا Sclerena وزوجه الإمبراطورة زوى فى المقدمة ، ثم السناتو وقد اصطف ليشاهد هذا التناغم الشاذ !! وقد احمرت وجوههم خجلا بينما راح بعضهم يتحدث همسا ، وعلى الرغم من الحيرة والارتياك الذى تملك أعضاءه ، إلا أنهم جميعا كانوا يذكرون هذا «الوفاق» دائما كما لو كان شيئا قد هبط عليهم من السماء»[٢٠١]. ويعلق بسللوس على ذلك بقوله : «إن زوى لم تعد تشعر بالغيرة من منافستها مطلقا ، فزمان الغيرة فيها قد مضى ، وزمان الجنس عندها ولى!! »[٢٠٢].

كما أن بسللوس كان ناقدا صارما ومحقا فى كثير من المواقف فيما يتعلق بسياسات الأباطرة المختلفين الذين عاصرهم ، بحيث لم يكد ينجو من قلمه إلا القليل؛ فهو يصف باسل الثانى الذى ذهب بشهرة ذائعة فى التاريخ باسم «سفاح البلغار» Bulgaroctonus بقوله : « إنه لَعَيْن الحق أن يقال إن السمعة التى اكتسبها باسل طيلة عهده كحاكم، قامت على الرعب أكثر منها على الولاء! وكلما تقدم به العمر وازدادت مداركه وكثرت خبراته قل اعتماده على غيره من أولى الألباب ... ولم يلق بالا على الإطلاق لرجال عهده المثقفين ، بل على العكس

٢٠٠- Chron. IV 12 , 25 , 25 ; V 9-10 , 19 , 34 , 35 , 42 VI 22 , 28 , 36-46 , 157 -161 ; VI Theod . 10-12 .

٢٠١- Ibid . VI 58 .

٢٠٢- Ibid . 62 , 151 .

كان يكن للطبقة المتعلمة الاحتقار كله ويزدريهم»(٢٠٣). ويعيب على قسطنطين الثامن خموله ودعته وانغماسه فى اللهو والعبث ؛ ذلك أنه «أهمل شئون الإمبراطورية وصرف كل اهتمامه إلى الشطرنج والنرد والمسرح ، وكان متحمسا لكل ذلك إلى الحد الذى لم يكن يسمح لأحد من السفراء أن يقطع عليه بهجته وانشغاله بهذه الألعاب حتى لو اضطر إلى الانتظار طويلا»(٢٠٤). أما رومانوس الثالث فكان مولعا بالأنطونيين فكرا وبماركوس أوريليوس كفيلسوف ، ومن ثم صرف عنايته إلى ناحيتين هما دراسة الأدب وعلوم الحرب ، وبينما كان فى الأخيرة جاهلا تماما ، فإنه فى الأولى كان بعيدا عن المعرفة!!»(٢٠٥). وعندما حاول رومانوس جاهدا أن يوسع حدود دولته ، ثم ضاعت من بعد جهوده سدى ، وسمه بسللوس بأنه «كان يريد أن يتشبه بالأباطرة السابقين أمثال تراجان وهادريان وربما قيصر وأوغسطس ، بل وربما قبل هؤلاء جميعا الإسكندر المقدونى ، فى حروبهم وأعمالهم السلمية فى آن واحد ، ولكنه كان كمن يبنى قلاعا فى الهواء »(٢٠٦).

وقد قدمنا من قبل انتقاداته المريرة للإسراف والبذخ اللذين اتسم بهما عهد قسطنطين التاسع وزوى وثيودورا بصورة تفوق الوصف ، «... كما لو كان باسل (الثانى) قد ملأ الخزانة بالأموال لتنفق على أيديهم دون وعى ... إن تجمع السحب فى تلك الأيام وكان نذيرا بهذا الطوفان الذى نغرق فيه الآن ... وقد لاحظت دائما أن الأباطرة قبل إسحق (كومننوس) قد أرهقوا الخزانة لصالح أهوائهم من أمرها عسرا ، فالدخل العام لم ينفق لإعادة تنظيم القوات العسكرية بل فى المظاهر البراقة ... وتبددت الثروة الإمبراطورية فى وجوه ثلاثة ، أولها فيما يدخل السرور على قلوبهم والثانى لتزيين أبنيتهم الفخمة، والثالث لجعل أولئك الكسالى بطبيعتهم يعيشون حياة رغيدة كلها الرفاهية ، بينما ضيق على الجيش وعومل معاملة غير كريمة»(٢٠٨). وهو يصور الوهدة التى ترددت فيها الإمبراطورية عندما تقلد أمرها إسحق

٢٠٣- Chron . I , 29 .

٢٠٤- Ibid . II 9 .

٢٠٥- Ibid . III 2 .

٢٠٦- Ibid . 8-4 .

٢٠٧- Ibid . VI 8-9 .

٢٠٨- Ibid. VII 59 .

كومننوس تصويرا رائعا بقوله : «يمكننا تشبيهها بهيكل ضخم ذى رؤوس عدة ورقبة غليظة قصيرة قبيحة ، وأياد تفوق الحصر وأقدام لاعدّ لها ، تقرحت معدته وتورمت منه بعض أعضائه ، وتناثرت أشلاء بعضه الآخر، انتفخ هنا بمرض الاستسقاء ، وسقم هناك بفعل السل، والآن يحاول إسحق علاج كل ذلك بجراحة عامة»(٢٠٩).

أما فيما يتعلق برومانوس الرابع فموقف بسللوس منه ليس بخاف على أحد، وإن كان مؤرخنا قد تجاوز معه حدود الموضوعية ، ومع إعجابه الشديد بميخائيل السابع ، تلميذه ، إلا أنه لم يستطع أن يمنع قلمه من التعبير بصدق عما انحطت إليه الإمبراطورية فى سبعينيات القرن الحادى عشر عندما ذكر «أن الأمور قد وصلت فى الشرق والغرب إلى الحضيض »(٢١٠).

ولم يكن نقد بسللوس لاذعا فقط لأباطرة زمانه ، بل تعداه إلى حالة المجتمع بصفة عامة، وما انحط إليه من اختفاء النبالة الأصيلة وظهور النبالة المتسلقة التى لا حدود لها ولاثقافة لديها، ولقد كان فى حديثه عن النبالة يقرن دائما بين الفضيلة والموهبة ، ويقر بقيمة الأصول النبيلة ، ويعلن سخطه بشكل واضح على ذوى الأصول الوضيعة الذين يشقون طريقهم إلى السلطة عبر وسائل غير أخلاقية ، وينتقد بشدة ذلك التحرك الصاعد من الطبقات الدنيا إلى الأعلى والذى ابتلى به المجتمع فى زمانه ، وكان يؤكد دائما على أن النبالة فى الدول الراقية عند الأسلاف الأقدمين كانت متميزة تماما عن الضعة والتدنى، وقد اتضحت كل هذه المعانى فى كثير من رسائله وكتاباته الأخرى التى تركها إلى جوار «التاريخ الزمنى» (٢١١)، ونراه يعبر عن ذلك بعبارات بليغة فى قوله « ... أما فى دولتنا هذه فإن هذا التمايز الرائع بين النبالة والضعة، قد تم هجرانه بازدراء ، واعتبرت النبالة عبثا ، ففى بيزنطة نجد كثيرا من موظفى الإدارة كانوا من قبل عبيدا جلبوا من بين البرابرة ، وأسندت الوظائف العليا فى الإمبراطورية لا إلى أناس فى منزلة بريكليز Perikles أو ثميستوكليز Themistokles بل إلى حقراء أدنياء مثل سبارتاكوس Spartacus (٢١٢).

٢٠٩- Chron. 51 .

٢١٠- Ibid . VII Michael VII 7 .

٢١١- Kashdan & Epstein, Byzantine Culture, p. 105 .

٢١٢- Chron. VI 134 .

بهذا الأسلوب التهكمى الساخر فى الكتابة كان بسللوس أنموذجا احتذاه بعض الكتاب الذين أتوا بعده فى تقديم الموضوعات الجادة فى صورة هزلية ، بل إن أمور العقيدة لم تسلم- على النحو الذى رأينا- من هذا الاتجاه. ولقد راح بسللوس يهاجم أحد الرهبان لسكره الذى لايكاد يفيق منه مما جعله أضحوكة أثناء القداس(٢١٣) . هكذا نجد أن بسللوس المؤرخ لم يكن يقل مقدرة عن بسللوس البيانى والفيلسوف ، ولاذكاء عن بسللوس السياسى. ومما لاشك فيه أن الفضل يعود إليه فى الدرجة الأولى فى إحياء الآداب والعلوم الإنسانية فى الإمبراطورية البيزنطية فى القرن الحادى عشر، على الرغم من أنه لايمكن استثناؤه من بين الذين خلطوا بين التقوى والورع وبين الشعوذة والخرافات(٢١٤) . ولكن الجهود التى بذلها بسللوس من خلال إعادة تنظيم الجامعة كان لها أكبر الأثر فى خلق حالة طيبة من الأنشطة الثقافية خلال القرون التى تبقت من عمر الإمبراطورية على عهد أسرتى كومنين وأنجلوس، بحيث أصبح التحمس للآداب الكلاسيكية هو السمة الواضحة آنذاك ، وأصبحت محاكاة الكتاب والأدباء والفلاسفة الإغريق أمرا شائعا. وكان بسللوس دون ريب رائدا فى هذا المجال، وإن كان هذا قد أدى بالتالى إلى قلة إن لم يكن انعدام المعرفة باللاتينية وآدابها عند معظم كتاب هذه الفترة فى بيزنطة ، إلى الحد الذى كان ممكنا فيه أن يخلط بسللوس بين قيصر وشيشرون. ويعود هذا فى الواقع إلى التباعد السياسى والفكرى والعقيدى الذى كان حادثا لزمن طويل ، يعود إلى القرن الرابع ، بين العالمين اليونانى واللاتينى .

لقد كان بسللوس دون ريب أعظم مثقفى عصره بلا منازع ، والوحيد بين أقرانه الذى جعل من أحلام وطموحات القيصر برداس والإمبراطور قسطنطين التاسع حقيقة واقعة ، لقد غدا الحارس الأمين على التقاليد القديمة، وفى الوقت نفسه الضمين الأساسى لكل ما هو جديد فى الفكر ومبتكر ، وهكذا أضحى المسئول الرئيسى عن حركة التجديد والإحياء التى يمكن أن يكون أفضل وصف لها هو «حركة الإنسانيات »(٢١٧).

والحقيقة أن أحدا لايستطيع فى النهاية أن ينكر ما كان عليه بسللوس من دقة الملاحظة وقوة الذاكرة وحصافة الرأى وبلاغة الأسلوب وسعة الثقافة «لقد كان رأسه - كما قيل- يحتوى على عينى فنان».

٢١٣- Baynes & Moss, Byzantium , 250 .

٢١٤- C . M . H . IV 2 , p. 297 .

٢١٥- Vasiliev , Byzantine empire, I , pp. 487-488 .

٢١٦- Ware, Orthodox Churuch, p. 54 .

٢١٧- Rice , everyday life in Byzantium , p. 203 .

المصادر والمراجع

أولا - المصادر

أ- المصادر العربية

- إبن الأثير : عز الدين أبو الحسن على، ت ٦٣٠ هـ .

الكامل فى التاريخ ، بيروت ١٩٧٨ .

- إبن العبرى : جريجوريوس الملطى ت ٦٨٥هـ .

تاريخ مختصر الدول ، بيروت بدون تاريخ .

تاريخ الزمان ، بيروت ١٩٨٦

- إبن قتيبة : أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينورى ت ٢٧٦ هـ:

المعارف ، القاهرة ١٩٦٩ .

- إبن كثير : الحافظ أبو الفدا ت ٧٧٤هـ:

تفسير القرآن العظيم ، القاهرة بدون تاريخ .

- إبن هشام : أبو محمد عبد الملك ت ٢١٨ هـ:

السيرة النبوية ، بيروت ١٩٧٥ .

التيجان فى ملوك حمير ، صنعاء ١٩٧٩ .

- الأزرقى : أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد ت ٢٢٤ هـ:

أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، بيروت بدون تاريخ .

- الألوسى : أبو الفضل شهاب الدين محمود ت ١٢٧٠هـ .

روح المعانى، القاهرة بدون تاريخ .

- البلخى : أبو زيد أحمد بن سهل .

البدء والتاريخ ، القاهرة ١٩٠٣ .

- الخازن : علاء الدين على بن محمد بن ابراهيم .

لباب التأويل فى معانى التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، القاهرة ١٩٧٢ .

- الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠ هـ.

تاريخ الأمم والملوك ، بيروت بدون تاريخ .

جامع البيان من تأويل آى القرآن، القاهرة ١٩٦٨، وبهامشه تفسير النيسابورى

- القرطبى : أبو عبدالله محمود بن أحمد الأنصارى ت ٦٧١ هـ:

الجامع لأحكام القرآن ، القاهرة ١٩٧٦ .

- الفخر الرازى: محمد الرازى فخر الدين ت ٦٠٤ هـ:

التفسير الكبير ومفاتح الغيب ، بيروت ١٩٨١ .

- المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين ت ٣٤٦هـ .

مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ١٩٨٢ .

- مؤرخ مجهول: استشهاد الحارث ، مخطوط رقم ٤٤٣ ، مكتبة الكونجرس واشنطن قام بنشره مصورا دون تحقيق يورى ميخائيل كوبيشيانوف فى كتابه الشمال الشرقى الأفريقى فى العصور الوسيطة المبكرة وعلاقته بالجزيرة العربية من القرن السادس إلى منتصف السابع ، عمان ١٩٨٨ .

- النسفى : أبو البركات عبدالله أحمد بن محمود ت ٧٠١ هـ :

تفسير القرآن الجليل ، بيروت بدون تاريخ .

- اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب ت ٢٨٤هـ:

تاريخ اليعقوبى ، بيروت ١٩٦٠ .

- ياقوت الحموى : شهاب الدين أبو عبدالله الرومى ت ٦٢٦ هـ :

معجم البلدان ، بيروت ١٩٥٧

ب- المصادر غير العربية

AGATHIAS , Historia , ed . by L. Dindrof , in Corpus Scriptorum Historia Byzantinae (CSHB) , Bonn 1828 .

AMBROSIUS , Ad Valentianum Imperatorem , epp. XVII, XXI , in Nicene and Post- Nicene Fathers of the Christian Church , (NPNF) , ed by Philip Schaff & Henry Wace, Michigan, Vol . X 1989 , pp. 411-414 , 423-429 .

ANNA COMNENA , Alexiad , trans . by E. A . S . Dawes, London 1967 .

ANTE- NICENE FATHERS , (ANF) , ed . by A . Roberts & J . Donaldson, Michigan.

ATHANASIUS, Apologia ad Imperatorem Constantium, (NPNF) IV pp. 238-253 ; Depesitio Arii, (NPNF) IV pp. 69-71 ; De Sententia Dionysii , (NPNF) IV pp. 176-187 ; Historia Arianorum ad Monachos, (NPNF) IV pp. 270- 302; Orationes Contra Arianos, (NPNF) IV pp. 306-447 ; Vita S. Antoni (NPNF) IV pp. 195-221 .

Book of HIMYARITES, Fragments of a hitherto unknown Syriac work , ed. by Axel Moberg , London 1924 .

CHRONICON PASCHALE, in (CSHB) 2 vols. ed . by L. Dindorf, Bonn 1832 .

CONSTANTINUS VII PORPHYROGNITUS, De Adminstrando Imperio , trans by R. J. H . Jenkins , Budapest 1949 .

EINHARD, Vita Caroli magni , trans . by Lewis Thrope in (Two lives of Charlemagne by Einhard and Notker the Stammerer) Penguin book 1969 .

EUSEBIUS, Historia Ecclesiastica , (NPNF) I . pp. 73-387 ; Vita Constantini, (NPNF) I pp. 473-580 .

EVAGRIUS, Historia Ecclesiastica, London 1854 .

GENNADIUS, De viris illustribus, (NPNF) III pp. 385-402 .

HIERONIMUS, De viris illustribus , (NPNF) , III pp. 359-384 ; Vita S. Pauli primi erimitac (NPNF) VI pp. 299-303 .

IOANNES EPHESUS, Lives of the Eastern Saints, the Syriac text with an English translation , ed. and trans . by E. W . Brooks, in Patrologia Orientalis (PO) XVII, XVIII , XIX , Paries 1923-1925 .

IOANNES LYDUS , De Magistratibus , ed . by B . G . Neibuhr (CSHB) Bonn 1873 .

IOSHUA STYLITES, Chronographia, trans . by W . Wright, Cambridge 1882 .

IULIANUS, epistola ad Basilium , (BASILIUS , epp . XL , (NPNF) VIII pp. 141-142 .

IUSTINANAS, Codex Iustinianus, traduction , tome premier, Paris 1806 ; Digesta, trans . by C. H . Monro, in 2 vols. Cambridge 1904-1909 ; Novellae , trad. 2 tom Paris 1811-1812 .

LACTANTIUS , De mortibus persecutorum , (ANF) VII pp. 301-322 .

MALALAS , Chronographia, ed. L . Dindrof , (CSHB) , Bonn 1831 .

MARCELLINUS COMES, Chronographia, in Potrologia cursus Completus Series Latina (PL) ed. Migne , vol . LI , Paris 1846 .

MENANDRUS, Excerpta de Legationibus Romanorum, ed . B . G . Neiburhr (CSHB) Bonn 1840 .

MICHAEL SYRIUS , Chronographia, ed . et trad . J . B . Chabot . tome II , Paris 1904 .

NICENE and post NICENE FATHARS of the Christian Church, ed . Philip

Schaff & Henry Wace , Michigan 1952 et sqq .

PALLADIUS , Historia Lausiaca , trans . by Budge in (Stories of the Holy Fathers), London 1934 .

PLINIUS , Epistola ad Trianum , XCVI , in (Documents of the Christian Church, Selected by Henry Bettenson) Oxford 1956 .

PROCOPIUS , De Bello Gothico , ed . and trans . by H . B . Dewing , London 1940 ; De Bello Persico , ed . and trans. by H. B. Dewing , 2 vols . London 1914 ; Historia Arcana , trans . byG. A . Williamson , London 1966 .

PSELLUS, Chronographia , trans . by E. R. A . Sewter . Penguin book 1966.

RUFINUS, Historia Monachrum (PL) XXX 391-462 .

SOCRATES. Historia Ecclesiastica , (NPNF) II pp. 1-178 .

SOZOMENOS . Historia Ecclesiastica , (NPNF) II pp. 239-427 .

SUETONIUS , Vita Neronis , XVI , in (Documents of the Christian Chruch, Selected by H. Bettenson) Oxford 1956 .

SYMMACHUS, Memorial of SYMM . (NPNF) X pp. 414-417 .

TACITUS , Annales, XV , 44 , in (Documents of the Christian Chruch , Selected by H . Bettenson) Oxford 1956 .

THEODORETUS, Historia Ecclesiastica (NPNF) III pp. 33-139 .

THEOPHANES, Chronographia , (CSHB) 2 vols . ed. I . Classem , Bonn 1839 .

ZACHARIAS MITYLENE, Chronographia, trans . by F. J. Hamilton & E . W . Brooks, London 1899 .

ZONARAS, Epitomae Historiarum , (CSHB) 3 vols . ed . M. Pinder & H. Battner wobst . Bonn 1897 .

ثانيا - المراجع

Academy of Sciences of the U . S. S. R. institute of history , A Short history of the U . S. S. R. trans . from Russian by Greorge H. Hanna, Moscow 1965 .

Atiya (A. S.) , A history of Eastern Christianity , London 1968 .

Bainton (R.) , Early Christianity, NewJersy 1960 .

Baker (G.P.) , Justinian , London 1932 .

Barker (E.) , Social and Political thought in Byzantium , Oxford 1957 .

Barraclough (G.) , The Medieval Papacy , London 1935 ; The Medieval Empire : Idea and reality .

وقد قام دكتور جوزيف نسيم يوسف بترجمة هذا البحث الأخير وقدم له وعلق عليه ونشره فى كتابه «الدولة والإمبراطورية فى العصور الوسطى، الاسكندرية ١٩٦٦ .

Bausani (A.) , The Persians from the earliest days to the twentieth Century , London 1935 .

Baynes (N.) , & Moss (H.) , Byzantium, an introduction to the East Roman Civilization , Oxford 1969 .

Benjamin (S. G. W.) , The Story of Persia , London 1986 .

Bettenson (H.) , Documents of the Christian Chruch , Oxford 1956 .

Boak (A. E.R) , A history of Rome to 565 A. D. New York 1960 .

Bokenkotter (TH.) , A Consise history of the Catholic Chruch , New York 1979 .

Brook (Ch.) , Europe in the Central Middle Ages, 962-1154 , London 1969 .

Bryce (J. A.), The holy Roman Empire , London 1950 .

Budge (E. A. W.) Stories of the Holy Fathers , London 1934 .

Bullough (S.) Roman Catholicism , London 1963 .

Bury (J. B.) History of the Later Roman Empire , 2 vols . London 1931 ; The Nika riot , in Journal of Hellenic Studies (JHS) , XVII 1897.

Cambridge Ancient History , ed . by J. B. Bury, S. A. Cook & F. E. Adcock , 12 vols . Cambridge 1936 .

Cambridge Medieval History , ed . by J. B. Bury, 5 vols . Cambridge 1964 .

Cameron (A.) , Circus Factions , blues and greens at Rome and Byzantium , Oxford 1976 ; Demes and Factions , in (Byzantinische Zeitschrift) 1974 ; Heresies and Factions , in (Byzantion) XLIV, 1974 .

Cantor (N.) , Medieval history , the life and death of a Civilization , New York 1963 .

وقد نقل دكتور قاسم عبده قاسم هذا الكتاب إلى العربية تحت عنوان «التاريخ الوسيط ، قصة حضارة ، البداية والنهاية ، جزءان ، القاهرة ١٩٨٣ ،

The Middle Ages , New York 1964 .

Cary (M.) , A history of Rome down to the reign of Constantine , London 1954 .

Chadwick (H.) , The early Chruch , Penguin book , 1974 .

Christenson (A. S.) , Lactantius the historian , Copenhagen 1980 .

Copleston (F.) , A history of philosophy, Medieval Philosophy, Part I, New York 1962 .

Corbett (J.) , The Papacy, Torento 1956 .

Creed (J. M.) , Egypt and the Christian Chruch , in (Legacy of Egypt) , Oxford 1974 .

Davis (R. H. C.) , A history of Medieval Europe from Constantine to St. Louis, London 1957 .

Dawson (ch.), Religion and the rise of western Culture, New York 1958 .

De wulf (W.) , Philosophy and Civilization in the Middle Ages , New York 1953 .

Dictionary of Christian biography, 4 vols . ed . by w. Smith & H. Wace, London 1877 .

Diehl (Ch) , Byzantium, greatness and decline, trans . by Noami Walford, New Brunswick 1957 ; Theodora, empress of Byzantium , New York 1972.

Dill (S.) , Rome and Society in the last Century of the western Empire , London 1919 .

Downey (G.) , Constantinople in the age of Justinian , Oklahoma 1960 ;

A history of Antioch in Syria from Seleucus to the Arab Conquest , New Jersey 1961 .

Dubnov (S.) , History of the Jews, vol . 2 London 1968 .

Duchesne (M. L.) Early history of the Christian Church from its Foundation to the fifth Century , trans . in 3 vols . London 1950 .

Dvornik (F.) Origins of intelligance Services , New Jersy 1974 .

Ghirshman (R.) Iran from the earliest times to the Islamic Conquest , London 1954 .

Haskins (Ch.) , The Normans in European history , New York 1966 .

Hefel (C.J.), History of the Coumcils of the Church , 5 vols . Edinburgh 1972 .

Hodgkin (TH.) , Italy and her Invaders, vol . III , Oxford1896 .

Holmes (W. G.) , The Age of Justinian and Theodora, 2 vols . London 1912 .

Hughes (Ph). A history of the Church , vol . 2 , London 1948 .

Hussey (J. M.) , The Byzantine World , london 1967 .

وقد قام دكتور رأفت عبد الحميد بترجمة هذا الكتاب إلى العربية وقدم له وعلق عليه، تحت عنوان : العالم البيزنطى القاهرة ١٩٨٢ .

Jackson (F.) , The history of the Christian Church from the earliest times to the death of st. Leo the Great A. D. 461 , London 1909 .

Jarry (J.) , Heresies et factions dans L`Empire Byzantin, du IV e au VII e Siecle , Le Caire 1968 .

Jenkins (R.) , Byantium , the imperial Centuries , A. D. 610-1071 , London 1966 'Commentary on "De Administrando Imperio, vol.II .

Johnson (P.) , A history of the Christianity , Pelican book , 1982 .

Jones (A. H. M.) , Constantine and the Conversion of Europe, London 1948 ; The decline of the Ancient World , London 1975 ; The Later Roman Empire , 3 vols . Oxford 1964 .

Kazhdan (A. P.) & Epstein (A. W.), Change in Byzantine Culture in the eleventh and Welfth Centuries, London 1985 .

Kawar (I.) , Byzantium and Kinda, in (Byzantinische Zeitschrift), vol. LIII, 1960; The Arab in the Peace treaty of A. D. 561 , in (Arabica) vol . III , Leiden 1956 .

Knowles (D.) , The evolution of Medieval thought , Hongkong 1976 .

Kolbert (C. F.), The Digest of Roman Law , Pengui nbook 1979 .

Latourette (K.S.) , A history of the expansion of Christianity , 7 vols . New York 1937 et Sqq .

Lebeau ( ) , Histoire du Bas Empire , Paris 1827 et Sqq .

Lebretson (J.) & Zeller (J.) , The history of the primitive Church , trans . in 2 vols . by E. C. Messenger , New York 1947 .

Lietzmann (H.) , From Constantine to Julian , a history of the early Church , trans . by B. L .

Lindsay (J.) , Byzantium into Europe , London 1952 .

Manojlovic (G.) , Le Peuple de Constantinople , in (Byzantion) XI , 1936.

McGiffert (A. C.) , Prolegomena and notes . (Eusebius , historia Ecclesiastica, NPNF, I.) .

Milman (H.) , The history of the Jews, vol. 2 , London 1939 .

Milne (J.) , A history of Egypt under Roman rule , London 1913 .

Neal (J. M.) , A history of the holy Eastern Church , 2 vols . London 1947 .

Neander (A.) Lectures on the history of Christian dogmas, 2 vols . London 1882 .

Obolensky (D.) , The Byzantine Commonwealth , eastern Europe 500-1453 , London 1971 ; The Principles and methods of Byzantine Diplomacy , in (Acts du XII e Congrés international D études Byzantines , Ochride 10-16 September 1961 Beograd 1963 .

O`Leary (De L.) , The Coptic Church and Egyptian monasticism, in (Legacy of Egypt).

Ostrogorsky (G.) , History of the Byzantine State, trans . by Joan Hussey, Oxford 1956 .

Parkes (J.) , A history of Palestine from 135 A. D. to Modern times, London 1949 .

Painter (S.) A history of the Middle Ages, New York 1954 .

Percival (H.R.) The Seven Ecumenical Councils, (NPNF) . vol XIV .

Philby (H. st . J. B) , The background of Islam , Alexandria 1947 .

Reinaud (M.) , Relation Politiques et Commerciale de L`empire Roman avec L`Asie Orientale , Paris 1893 .

Rice (T.T.) , Everyday Life in Byzantium , New York 1987 .

Roncaglia (M.) Histoire de L`eglise Copt , 2 tom. Liban 1966 .

Runciman (S.) A history of the Crusades , 3 vols . London 1951 .

Schaff (PH.) , History of the Christian Church , 8 vols . Michigan 1956 et Sqq .

Sellassie (S.H.) , Ancient and Medieval Ethiopian history to 1270 , Addis Ababa 1972 .

Shahid (I.), Byzantium in South Arabia , in (Dumbarton Oaks Papers) XXXIII 1979 .

Sharf (A.) , Byzantine Jewry, London 1971 .

Shiel (J.) Greek thought and the rise of Christianity , London 1968 .

Southern (R. W.) , The Making of the Middle Ages, London 1968 .

Stein (E.) , Histoire du Bas - Empire , tome 2 , Paris 1950 .

Stephenson (C.) Mediaeval history , New York 1962 .

Thompson (J. W.) & Johnson (E.N.) , An introduction to Medieval Europe 300-1500 , New York 1965 .

Tierney (B.) , The Crisis of Church and State 1050-1300 , New Jersy 1964 .

Trimingham (J.S.) , Christianity among the Arabs in pre- Islamic times , London 1979 .

UII mann (W.) , A short history of the Papacy in the Middle Ages , London 1974 .

Ure (P. N.) , Justinian and his age , Penguin book 1951 .

Vasiliev (A. A.) , A History of the Byzantine Empire , 2 vols . Madison and Milwauk , 1964 ; Justin the First , Cambridge 1950 .

Vryonis (S.) Byzantine Circus Factions and Islamic Futwa Organitzations in (Byzantinische Zeitschrift) LVII, 1965 .

Waddell (H.) , The desert Fathers , London 1946 .

Ware (T.) , The Orthodox Church , Penguin book 1967 .

Zananiri (G.) , Histoire de L'eglise Byzantine, Paris 1954 .

- ابراهيم بيضون :

الحجاز والدولة الإسلامية ، بيروت ١٩٨٣ .

- أحمد أمين:

فجر الإسلام ، القاهرة ١٩٧٥ .

- أحمد محمد الحوفي:

الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، بيروت بدون تاريخ .

- أسد رستم :

حرب في الكنائس ، بيروت ١٩٥٨ .

- السيد عبد العزيز سالم :

دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام ، الاسكندرية بدون تاريخ .

- أوليري :

علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب، ترجمة كامل وهيب، القاهرة ١٩٦٢ .

- بارتولد (ف . ف) :

تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، ترجمه عن الروسية صلاح عثمان هاشم ، الكويت ١٩٨١ .

- بينز (ن) :

الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد ، القاهرة ١٩٥٧

- توينبى (أ) :

تاريخ البشرية ، ترجمة نقولا زيادة فى جزءين ، بيروت ١٩٨٨ .

- جواد على :

المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت / بغداد ١٩٧٧ .

- جورج فضلو حورانى:

العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، القاهرة بدون تاريخ

- دى بورج (و . ج):

تراث العالم القديم ، ترجمة زكى سوس ، القاهرة ١٩٦٥ .

- ديفز (ر. هـ. س) :

شارلمان ، ترجمة السيد الباز العرينى ، القاهرة ١٩٥٩ .

رأفت عبد الحميد :

الدولة والكنيسة ، أربعة أجزاء ، القاهرة ١٩٨٢ -١٩٨٤ ؛ ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى، القاهرة ١٩٧٣ ؛ الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب ، مجلة ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، العدد الثانى، القاهرة ١٩٨٣ ؛ السمو البابوى بين النظرية والتطبيق، مجلة ندوة التاريخ الاسلامى والوسيط ، العدد الثالث ، القاهرة ١٩٨٥ .

- رنسيمان (س) :

الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، القاهرة ١٩٦١ .

- سباين (ج) :

تطور الفكر السياسى، ترجمة حسن جلال العروسى ، خمسة أجزاء ، القاهرة ١٩٦٤ وما بعدها .

- عبد اللطيف أحمد على :

مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ، القاهرة ١٩٦١ .

- عبد المجيد عابدين :

بين الحبشة والعرب، القاهرة بدون تاريخ .

- عمر فروخ :

تاريخ الأدب العربى، الجزء الأول ، العصر الجاهلى ، بيروت ١٩٨١؛ تاريخ الجاهلية ، بيروت ١٩٨٦ .

- فيليب حتى:

تاريخ العرب ، بيروت ١٩٨٦ .

- كانتور (ن) :

التاريخ الوسيط ، قصة حضارة، البداية والنهاية ترجمة دكتور قاسم عبده قاسم ، جزءان ، القاهرة ١٩٨٣ .

- كلارى (ر) :

فتح القسطنطينية ، الحملة الصليبية الرابعة ، ترجمة دكتور حسن حبشى، القاهرة ١٩٦٤ .

- كوبشيانوف (ى. م) :

الشمال الشرقى الأفريقى فى العصور الوسيطة المبكرة وعلاقاته بالجزيرة العربية من القرن السادس إلى منتصف السابع ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، عمّان ١٩٨٨ .

- كوستلر (أ.) :

امبراطورية الخزر وميراثها ، القبيلة الثالثة عشر ، ترجمة حمدى متولى صالح ، دمشق ١٩٨٥ .

- لويس (أ) :

القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد عيسى ، القاهرة بدون تاريخ .

- متى المسكين :

الرهبنة القبطية فى عهد القديس أنبا مقار ، القاهرة ١٩٧٢ .

- محمد أحمد حسونه :

الجغرافية التاريخية الإسلامية ، القاهرة بدون تاريخ.

- محمد الأكوع الحوالى:

اليمن الخضراء مهد الحضارة ، ١٩٨٢ .

- محمد حسين هيكل :

حياة محمد ، القاهرة بدون تاريخ .

- محمد عبد القادر بافقيه :

تاريخ اليمن القديم ، بيروت ١٩٧٣ .

- محمد محمد الشيخ :

الممالك الجرمانية ، الاسكندرية ١٩٧٥ .

- منذر عبد الكريم البكر:

دراسات فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، تاريخ الدول الجنوبية فى اليمن ، البصرة ١٩٨٤ .

- موس (هـ) :

ميلاد العصور الوسطى ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، القاهرة ١٩٦٧ .

- موسكاتى (س) :

الحضارات السامية القديمة، ترجمة السيد يعقوب بكر ، بيروت ١٩٨٦ .

- نبيه عاقل :

تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ، دمشق ١٩٧٥ .

- هايد (ف) :

تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، الجزء الأول، ترجمة أحمد محمد رضا، القاهرة ١٩٨٥ .

- هسى (ج. م.) :

العالم البيزنطى ، ترجمة رأفت عبد الحميد ، القاهرة ١٩٨٢ .

- وسام عبد العزيز فرج:

أضواء على مجتمع القسطنطينية ، دراسة فى التاريخ الاجتماعى لمدينة قسطنطين حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى، مجلة كلية الآداب - جامعة المنصورة، العدد الخامس بدون تاريخ .

- ويلمان (ب) :

ثيودورا ، جزءان ، ترجمة ونشر دار الروائع ، بيروت ١٩٦٥ .

Contents

The City of Constantinople then could represents the whole empire to which people flocked the four corners of the world. Different tongues and even several dialects met there . It was there where differnt thoughts came togher to achieve common benefits and pool different ideas . In all cases , the natives were always proud of their city to which various people came either to learn and gain knowledge or to realise materialistic interests .

In spite of all this glory of the Byzantine Empire , it had never been totally safe or even living in everlasting peace and harmony . It had passed by several internal disasters; economic drops , controversial beliefs and social disturbances . Moreover , there were several external threats caused by the Persians, the different troops of the Germans , the Turkish invasions , the Slavs, the Normans , the Crusaders and the Moslems with their consecutive dynasties. However , in all these interferences , the Byzantine Empire had nevertheless created a clear impact on all these various peoples , affecting and affected by them, and giving before taking from them .

This book is divided into Six chapters or subject that took me more than twenty years to write them down . It is mainly concerned with life in Byzantium in terms of thought , religion and politics . And I tried as much as possible to obtain the historical data of this book directly from the writings of the Byzantine historians so as to reflect a truthful picture of the Byzantine world by which I was and still obssessed ever since I first set eyes on the Bosporus .

Raafat A. Hamid

1997

As mentioned before , Byzantium was conservative but adorning which seemed clear particularly in its religious life . At a first glance , one might see a religious atmosphere prevailing there . However, this was not clear in the people's compliance to perform their prayers consistently - which -they could perform every day in another church than yesterday`s one allover the year in Constantinople alone , but rather obvious in a particular belief that the church had created and worked to preserve it . This belief was that there was divine Providence , symbolised in the Lord`s will , controlling man`s destiny and that man`s will was a dependent , not an independent one. In contrast to this atmosphere , the government was the very same body that supervised the acts of immorality and prostitution . Laws were frequently established and many theological discussions , deep but useless, went on trying to put an end to the prevalent fornication . However these efforts proved useless except that their frequent occurrence indicated thad fornication was still there .

The Byzantine government was a strict, centeralized government whose enpror was the "Vicarius Christi" . He was the master of life and religion in his country , and an example to be followed by the neighbouring governers particularly in the Balkan Peninsula and around the Black Sea .The city itself was a mixture of strength and weakness, simplicity and arrogance , lavishness and thrift , that astonished the neighbouring ambassadors and made them act as if they were her ambassadors in their own countries . The capability of achieving this was mainly concentrated on the empire`s military power , its clever diplomacy and its wealthy treasury. Each one of these factors completed the other resulting in political stability , military strength on the borders, while the talented management and economical prosperity were apparent in trade achieving a powerful currency .

Introduction

I had known her for a very long time and became preoccupied by her beauty . This was when I saw her for the first time by the Sea Shore that envelopped her like a mother hugging her baby to protect it from the unknown. She symbolized many contradictions that added nothing to her but more beauty and charm ; she seemed conservative but adorned, Serious but playful , quiet but nervous , lavish but thrifty, simple but arrogant, strong but weak. In short these characteristics made her more attractive to those who craved to know more about her .

This is Byzantium !!

All these meanings are grouped together in the Byzantine empire since the time emperor Constantine the great laid down the basis of its capital "Constantinople" over the ruins of the old Greek city; " Byzantium" He selected a very strategic location for his capital , Surrounded by water from three directions ; Marmora sea , Bosporus , and the golden horn , which eventually proved to be a natural defensive technique against the Northern, Eastern and Western invasions .

This new location of the capital "Constantinople" acted as a volcano pot where certain Mediterranean civilizations; Greek , Roman and ancient Eastern Civilizatons , mingled with the new religion ; "Christianity" from Palestine , to pour out of the volcano crater a new Roman world of Greek tongue and philosophical christianity which came to be known as the "Byzantine world" . Thus , the Byzantine world was like a musical masterpiece, containing so many components yet all working in harmony to create this unique civilization .

رقم الإيداع ٩٧/١٠٣١٥

الترقيم الدولى I.S.B.N 977 - 54 87 - 73 - 0

دار روتابرينت للطباعة ت: ٣٥٥٢٣٦٢ – ٣٥٥٠٦٩٤

٥٣ شارع نوبار – باب اللوق

BYZANTIUM

Thought , Religion and Politics

DR. Raafat A. Hamid







للدراسات و البحوث الانسانية و الاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

